من هدى القرآن

١٧

تفسير سور

المزمل الى البروج

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة المزمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ سورة المزّمل في العشاء الآخرة في آخر الليل كان له الليل والنهـار شـاهدين مع سـورة المزّمّل ، وأحياه الله حياة طيّبة ، وأماته ميتة طيّبة**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 445

الإطار العام

التوحيد هو قاعـــدة الانطلاق والهـــدف الرئيسي لكل رسـالات الله ، ويتمثل عمقه الأصـيل في علاقة الإنسـان المخلـوق بر به الخـالق ، ولقد تمحـورت كثـير من الآيـات القرآنية فيما تمحورت حـول منهجة هـذه العلاقة ، بالتأكيد عليها كأصل من أصول الإسلام ، وبيان خلفياتها ومعطياتها وتفاصيل برنامجها ، والمتدبر في سورة (المزّمّـل) يجـدها تعالج هذا الموضوع من زاوية قيـام الليل ، وأقـول : قيـام الليل لأنّ هـــذا التعبـــير أوسع من قولنا : صـــلاة الليل ، وأقرب لما يعنيه السياق ويندب إليه.

1 ـ ففي البداية يخـاطب الله رسـوله المزّمل فارضا عليه قيـام الليل فرضا كالصـلاة والصـيام والجهـاد ، حيث قالوا : بأنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ قد خصّ بوجـوب قيامه الليل دون أمته ، ويبيّن أنّ الليل عنده وبالتالي عند عبـاده الصالحين ليس كما يزعم الناس : فرصة لاسترخاء النــوم ، لأنّها هزيع من عمر الإنسـان ينبغي أن يكـون مثل النهـار سـاحة سـعي نحو الفلاح والسـعادة ، ومن ثمّ فـإنّ الأصل في حياة الفرد الرسالي أنّه يقـوم الليل إلّا قليلا نصـفه أو ينقص منه قليلا ، أو يزيد عليه ، إلّا

أن تعترضه الأسباب والأعذار الشرعية من مرض وضــرب في الأرض وقتال في سبيل الله وما أشبه ، كما تبيّن الآية الأخيرة من السورة (الآيات 1).

2 ـ ويعتبر الـربّ ــ عز وجل ــ ترتيل القـرآن (قراءته بصوت حسن وتدبّر) من أهم البرامج في قيام الليل ، إلى حد يمكن اعتبـاره كافيا عن سـائر بـرامج الليل ، ذلك لأنّ القرآن هو الوسـيلة العظمى للاتصـال بـربّ العـزة ، ولأنّه تعـــالى لا يريد منّا قياما روحيّا مجـــرّدا ، بل يريد علاقة تنعكس على كل أبعاد الحياة ، حتى تتحـول إلى نهج حيـاة من خلال تدبر القرآن والعمل بآياته (الآيات 4).

3 ـ ومع أنّ المؤمن يواجه مصـاعب من هـذا التكليف الإلهي حيث تحــديات النفس وحب النـــوم إلّا أنّ ناشــئة الليل في مقابل ذلك أنفذ إلى أغوار النفس «أشـدّ وطـأ» وأصدق حينما ينبعث الإنسان من النفس لإصـلاح الآخـرين «أقـوم قيلا» أقـوم لقـول الإنسـان وسـلوكه على طريق الحق والسعادة ، وبالـذات إذا أخـذنا بعين الإعتبـار معادلة الزمن اليومي المنشطرة إلى وقتين : الليل والنهار ، فإنّ البشر بحاجة ماسّـة وهو يكابد مشـاكل الحيـاة وتحـدّياتها بالنهار إلى إرادة التحدي والاستقامة على الطريقة المثلى دون تـأثّر بالطبيعة أو بعواملها تـأثّرا سـلبيّا ، وذلك يعـرج إليه ويستلهمه المؤمنون من قيام الليل ، فلا يشطّون في سبح النهار الطويل عن الحق والصواب قيد أنملة (الآيـات 5).

4 ـ وإذا كـــان الجميع معـــنيّون بقيـــام الليل فـــإنّ الرســاليين بالــذات مخصوصــون بهــذا الفــرض الإلهي ، ويــتركز الأمر عند القيــادة الرســالية إلى حــدّ الوجــوب بالنســبة للإمــام المعصــوم ، وإلى قــريب من ذلك عند سواه. والسبب أنهم المستأمنون على رسالة الله وجنوده الذين يخوضون الصـراع المبـدئي الحضـاري ضد الباطل ، ويعلم الله كم هي التحـديات والضـغوط والمشـاكل الـتي يواجهها من يركب هذا الطريق ، وبالتالي

كم هم بحاجة إلى زاد الإيمان ووقود التقوى.

ولن يفلح الرساليون في صـراعهم حـتى يعرجـوا إلى قمّة التوحيد ، والتوكل على ربّ العـــزة ، والصـــبر على الأذى والحق في ســبيل الله ، ومن هــذا المنطلق تــأتي أهمية قيــام الليل ، ويتضح دوره الأصــيل في المســيرة الرســـالية ، باعتبــــاره معراجا رئيســـيا إلى تلك القمّة السامقة.

5 ـ وبعد أنّ يحـذّر الله المكـذبين أولي النعمة نفسه مذّكرا بالآخرة وعذابه الشديد فيها يذكّرنا تعـالى بـأنّ بعثه حبيبه الرسول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ إلينا مظهر لسـنته الجارية في الحياة ، حيث يبعث الرسل شهداء على الأمم (مبشـرين ومنـذرين) محـذرا إيّانا من معصـية أوليائه لأنّها تــؤدي إلى الأخذ الوبيل في الــدنيا ، كما انتهت بفرعــون وملئه وجنـــوده ، وأعظم من تلك العاقبة عـــذاب يـــوم القيامة «**يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً* السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ**» لا ريب فيه ، وإنّها لمن عظيم تـذكرة الله إلى خلقه «**فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً**».

6 ـ وفي الخاتمة يبيّن لنا القرآن اهتمام الرعيل الأول بقيـام الليل (وفي طليعتهم النـبي الأعظم) الــذين كـانوا يقومـــون أدنى من ثلـــثي الليل ونصـــفه وثلثه حسب الظروف ، ويقـدّمهم أسـوة للأجيـال بعد الأجيال ، معالجا في الأثناء موضوع الظروف الاستثنائية والأعذار الشـرعية الــــتي تمنع من قيـــــام الليل ، وموجّها إيّانا إلى بعض التكــاليف المفروضة ، وداعيا إلى الاســتغفار «**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**».

سورة المزّمّل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12)**

---

7 [سبحا] : السبح : المنقلب والمنصرف ، وأصل السبح من التقلّب ومنه السابح في الماء لتقلّبه فيه.

8 [تبتّل] : انقطع إلى الله ، وأصله من تبلت الشيء قطعته.

وَطَعامـاً ذا غُصَّـةٍ وَعَـذاباً أَلِيمــاً (13) يَـوْمَ تَرْجُـفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكـانَتِ الْجِبـالُ كَثِيبـاً مَهِيلاً (14) إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُـولاً شـاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَـلْنا إِلى فِرْعَــوْنَ رَسُــولاً (15) فَعَصى فِرْعَــوْنُ الرَّسُــولَ فَأَخَذْناهُ أَخْـذاً وَبِيلاً (16) فَكَيْـفَ تَتَّقُـونَ إِنْ كَفَـرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْـدانَ شِـيباً (17) السَّـماءُ مُنْفَطِـرٌ بِـهِ كانَ وَعْـدُهُ مَفْعُـولاً (18) إِنَّ هـذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَنْ شـاءَ اتَّخَـذَ إِلى رَبِّهِ سَـبِيلاً (19) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُـومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْــلِ وَنِصْــفَهُ وَثُلُثَــهُ وَطائِفَــةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَـكَ وَاللـهُ يُقَـدِّرُ اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُـوهُ فَتـابَ عَلَيْكُمْ فَـاقْرَؤُا ما تَيَسَّـرَ مِنَ الْقُـرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَـرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ

---

14 [كثيبا] : الكثيب الرمل المجتمع الكثير.
[مهيلا] : هلت الرمل أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرّك أسفله فسال أعلاه.
16 [وبيلا] : كلّ ثقيل وبيل ، ومنه كلأ مستوبل أي مستوخم لا يستمرأ لثقله ، ومنه الوبل والوابل وهو المطر العظيم القطر ، ومنه الوبـال وهو ما يغلظ على النفس ، والوبيل الغليظ من العصي.

يُقـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَـاقْرَؤُا ما تَيَسَّـرَ مِنْـهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُـوا الزَّكـاةَ وَأَقْرِضُـوا اللـهَ قَرْضـاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللـهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20))

بينات من الآيات :

[1] (**يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**)

لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الآية ، واختلفوا في معنى المتزمل ، فقال بعضهم : المتزمل بعباءة النبوة ، والمتحمل لأثقالها [1] ، وعلّق العلامة الطباطبائي على هذا الرأي قائلا : ولا شاهد عليه [2]. وفي الكشّاف : كان رسول الله (ص) نائما بالليل متزملا في قطيفته فنبّه بما يهجّن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للنوم ، كما يفعل من لا يهمّه أمر ولا يعنيه شأن [3] ، وروي في الدر المنثور عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة ، فقالوا : سمّوا هذا الرجل اسما نصدر الناس عنه ، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، قالوا : يفرّق بين الحبيب وحبيبه ،

---

(1) تفسير مجمع البيان ج 10 ص 377 عن عكرمة.

(2) تفسير الميزان ج 20 ص 60.

(3) تفسير الكشاف ج 4 ص 644.

فتفـــرّق المشـــركون على ذلك ، فبلغ ذلك النـــبي (ص) فتزمّل في ثيابه وتدثّر فيها [1] ، وقيل كان يتزمّل بالثياب أول ما جاء به جبرئيل خوفا حـتى أنس به ، وإنّما خـوطب بهـذا في بـدء الـوحي ولم يكن قد بلّغ شـيئا ، ثم خـوطب (ص) بعد ذلك بالنبي والرسول [2].

وقبل أن نـــبيّن رأينا في هـــذه الآية الكريمة نســجّل بعض الملاحظـات حـول بعض من الآراء ، فـإنّ ما علّق به الزمخشـري من حيث العبـارة (يهجّن ... لا يهمّه أمر .. لا يعنيه شـأن) ومن حيث المعـنى لا يليق بمقـام حـبيب الله وصــفوة أنبيائه ورســله وهو المعصـــوم ، والمهتم بــأمر الرسـالة إلى حـدّ كـاد يهلك نفسه من أجلها ، وتحمّل من الأذى لها حـــتى خاطبه ربّه ســبحانه : «**طـــه* ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى**» [3].

وكذلك لا يليق بمقامه (ص) ما روي في الدر المنثـور من أنّه تـأثّر بـإعلام الجـاهليين سـلبيا فتزمّل وتـدثّر في ثيابـه! أمّا ما قيل من أنّ النـبي (ص) كـان يتزمل خوفا أو ذهب إلى خديجة قـائلا : (زمّلـــوني زمّلـــوني .. دثّـــروني دثّروني) أوّل ما اتصل بالله عـبر أمينه جبرئيل حـتى أنس به .. هذا الرأي الذي تبنّاه بعض المفســرين ، فإنّه أبعد ما يكون عن طبيعة الأنبياء وشخصية سيدّهم الأعظم صلوات الله عليهم.

والســبب أنّ فيه شــيئا من نســبة الشك في صــحة الرسالة والاتصال بالله عنده (ص) ، وهذا نقيض قول الله عنه : «**وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ* وَما هُـوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ* وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ**» [4]

---

(1) تفسير الدر المنثور ج 6 ص 276.
(2) تفسير مجمع البيان / ج 5 ص 377.
(3) طه / 1 / 3.
(4) التكوير / 23 / 25.

والذي يبدو لي أنّ كلمة «المزمل» تحتمل معنيين :

الأول : ما أشـــار إليه عكرمة بأنّه المحتمل لأعبــاء النبوة ، فإنّ المتصدي لأمر الرسالة ومسئولية التغيــير بها أحوج ما يكـون إلى قيـام الليل ، يسـتمد منه روح الإيمـان وإرادة الاســتقامة على الصـــراط المليء بالمصـــاعب والتحـديات. جـاء في المنجد : زمل زملا الشـيء : حمله ، ازدمل الحمل : حمله بمرّة واحدة ، الزمل : الحمل [1].

الثـــاني : الـــذي لّف عليه ثيابه أو غطـــاءه على وجه الوصف لحال النبي حين نزل الـوحي عليه بهـذه الآيـات ، وهو ظاهر اللفظ وفي الخطاب بهذه الكلمة فائدتان :

أولا : تلطّف وتعطّف ودلالة على قـرب الرسـول من ربه حتى يخاطبه بمثل هذا التعبير الذي يجري بين الأحبّة.

وثانيا : التوسّـــع إلى كـــلّ من يتزمل للنـــوم ، فـــإن الحديث يشمله انطلاقا من قاعدة : (إيّاك أعني واسـمعي يا جارة) التي نزلت بها آيات الذكر الحكيم.

على أنّ المعنى الأول هو الآخر يتسع لكـلّ من تحمّل أعبـــاء الـــدعاء إلى الله ، وليس في هـــذا التعبـــير أدنى مسـاس بعظمة الرسـول (ص) ــ كما زعم البعض ــ فإنّه بشر مثلنا يحتـاج إلى الراحة والنـوم. ولعل الرسـول كـان ينـام أول الليل ليقـوم في منتصـفه وآخـره ، موصلا قيامه بالليل بصلاة الصـبح كما نقل عنه ، ويقـوّي هـذا الاحتمـال اللّغة حيث جاء فيها : زمل الشيء بثوبه أو فيه : لفّه [2].

[2] وحيث ينتفض كلّ مزّمّل على نداء الـوحي الإلهي المتوجه إليه يجد نفسه

---

(1) المنجد : مادة زمل.

(2) المصدر.

أمام أمر هامّ.

[قم الليل]

ولم يقل : (صــلّ) لأنّ التعبــير بالقيــام أشــمل من الصــلاة ، فالقيــام يشــمل الصــلاة المخصوصة وغيرها ، وكذلك الدعاء وقراءة القرآن والتفكر والاستغفار ، والـذي يســتتبع محاكمة الماضي بالمحاســبة الذاتية والتفكــير المنهجي في المســتقبل. إذن فالليل ليس لمجــرد النــوم والراحة ، كلّا .. إنّما هو فرصة المؤمــنين الذهبية للعــروج نحو الكمال الروحي والعقلي ، والاتصال بربّ العــالمين .. ومن ثمّ التخطيط الســليم للمســتقبل ، ســواء مســتقبل الآخرة البعيد ، أو مستقبل الغد القــريب في الــدنيا ، حيث الســبح الطويل كــلّ نهــار. ويتميّز الليل عن النهــار بهدوئه وصفائه ، وكون الإنسان فيه بعيدا عن كثير من المــؤثرات الــتي تواجهه في النهــار ، ولــذلك جعله الله ميعــاد لقائه بعباده الصالحين.

إنّ الإسلام يريد لأتباعه أن يقودوا البشرية ، ويشـيّدوا على هــداه ســعادتها الخالــدة ، وذلك بحاجة إلى العزيمة العالية ، والإرادة الصلبة ، ومناجاة الله الذي من عنده كلّ خير وسعادة .. وقيــام الليل يــؤمّن لهم كــلّ ذلك ، كما أنّ بلوغ ذلك الهدف رهين الســعي المســتمر نحــوه والــذي لا يكفيه النهار ممّا يدعو المؤمنين إلى مواصــلة الســعي في النهار بقيام الليل ، بقيام الليل ، فلا ينــامون إلّا قليلا ، بلى : إنّ الهــدف عظيم ، والفرصة قصــيرة ، فلا بــدّ إذن من سعي مضــاعف ، يسـخّرون فيه ما يمكنهم من طاقــاتهم ، وينتهزون لأجله ما يمكن من الوقت.

(**إِلَّا قَلِيلاً**)

من عمرهم يخصصــونه لراحة أبــدانهم كحاجة طبيعية تفرض نفسها على كلّ

مخلـــوق ، وحيث يســـتريحون بـــالنوم فليس لذاته ، بل لينهضــوا من بعــده إلى عمل دؤوب وإنجــازات عظيمة ، فـإذا بك تـدرس حيـاة أحـدهم لتقسم إنجازاته على أيّـام عمره تجده أحيانا يسبق الزمان بإنجازاته الكبـيرة ، وعلى عكسـهم أولئك الـذين يستسـلمون لحب النـوم والراحة ، فـإنّ واحـدهم يعيش ثمـانين عاما في ظـاهر الأمر ولكنّك حينما تقيّم حياته على أساس الأعمـال والمنجـزات تجـده لم يعش أكثر من عشـرين أو ثلاثين سـنة ، لأنّه كـان ينـام سـاعات طويلة في اليـوم ، أمّا أوقـات يقظته فإنّها تضـيع بين غفلة ولهو ولعب.

بلى. إنّ الله يريد لنا أن نقـــــــوم النصف الآخر من أعمارنا ، والـذي عـادة ما يخسـره النـاس ، قياما نعمـره بالعمل الصـالح ، وأيّ عمل صـالح أفضل من التقـرب إليه تعالى ، والتدبر في كتابه ، واستثارة العقل باياته فيه وفي الطبيعة؟

وإذا كـان الأمر القـرآني «قم» ظـاهر في الوجـوب بالنسـبة إلى النـبي والمعصـومين ـ عليه وعليهم الصـلاة والسـلام ـ ومحمـول على الاسـتحباب لمن سـواهم فـإنّ المتقين يتلقّونه على وجه الفرض عمليّا ، بحيث يلـتزمون قيـــام الليل كـــالتزامهم بالصــلوات اليومية ، انطلاقا من تحسس أهمية هـذا الأمر ودوره في حيـاتهم وشخصـيتهم وحركتهم ، وإيمانا بـأنّ القـرآن موجّهة آياته إلى كـلّ فـرد فرد ، وإليهم بصورة أخص من العالمين.

[3] وبعد أن أمر الله تعالى نبيّه (ص) ومن خلاله كـلّ مؤمن بقيـام الليل إلّا قليلا كـأعلى وأفضل نسـبة للقيـام ، يضعنا أمام ثلاثة خيارات أخرى :

(**نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ**)

وقد اختلف في الضـــمير المتصل بكلمة النصف هل هو عائد على الليل أو على القليل ، وبالتـالي اختلف نحويّا في كون «نصفه» بدلا عن أيّهما؟ فقال البعض

ومن بينهم شيخ الطائفة : نصفه بـدل من الليل ، كقولك : ضرب زيدا رأسه [1] ، وقيل : أنه بدل من القليل ، فيكون بيانا للمستثنى ، ويؤيد هذا القول ما روي عن الصادق (ع) قـال : «**القليل النصف ، أو انقص من القليل قليلا ، أو زد على القليل قليلا**» [2] ، والأقرب ـ كما يبدو لي ـ أنّ الضمير في «نصفه» عائد إلى الليل فيكـون المعـنى : قم كـــلّ الليل إلّا قليلا ، أو نصـــفه ، أو أقل من النصف بالانقاص منه قليلا ، أو أكثر من النصف بالزيادة عليه.

ونستطيع أن نقول : بأنّ المقصود من الليل في قوله : «قم الليل» هو الجنس ، وأنّ المسـتثنى بعضه ، فيكـون المعـنى : قم كـلّ الليـالي إلّا قليلها وبعضـها ، وهي ــ كما عبّر صاحب المجمع ـ ليـالي العـذر كـالمرض وغلبة النـوم وعلّة العين ونحوها [3] ، ويؤيد ذلك ما رواه محمد بن مسلم عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قـال : سـألته عن قول الله تعالى : «الآيـة» قـال : «**أمـره الله أن يصـلّي كلّ ليلة إلّا أن تـأتي عليه ليلة من الليـالي لا يصـلّي فيها شيئا**» [4] لعذر من الأعذار.

والســؤال : لما ذا أمر الله بالقيــام على شـــبه من التردّد بين أربعة خيارات دون تحديد؟ لعله للأسباب التالية :

1 ـ لأنّ الفــرض المحــدّد أمر مســتحيل في بعض الظروف حتى بالنسبة إلى الرسـول والمعصـومين الـذين يجب عليهم قيـــام الليل وجوبا شـــرعيّا عينيّا ، ذلك أنّ الإنســان من الزاوية الواقعية عرضة للظـروف المتغـيرة الـتي لا يمكنه مقاومتها ، كـالمرض والحـرب والظـروف الأمنية ، قـال عليّ بن أبي طـالب : «خـير الله نبيّه (ص) في هذه

---

(1) التبيان ج 10 ص 162.
(2) تفسير مجمع البيان / ج 10 ص 377.
(3) المصدر.
(4) تفسير الميزان ج 20 ص 71 عن كتاب التهذيب.

الساعات القيام بالليل ، وجعله موكولا إلى رأيه ، وكان النبي (ص) وطائفة من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير ، وشقّ ذلك عليهم ، فكان الرجل منهم لا يدري كم صلّى ، وكم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كلّه مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب حتى خفّف الله عنهم بآخر السورة» [1] الذي يشير القرآن فيه إشارة واضحة لواحد من أسباب تعدّد الخيارات.

2 ـ ثم أنّ وضع المكلّف أمام خيارات متعدّدة تختلف في ثقلها على النفس وفضلها عند الله ، لا فرق بين درجة التكليف هل هي الوجوب أو الندب والاستحباب ، يكشف عن مدى إيمانه وإرادته حين يختار بنفسه أيّها شاء ، وفي ذلك نوع من الامتحان الإلهي للمؤمنين.

3 ـ كما نهتدي من ذلك بالنسبة لغير النبي (ص) إلى استحباب قيام الليل لا وجوبه كحكم شرعي ، وقد اعتبر الفقهاء الاختلاف في النصوص ضيقا وسعة ، وكثرة وقلّة ، دليلا على الاستحباب ، وذلك أنّ الفرض الواجب يكون محدّدا.

وقيام الليل ـ كما تقدّمت الإشارة ـ لا ينحصر في عدد من الركعات والأذكار وحسب ، بل هو برنامج متكامل للجسم والروح والعقل ، وذلك بما يتضمّنه من صلاة ومناجاة وتلاوة للقرآن ، يعرج من خلالها القائمون بالليل إلى آفاق الإيمان والمعرفة ، وبالذات منها ترتيل القرآن الذي يحقّق تسامي الروح وانفتاح العقل معا ، ممّا يسبّب في آن واحد عروج الإنسان إلى مراتب الكمال.

وإنّ قراءة القرآن وتدبّر معانيه روح قيام الليل ، فهو عهد الله للإنسان ، وحبلة الممدود من السماء إلى الأرض ، ونهجه الذي يداوي به أدواءه ويصل إلى السعادة عبره ، فمنه يستمدّ روح التوحيد والتوكل والصبر ، ومن آياته يستلهم بصائر الهدى

---

(1) تفسير مجمع البيان ج 10 ص 377.

والحق في كـلّ ميـدان من الحيـاة ، لينطلق بالنهـار على هــدى من ربه ، وبين يديه بلسم لكــلّ داء ، وحــلّ لكــلّ مشكلة ، ورؤية صائبة في كلّ قضـية وحركة في الحيـاة ، فردية أو اجتماعية ، وفي أيّ حقل من حقولها ، بلى. إنّ قراءة القـرآن بـذاتها بركة وحسـنة عظيمة ، ولكنّ هـدف القـرآن أعظم من مجـرد التـبرك ، بل إنّ خـيره الأكـبر لا يحصل إلّا باستثارة العقل به ، وتـدبّر معانيـه. أولم تسـمع قول الله عزّ وجلّ : «**كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ**»؟ والتـدبّر فيه ليس لمجـرد الفهم وإنّما للعمل والتطـبيق أيضا ، ولهـذا يربط القــرآن نفسه بين ترتيله بالليل والســبح الطويل بالنهـــار. ولأنّ القـراءة بـذاتها ليست هـدفا يأمرنا الله بقـراءة آياته على وجه مخصوص هو الترتيل.

(**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**)

والترتيل هي القــراءة الحســنة والمتأنّية المصـحوبة بالتفكر والتدبر ، فعن عبد الله بن سـليمان قـال : سـألت أبا عبد الله (الإمـام الصـادق عليه السـلام) عن قـول الله عزّ وجلّ : «الآية» ، قال «قـال أمـير المؤمـنين (ع) : بيّنه بيانا ، ولا تهـذّه هـذّ الشـعر ، ولا تنـثره نـثر الرمل ، ولكن أفزعـــوا قلـــوبكم القاســـية ، ولا يكن همّ أحـــدكم آخر السورة» [1] ، وقال الإمام الصـادق (ع) : «إنّ القـرآن لا يقرأ هذرمة (بسرعة) ولكن يرتّل ترتيلا ، فـإذا مـررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عنـدها ، واسـأل الله ــ عـزّ وجـلّ ــ الجنة ، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها ، وتعوّذ بالله من النـار» [2] ، وقـال ــ عليه السـلام ــ : «هو أن تتمكّث فيه ، وتحسّـن به صـوتك» [3] ، وعن أمّ سـلمة : كان رسول الله يقطّع قراءته آية آية [4] ، وعن أنس

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 446.
(2) المصدر.
(3) المصدر ص 447.
(4) المصدر.

قال : كان يمدّ صوته مدّا [1] ، ويصف الإمام علي ــ عليه السلام ـ المتقين كيف يتعاملون مع القرآن عند قيام الليل فيقــول : «أمّا الليل فصــافّون أقــدامهم ، تــالين لأجــزاء القرآن يرتّلونها ترتيلا ، يحزّنــون به أنفســهم ، ويســتثيرون به دواء دائهم ، فــإذا مــرّوا بآية فيها تشــويق ركنــوا إليها طمعا ، وتطلّعت نفوســهم إليها شــوقا ، وظنّــوا أنّها نصب أعينهم ، وإذا مــرّوا بآية فيها تخويف أصــغوا إليها مســامع قلوبهم ، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصــول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفّهم وركبهم ، وأطراف أقدامهم ، يطلبــون إلى الله تعــالى في فكاك رقابهم» وهذا ينعكس بالنهار على شخصياتهم ماديا ومعنويا ، حيث يضيف الإمام ـ عليه السلام ـ قائلا : «**وأمّا النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء**» [2].

والمعنى اللغــوي للترتيل يلتقي مع ما تقــدّم ، يقــال : رتل الشـــيء : تناسق وانتظم انتظاما حســـنا ، فهو رتل ، ورتّل الكلام : أحسن تأليفه إلى بعضه ، والقرآن تــأنّق في تلاوته ، والرتل في المصــطلح العســكري صــفّ الجنــود أو الآليات المتراص ، وقيل : خفض الصوت عند القراءة [3].

[5] ويبيّن الله واحــدة من الخلفيــات الأساســية الــتي تكشف أهمية قيام الليل ، وذلك ببيان دوره الأساسي في بنــاء الشخصــية الرســالية القــادرة على تحمّل مســئولية الوحي ، فالأمانة الإلهية ثقيلة لأنّها تخــالف أهــواء الإنســان وحبّه للراحة والاسترســال ، والموقف الســليم منها ليس الهــروب من حملها ، وإنّما العــروج بــالنفس إلى مســتوى حملها بالتزكية والتربية والتعليم من خلال الـــــــــــبرامج المختلفة ، ومن بينها واهمّها قيــام الليل على الوجه الــذي أشارت إليه الآيات الآنفة.

---

(1) المصدر.
(2) نهج البلاغة خ 193 ص 304.
(3) المنجد / مادة رتل بإضافة وتصرف.

(**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**)

قـال عبد الله بن عمر : أي سـنوحي إليك قـولا يثقل عليك وعلى أمتك [1] ، وقيل «ثقيلا» : لا يحمله إلّا قلب مؤيّد بـالتوفيق ، ونفس مؤيّـدة بالتوحيد ، وقيل : عظيم الشأن ، كما يقال : هذا كلام رصين ، وهـذا الكلام له وزن إذا كان واقعا موقعه [2] ، وقيل هو : ثقيل في الميزان يوم القيامة ، وقال القرطـبي : هو متّصل بما فـرض من قيـام الليل ، أي سـنلقي بـافتراض صـلاة الليل قـولا ثقيلا يثقل حمله ، لأنّ الليل للمنـام ، فمن أمر بقيـام أكـثره لم يتهيّأ له ذلك إلّا بحمل شديد على النفس ، ومجاهدة الشـيطان ، فهو أمر يثقل على العبد [3] ، وذهب البعض إلى تفسـير ماديّ لمعنى الثقيل مسـتدلا بمرويّـات غـير محقّقة كقـول عائشة : إنّه كـان ليـوحى إلى رسـول الله (ص) وهو على راحلته فتضـرب بجرانها [4] (أي تضـرب بمقـدّم عنقها إلى مـذبحها الأرض) وفي رواية : كـانت تـبرك الدابة على الأرض من ثقل الوحي. وأنّ جبين الرسـول (ص) لـيرفض عرقا [5].

والـذي أختـاره : أنّ الثقل هو الثقل المعنـوي قبل أن يكون الثقل المادي ، وإذا صحّت الروايات المتقدمة حـول ما يتركه نزول الوحي من أثر ماديّ على رسول الله (ص) وعلى دابته من باب «**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُـرْآنَ عَلى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْـيَةِ اللـهِ**» فإنّها مظـاهر ودلالات على الآثـار والحقـائق المعنوية ليس إلّا. ولا ريب أنّ القرآن قول ثقيل باعتبـاره يحمّل الإنسـان مسـئوليات عظيمة كمسـؤولية الاسـتقلال والتغيـير والتزكية وتحـدّي الباطل ، ولذلك فالإنسان بحاجة إلى قيام الليل

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 447.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 378.
(3) الجامع لأحكام القرآن ج 19 ص 38.
(4) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 447.
(5) المصدر.

ليسموا إلى احتماله ، وهكذا تجد السياق يـبيّن الصـلة بين ثقل القـرآن وبين قيـام الليل ، فيـبيّن أنّ الصـلاة والتهجّد والحالة النفسية المنبعثة منها إذا نشأ كلّ ذلك بالليل كـان أفضل منه إذا نشأ بالنهار.

(**إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ**)

والناشـــئة في اللغة من نشأ الليل أي أحدثه ، والله : خلقه ، والحــديث أو الكلام : وضــعه وابتــدأه ، وســمّيت ساعات أول الليل ناشئة لابتداء الليل بها [1] ، وعندنا : ما ينشأ باللّيل من عبادة روحانية أو بصــيرة عقلانية أو حكمة ربانية. أمّا المفسرون فـذهبوا إلى قـولين : أحـدهما : أنّها ركعتان بعد صلاة المغرب (لعلها الغفيلة ، وقيل غير ذلك) [2] ، والآخر : أنّها قيام الليل ، ففي مجمع البيان عن الباقر والصادق (ع): هي القيام في آخر الليل إلى صلاة الليـل) [3] ، وهو الأقرب إلى سياق السورة كما سبق.

(**هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً**)

وشـدة الوطأ بمعـنى ثبـات القـدم الـذي يعكسه ثقل الوطــأة وشــدّتها ، فالوطــأة الشــديدة على الأرض أثبت للقدم ، قال قتادة : أثبت في الخـير [4] ، وقـال الفـرّاء : أشد ثبات قدم ، لأنّ النهار يضطرب فيه الناس ، ويتقلّبون فيه للمعــــاش [5]. ولا ريب أنّ الاســــتقامة على طريق الرسالة أمر مستصعب بحاجة إلى الإرادة الصلبة والــروح العالية ، حتى يواجه الإنسان بهما تحديات الاسـتقامة على الحق ... وقيام الليل

---

(1) المنجد / مادة نشأ.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 448 نقلا عن الكافي.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 378.
(4) الدر المنثور ج 6 ص 278.
(5) التفسير الكبير ج 30 ص 175.

بقـراءة القـرآن والتـدبر فيه والـدعاء والاسـتغفار يعطي إرادة الثبـــات وروح التحمل وعند هـــذه الآية ينبغي أن ندرس حياة الأجيـال الأولى من المسـلمين الـذين صـنعوا المنجزات العظيمة في التاريخ ، وغيّروا مسيرة الإنسـانية ، فإنّهم لا ريب كانوا يستلهمون من قيـامهم الليل وما إلى ذلك همّتهم العالية ، وإرادتهم الصلبة ، فكانوا رهبان الليل وفرسان النهار.

كما أنّ ناشـئة الليل ثقيلة على النفـوس لأنّ القـائم لأدائها يواجه تحـدي النفس الـتي يغالبها النعـاس ، وتحن إلى الفرار من المسؤولية ، وتفضّل الراحة الجسدية على لقـاء ربها الجبّـار ، وتواجه كـذلك تحـدي الشـيطان الـذي يوسوس إليها بالتسويف ، لها بالنوم بعذر أو آخر ، وهكـذا يكـــون قيـــام الليل منطلقا لإصـــلاح جـــذريّ في النفس والمجتمع ، فهو إذا عملية صـعبة ، وقد أشـار القـرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى : «**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ**» [1].

وهكذا رأى بعضهم أنّ المراد من شدّة الوطأ صـعوبة صـلاة الليل ذاتها ، قيل : أثقل وأغلظ على المصـلي من صلاة النهار ، وهو من قولك : اشتدت على القـوم ووطـأة السـلطان ... فـأعلم الله نبيّه أنّ الثـواب في قيـام الليل على قـــدر شـــدة الوطـــأة وثقلها ، ونظـــير قوله (ص) : «أفضل العبـادات أحمزهـا» [2] وقيـام الليل حمز (صـعب) لأنّه يخلق توازن الشخصية عند الإنسان لتكون قائمة على أسس رشـيدة على قيم الـوحي وهـدى العقل وتجـارب البشر ، فـإذا برهبـان الليل طـاهرة ألسـنتهم عن الغيبة والشتم وسائر الأخطاء والـذنوب المنطقية الـتي من بينها شهادة الزور ، لأنّ قيامهم بالليل يزيل من قلوبهم العقد ، ويزرع فيها التقوى ، كما يجعلهم يفكّـرون في كلامهم قبل النطق به ، ويزنونه بمـيزان الحق والصـواب ، الأمر الـذي يعلهم يصيبون الحق حين

---

(1) البقرة 45.
(2) التفسير الكبير ج 30 ص 176.

يتكلّمــون ، فــإذا ســكتوا تفكّــروا ، وإذا نطقــوا تفجّـرت الحكمة من جوانبهم ، كما وصفهم سيدهم أمير المؤمـنين (ع) بقوله : «**منطقهم الصواب**» [1].

(**وَأَقْوَمُ قِيلاً**)

أي أنّهم أصـــوب للحق بجهاته المختلفة من غـــيرهم على الإطلاق ، فهم الأقـوم (يعـني الأفضـل) ، قـال الفخر الرازي مفسرا الآية : أحسن لفظا ، وقـال أنس : أصـوب وأهيأ وأحدّ [2] ، وهذا أمر طبيعي لأنّ القـائم بالليل يتصل بقـول الله ووحيه (القـرآن) ويؤسس به تفكـيره ومنطقه في الحياة ، وهو الذي يهديه للـتي هي أقـوم كما نعته عـزّ وجل ، ولأنّ إثارة العقل بالتفكير في آيـات الله ليلا يرسم السبيل للمنطق الأقوم عند السبح والكلام في النهار.

وإذا اعتبرنا القرآن من مصـاديق القـول الثقيل الـذي ألقاه الله على رسوله وعلى أتباعه فإنّ ناشئة الليل الـتي تهيأ القلب لاستقباله تجعله أهيأ وأصلح لفهم معانيه وثبوته فيه والعمل به.

[7] إنّ مسئوليات الليل تتكامل ـ في منهج المؤمن ـ مع مسـئوليات النهـار الـذي يسـتوعب انتشـارا واسـعا ، وسبحا طويلا.

(**إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً**)

هناك رأيـان كلاهما ينتهي لعلاج التـوهّم بالتنـاقض بين مهـام الإنســان في الليل ومهامه في النهــار ، فالإســلام يعتبر الإثنين يتكاملان :

(1) نهج البلاغة خ 193 ص 303.
(2) التفسير الكبير ج 30 ص 176.

الرأي الأول : السبح بمعنى : المهام والعمل ، يقـال : سبح القوم : تقلّبوا وانتشروا في الأرض [1] ، فكأنّ القرآن يريد القول لنا بأنّ للمـؤمن مسـئوليتين : إحـداهما بالنهـار على عشـرات المهـام والأمـور ، والأخـرى بالليل تتحـدد بقيامه ، ومهما كـانت المسـؤولية في النهـار كبـيرة طلب علم ، أو جهـاد في سـبيل الله ، أو سـعي للـرزق الحلال، فإنّه من الخطأ استعاضة مسـئولية الليل بالنهـار ، لأنّ العـالم لو لم يخلص لكـان ضـرر العلم عليه وعلى النـاس أكبر من نفعه ، والذي يجعل العلم مفيدا ، والعـالم ملتزما برسـالته في الحيـاة ، فلا يزيّف الحقـائق ، ولا يـبيع نفسه وعلمه على أيّة حكومة وطاغية ومترف ، هو الإيمان الذي يستلهمه من قيام الليل.

إنّ حاجة المؤمن لقيام الليل في أيّ خنـدق كـان هي حاجة ملحّة وأكيدة ، لأنّ سبحه الطويل بالنهـار جسد لا بد له من عقل وروح لا يجـدهما إلّا في الاتصـال بالله وإتبـاع وحيه. وإنّه لخطأ فظيع أن يقبل الإنسان على سبح النهـار الطويل ويخوض لججه من دون إعـداد كـاف ، وإنّ الإمـام عليّا (ع) ليؤكد بـأنّ ما يصـير إليه المتقـون من الفضـيلة بالنهار إنّما هي ثمرة قيامهم بالليل ، وذلك حينما قال وقد وصف شـأنهم بالليل كما سـبق : «**وأمّا النّهـار فحلمـاء علماء ، أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف بري القداح ، ينظر إليهم النّـاظر فيحسـبهم مرضى ، وما بـالقوم من مـرض ، ويقـول : لقد خولطـوا ، ولقد خـالطهم أمر عظيم! لا يرضـون من أعمـالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثـير ، فهم لأنفسـهم متّهمـون ، ومن أعمـالهم مشـفقون ، إذا زكّي أحد منهم خـاف ممّا يقـال له ، فيقـول : أنا أعلم بنفسي من غـيري ، وربي أعلم بي من نفسـي. اللهم لا تؤاخـذني بما يقولـون ، واجعلـني أفضل مما يظنّـون ، واغفر لي ما لا يعلمون**» [2].

الرأي الثاني : السبح بمعـنى الفـراغ والفرصة ، قـال الجبائي : إن فاتك شيء بالليل

(1) المنجد : مادة سبح.
(2) نهج البلاغة خ 193 ص 304.

فلك في النهار فـراغ تقضـيه [1] ، وجـدير أن ننقل هنا ما قاله العلّامة الطبرسي : إنّ مذاهبك في النهار ومشـاغلك كثيرة ، فإنّك تحتاج فيه إلى تبليغ الرسالة ، ودعـوة الخلق ، وتعليم الفـرائض والسـنن ، وإصـلاح المعيشة لنفسك وعيالك ، وفي الليل يفـرغ للتـذكرة والقـراءة ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، لتأخذ بحظّك من خير الدنيا والآخرة ، وفي هذا دلالة على أنّه لا عذر لأحد في ترك صلاة الليل لأجل التعليم والتعلّم ، لأنّ النـبي (ص) كـان يحتـاج إلى التعليم أكثر ممّا يحتاج الواحد منّا ، ثم لم يـرض أن يـترك حظّه من قيام الليل [2] ، فلا يصح أن يتعلل المؤمن بشيء عن قيامه ، ففي النهار فرصة كافية للمهـامّ الأخـرى ، أمّا اللّيل فإنّه بالدرجة الأولى موضوع للقيام.

[8] في حـديث معـروف : إن شـئت أن يكلّمك الله فاقرأ القرآن ، وإن شئت أن تتكلّم مع الله فناجه ، وهكذا المؤمنون في قيامهم الليلي تراهم يبادلون ربهم الحـديث ، فمرة يتلون الكتاب وأخرى يـذكرون ربهم بالـدعاء ، كما أمرهم الله فقال :

(**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ**)

وذكر الله هو مخ العبادة ، بل هو الهدف الرئيسي في الإسلام ، لأنّ نسيانه تعالى سـبب كـلّ انحـراف في حيـاة الإنسـان. وقـال : «اسم ربـك» لأنّ المخلـوق عـاجز عن معرفة الذات والاتصال بها مباشـرة ، فجعل الله أسـماءه ذرائع العباد ووسائلهم إليه ، وذكر أسـماء الله ليس بتلفّظ حرفها وحسب ، بل بالإيمـــان بها ومعرفته من خلالها ، إذ لكلّ اسم منها انعكاس في خلقه.

ولقوله : «اســم» بـالإفراد دلالة على الإطلاق الــذي يفيده استخدام أيّ اسم من

---

(1) التبيان ج 10 ص 163.

(2) مجمع البيان / ج 10 ص 378.

أسمائه الحسنى ، وهو الأقرب ، لأنّ ذكر الله يتم بذكر ايّ من أسمائه ، كما قال عزّ وجلّ «**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى**» [1].

والذكر الحقيقي ليس مجرد التلفّظ بأسماء الله ، بل هو إضافة إلى ذلك تعميق الصلة به ، في آفاق توحيده ، والانقطاع إليه ، ولذلك يردف الله مع الأمر بالذكر أمرا بالتبتّل.

(**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**)

روى أبو بصير عن الإمام الصادق (ع) : «**وأمّا التبتّل فإيماء بإصبعك السبّابة**» [2] ، وروى زرارة وحمران عن أبي جعفر وعن أبي عبد الله ـ عليهما السلام ـ : «**إنّ التبتّل هنا رفع اليدين في الصلاة**» [3] ، وعن الإمام الكاظم (ع) قال : «**التبتّل أن تقلّب كفّيك في الدعاء إذا دعوت**» [4] ، وقد أشار جملة من المفسرين إلى أنّ المعنى هو الإخلاص في الدعاء ، وما الإيماء بالإصبع ، ورفع اليدين ، وتقليب الكفّ إلا مظاهر له ، فمثلها مثل الركوع والسجود والقنوت ، والأصل اللغوي للكلمة يهدينا إلى هذا المعنى ، قال شيخ الطائفة : فالتبتّل الانقطاع إلى عبادة الله ، ومنه : مريم البتول وفاطمة البتول ، لانقطاع مريم إلى عبادة الله ، وانقطاع فاطمة عن القرين (لو لا علي). وقيل : الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره [5] ، وأضاف الفخر الرازي : وقيل : صدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها ، وقال الفرّاء : يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل ، أي انقطع عن

---

(1) الإسراء / 110.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 450.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 379.
(4) نور الثقلين / ج 5 ص 449.
(5) التبيان ج 10 ص 164.

كلّ شيء إلى أمر الله وطاعته [1] ، وفي الدر المنثور عن قتـادة : «**وَتَبَتَّلْ إِلَيْـهِ تَبْتِيلاً**» قـال : أخلص له الـدعوة والعبـــادة ، وعن مجاهد : أي أخلص المســألة والـــدعاء إخلاصا.

واختلف في «تبتيلا» لمـاذا جـاء بهـذه الصـيغة ، بينما يعتبر مصدر التبتل في هذه الآية ، فذهب البعض إلى ما لا يليق بأدب الوحي وعظمته ، إذ قالوا : لمراعاة الفواصل [2] ، ويبدو أنّ التبتل مصدر كلمة أخرى أشير إليها ، فكانت العبـادة تحتمل معـنين : الأول : الانقطـاع الجـدّي ، وعبّر عنه بكلمة «وتبتــل» ، والثـــاني : الانقطـــاع المـــرة بعد الأخـــرى ، وعبّر عنه بالمصــدر «تبــتيلا» ، على أنّ الكلمة الأولى جـاءت بصـيغة التفعّل ، والثانية بصـيغة التفعيـل. ويبدو أنّ الكلمة تفيد التأكيد على التبتل وأن يكون حقيقيّا ، فليس كـــــلّ مظهر تبتّل يحسب تبتّلا عند الله ، والتبتل على وزن التفعل الذي يعني المداومة والعود إليه حينا بعد حين ، وذلك أنّ الإنسان عرضة للانحراف وللتأثر بالعوامل السلبية في كلّ لحظة .. إذن فهو بحاجة إلى مداواة هــذه المعضــلة بالإلحــاح على الانقطــاع إلى الله ، والتبتّل إليه حينا بعد حين.

[9] ويتعمّق ذكر الله والتبتل إليه في نفس الإنســـان وعلى جوارحه حينما يتأسسان على المعرفة به سـبحانه ، وغاية معرفته توحيـــده والتوكل عليه ، وهـــذه هي الزاوية الـتي تنتظم من خلالها الآية التاسـعة في سـياق السـورة حيث تعرفنا بربنا.

(**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**)

قال صاحب المجمع : أي ربّ العــالم بما فيه لأنّه بين المشرق والمغرب ، وقيل : رب مشرق الشمس ومغربها [3] ، والإطلاق هو الأقرب بصرف المعنى للمشرق

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 178.
(2) الميزان ج 20 ص 65.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 379.

والمغرب وما بينهما ، فكلّ الكائنـات بمفرداتها آيـات على ربوبيته ، وأنها مخلوقـات له عـزّ وجـل. وفي الآية تناسب بين الاشـارة إلى حركة الشـروق والغـروب الكونية وبين اسم (الـرب) باعتبارهما مظهر وآية للربوبية الـتي تعـني الإنمـاء والتجديد والإضـافة في الخلق ، كما هنـاك تناسب مع قيام الليل والسبح بالنهار لارتباطهما بشروق الشـمس وغروبها.

وحيث يطـوف الإنسـان بنظـره وفكـره متـدبّرا في المشرق والمغـرب وما بينهما تتأكّد له حقيقة التوحيد ، إذ يكتشف أنّ كلّ شيء مخلـوق لا يصح الاعتمـاد عليه ؛ لأنّ له شروقا وغروبا ، إلّا الـربّ الواحد الأحد الـذي كـان قبل الإنشاء ، ويبقى بعد فناء الأشياء.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**)

ولا تتخذ غـيره ، لأنّ الغـير متغيّر ، لا ينبغي الاعتمـاد عليه ؛ لأنّ ما سـوى الله عرضة للـزوال والفنـاء. قـال العلامة الطبرسي : أي حفيظا للقيـام بـأمرك ، وقيل : فاتخذه كافيا لما وعدك به ، واعتمد عليه ، وفـوّض أمـرك إليه تجده خير حفيظ وكاف [1] ، وفي فتح القدير : أي إذا عرفت أنّه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلا [2].

[10] وحاجة الإنسـان الرسـالي إلى التوكل على الله وتوحيـده والتبتل إليه وذكـره ، وبالتـالي حاجته إلى قيـام الليل ، حاجة ملحّة تفرضـها مسـيرته الجهادية الصـعبة ، حيث التحـدّيات الـتي يواجهـا. ولو لا التوكل على الله والاستمداد منه انحرف عن الصراط المستقيم شيئا كثـيرا أو قليلا.

---

(1) المصدر.

(2) فتح القدير / ج 5 ص 318.

ومن أعظم تلك التحدّيات والضغوط ما يقوله الأعـداء ضد المؤمــنين وبالخصــوص قيــادتهم ، وذلك أنّ الاعلام السلبي من أهمّ أسلحتهم الخطيرة الـتي يوجّهـون حرابها ضـدهم ، فـإذا بهم يسـعون لتشـويه سـمعة الرسـاليين ، وعلى المؤمــنين أن يواجهــوا ذلك بالصــبر والهجــران الجميل.

(**وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**)

والهجر الجميل هو المقاطعة بحكمة ، وبعيـــــدا عن الإثــارة ، لأنّ الهجر حينما يخــرج عن ســياق الحكمة قد يتحوّل إلى صراع ماديّ حادّ في ظروف غير مناسبة ، ممّا يضر أكـثر ممّا ينفع ، قـال الفخر الـرازي : الهجر الجميل أن يجـانبهم بقلبه وهـواه ، ويخـالفهم مع حسن المخالفة والمداراة والإغضاء ، وترك المكافاة [1].

إنّ الإسلام يريد للإنسان أن يبـني شخصـيته ومواقفه على أسـاس الاسـتقلال ، فلا يتـأثّر بـردّات الفعل كـالكلام السـلبي الـذي يوجّه ضــده ، بل يمضي قــدما في تنفيذ خطّته الحكيمة الــتي رســمها لنفسه ، دون أن يســتفزّه الآخــرون ، ويســيّرونه حسب خطتهم ، ويفرضــوا عليه ساعة المعركة وطريقتها وأرضها ، ومن هنا فإنّ الصــبر لا يعني عدم اتخاذ الخطوات اللازمة تجاه تحـديات الأعـداء ، بل يعــني الانتظــار حــتى تحين الفرصة المناســبة حسب الخطة المرسومة ، وكـلّ ذلك يـوفّره قيـام الليل والتوكّل على الله.

والتعبــير القــرآني دقيق للغاية حيث قــال تعــالى : «**وَاصْـبِرْ عَلى ما يَقُولُـونَ**» أي أنّ ما يقوله الآخـرون لا ينبغي أن يزلـزل الرسـاليين عن مـواقفهم الصـحيحة إلى غيرها ، فقد يصــعّد المســتكبرون والمــترفون حــربهم الإعلامية ضــــدّ قيمة من القيم الإلهية كالحجـــــاب على أسـاس أنّه لـون من ألـوان الإرهـاب ، وهكـذا الجهـاد من أجل التحرّر

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 180.

والاستقلال ... فيجب على الرساليين أن يصبروا ويتجرّعوا كلمات الشـتم والتجـريح ، وضـغط الاعلام ، لا ان يتنـازلوا عن قيمهم ويداهنوا فيها.

وقد نســـــتوحي من الهجر الجميل أنّه القـــائم على أساس العدل والحكمة ، فلا ينبغي أن يهجر المؤمن طرفا هجرا كاسحا ، فيبخس النـاس أشـياءهم ، ولا يعـترف لهم بأيّة إيجابية ، أو يقطع صـلته معهم إلى حـدّ يحـرم نفسه إيجابياتهم ... وبتعبير آخر : ينبغي أن ننصف الناس ـ حـتى أعدائنا ـ من أنفسنا ، فلا تصـحب المقاطعة والهجر عملية إسقاط للآخرين بعيدة عن حدود الله وشرائعه.

[11] ويستلهم المؤمنون روح الصبر من أمرين هما : التوكل على الله ، والإيمـان بأنّه سـوف يجـازي أعـداءهم شـرّ مجـازات ، فلما ذا الاسـتعجال وعـدم الصـبر ما دام الفوت غير ممكن؟! بلى. قد لا يعاصر جيل من المؤمـنين انتقـام الله من أعـدائهم وأعـداء الرسـالة ، وقد لا ينتقم منهم في الـدنيا ، ولكنّ الأمر واقع لا محالة إن فيها أو في الآخــرة ، حيث عــذاب الخــزي الــذي يلحق بــالمترفين والمستكبرين المكذّبين بالرسالة.

(**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً**)

أي المـترفين الـذين يعارضـون الرسـالة ، ويكـذّبون بآيـــات اللـــه. وكلمة «ذرني» تفيد التهديد والوعيد ، كما تشـــير إلى معـــنى التوكل على الله نعم الوكيل ، حيث ينبغي للمؤمن وهو يصبر على ما يقوله الأعداء أن يطمئن اطمئنانا تامّا بأنّ صبره لن يذهب هباء ، لأنّ المتوكّل عليه سوف ينتقل له وللحق منهم. ولعلّ ذكر تنعّمهم يهدينا إلى أنّ العذاب الذي سيحلّ بهم يشـمل تغيـير ما هم عليه من النعيم ، وإلى ذلك أشـار صـاحب المـيزان فقـال : والجمع بين توصيفهم بالمكذبين وتوصيفهم بأولي النعمة للإشــارة إلى علّة ما يهدّدهم به من العذاب ، فإنّ تكذيبهم بالـدعوة الإلهية وهم متنعّمــون بنعمة ربهم كفــران منهم بالنعمة ، وجزاء الكفران سلب النعمة ، وتبديلها

بالنقمة [1].

ومهما استطال شوط الصبر في تصور المؤمنين ، وامتدّ ترف المكذّبين ونعيمهم ، إلّا أنّه قصير بالقياس إلى معادلة الزمن الحقيقة عند الله ، بل هو قصير بالفعل ، والذي يدرس تاريخ الصراع بين الحق والباطل يصل إلى قناعة راسخة بهذه السنّة الالهية ، تقول عائشة : لمّا نزلت «الآية» لم يكن إلّا قليل حتى كانت وقعة بدر [2] التي أذلّ الله فيها المشركين ، وقيل : نزلت في المطعمين ببدر وهم عشرة ، وقيل : نزلت في صناديد قريش المستهزئين [3] ، وأضاف الزمخشري في الكشّاف : وكانوا أهل تنعّم وترفّه [4] ، وما ذلك إلّا شاهدا ومصداقا لسنّة الله في الحياة التي تمتدّ إلى الوراء من أعماق التاريخ وإلى الأمام إلى المستقبل البعيد.

[12] ويكشف لنا القرآن حجابا عن غيب ما أعدّ الله للمترفين المكذّبين من عذاب أليم ومهين في الآخرة ، يوم ترجف الأرض والجبال.

(**إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً**)

قال صاحب المنجد : أنكال ونكول : القيد الشديد من أيّ شيء كان ، وحديدة اللجام [5] ، وقيل وهو الأقرب : الصنيع الفظيع من العذاب الذي يخشاه من يراه ويحذر منه ، ونكّل به صنع به صنيعا يحذر غيره ، ويجعله عبرة له [6] ولعلّ الكلمة تحمل في طيّاتها معنى الشدّة والانتقام والإذلال ، والقيود والأغلال مظهر

---

(1) الميزان ج 20 ص 67.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 279.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 380.
(4) الكشاف ج 4 ص 640.
(5) المنجد / مادة نكل.
(6) المصدر.

للتنكيل يرافقها عذاب الحريق بجهنم ، وما يلقاه الإنسـان في الآخـرة من أنـواع العـذاب ليست مفروضة عليه وآتية من خـارج القـوانين والسـنن الطبيعية ، بل هي من صـنع يـده ، قـدّمها لنفسه ، فالكـذب الـذي يمارسه في الـدنيا يتحـول إصــررا ونــادا عليه في الآخــرة ، وهكــذا الغيبة والسرقة ، والسباب ، وأكل أموال النـاس بالباطل .. كلّها تصير أنكالا وجحيما.

(**وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً**)

أي الطعــام الــذي لا يتهنّأ بأكله ولا طعمه ولا رائحته الآكلــون ، بل يصــعب عليهم مضــغه وبلعه لما فيه من العذاب وأسباب الأذى. قال أكثر المفسّرين : أنّ به شوكا ، وقيل : لشدة خشونته ، وأوّله الزمخشري والرازي على أنّه شجرة الزقوم ، وبهذا النفس عبّر صـاحب الكشـاف : الذي لا يساغ يعني الضريع وشجر الزقـوم [1]. ومن أنـواع العذاب المذكورة في الآيتين يتبيّن لنا بأنّها تأتي نقيضا لما هم فيه من النعمة والراحة في الـدنيا كجـزاء لتكـذيبهم ، وعدم شكرهم ربّهم عليها.

(**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ**)

أي تتحـرّك باضـطراب شـديد ، وترجف الجبـال معها أيضا ، وتضـطرب بمن عليها [2] ، من هـول ذلك اليـوم ، الأمر الذي يكشف عن عظمة الموقف ومـدى رهبته ، فما بالك بهذا الإنسان الضعيف في يوم أحداثه ترجف بـالأرض والجبــــال؟! إنّه يكــــون أدنى من ريشة في ريح عاصف يتقاذفها التيّار الكاسح.

إنّ تصـور هـذا الموقف والحضـور عند هـذه الحقيقة بالقلب يكفي وسيلة يقتلع

(1) راجع الدر المنثور والكشاف والمجمع والتفسير الكبير والتبيان عند الآية.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 380.

الإنسـان بها جـذور الغـرور بنفسه وقدرته في شخصـيته ، واتّكاله على الــدنيا وما فيها ، ويتعــرّف عن طريقها على ربه وقدرته المطلقة ، فيؤمن به وبرسـالته بـدل التكـذيب كما هو شأن أولي النعمة المبطرين بها.

إنّ الجبــال الراســية والمتماســكة تســتحيل يومئذ كذرّات الرمل نتيجة الرجف الشديد المتتالي الذي تتعرض له.

(**وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً**)

قـال القمّي مثل الرمل [1] ، وفي مجمع البيـان : أي رملا متنــاثرا عن ابن عبّــاس ، وقيل : المهيل الــذي إذا وطأته القدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله أنهار أعلاه [2] ، وفي المنجد : انكثب الرمل : اجتمع وانتشر بعضه فوق بعض ، وكل ما انصبّ في شيء فقد انكثب فيه [3] ، والمهيل الذي يهـال فيقع بعضه على بعض ، يقـال : أهـال الـتراب : إذا هـدّه من أساسه فانهـار على بعضه منتـثرا ، ويسمّى التراب النـاعم الـذي تجمعه الريـاح في الصـحراء كـثيب ، وجمعه كثبـان ، ومن خصائصه أنّه سـريع وسـهل الانهيار والانتشار والتطـاير في الهـواء. وإذا كـانت الجبـال الصـخرية الراسـية تسـتحيل كثيبا مهيلا فما بـال الإنسـان الضـعيف عند ما ترجف به الأرض؟ ولمـاذا يتحـدّى قـدرة ربه؟!

والعلاقة بين ســياق الســورة عن قيــام الليل وبين الحـديث عن مشـاهد عـذاب الآخـرة هـذه أنّ الخـوف من أهـوال ذلك اليـوم يـدفع المؤمـنين إلى السـعي من أجل الخلاص ، ومن ثمّ ينفخ فيهم روح القيام بالليـل. وإنّها حقّا لتقضّ مضجع كلّ

---

(1) تفسير القمي / ج 2 ص 392.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 380.
(3) المنجد / مادة كثب.

ذي لبّ وضــمير حيّين ، إذ كيف تنــام عينه وهو مطــالب باقتحام هذه العقبات ، وتجاوز أهوالها بنجاح؟!

وثمّة علاقة بين أمر الله للرسـول (ص) بالصـبر على ما يقوله المكذّبون وبين كلامه عمّا أعدّ لهم من العـذاب ؛ وهي : أنّ عــدم التصــبّر (الاســتعجال) إنّما ينــدفع إليه الإنسـان بهـدف الانتقـام وردّ الفعل ، والمـؤمن يصـبر ولا يتعجّل لأنّه لا يخاف الفوت ، ويعلم أن سـوف يـأتي اليـوم الذي ينتقم الله (وكيله) له من أعدائه.

[15] وإلى جانب التحذير من عذاب الآخرة يحذّر الله المترفين وغيرهم من عواقب التكذيب التي تنتظـرهم في الدنيا ، وذلك من خلال التـذكير بالسـنن الثابتة في الحيـاة ومصير إحدى الأمم الـتي عصت رسـولها فأهلك الله أهلها وأخذهم أخذا وبيلا.

﴿إِنَّا أَرْسَــلْنا إِلَيْكُمْ رَسُــولاً شــاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾

أي يقوم بالشهادة الحقّة فيكم ، ويجسّـد القيم الإلهية ، ممّا يجعله ميزانا لمعرفة الحق والباطل ، وأســـوة لمن أراد الهداية إلى الصــراط المســتقيم. وقد ذكر الله قــوم فرعـون لأنّ وجـوه التشـابه بين واقع أولئك والواقع الـذي عاصـره الرسـول كثـيرة ، ومن أبرزها : أنّ المـترفين هم الذين يمثّلون جبهة الباطل في الصـراع في كلا المقطعين التاريخيين.

وكما أنّ لله سـنة ماضـية في حيـاة المجتمعـات في إرسال الرسل في الأمم بعد الأمم ، والأجيال بعد الأجيـال ، فإنّه ـ عزّ وجـلّ ـ جعل سـنّة الجـزاء لا تنفك عنها أبـدا ، فإذا ما اسـتجابت الأقـوام لقيـادة الرسـول وقيم الرسـالة أجزيت خـيرا وسـعادة في الـدنيا والآخـرة ، أمّا إذا عصت وكذّبت فستعرّض نفسها للانتقام وسوء العذاب ،

كقوم فرعون الذين عصوا رسولهم موسى (ع)، فاغرقوا وأهلكوا.

(**فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً**)

أي أخذا شديدا منكرا ، وفي الآية تحذير للمشركين ولأمة محمد (ص)، من معصيته ، وتلويح بأنّ سنّة الأخذ ليست منحصرة في زمان دون آخر ، ولا في قوم دون غيرهم. وإذ يذكّرنا القرآن بصورة من الانتقام الإلهي في التاريخ فلكي يسدّ بابا من أبواب الشيطان الذي يوغل بالإنسان من خلاله في الانحراف والضلال البعيد ، حيث يهمز في أذنه وفكره : أنّ الله رحيم بعباده ، ويستحيل أن يعذّبهم في الآخرة ، وأنّ هذه الوعود ليست إلّا لمجرد التخويف لا أكثر ... ولهذا يوجّه الله الخطاب مباشرة لمعاصري الرسول ورسالة الإسلام بأنّكم لا تستطيعون الهروب من سطوات الله إذا أراد الانتقام.

(**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً**)

وذلك لشدة أهواله ورهبة مشاهده ، قال القمّي : تشيب الولدان من الفزع حيث يسمعون الصيحة [1] ، وفي الدر المنثور عن ابن مسعود عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال : «**إذا كان يوم القيامة فإنّ ربنا يدعو آدم فيقول : يا آدم! أخرج بعث النار ، فيقول : أي ربّ إلا علم لي إلّا ما علّمتني : فيقول الله : أخرج بعث النار من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين يساقون إلى النار سوقا مقرّنين كالحين ، فإذا خرج بعث النار شاب كلّ وليد**» [2] ، وفيه عن ابن عبّاس : فاشتدّ ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم : «**إنّ بني آدم كثير ، وإنّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وأنّه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ففيهم**

---

(1) تفسير القمي / ج 2 ص 393.
(2) الدر المنثور / ج 6 ص 279.

وأشـباههم جند لكم» [1] ،وقد حـذّر الإمـام علي بن أبي طالب (ع) من ذلك اليوم فقال : احــذروا يوما تفحص فيه الأعمال ، ويكثر في الزلـزال ، وتشـيب في الأطفـال [2] ، وكيف لا يشـيب الوليد من أهواله وهو اليـوم الـذي يفصل الله فيه بين الخلائق ويقــرّر مصــائرهم ، فمن صــائر إلى الجنة ومن صائر إلى النار خالدين فيها أبدا.

بلى إنّه يــوم عظيم ، بل هو أعظم يــوم في وجـــود العالمين إنسا وجنّا ، وكيف لا يسرع الشيب إلى من يقف بين يــدي جبّــار الســموات والأرض ينتظر المســير إلى مصيره الأبدي ، وبالـذات أولئك المجرمـون الـذي سـوّدوا صحائفهم بالسيئات والفواحش ، وبعدهم المذبــذبون ، أمّا المؤمنون والمتقون فـإنّهم في مـأمن من رحمة الله ، بل هو يـوم سـعادتهم وفـرحتهم العظمى. أو ليسـوا يلتقـون حبيبهم وسيدهم ربّ العالمين؟

والشـيب ليس كناية عن الشـدة والمحنة [3] وحسب ، بل لعله حقيقة ماديّة تقع يــوم القيامة ، حيث أنّ حــوادث ذلك اليوم الفظيع أعظم من قدرة احتمال جسد الإنســان ، ولو لا أنّ الله لم يقـدّر عليهم المـوت لكـانت كـلّ حادثة منها تقضي عليهم جميعا.

إنّ الحوادث ذلك اليوم لا تنعكس فقط على الإنســان بل على الطبيعة الصـــــــامتة أيضا ، فتأخذ الرجفة الأرض والجبال لرهبة الموقف ، وهكذا تشقّق السماء.

(**السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ**)

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 184.

(2) نهج البلاغة خ 157 ص 222.

(3) المصدر.

وليس في حـدوث هـذا اليـوم شك وتـردّد ، لأنّه ممّا وعـده الله الـوفيّ المقتـدر ، وهـذا ما يجعل التعبـير عن وقـــائع القيامة يـــأتي بصـــيغة الماضي في الأغلب وكأنّها وقعت.

(**كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً**)

إذن فـالأمر ليس كما يتمنّى الإنسـان ، ولا كما يضـلّه الشيطان الغرور بأنّ وعوده تعـالى للتخويف فقط ، كلّا .. فوعـود الله صـادقة وواقعة لا محالة ، ولا بـأس أن نشـير هنا إلى أنّ بعض الفلســـفات الماديّة ذهبت في الضـــلال بعيدا حينما زعمت بـأنّ الآخـرة لا واقع لها ، وإنّما طرحتها الفلسفات الدينية لكي تكون عــاملا في توجيه أتباعها نحو التقيّد بمبادئها لا غير! وهذه الآية الكريمة تـردّ ردّا حاسـما وناسفا على هذه الظنون والمـزاعم الخاطئة بالتأكيد على أنّ وعد الله مفعول قطعا.

ثم يقـول الله مشـيرا إلى ما تقـدّم من بيـان الآيـات الكريمة.

(**إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ**)

تذكّر الإنسان بالحق ، وتثير فيه العقل وكوامن الخـير التي تهديه إلى ربّ العزة ، وترسم له الصراط المسـتقيم والنهج القـويم إليه سـبحانه .. فـدور التـذكرة إذا هو بيـان الخطـــوط العامة ، ورسم معـــالم الطريق للإنســـان ، لا فرض خيار معيّن كرها ، لأنّ الإختيار من خصائص الإنسان نفسه ، فهو الذي يريد الحق والباطل أو لا يريد.

(**فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً**)

قال الفخر الرازي : إنّ التذكرة ما تقدّم من الســـورة كلّها ، واتخـــاذ الســـبيل عبـــارة عن الإشـــتغال بالطاعة ، والاحتراز عن المعصية [1] ، واختار صاحب الميزان تعميم

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 185.

التذكرة على كلّ ما سـبق ، وخصّ صـلاة الليل بالسـبيل ، لأنّها تهدي العبد إلى ربّه [1] ، والأصح : أنّ السبيل عمـوم الصـراط المسـتقيم الموصل إلى رضـوان الله ، وقيـام الليل خطـوات فيه ، إلّا أنّ أبـرز مصـاديق السـبيل القيم الإلهية ، وأظهرها القرآن ، والقيادة الرسالية ، ومصـداقها الرسول الأعظم (ص) وأئمة الهدى ـ عليهم السـلام - كما جاء في دعاء الندبة : ثم جعلت أجر محمد ـ صلواتك عليه وآله ـــ مـودّتهم في كتابك ، فقلت : «**قُـلْ ما أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شـاءَ أَنْ يَتَّخِـذَ إِلى رَبِّهِ سَـبِيلاً**» فكانوا هم السبيل إليك ، والمسلك إلى رضوانك [2].

[20] وفي ختـام السـورة يعـود القـرآن للحـديث عن قيام الليل ، بالإشارة إلى برنامج القيام عند الرعيل الأوّل وبالذات عند أسـوة المؤمـنين وسـيدهم حـبيب الله النـبي محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ وببيان سماحة دين الإسـلام وواقعيته ، حيث يعتبر الظروف الحقيقيّة عـاملا مـؤثّرا في التشـــريع ، بحيث يرتفع التكليف بقيـــام الليل عن ذوي الأعـــذار المشـــروعة بصـــورة تامّة ، أو يخفّف إلى حـــدّ الاكتفاء بقراءة ما يتيسر من القـرآن ، وممارسة مجموعة من الواجبـــات العامة الـــتي من بينها الصـــلاة والزكـــاة والإنفاق والاستغفار.

(**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ**)

أي أقل من الثلثين ، وأكثر من النصف بعض الأحيان.

(**وَنِصْفَهُ**)

أحيانا أخرى.

---

(1) الميزان / ج 20 ص 69.

(2) مفاتيح الجنان ص 533.

(**وَثُلُثَهُ**)

أحيانا .. وهذا يعني أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ يطبّق أمر الله بقيام الليل ، والذي مرّ بيانه في الآيات (2).

وللآية واحدة من دلالتين : الأولى : أنّ رسول الله (ص) كان يقوم كلّ ليلة باختلاف في مدّة القيام بين ليلة وأخرى ، فمرة يقوم أقلّ من الثلثين ، وثانية يقوم النصف ، وثالثة الثلث ، أو أنه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان ينهض لقيام الليل ثلاث مرات يستريح بينهما ، كلّ ليلة (أدنى من الثلثين ، ومنتصف الليل ، وثلثه).

وهناك رواية تشير إلى الاحتمال الثاني ذكرها العلّامة الطوسي في التهذيب : قال الإمام الصادق (ع) وقد ذكر صلاة النبي (ص) : «كان يؤتى بطهور ويخمّر عند رأسه (أي يغطّى بخمار) ويوضع سواكه تحت فراشه ، ثم ينام ما شاء الله ، وإذا استيقظ جلس ، ثم قلّب بصره في السماء ، ثم تلا الآيات من آل عمران «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ**) ..» ، ثم يستن (أي يعمل بسنّة السواك) ويتطهر ، ثم يقوم إلى المسجد ، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه وسجوده ، وسجوده على قدر ركوعه ، يركع حتى يقال : متى يرفع رأسه؟ ويسجد حتى يقال : متى يرفع رأسه؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات ، ثم يقلّب بصره في السماء ثم يستن ويتطهّر ويقوم إلى المسجد ، فيصلي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك ، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ، ويقلّب بصره في السماء ، ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر (يصلي الوتر) ويصلي الركعتين (يعني ركعتي الشفع أو نافلة الفجر) ثم يخرج إلى الصلاة» [1].

وعلى خطى الرسول (ص) كان خلّص أصحابه من الرعيل الأول يقومون

---

(1) نور الثقلين ج 1 ص 422.

الليل كما يقومه النبي (ص) تأسيّا به ، إذ جعله الله أسـوة المؤمنين ، وكأنّ الآية تبيّن معنى المعيّة بأنّها ليست مجرد الـزعم ، ولا الإنتمـاء الـديني والاجتمـاعي الظـاهر لقيـادة الرسـول وخطّه ، بل الصـحبة الحقيقيّة تتمثّل في الإتبـاع العملي لقيادته ورسالته.

(**وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ**)

ونحن الأجيال الحاضرة ـ إذا فاتتنا صحبة النبي ـ صلّى الله عليه وآله ــ بالأبـدان ومعيّته فإنّنا نسـتطيع أن نكـون معه باقتفـاء أثـره ، ومن أثـره جهـاده وقيامه بالليل قـال الحسكاني : «الذين معك» علي وأبو ذر [1].

(**وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**)

قال صاحب المجمع : أي يقـدّر أوقاتهما لتعملـوا فيها على ما يـــأمركم به ، وقيل : لا يفوته علم ما تفعلـــون ، والمــراد : أنّه يعلم مقـادير الليل والنهـار ، فيعلم القـدر الذي تقومونه من الليل [2] ، ولعل في التقدير إشارة إلى اختلاف الليالي والأيام في الجـانب الزمـني ، حيث تطـول وتقصر ، وربّنا هو الذي يعيّن المقادير المختلفة.

(**عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ**)

وفي معنى الإحصاء قولان : أحـدهما : الظـاهر أي لن تعـدّوه ، والآخر : لن تطيقـوا قيامه ، وهو الأقـرب بدلالة الســياق ، حيث يجـــري الحـــديث مباشـــرة عن التوبة والتخفيف ، وحيث يشـير القـرآن إلى جـانب من الأعـذار المشـروعة الـتي تعيق عن قيـام الليل بصـورته الأولية .. قال مقاتل : كان الرجل يصلي الليل كلّه مخافة أن

(1) تفسير البصائر / ج 50 ص 132 عن المجمع.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 381.

لا يصيب ما أمر به من القيام ، فقال سبحانه : «**عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ**» أي لن تطيقوا معرفة ذلك ، وقال الحسن : قاموا حتى انتفخت أقدامهم ، فقال : إنّكم لا تطيقون إحصاءه على الحقيقة ، وقيل معناه : لن تطيقوا المداومة على قيام الليل ، ويقع التقصير فيه [1].

(**فَتابَ عَلَيْكُمْ**)

أي رحمكم وتلطّف بكم ، لأنّ من تاب الله عليه فقد رحمه. وإذا أخذنا بالمعنى الأصيل للتوبة وهو الرجوع فإنّ المعنى : يكون : أنّه تعالى بدى له أمر فعادلكم وحيه بحكم آخر غير الحكم الأول الذي يقتضي قيام الليل كلّه إلّا قليلا ، أو الذي كان القيام فيه واجبا لا مستحبا [2].

(**فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**)

وتأكيد الله على قراءة القرآن يهدينا إلى عظمته ، وأنّ تلاوته وتدبّر معانيه روح قيام الليل ومن أهمّ أهدافه ، حيث يعود الإنسان إلى كلام ربه وعهده إليه ، فيستلهم منه بصائر الحق ، ومناهج حياته في كلّ بعد وجانب. إنّ غاية قيام الليل هي تكامل الإنسان ، تكاملا روحيّا بالتهجّد والتبتل والصلاة ، وتكاملا عقليّا بالتفكّر في خلق الله وتدبّر آيات قرآنه .. نعم. إنّ الظروف قد لا تسمح بقيام الليل على صورته الأولية ، ولكن لا ينبغي للمؤمن أن يترك قراءة القرآن على أيّة حال ، ولو قراءة ما تيسر منه. فما معنى قول الله : «**ما تَيَسَّرَ مِنْهُ**»؟

لقد اختلف المفسرون والقرّاء في القدر الذي تضمّنه هذا الأمر من القراءة ،

---

(1) المصدر.

(2) مع أنّه لا توجد روايات صريحة بأنّ قيام الليل كان واجبا شرعيا على المسلمين في أول الدعوة ، إلّا أنّه محتمل ، أو هكذا استقبلوه ثم تبيّن لهم غير ذلك.

فقال سعيد بن جبير : خمسين آية ، وقال ابن عبّاس : مائة آية ، وقال السدّي : مائتا آية ، وقال جويبر : ثلث القرآن لأنّ الله يسّره على عباده [1] إشارة لقوله تعالى : «**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**» [2] ، وليس بين الأقوال الأربعة تناقض ، لأنّ ما تيسّر هو ما يجده القارئ يسيرا على نفسه ، سواء كان آية واحدة أو القرآن كلّه ، وإن كانت الكلمة في ظاهرها إشارة إلى القليل ، وقد ذهب البعض بعيدا حينما فسّروا الآية في الصلاة وقال معناه : فصلّوا ما تيسّر من الصلاة ، وعبّر عن الصلاة بالقرآن لأنّها تتضمّنه [3].

وجدير التساؤل عن السبب في التيسير بعد التشدّد في منهجية التشريع الإسلامي ، الأمر الذي يكاد يصبح ظاهرة في أحكام الله لكثرة شواهده ، فقد فرض الله على المؤمنين تقديم صدقة بين يدي نجواهم الرسول [4] ثم ألغيت الصدقة ، وحرّم عليهم مقاربة أزواجهم حتى ليالي الصيام ثم أحلّها [5] وفي الجهاد فرضه واجبا إذا كانت نسبة المؤمنين إلى أعدائهم تعادل واحدا إلى عشرة ، أي أنّهم يجب عليهم الجهاد وخوض الحرب إذا كانوا مائة وكان العدو ألفا ، ثم خفّف الحكم بنسبة واحد إلى اثنين [6] ، ومثل ذلك أحكام عديدة والتي من بينها قيام الليل الذي نحن بصدد الكلام عنه.

إنّ هذه الظاهرة في التشريع الإسلامي تهدينا إلى أنّ إصلاح الإنسان ـ وبالذات في الانطلاقة ـ بحاجة إلى برنامج مركّز وصعب حتى يصلح نفسه

(1) مجمع البيان ج 10 ص 381.
(2) القمر / 40.
(3) نقل هذا القول مجمع البيان ج 10 ص 381 وبه قال صاحب الكشاف والفخر الرازي.
(4) المجادلة 12 / 13.
(5) البقرة / 187.
(6) الأنفال 65 / 66.

إصلاحا جذريّا ، كما المقاتل في دورته العسـكرية الأولى ، فـإذا ما اسـتمرّ قطـاره على السـكة يخفّف عنه ، وهـذه منهجية الإسلام في بناء أفـراده ومجتمعة ، وإذا صـحّ هـذا التحليل فإنّنا يجب أن نســــــــــتفيد من ذلك في حياتنا ومسيرتنا ، ففي بداية التغيير ينبغي أن تؤخذ الأمة بالشدة حتى تذوب في بوتقة الإيمان والعمل الرسـالي ، ثم يـأتي دور التخفيف عنها شيئا ما.

ويلفتنا القــرآن إلى خصيصة تشــريعية في الإســلام وهي واقعيته ، وأخذه ظروف المشـرّع له بعين الإعتبـار ، فهو ليس نظاما قســريّا ، بل تشــريعا واقعيّا مرنا ، وذلك ممّا يؤكّد حقّانيته.

(**عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى**)

يعيقهم مرضـهم عن القيـام ، أو يجعله أمـرا مكلّفـا. وهـذه كناية عن المعوّقـات البدنية الـتي تصـيب الإنسـان بالضعف.

(**وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ**)

طلبا للــرزق. والضــرب في الأرض كناية عن التنقّل والترحّل والسعي الحثيث ، وعلّل الـرازي تخفيف الفـرض على هذا الفريق ومن يلونهم (المقـاتلين في سـبيل اللـه) قائلا : وأمّا المسـافرون والمجاهـدون فهم مشـتغلون في النهار بالأعمال الشـاقّة ، فلو لم ينـاموا في الليل لتـوالت أسباب المشقّة عليهم [1].

(**وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

إعلاء لكلمته ، وإنفــاذا لأمــره ، وتحكيما لشــرعه ، ودفاعا عن ثغور المسلمين ،

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 187.

وهؤلاء لا شك لهم من الأجر الشيء العظيم ، ولعمري إنّ جهادهم بمثابة قيام الليل أجرا وقدرا عند الله ؛ لأنّهم لو لا جهــادهم وقتــالهم لكــان الأمر كما حكى الله تعــالى : «**لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً**» [1]. قـال الفخر الـرازي : ومن لطـائف هـذه الآية أنّه تعـالى سـوّى بين المجاهـدين والمسـافرين للكسب الحلال [2] ، وهـذا يؤيّد قـول رسـول الله (ص) : «**أيّما رجل جلب شــــيئا إلى مدينة من مـــــدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء**» [3] ، وهو تأكيد لقول الإمام الصادق ـ عليه الســلام ـــ : «**الكــادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله**» ، ويؤكد الله مرة أخرى أمره بتلاوة القرآن.

(**فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ**)

ولو بضع آيات ، المهم أن لا يترك المؤمن رسـالة ربه ، لأنّه قد يســتغني عن قيــام الليل ولكنّه لا يســتغني عن بصائر الوحي في حياته مهما كانت الظروف.

(**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**)

بممارسة شـــعائرها وفروضـــها ، وحقيقيّا بـــالتزام مضامينها ، وتحقيق أهـدافها على الصـعيد الشخصي وفي المجتمع.

(**وَآتُوا الزَّكاةَ**)

كناية عن كـلّ إنفـاق واجب ، يـزكّي المـؤمن نفسه وماله بإعطائه.

(**وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً**)

---

(1) الحج / 40.
(2) التفسير الكبير ج 30 ص 187.
(3) المصدر عن ابن مسعود.

وهو كـلّ إنفـاق مسـتحبّ في سـبيل الله [1] الـذي لا يضيع عنده عمل عامل أبدا.

(**وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ**) في الدنيا والآخرة. وفي الآية إشـارة ليس إلى العمل الصـالح الـذي يمهّد للمؤمـنين آخـرتهم وحسب ، بل أنّ كثـيرا من التوفيقـات والبركـات الـتي ينالها الإنسـان في الدنيا ، وهكـذا المكـاره الـتي تـدفع عنه ، ليست إلّا نتـائج قائمة على مقـدّمات سـابقة بـادر إليها ، والـتي من بينها الإنفـاق في سـبيل الله ، فـالمكروه الـذي يرتفع عن المتصـدّق إنّما ترفعه صـدقته الـتي قـدّمها قبل حدوثه .. فالمنفق في حقيقة الأمر يقدّم بإنفاقه خيرا لنفسه.

(**هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً**) حيث يتضاعف خيره وأجره بفضل الله تعـالى ، وكيف لا يتضاعف والمجازي ربّ المحسـنين؟! بلى. إنّ الصـدقة القليلة لا ينحصر خيرها وأجرها في الدنيا ، بدفع الشر عن صـاحبها ، وجلب البركة والتوفيق إليه ، بل يمتـدّ إلى الآخـرة أيضا ، فـاذا بالـدرهم الواحد يسـتحيل جنة عالية وحورا ونعيما لا ينقطع ، بل يضاعفه الله يوما بعد يوم.

(**وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ**) هنـاك قـال وقد خفّف حكم قيـام الليل : «فتـاب عليكم» وهنا يأمر المؤمـنين بالاسـتغفار ، ممّا يـوحي لهم بـأنّ تـرك القيـام بالليل غـير محمـود عند ربهم في حـال وجود العـذر ، فكيف بتركه دونـه؟! كما يثـير في أنفسـهم الشـعور بالتقصـير ، ومن ثمّ يـدفعهم للمزيد من السـعي والعمل الصالح والتقرب إليه بالاستغفار.

---

(1) لقد مر تفصيل في معنى القرض الحسن في سـورة الحديد الآية (11) فراجع.

(**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

وهـــذه الخاتمة تملأ القلـــوب أملا وطمعا في غفرانه ورحمته تعالى ، حيث أمـرهم بالاسـتغفار ، وأكّد إليهم بأنّه الغفـور الـرحيم ، وكـأنّ الخاتمة ضـمانة بالإجابة بعد الأمر المتقدّم بالاستغفار ، ولعل القـرآن يريد أن يقـول لنا بـأن أداء المـؤمن للفـروض الواجبة ــ كإقامة الصـلاة والزكـاة والإنفاق ـ ينبغي أن لا يشـحنه بـالغرور وشـعور الاكتفـاء ، فيقتصر على ذلك من دون المســـتحبات المشـــرّعة في الدين ومن بينها قيام الليل.

سورة المدّثر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي جعفر محمد بن عليّ البـاقر ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من قـرأ في الفريضة سورة المدّثّر كان حقّا على الله عـزّ وجـلّ أن يجعله مع محمّد ـ** صلّى الله عليه وآله **ـ في درجة ، ولا يدركه في حياة الدنيا شقاء أبدأ إن شاء الله**».

نور الثقلين / ج 5 ص 452

الإطار العام

بعد أن يستنهض الوحي النبي المدثر لتحمّل أعباء الرسالة بالإنذار ، وتكبير الله ، وتطهير ثيابه من كلّ نجاسة مادية ومعنوية ، ومقاطعة الرجز بالهجران ، ينهاه عن المنّة على الله لأنّها تقطع الخير ، ويأمره بالصبر له كضرورة تفرض نفسها على كلّ داعية حق وحامل رسالة. أوليس يريد الثورة على الواقع المنحرف والمتخلف؟ إذن يجب أن يتوقّع الكثير من المشاكل والضغوط المضادة في هذا الطريق ، وعليه يجب أن يتحمّل ويصبر كشرط للاستقامة وتحقيق الهدف (الآيات 1).

ولأنّ المؤمن يؤلمه تسلّط الطغاة والمنحرفين من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية ، وبالتالي يستعجل لهم الهلاك والجزاء ، فإنّ القرآن يسكّن ألمه هذا بتوجيهنا إلى يوم القيامة حيث الانتقام الأعظم من أعداء الرسالة والمؤمنين ، إذ ينقر في الناقور إيذانا ببدء يوم عسير لا يسر فيه على الكافرين وأشباههم ، يلاقون فيه ألوانا من العذاب الخالد الذي لا يطاق .. وأنّى يطيق المخلوق الضعيف انتقام ربّ العزة؟! (الآيات 8).

وهكذا نهتدي إلى أنّ محور السورة ـ فيما يبـدو لي ــ صراع الرسول مع مراكز القوة التي لا بد أن يتحدّاها بكلّ اقتدار.

ويعــالج الســياق طائفة من الأفكــار الخاطئة الــتي يتشــبّث بها المتســلّطون والمــترفون لــدعم مــواقعهم القيادية ، منها الــــزعم بأنّه لو لا رضا الله عنهم لما أوسع عليهم نعمة.

إذا فما في يد الكفّــار والطغــاة من نعيم ليس دليلا على حبّ الله لهم ، ولا على صـحة منهجهم في الحيـاة .. بلى. إنّ عنــدهم مــالا ممــدودا ، وأتباعا كثــيرة وأبنــاء ، وممهّدة لهم وسائل العيش الرغيد ، الذي لا يشــبعون منه ، بل يطمعـون في زيادته .. ولكنّهم ضـالون عن الصـراط السوي ، جاحدون لآيات الله .. وبالتالي مستحقون لعذابه وانتقامه ، والمقيـاس السـليم للتقــييم ليس المـادة ، بل القيم ، وليس الدنيا بل الآخرة ، والمترفون على عنــاد مع قيم الحق ، وخاســرون في الآخــرة ، فهنالك لا يبقى لهم نعيم ولا أنصار ، ولا مقـام احـترام كما هم في الـدنيا ، بل يتبــــدّل واقعهم إلى قطع من العــــذاب الأليم والمهين ، وتصـبح كـلّ نعمة أعطيت لهم وبـالا عليهم حيث لم يـؤدّوا شكرها .. فهم أشـدّ النـاس عـذابا لأنّهم قد أملي لهم من فضل الله ، ومن آلم ما يلقــون عــذابا الصــعود المرهق (الآيات 11).

وليس إرهاقهم بالعذاب مجـرد انتقـام عبـثي ، بل هو انتقام متأسس على الحسـاب الـدقيق والحكمة والعـدل ، فإنّك حيث تحقّق في ســـببه تجــــده منهجيتهم الخاطئة والضالة في الحياة ، والتي ترتكز على التفكـير المنحـرف والتقديرات الخاطئة .. فإنّها حقّا هي المسؤولية عمّا يحلّ بهم من اللعن والقتل والعــذاب ، فهم الــذين عبســوا وبسـروا ثم أدبـروا واسـتكبروا ، وكـان هـذا مـوقفهم من الحق قيما وقيــادة وحزبا ، بل ذهبــوا إلى أبعد من ذلك حينما رموا الحق بـالتهم الرخيصة الباطلة ، فقـالوا : «**إِنْ هـذا إِلَّا سِـحْرٌ يُـؤْثَرُ**» ، وقـالوا : بل هو من صـنع البشر وليس رسالة من الله .. من دون دليل إلّا

للطعن فيه والتهـرب من مسـئولية الإيمـان ، وإلّا لتضـليل الناس عن طريق الهدى وسبيل الرشاد (الآيات 18).

من هنا حقّ لو عذّب الله الكفّار المعاندين باعتبـارهم يبـارزون ربّ العـزة ويحـاربون الحق ، وبالـذات كـبراؤهم والملأ المترفين منهم ، كالحكّام الطغاة ، وأصحاب الثروة ، وأدعيـاء العلم ، ولـذلك يتوعّد الجبّـار واحـدهم بأشـدّ العذاب ، ويؤكّد ذلك لرسوله (ص) وكل رسالي يقف على خط المواجهة وفي جبهة التحـدي والصـراع ضد الباطل بأنّه سيصليه سقر ، وهي أشد أقسام النـار تلظّيا وحـرارة ورهبة بحيث لا يمكن لبشر أن يتصـوّرها ويـدري ما هي ، إلّا أنّ القرآن يشـير إلى بعض صـفاتها الرهيبة حيث أنّها لا تبقي ولا تـذر ، لوّاحة للبشر .. ومنظر آخر مخيف منها يمثّله ملائكة غلاظ شداد النار نفسها فرقة منهم.

إنّهم تسعة عشر .. هكذا يقول الله .. فأمّا المؤمنـون فـإنّهم تقشـعر جلـودهم ثم تلين ، وهكـذا يـزداد خـوفهم وتقـواهم لمجـرد سـماعهم قـول ربّ العـزة ، لأنّ المهم عندهم حقيقة الأمر لا تفاصـيله حـتى يختلفـون في ألـوان أولئك النفر الموكّلـون بسـقر من الملائكة ، ولا في أحجامهم وأوزانهم وعـددهم .. كما اختلف الكفّـار والـذين في قلوبهم مرض ، وفتنـوا أنفسـهم قـائلين : «**ما ذا أَرادَ اللهُ بِهـذا مَثَلاً**»؟! فضـلّوا عن الهـدف والحكمة ألا وهي التذكرة. (الآيات 26).

«**كَلَّا وَالْقَمَرِ* وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ**» هكـذا يقسم ربنا أقسـاما غليظة عظيمة مترادفة ، ويؤكّد بأنّ القضية كبيرة ومشتملة على موعظة وإنـذار عظيمين للبشر لو كـانوا يعقلـون .. بل إنّها ركـيزة أساسـية وملحّة للإنسـان في مسـيرته ومصـيره ، وذلك أنّ تقدمه (فـردا وأمة) وكذلك تأخّره رهين موقفه من حقائق هذه الـذكرى الإلهية للبشر (الآيات 33).

وفي سياق الحديث عن الآخرة وعذاب سـقر ينعطف بنا القـــرآن إلى آية مهمة في ســـورة ، بل في المنهجية الإسـلامية بصـورة عامة ، وذلك حينما يربط بين مسـتقبل الإنســان وحاضــره وبين ســعيه ومصــيره ومؤكّــدا بأنّه المسؤول عن نفسه ، فهو الذي بيده حبسـها في العـذاب كما بيـده فك رهانها منه ، والـدخول بها إلى جنّـات الخلد والنعيم. ويضع الله الناس فردا فـردا أمـام حقيقة عظيمة ومهمة يجب أن يضــعوها نصب أعينهم ، ويتحركـــوا في الحيـاة على إيحاءاتها ومسـتلزماتها .. ألا وهي أنّ الأنفس كلّها رهينة .. رهينة شـهواتها وضـلالها وقراراتها المنحرفة الخاطئة ، إلا أن يعتصم البشر بحبل الإيمـــان ويتبع منهجه فيخلّصــها الله من ســجنها الخطــير ، كما صــنع ويصــنع بأصحاب اليمين (الآيات 38).

ومن خلال حــوار قصصي يــدور بين أصــحاب الجنة والمجرمين ـ ينقله القرآن ـ تبصّـرنا الآيـات الربّانية بـأهمّ ركائز الجريمة التي تؤدّي إلى سقر والتي حـذّرنا ربنا منها ، وبذلك يجيب القرآن على سؤال يفـرض نفسه على كـلّ من يعرف حقيقة سقر ، حيث يبحث عن النجاة من شرّها ، ويسعى لتجنّب أسباب التورّط فيها ، وهي أربعة أساسية كما يقرّ المجرمون أنفسهم : (عدم كونهم من المصـلين ، وعـدم إطعـامهم المسـكين ، وخوضـهم مع الخائضـين ، والتكــذيب بــالآخرة) وما ذا يــرتجى لمن يوافيه الأجل ، ويلقى ربه على هــذا الضـلال البعيد والجريمــة؟ (الآيــات 40).

ومن يتــورّط في الــذنوب الأربعة الكبــيرة الــتي مــرّ ذكرها فإنّ مصيره النار لا محالة ، لأنّه لا عمل صالح عنده ينجيه من العــذاب ، ولن تدركه رحمة من الله وقد بــارزه وحاربه ، ولن يشفع له أحد ، ولو استشفع له أحد ـ جدلا ـ فلن تنفعه شــفاعة أبــدا ، لأنّ الشــفاعة تنفع من تكــون مسـيرته العامة في الحيـاة مسـيرة سـليمة ، ثم يـرتكب بعض الذنوب والمعاصي .. وليس المجرمون كــذلك (الآية 48).

وفي خاتمة السورة يستنكر القرآن على المجرمين (الكفّار ومرضى القلوب) إعراضهم عن تذكرة الله لهم ورحمته المتمثلة في آيات وحيه الهادية ، مع أنّهم مستقبلون أمرا عظيما ونارا لا تبقي ولا تذر .. ولا خلاص لهم إلّا بالإقبال على التذكرة ، والعمل على ضوء بصائرها وهداها!! إنّهم حقّا يشبهون ـ حيث يعرضون عن آيات الله ـ قطيع حمر انقضّ عليه ليث لا يدرون قسورة إلى أين يفرّون منه ، وما الحيلة للخلاص .. والحال أنّ آيات الله على عكس ذلك جاءت لتأخذ بأيديهم إلى ساحل الأمن والرحمة والسعادة ، وأولى بهم أن يستقبلوها كما يستقبل الضمأى والمجدبون غيث السماء .. «**بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً**» ولن يكون ذلك أبدا ، «**بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ**» وهذا في الحقيقة ـ أعني الكفر بالآخرة وعدم حضورها في وعي الإنسان ـ أكبر عامل في الانحراف ، وعدم الاهتمام بالتذكرة والتأثّر بها (الآيات 49).

ويردّ القرآن على أباطيل المدبرين عنه والمستكبرين على الحق ، الذين قالوا : «**إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ**» ردّا موضوعيّا حاسما في آيات ثلاث (54 ، 55 ، 56) تبيّن في نفس الوقت دور القرآن بأنّه التذكرة بالله وبالحق ، وأنّ الإنسان مكلّف بالاستجابة لهداه ، ولكنّه غير مجبور على ذلك بل مخيّر ، وإن كان توفيق التذكّر والهداية لا يحصل «**إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**» ومعرفة هذه الحقيقة أمر ضروري بالنسبة للإنسان ، لأنّها تحيي فيه روح التوكل على الله والتضرع إليه ، وتبعده عن الغرور الناشئ من الاعتماد على الذات.

خلاصة القول : إنّ الموضوع الرئيسي في السورة تصدي الرسول لمراكز القوى الجاهلية ، ولكنّها تعالج أيضا قضايا هامّة أخرى وهي : أنّ الغنى والقدرة وسائر نعم الله مجرد ابتلاء ، وليست دليلا على رضا الله عن أصحابها ، وأنّ الإنسان رهن سعيه ، وأنّ عليه هو أن يسعى نحو الهداية ، وأنّه لا يكره عليها إكراها.

سورة المدّثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)
وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ
تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ
(8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ (10) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ
مالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ
تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ
لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ
وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
(20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ
وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ
هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما
أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ
لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ

(30) وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (31)

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ

هدى من الآيات :

في البداية تـبيّن الآيـات الكريمة أهم الصـفات الـتي يجب توافرها في كلّ منـذر يتصـدّى لهداية النـاس وتغيـير الواقع بالرسالة ، وهي : تكبير الله وحده ، وتطهير الثيـاب من كـلّ دنس ونجاسة ، ومقاطعة الرجز بكـلّ أشـكاله وصوره ، وعدم المنّة على الله ، والصـبر والاسـتقامة في الطريق الشائك ، فالمنذر الرسـالي لا يكـون منـذرا إلّا إذا تحلّى بهـذه الصـفات اللازمة ، وكـذلك لا يمكنه تحقيق أهدافه (الهداية والتغيير) إلّا بها (الآيات 1).

ثم تنذر الكفّـار بيـوم عسـير عليهم لا يسر فيه ، يـوم الانتقـام ، الـذي يشـفي به الله صـدور المؤمـنين الـذين يتـذوّقون مـرارة الأذى منهم ، وبالتـالي يبعث فيهم روح الصبر والاستقامة (الآيات 8).

ومن هذا الوعيد العام لكلّ الكافرين ومرضى القلوب ، يخصّ الله بوعيده

أقطــاب الضــلال وأئمة الكفر .. بصــيغة الإفــراد .. وكأنّه يهدّدهم واحدا واحدا بالذات ، لا فرق بين من عاصر النـبي منهم ومن يأتي بعدهم ، مؤكّدا بأنّ ترفهم وما هم فيه من نعمة ليس دليلا على قــربهم منه وسـلامة منهجهم ، كلّا .. بل هو كيد عظيم ضدهم كما يـأتوا في الآخـرة ما لهم من خلاق ولا نصيب سوى العذاب الأليم ، لأنّهم جحدوا بالآيات وفكّروا وقدّروا فما أسوء ما فكّـروا فيه وقـدّروا فأصـيبت مقاتلهم ، ودفعوا أنفسهم في نـار سـقر لا تبقي ولا تـذر ، عليها تسـعة عشر من ملائكة الله الغلاظ الشـداد (الآيـات 11).

بينات من الآيات :

[1] مع اختلاف الكلمـــــتين (المزمل والمــــدثر) في معناهما ، واستقلال السورتين في موضوعهما وسياقهما ، إلّا أنّ البعض خلط بينهما إلى حـدّ التطـابق في النصـوص الـواردة في أسـباب التنزيل ممّا يضـعّف رواياتها عنـدي. قال تعالى :

(**يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**)

لقد أجمع المفسـرون على أنّ «المـدثر» هو رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ سمّاه ربّه بـذلك ، قـال الكلبي عن أبي عبد الله الصـادق ـ عليه السـلام ـ قـال : «يا كلبي كم لمحمد (ص) من اسم في القرآن؟» فقلت : اسـمان أو ثلاثة ، فقـال : «يا كلـبي له عشـرة أسـماء» وعدّها إليّ أن قال : «ويا أيّها المـدثر ويا أيّها المزمـل» [1] ووقع الاختلاف في أنّه (ص) لم سـمّي مـدثّرا ، فمنهم من أول الظاهر ، ومنهم من بقي عليه ، وتساءل : لما ذا تدثر الرسول بثيابه؟

فقـال جـابر عن رسـول الله (ص) أنّه قـال : جـاورت بحراء شهرا ، فلمّا قضيت

(1) البرهان ج 3 ص 28.

جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميــني وعن شــمالي فلم أر أحــدا ، ثم نوديت فرفعت رأسي فـإذا هو على العـرش في الهـواء ـ يعني جبرئيل ـ فقلت : دثّروني دثّروني فصـبّوا عليّ مـاء ، فأنزل الله عزّ وجلّ : «الآيات من المدثر» [1] ، وفي الدر المنثور : «فرفعت رأسي فإذا الملك الـذي جـاءني بحـراء على كرسي بين الســماء والأرض ، فجئت رعبا فقلت : .. إلخ» [2] ونقل الفخر الــرازي أنّ نفــرا من قــريش آذوا رسول الله (ص) وهم : أبو جهل ، وأبو لهب ، وأبو سفيان ، والوليد ، والنضر بن الحـرث ، وأمية بن خلف ، والعـاص بن وائل فقالوا : إنّ محمدا لساحر ، فـوقعت الضّـجّة في الناس : أنّ محمـدا سـاحر ، فلمّا سـمع رسـول الله (ص) ذلك اشــتد عليه ، ورجع إلى بيته محزونا ، فتــدثر بثوبه ، فجـاءه جبرئيل (ع) وأيقظه ، وقـال : «**يا أَيُّهَا الْمُـدَّثِّرُ**» [3] ، وضعّف السيوطي ذلك في أسباب النزول ص 223 ، ولقد انتقدت في سورة المزمل أسـباب الـنزول هـذه لما فيها من إشـارة إلى شك أصـاب الرسـول في رسـالته ، وضـعف في الموقف قبالة ضـغوط المشـركين ، بلى. قد يكون النبي (ص) حين نزول هـذه الآيـات متـدثرا لأسـباب عادية.

ومن المفسرين من تأول لكلمة المـدثر غـير ظاهرها فقال : إنّ المراد كونه متدثرا بدثار النبوة والرسـالة ، من قــولهم ألبسه الله لبــاس التقــوى ، وزيّنه بــرداء العلم ، ويقال : تلبّس فلان بكذا [4] ، وقد نقل العلّامة الطباطبائي هـذا الـرأي في تفسـيره وقـوّاه [5] ، وقيل : المـراد به الاستراحة والفراغ ، فكأنّه قيل له : يا أيها المستريح

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 384 والتبيان ج 10 ص 171 ، والكشاف ج 4 ص 644 والتفسير الكبير ج 30 ص 189 ، وفي ضلال القـرآن ج 8 ص 345 ، والميزان ج 20 ص 83.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 280.
(3) التفسير الكبير ج 30 ص 190.
(4) المصدر.
(5) الميزان ج 20 ص 79.

الفـــــارغ قد انقضى زمن الراحة ، وأقبل زمن متــــاعب التكاليف وهداية الناس [1] ، وهو بعيد عمّا نعرفه من خلق الرسول الذي ما كان ليستريح ولا يــني يجاهد لإعلاء كلمة الله قبل وبعد البعثة.

وفي اللغة : المدثر : المتفعّل من الدثار ، إلّا أنّ الثـاء أدغمت في الـدال لأنّها من مخرجها ، مع أنّ الـدال أقـوى بالجهر فيها عن التبيان ، وهو المتغطي بالثياب عند النوم [2] ، يقال : تدثر تدثرا ، ودثـره تـدثيرا ، ودثر الرسم يـدثر دثورا إذا محي أثره [3] ، والقوي عندي في معنى المـدثر ثلاثة آراء :

الأول : ظاهر الكلمة أي المتدثر بغطاء ، فـإنّ الـوحي كان ينزل على رسول الله (ص) في مختلف حالاته ، راكبا وراجلا ، ونائما ويقظا و.. و..

الثاني : المتدثر بـدثار النبـوة ، وقد بيّنا ما يشـبه ذلك في تفسير الآية الأولى من سورة المزمل.

الثالث : المتكتّم والمتخفّي ، وإنّما سمّي الدثار دثــارا لأنّه يخفي النــائم ، من بــاب دثــرت المعــالم إذا انمحت واختفت ، وعليه يحتمل أن تكــون ســورة المــدثر فاتحة المرحلة العلنية من الـدعوة الإسـلامية ، الـتي مـرّت في بدايتها بظروف السرية والكتمـان .. وإذا صـحّ هـذا الـرأي نكون قد وصلنا إلى حـلّ للاختلاف بين المفسـرين في أنّه هل العلق هي أول ما نزل من القرآن أم سـورة المـدثر؟ حيث يوصــلنا هــذا الــرأي إلى أنّ العلق هي أول ســورة نـزلت على الإطلاق ، أمّا المـدثر فهي أول إيـذان بـإعلان الدعوة من الله.

---

(1) المصدر.

(2) مجمع البيان ج 10 ص 383.

(3) التبيان ج 10 ص 172.

(**قُمْ فَأَنْذِرْ**)

قـــال الـــرازي : في قوله : «قم» وجهـــان : قم من مضجعك ، وقم قيـام عـزم وتصـميم [1] ، ويتسع المعـنى لقيام الجهاد والتغيير والثورة لوصـفه تعـالى المتقاعسـين والساكتين بالقاعدين في قوله «**وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِـدِينَ أَجْـراً عَظِيمـاً**» [2] وهكـذا في مواضع أخـرى من القـرآن [3] ، والإنـذار والتحـذير من عـواقب الضـلال والانحـراف إنّه من أهمّ أهـداف الحركة الرسـالية الأصـــيلة ومنطلقاتها ، لأنّه يعكس في الحقيقة تحسّـــس الطلائع بـالواقع الفاسد ، ومن ثمّ تحـرّكهم للتغيـير إيمانا بالمسؤولية الربّانية.

بلى. قد يكـــون نفسه على الطريق الســـوي ، ولكنّ مسئوليته شاملة لا تنحصر في ذاته وحسب ، بل هو كفرد من المجتمع مسـئول عن واقعه ، ليس من زاوية إنسـانية ودينية فقط بل من زاوية واقعية أيضا ، فـــــــــإنّ تخلّف مجتمعة وأمّته يـــؤثّر عليه شـــاء أم أبى ، وإنّ القـــوانين والسنن الجزائية تطال الجميع دون اسـتثناء .. ولا ريب أنّ نشر القيم الصـــالحة ، وتوعية المجتمع ، ومن ثمّ تغيـــير مسيرته نحو الصواب ، يجعل الإنسان أقـرب إلى أهدافه ، وأقدر على بلوغها بصورة أسرع وأفضل حيث يتحـرّك في محيط صالح ممهّد للنهضة والتقدم.

ومن الناس من يتوانى عن أداء مسـئوليته الاجتماعية ، ويتعلّل بفهمه الخـــاطئ لقـــول الله ســـبحانه : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَـكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**» [4] ويـزعم أنّه يـأمر بالتقـاعس والتسـاهل إزاء تخلّف المجتمع وانحرافه ،

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 190.
(2) النساء 95.
(3) المائدة 24 ، التوبة 46 ـ 86.
(4) المائدة 105.

كلّا .. أليس الظـاهر القـرآني حجّـة؟ أوليس هـذا القـرآن ينادي فينا بالقيام والنهضة للتغيير؟ أو ليس القرآن رسالة الله إلى كلّ إنسان مكلّـف؟ أوليس الرسـول (ص) أسـوة حسنة لنا جميعا .. فقد قـام وأنـذر وأصـلح بـذلك مجتمعة وأسّس حضارة الإسلام.

إنّ الطلاق بين الأمة ورســـالتها ، وتقليد الشــــرق والغـــرب ، وســـبات العقل ، وحالة الفردية والتفـــرق ، والجهل ، والقعود عن الجهاد في سـبيل الله ، و.. و.. كلّها خطوات نحو أسوء العواقب ، ويجب علينا أن ننذر أنفسـنا وأمتنا من مخاطرها ، وأعظم ما ينبغي التحـــــذير منه هو نسـيان الله عـزّ وجـلّ فإنّه لمّا كـان لا مخافة أشـدّ من الخوف من عقاب الله كان الإنـذار منه أجـلّ الإنـذار ، كما يقول شيخ الطائفة [1].

وعلّق صـاحب المـيزان على أمر الله للنـبي بالإنـذار فقال : والتقدير : أنذر عشيرتك الأقـربين لمناسـبة ابتـداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء [2] ، والأقـرب إطلاق الإنـــذار ، لأنّ التخصـــيص لا دليل عليه ، مع أنّ ســـياق السـورة وجوّها العـام يوحيـان إلى أنّه موجّه إلى الكفّـار جميعا ، وهكــذا يــوجب الإنــذار لجميع النــاس على كــلّ مسلم.

[3] وبعد الأمر الإلهي بالقيـام والإنـذار يـبيّن القـرآن أهمّ الصفات التي يجب توافرها في المنـذر ، حـتى يكـون عند الله منـــذرا بتمـــام المعـــنى ، ولكي تثمر جهـــوده ومساعيه .. فليس المهم أن ينهض الواحد للجهاد والتغيير وحسب ، بل الأهم أن يـــؤدّي دوره على الوجه الصـــحيح والأكمل ، وذلك بالتزامه بخمس صــــفات في شخصـــيته ومسيرته :

(1) التبيان ج 10 ص 171.
(2) الميزان ج 20 ص 80.

الأولى : تكبير الله.

(**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**)

إنّ المـؤمن حينما يقـوم منـذرا لله يواجه في طريقه عشـرات العقبـات النفسـية والتحـديات الاجتماعية ، كما يواجه القـوى المضـادة اقتصـادية وسياسـية واجتماعية ، وواجبه تحـــديها ورفض الخضـــوع لها ، إلّا أنّه يجد نفسه عادة أمام أحد خيارين : إما الانهزام وإما التحدي والنصر ، فكيف يسير باتجاه خيار التحدي؟ إنّما يرتكز الإنتصـار ذلك على مدى رسوخ توحيد الله في نفسه ، وذلك بـأن يكبّـره في وعيه ويعظّمه في نفسه قبل أن يكبّره بلسـانه ، فآنئذ يصغر كل شـيء دونه ، وتتسـاقط في داخله كل الأصـنام. وهـذا هو سر انتصـار المؤمـنين على العقبـات والتحـديات والضـغوط والقـوى المضـادة. وإنّها لصـفة أصـيلة فيهم يصفها الإمام أمير المؤمـنين (ع) بقوله : «**عظم الخـالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم**» [1] ، وعلى ضوء هذه المعادلة يجب أن نفهم معنى التكبـير في حياتنا الفردية والاجتماعية والسياسية.

وإنّما تتعمّق هذه الحقيقة في وعي الإنسان بالمعرفة السليمة بالله ، وأنّه الكبير المتعال ، وأنّه فـوق أن يوصف أو تـرقى إلى ذاته كلمـات البشر أو تصـوّراته ، ولهـذا ورد في معنى (الله أكبر) عن أئمة الهدى ـ عليهم السلام ـ أنّه أكبر من أن يوصف [2] ، وفيما يلي ننقل رواية تـبيّن نـورا من أنوار عظمة الله عزّ وجـلّ : روى الإمـام الصـادق (ع) عن جـدّه المصـطفى ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أنّه قـال : والأشياء كلّها في العرش كحلقة في فلاة ، وإنّ لله تعالى ملكا يقـال له «خرقائيـل» له ثمانية عشر ألف جنـاح ، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام ، فخطر له خـاطر : هل فـوق العـرش شـيء؟ فـزاده الله تعـالى مثلها أجنحة أخرى ، فكان له ست وثلاثون ألف

---

(1) نهج البلاغة خ 193 ص 303.

(2) الميزان ج 20 ص 80.

جنـاح ، ما بين الجنـاح إلى الجنـاح خمسـمائة عـام ، ثم أوحى الله إليه : أيّها الملك طر ، فطـار مقـدار عشـرين ألف عـام لم ينل رأس قائمة من قـوائم العـرش ، ثم ضاعف الله له في الجناح والقوة ، وأمره أن يطـير فطـار مقـدار ثلاثين ألف عـام لم ينل أيضا ، فـأوحى الله إليه : أيّها الملك لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ إلى ساق عرشي! فقال الملك : سـبحان ربي الأعلى فأنزل الله عزّ وجلّ : «**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**» فقـال النبي : اجعلوها في سجودكم [1].

ولعل من مفـاهيم تكبـير الله أن يسـعى الإنسـان المـؤمن لتحطيم كيـان الضـلال والكفر ، كي تتهـاوى الأنظمة والمعـادلات الاسـتكبارية ، وتبقى كلمة الله هي العليا في الواقع السياسي والاجتماعي ، ويكون هو الأكـبر في نفـوس النـاس ووعيهم ، وتكبّـره ألسـنتهم بالغـدوّ والآصـال ، قـال الفخر الـرازي : وهكـذا تنبيه على أنّ الدعوة إلى معرفة الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سـائر أنـواع الـدعوات [2] ، والـذي يريد أن يـدعو النـاس إلى التوحيد يجب عليه أن يسـقط كـلّ الأصـنام في نفسه بـالتكبير أوّلا ، ثم يقـدم نفسه نموذجا حقيقيّا لرسـالته ، فـإنّ ذلك يعظّم الله ويكبّـره في نفـوس الآخـرين. ومن معاني تكبير الله أن يتجرد الفرد الرسالي في دعوته لربه ، فلا يتخذ رسـالته وسـعيه وسـيلة لتكبـير أحد دونه ، كالحكومات الجائرة ، أو الذات والعشـيرة والقومية .. كما يصنع علماء السوء الذين يتخذون الدين ذريعة لمصـالحهم وتضخيم أنفسهم في المجتمع.

الثانية : تطهير الثياب.

(**وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ**)

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 58 ص 34.

(2) التفسير الكبير للرازي / ج 30 ص 191.

ويبـــدو أنّ الثيـــاب هي عمـــوم ما يتصل بشخصـــية الإنسان ظاهريّا ، ولذلك مصاديق ذكر المفسـرون بعضـها ومنها :

1 ـ اللبـاس ، فإنّه يجب على الداعية الرسـالي أن يهتم بأناقته ونظافته في جـوّ العمل الرسـالي الحـادّ ، وليس صـحيحا أن ينسى مظهـره بحجة خوضه الصـراع الاجتمـاعي والسياسي ، والتحـديات المضـادة ، ولا بد أن يعلم بأنّ تصرفاته وسلوكه ومظهره كلّ ذلك مقيـاس عند البعض ودليل على شخصيته ومن ثمّ رسالته.

وتطهـير اللبـاس يعـني رفع النجاسة عنه ، ومراعـات القواعد الصحية العامة ، وهناك روايـات فسّـرت التطهـير بأنّه تقصـير الثيـاب كي لا تعلق النجاسـات والأوسـاخ الأرضـية بها ، قـال الإمـام علي (ع) : «**ثيابك ارفعها لا تجرها**» [1] وعن طاووس : وثيابك فقصّر ، قـال الزجّـاج : لأنّ تقصـير الثيـاب أبعد من النجاسة ، فإنّه إذا انجـرّ على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه [2] ، فالغرض إذن أن لا يطـال الأرض ، وليس كما فهم بعض المتزمّـتين الـذين راحوا يقصّرون ثيابهم إلى قريب الركبة! وقيل في معـنى تطهـير الثيـاب : اتخاذها من الحلال دون الحـرام لأنّه نـوع من الطهارة [3].

2 ـ الأزواج ، قـال في المجمع : وقيل معنـاه : وأزواجك فطهّـرهنّ من الكفر والمعاصي حـتى يصـرن مؤمنـات [4] ، ولعل في قـول الله عن الزوجـات : «**هُنَّ لِبـاسٌ لَكُمْ**» [5] إشـارة إلى هـذا المعـنى ، ومن الناحية الواقعية فـإنّ أسـرة الإنسـان وبالـذات زوجه مظهر لشخصيته كما الثوب.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 453.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 385.
(3) المصدر.
(4) المصدر.
(5) البقرة 187.

3 ـ وقيل أنّ البدن من مصاديق الثياب باعتباره ثـوب الروح ووعائها ، وقيل معناه : ونفسك فطهّر من الذنوب ، والثياب عبـارة عن النفس [1] ، يقـال : طـاهر الثيـاب أي طـاهر النفس مـنزّه عن العيب ، ودنس الثيـاب أي خـبيث الفعل والمذهب [2].

ولعلّ التكبير هو عنوان الطهـارة الباطنية ووسـيلتها ، وأمر الله بتطهـير الثيـاب بعد الأمر بـالتكبير يهـدينا إلى ضـــــرورة الطهـــــارتين الباطنية والظاهرية عند الداعية الرسالي ، فـإنّ الآخـرين وبالـذات المغرضـين منهم قد لا يجدون ثغرة في رسالة المـؤمن ومبادئه وحـتى شخصـيته الذاتية ولكنّهم يجدون بعض الثغرات في مظـاهره (ثيابـه) يطعنونه من خلالها ، ويشوّهون شخصيته وسمعة رســالته عبرها.

الثالثة : مقاطعة الباطل مقاطعة تامة وشاملة :

(**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**)

أي اقطع صـــلتك بـــه. واختلف في الرجز فقيل : هو الأصـنام والأوثـان عن ابن عبـاس ، وقيل : المعاصي عن الحسن ، وقيل معناه : جانب الفعل القبيح والخلق الذميم ، وقيل معنـاه : أخـرج حبّ الـدنيا من قلبك لأنّه رأس كـلّ خطيئة [3] ، وقيل : اهجر ما يؤدّي إلى العذاب [4] ، وقال الرازي : الرجز العذاب ، قال الله تعالى : «**لَئِنْ كَشَـفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ**» أي العـذاب ، ثم سـمّي كيد الشـيطان رجـزا لأنّه سبب للعذاب ، وسمّيت الأصنام رجزا لهـذا المعـنى ، فعلى هذا القول تكون الآية

(1) مجمع البيان ج 10 ص 385.
(2) المنجد مادة ثوب.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 385.
(4) التبيان ج 10 ص 173.

دالة على وجوب الاحتراز عن كلّ المعاصي [1] ، ومثله صاحب الكشّاف والميزان. وعن جابر قال : سمعت رسول الله. (ص) يقول : «**هي الأوثان**» [2].

وكلّ ما ذكره المفسرون صحيح ، إلّا أنّه مصاديق لشيء واحد هو الباطل ، وأظهر مفردات الرجز التي يجب على الداعية الرسالي مقاطعتها التالية :

ألف : على الصعيد الفردي .. العقائد والأفكار الباطلة ، والأخلاق والصفات السيئة ، والممارسات والسلوكيات الخاطئة.

باء : وعلى الصعيد الاجتماعي .. الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، كالزنا والسرقة وشهادة الزور وظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل .. ويدخل في الرجز الاجتماعي مجالس البطّالين ورفاق السوء ، فإنّهما يفسدان أخلاق المؤمن ، ويؤثّران سلبا على مسيرته.

جيم : وعلى الصعيد السياسي .. التعاون مع الطاغوت والحكومات الفاسدة ، والركون إلى الظالمين ، وهكذا الانتماء إلى التجمّعات السياسية المنحرفة ، والخضوع للقيادات الضالة والجائرة.

الرابعة : عدم المنّة على الله بل الإحساس الدائم بالتقصير تجاهه.

(**وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ**)

والمؤمن الصادق لا يتبع جهاده وسعيه بالمنّ والاستكثار أبدا ، ذلك لأنّه يعدّ عمله الصالح شرفا وفّقه الله إليه ، وأنّه الذي يستفيد من العمل في سبيل الله في

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 193.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 281.

الــدنيا والآخـــرة وليس العكس ، لأنّه المحتـــاج إلى الله والفقـير لرحمته ، وإلى ذلك أشـار القـرآن بقوله تعـالى : «**قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَـلِ اللـهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمـانِ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ**» [1]. ثم إنّ المـؤمن إنّما يعمل صالحا لينال ثواب الله ورضـوانه ، والمنّ يبطل الأجر فلما ذا يمنّ على ربه؟ قـال الإمـام علي (ع) يوصي مالك الأشـــتر لمّا ولّاه مصر : «**وإيّـــاك والمن على رعيّتك بإحسانك .. فإنّ المن يبطل الإحسان**» [2]. ثم كيف يمنّ المــؤمن على ربه وهو يعلم بأنّه لو لا فضـــله ورحمته لما صدر منه الإحسان ولما استطاع إليه سبيلا؟!

ولكلمة «تستكثر» معنيان يهتدي إليهما المتدبر :

الأول : لا تمنّ على الله باستكثار عملك ، قال الرازي : لا تمنن على ربك بهذه الأعمـال الشـاقّة كالمسـتكثر لما تفعله .. ونقل عن الحسن قوله : لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها [3].

الثاني : لا تمنّ على الله فإنّ ذلك يزيدك عملا صـالحا وأجـرا بعد أجر ، فـإنّ أصل المنّ هو القطع ، والـذي يمنّ على ربه عمله في سبيله فإنّه لا يسـتزيد عملا ، والسـبب أنّه حينئذ يشـعر بالاكتفـاء والإشـباع فلا يجد حاجة تـدعوه إلى المزيد من الســعي والاســتكثار من الخـــير. وعلى الصـعيد الاجتمـاعي فـإنّ المنّ على النـاس يـدعوهم إلى النفور من الداعية ، كما أنّ عدمه يدعوهم للالتفـات حوله بكثرة. وما أكثر ما منع المن ولا يزال الخـير والتكامل عن الكثـير من النـاس! أمّا المؤمنـون المخلصـون والواعـون فإنّهم لا يمنّـون على الله أبـدا لعلمهم بـأنّ الإنسـان مهما عمل صــالحا فإنّه قليل بالنســبة إلى أهدافه ، وبالنســبة للجزاء الذي سوف يؤجره ربّه به على

---

(1) الحجرات 17.
(2) نهج البلاغة كتاب 53 ص 444.
(3) التفسير الكبير ج 30 ص 194.

أعماله.

الخامسة : الصبر والاستقامة في طريق الحق.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)

وهذه الآية تكشف لنا طبيعة المسـيرة الرسـالية بأنّها مليئة بالضغوط والمشاكل ، لأنّها الطريق إلى الجنة الـتي حفّت بالمكـــاره ، ويجب على كل داعية إلى الله وكـــلّ مجاهد أن يعي هذه الحقيقة وقد اختار الانتمـاء إلى حـزب الله والعمل في سبيله ، ومن ثمّ يعـدّ نفسه لمواجهة كـلّ التحديات والمكاره بسلاح الصبر والاستقامة.

إنّ الـــذي يتصـــور طريق الحق خاليا من الأشـــواك يخطئ فهم الحيـــــــــاة وســـــــــنن التغيـــــــــير. أولست تريد بناء كيـان الحـقّ على إنقـاض الباطـل؟ بلى. فـــأنت إذن في صـــراع جـــذريّ مع الباطل بكـــلّ أثقاله وامتداداته .. مع النظـام الفاسد ، والطـاغوت المتسـلّط ، مع الثقافة التبريرية ، مع الاعلام التخـــــديري ، مع التربية الفاسـدة ، مع العلاقـات المتـوتّرة بين النـاس .. وبكلمة : مع تخلّف المجتمع الفاسد الذي تسـعى لعلاجه ، فلا بد أن تتوقّع ردّات الفعل المضـــادة ، والضـــغوط والتحـــديات المتوالية والمركّزة في طريقك.

وحيث يحتـــدم الصـــراع ويصـــعّد مرحلة بعد مرحلة تتضاعف التحديات والضغوط ، الأمر الـذي يضع الرسـالي (فردا وحركة) أمام خيارين : الهزيمة أو الصمود ، وخيـاره الأصيل هو الاستقامة ، فيجب إذن أن يصـبر لربه ، والـذي يعني عدّة أمور :

الأول : أن يجعل صـــبره خالصا لوجه الله ، لا يريد إلّا رضوانه وثوابه.

الثاني : أن يستقيم على الحق حتى لقاء ربه عزّ وجلّ ، كما قال الله : «وَاعْبُدْ

رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [1] ، فالصبر إذن ليس له حـدّ كما يزعم البعض الذين يـبرّرون هـزيمتهم وتـراجعهم ، بل يجب أن يصبر المؤمن ويصبر حتى يلقى ربه.

الثـالث : أن يصـبر لحكم ربه ويسـلّم لقضـائه بعد أن يقوم بما ينبغي عمله ثم يترك الأمر لله يقدّر فيه ما يشـاء ، وهذا معنى التسليم لله والتفويض إليه ، وهو درجة عالية من اليقين تضـمّد جراحــات الداعية ، وتطمئنه بـأنّ الله ليس بغافل عما يلاقيه ، وهو رقيب على كـــلّ شــــيء ، وسـوف ينتقم في المسـتقبل من أعدائه ، وتتضـمّن الآية تحذيرا موجّها إلى الكفّـار والمعانـدين بالانتقـام ، وهـذا ما يفسّر العلاقة بينها وبين الآيات القادمة.

[8 ـ 10] (**فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ**)

في المنجد : النــاقور جمعه نواقــير ، وهو العــود أو البـوق ينفخ فيه ، والنقر هنا بمعـنى النفخ ، وكـانت هـذه الآلة تستخدم قديما لجمع الناس والجيوش في المناسبات ، والذي يقصد بالناقور في هـذه الآية الصـور ، الـذي ينفخ فيه إسـرافيل مـرّة فيصـعق من في السـموات والأرض ، وأخرى فيبعثون للحساب والجزاء ، وهو كهيئة البـوق. وقد اختلف المفســـرون في النفخة هــــذه هل هي الأولى أو الثانية ، فقوّى صاحب التبيان كونها الأولى ، وقـال : قيل : أنّ ذلك في أول النفخـتين ، وهو أول الشـدة الهائلة [2] ، وقيل : أنّها النفخة الثانية [3].

والأقـربـ عنـدي حمل النقر على الإطلاق ، فـإنّ كلا النفخـــتين عســيرتان على الكــافرين ، فأمّا الأولى فإنّها تسلبهم ما في أيديهم من نعيم وحياة ، وأمّا الثانية

---

(1) الحجر 99.

(2) التبيان ج 10 ص 174.

(3) مجمع البيان ج 10 ص 385.

فهي تبعثهم للوقــوف بين يــدي جبّــار الســموات والأرض للحســــاب والجــــزاء. ولا ريب أنّ النفخة الــــتي يعقبها الحساب أعسر من الأخرى التي تميت الناس فقط.

وقد يكون التعبير مجازيا أيضا ، بحيث يصير النقر في الناقور كناية عن يوم الانتقام .. كما نقــول قــرعت طبــول الحرب.

(**فَـذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَـوْمٌ عَسِـيرٌ* عَلَى الْكـافِرِينَ غَيْـرُ يَسِيرٍ**)

فهو يوم عسر مطلق لا يسر فيه على الكـافرين ، أمّا المؤمنــون فــإنّهم مخصوصــون بلطف الله ورحمته ، ممّا يهـدينا إلى أنّ الجـزاء والانتقـام الإلهي قـائم على أسـاس الحكمة والتـدبير الـدقيق. ومن الآيـتين مجموعة يتـبيّن أنّ ذلك اليوم بذاته عسـير جـدا لما فيه من أحـداث ومواقف عظيمة لو لا أنّه تعالى ييّسره على المؤمنين.

وحضــور ذلك اليــوم في وعي المؤمــنين ، وبالــذات الطلائع والقيـادات الرسـالية الـذين يخوضـون الصـراع ، ويواجهون آلاف الضغوط والتحديات ، من شـأنه أن يثبّتهم على الطريقة ، ويصـبّرهم على الأذى في جنب الله ، إذ لا يخشـون الفـوت فيسـتعجلوا ، بل هم على يقين بـأنّ في ضمير المستقبل يوم انتصـار على الأعـداء وانتقـام حتميّ منهم للحق ، وأنّ السبيل لدفع عسـره تجـرّع آلام الجهـاد من أجل الحق ، والصبر لله في الحياة الدنيا.

[11] وليس بالضـرورة أن يتحقّق هـذا الوعد غـدا أو بعد غد ، وليس صـحيحا أن نشـكّك فيه لو تـأخّر عنا قليلا ونترك الجهاد في سبيل الله ، أو إنذار الكفّار .. كلّا .. فإنّ تـدبير الأمـور بيد الله ذي الحكمة البالغة والعلم المحيط ، وخطأ أن يعـترض أحد على تقديراته ، بل يجب أن نسـلّم له تسـليما مطلقا بأنّه يفعل ما فيه الخـير والصـلاح ، أمّا نحن فقاصرون عن إدراك حكمة كلّ قضـاء وقـدر ، فلعلّه آخر طاغية يتسلّط على رقاب الناس ، ويعيث الفساد في الأرض ، أو جعل أمر شعب من

الشـــعوب رهن أســـرة فاســـدة طاغية يتوارثـــون الحكم والظلم فليفعل ربنا ما يشـاء مسـلّمين بقضـائه كما أمرنا بذلك وقال :

(**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً**)

انّ حمل أمانة الرســـالة ومن ثمّ مســـئولية الإنـــذار والتغيير واجب إنساني شرعي ، مكلّف به كلّ مؤمن ، بل كلّ إنسان عاقل مسـتطيع ، أمّا مـتى وكيف يتغيّر النظـام الحـاكم ، وينتصر أهل الحق على حـزب الشـيطان ، فإنّه أمر يختصّ به ربّ العزّة ، وما ينبغي لنا الإيمـان به حكمته البالغة ، وبذلك نزداد صبرا واستقامة.

وللآية عدة تفاسير أهمها وأقربها :

الأول : أنّها وعيد للكفّار ، أي دعني وإيّاه فـإنّي كـاف له في عقابه ، كما يقـــول القائل : دعـــني وإيّـــاه ، وعن مقاتل : معناه : خلّ بيني وبينه فأنا أفرد بهلكته [1].

الثاني : أنّها إشارة إلى أصل خلقة الإنسان ، فمعناه : دعني ومن خلقته في بطن أمّه وحده لا مال له ولا ولد [2] ، شـــبيه قوله تعـــالى : «**وَلَقَـدْ جِئْتُمُونا فُـرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**» [3] ، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنّه تعـالى سـوف يسـلب منه ما أعطـاه من النعيم ، فهو في الأصل كان وحيدا جاء إلى الـدنيا لا شـيء معه ، فمنّ الله عليه بالأموال الممدودة والبنين الشهود.

الثـــــالث : أنّها طعن في نسب الوليد بن المغـــــيرة بصورة خاصة إذ كان مجهول

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 387.
(2) المصدر.
(3) الأنعام 94.

الوالد ، فعن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن الإمـام الصادق (ع) قال : «إنّ الوحيد ولد الزنا» [1] ، وقال زرارة : ذكر لأبي جعفر ـ عليه السلام ـ عن أحد بـني هشـام أنّه قـال في خطبته : أنا ابن الوحيد (يعــني المتميّز المنقطع عن النظير ، وهكذا كـان هـذا الأمـوي يفتخر بالوليد الـذي لعنه الله من فـوق عرشـه) ، فقـال البـاقر عليه السلام : «**ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بهـا» فقلنا له : وما هو؟! قال : «من لا يعرف له أب»** [2].

وقيل معنــاه : دعــني ومن خلقته متوحـــدا بخلقه لا شـريك لي في خلقه .. هكـذا في مجمع البيـان والتفسـير الكبير [3] ، وعن أبن عبّاس : كان الوليد يسمّى الوحيد في قومه [4] ، قال الفخر الرازي : وكان يلقّب بالوحيد ، وكان يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي في العرب نظـير ، ولا لأبي نظــير ، فــالمراد «**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ**» أعــني «وحيــدا» وطعن كثــير من المتــأخرين في هــذا الوجه ، وقالوا : لا يجوز أن يصدّقه الله في دعــواه : أنّه وحيد في هـذا الأمـور .. ذكر ذلك الواحـدي ، والكشّـاف ، وردّ عليه ثلاثة ردود [5].

ولقد كـــان الوليد بن المغــيرة من طغــاة الجاهلية المــترفين ، الــذين أقبلت عليهم الــدنيا بزينتها (المــال والبنون) كما وصف الله بقوله :

(**وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً**)

وما دام الله هو الــذي جعله فإنّه قــادر على ســلبه والذهاب به ، لأنّه لم يجعله إلّا

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 387.

(2) المصدر.

(3) راجع مجمع البيان ج 10 ص 387 والتفسير الكبير ج 30 ص 198.

(4) المصدر الأول.

(5) التفسير الكبير ج 30 ص 198.

لحكمة بالغة. والمال الممدود هو الكثير والمتنـامي ، قـال الطبرسي في المجمع : ما بين مكة إلى الطـــــــائف من الإبل المؤبّلة ــــ المجمّعة ــــ والخيل المســوّمة ، والنعم المرحلة ، والمسـتغلّات الـتي لا تنقطع غلّتها ، والجــواري والعبيد والعين الكثــيرة ، وقيل : الــذي لا تنقطع غلّته عن سنة حتى يدرك غلّة سنة أخرى فهو ممـدود على الأيّـام ، وكان له ـ يعـني الوليد ـ بسـتان بالطـائف لا ينقطع خـيره في شتاء ولا صيف [1].

(**وَبَنِينَ شُهُوداً**)

إذا كان له عشرة أولاد «شهودا» حضـورا معه بمكة ، لا يغيبون لغناهم عن ركوب السفر للتجـارة [2]. وقد كـانت كثرة الأولاد ـ الذكور بالذات ـ تعدّ من أكـبر النعم في ذلك العصر بالخصـوص بسـبب العـادات والظـروف الاجتماعية والأمنية الحاكمـة. أضف إلى ذلك أنّ مشـيهم مع والـدهم وسـيدهم يعطيه عـزة وهيبة بين النـاس ، فكيف إذا كـان نفسه شـيخ عشـيرة وصـاحب جـاه وثـروة؟! وإلى هـذا المعـنى أشـار الـرازي فقـال : إنّهم رجـال يشـهدون معه المجامع والمحافل [3].

وكلمة «بنين» شاملة تتسع لأكثر ممّا تتسع إليه كلمة الأولاد ، فهي تشمل الأولاد من الصلب ، والأولاد بـالتبنّي ، والأتبـــاع ، لأنّ بين التـــابع والمتبـــوع علاقة التبنّي ذات الطرفين ، وما أكثر أولئك المصلحيّين الذين تحلّقـوا حـول الوليد ، ولا يزالون يتبعون المترفين طمعا في أن يصـيبهم فتات من طعامهم.

ثم أنّه تعـــالى حيث أراد به كيـــدا فتح عليه أبـــواب الخـــيرات كي يلقـــاه في الآخـــرة وما له من خلاق ، فبالإضافة لنعمتي المال الممدود والبنين الشهود بسط له من فضله ما مهّد به سبل العيش الرغيد وذلل العقبات.

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 387.

(2) المصدر.

(3) التفسير الكبير ج 30 ص 198.

(**وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً**)

قال في المنجد : مهّد الفراش : بسطه ووطّأه ، والأمر سوّاه وسهّله وأصلحه ، وتمهّد الرجل : تمكّن ، والمهدة جمعها مهد وهي ما انخفض من الأرض في سهولة واستواء [1] بحيث يتمكّن الناس من المشي عليها بسهولة وراحة. وعلى مثل هذا أجمع المفسرون ، قال الرازي : أي وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه ، فأتممت عليه نعمتي المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، ولهذا يدعى بهذا فيقال : أدام الله تمهيده ، أي بسطته وتصرّفه في الأمور [2] ، ومن التمهيد صحة البدن وراحة البال وما أشبه. والمفعول المطلق «تمهيدا» يفيد التأكيد والمبالغة في الاستغراق.

وكانت هذه النعم داعية إلى الشكر والإيمان لكلّ عاقل وصاحب ضمير حي ، فهي بمثابة عامل يعبّد طريق الهداية للإنسان ويمهّده له لو تفكّر وعقل ، ولكنّ الوليد كان مريض القلب ، ولذلك كان يزداد ضلالا وإصرارا على الكفر بنسبة طردية كلّما توالت عليه النعم ، والسبب أنّ غير المؤمن يقف عند حدّ الدنيا ، وتسيطر عليه الروح المادية بحيث يصبح جمع حطامها هدفا بذاته ، فإذا به يفكّر في الاستزادة بدل العمل على الشكر لصاحب النعمة.

(**ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ**)

أمّا المؤمن فإنّه يتطلّع عند كلّ نعمة إلى توفيق الشكر وأداء حقّها لله وإلى الناس ، وصدق رسول الله (ص) حينما قال في حقّ طالب الدنيا : «منهومان لا يشبع طالبهما : طالب العلم ، وطالب الدنيا» [3] «**فاما طالب العلم فيزداد رضى**

---

(1) المنجد مادة مهد بتصرف.

(2) التفسير الكبير ج 30 ص 199.

(3) كنز العمّال ح 38932.

الرحمن ، واما طالب الدنيا فيتمادى في الطغيان» [1] وبئس العبد عبد له طمع يقــوده إلى طبــع» [2] (أي طبع قلبه بــالرين) ، وصــدق الإمــام علي (ع) إذ قــال : «أكـثر مصــارع العقــول تحت بــروق المطــامع» [3] وإنّما أعشى قلب الوليد تقــادم الخــير عليه وطمعه في زيادته ، وإنّه لمكر الله بــالمترفين ، الــذي يزيــدهم ضــلالا عن الحق ، وخسـارة في الـدنيا والآخـرة ، فلا يشـكر ربه ولا هو يصل إلى غايته (الزيادة) لأنّ توســيع الله على أحد ليس مطلقا أبدا بل له حدّ وقيد ، وليس خارجا عن ســننه وقوانينه في الحياة ، فكيف يزيد من لا يؤدّي شكر النعمة وهو القائل : «**لَئِنْ شَــكَرْتُمْ لَأَزِيــدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَــرْتُمْ إِنَّ عَــذابِي لَشَدِيدٌ**» [4]؟! قال صاحب التبيــان : أي لم يشــكرني على هـــــــــذه النعم ، وهو مع ذلك يطمع أن أزيد في إنعامه والتمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل.

(**كَلَّا**)

أي لن يكون ذلك أبدا ، فهذه كلمة تفيد النفي القاطع والعنيف ، والسبب هو عناده للآيات الربّانية.

(**إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً**)

ومعاندتها يمنع الزيادة لسببين :

الأول : السبب الغيبي ، فإنّه تعالى يدافع عن رسالاته وآياته ، وينتقم للحق من جاحديه ، بــالإهلاك والاستئصــال تارة ، وبالقحط وسلب البركة تارة أخرى.

الثاني : السبب الظاهر وذلك أنّ آيــات الله هي النهج القويم الذي يهدي

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 1 ص 182.

(2) المصدر ج 77 ص 135.

(3) المصدر ج 73 ص 170.

(4) إبراهيم 7.

الإنسـان إلى كـلّ خـير مـادي ومعنـوي ، ويأخذ بيـده إلى الرفـاه والنمـوّ الاقتصـادي لو عمل بها وطبّقها في حياته ، وحيث يعاندها الكفّار ومرضى القلوب فكيف يسـتزيدون ، وكيف توطّأ لهم سبل العيش ، وتمهّد أسـباب السـعادة؟! قال المفسرون : ولم يـزل في نقصـان ــ يعنـون الوليد ــ بعد قوله : «كلّا» حـتى افتقر ومـات فقـيرا [1] ، وقـال العلّامة الطبرسي عند تفسيره للآية : أي لا يكون كما ظن ، ولا أزيده مع كفره [2] ، وإلى مثله ذهب الزمخشري في الكشّاف.

والعناد مرحلة من الكفر والنفور تشبه الجحود ، فـإنّ الإنسان حينما يكفر بالحق يكفر تارة لأنّه لمّا تتوفّر الآيات الدالّة عليه ، أو لأنه يكفر للتهرب من مسئولية الإيمـان به ، ولكنّه يكفر تارة بلا مبرّر سـوى محاربة الله والاسـتهزاء بآياته وهذا هو العناد .. أو تأخذه العزّة بـالإثم ، ويخلط بين الأمور كـأن يكفر بالإسـلام والقـرآن لصـراع شخصـيّ بينه وبين الداعية إلى الله ، قال الـرازي : وقوله : «إنّه كـان» يدل على أنّه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة [3].

[17 ـ 31] ومعانـدة آيـات الله ومن ثمّ محاربته ليس تمنع عن العنيد النعمة والخير وحسب ، بل وتـؤدّي به إلى الشر والعذاب في دنياه وآخرته.

(**سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً**)

أي سأجعله يتكلّف الصعود حتى يرهق إرهاقا شديدا ، والصـــعود كناية عن المشـــقّة ، ففي التحقيق نقلا عن التهذيب : ويقـال لأرهقنك صـعودا ، أي لأجشّـمنّك مشـقة من الأمر ، لأنّ الارتفاع في صـعود أشق من الانحـدار في هبوط ، ومنه اشتق

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 199.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 387.
(3) التفسير الكبير ج 10 ص 199.

تصعّد في ذلك الأمر أي شقّ عليه [1].

ولا ريب أنّ من يعاند آيات الله وشرائعه ثم يتبع هواه وشرائع البشر فإنّه سيلاقي أنواع المصاعب والمشاكل باعتباره يسبح خلاف قوانين الله وسنن الطبيعة ، فهو على شبه ممّن يصعد الجبال الرفيعة الوعرة يرهقه الصعود. أترى كم لقيت ولا تزال تلاقي أمتنا الإسلامية من العقبات كالتمزق والظلم والتخلف الحضاري حينما هجرت كتاب ربها؟ فهي إذا حقيقة واقعية يواجهها كلّ من يعاند آيات ربه فردا أو مجتمعا أو أمة وفي الجانبين المادي والمعنوي.

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد ، بل يمتد العذاب إلى الآخرة ويتجلّى بصورة أشد وأكثر وأوضح حيث يتبيّن للمعاندين خطأهم الكبير في صورة جبل مخيف من العذاب ، قال الإمام الصادق (ع) : «صعود جبل في النار من نحاس يحمل عليه (الكافر) ليصعده كارها ، فإذا ضرب بيديه على الجبل ذابتا حتى تلحق بالركبتين ، فإذا رفعهما عادتا ، فلا يزال هكذا ما شاء الله» [2] ، وفي فتح القدير عن النبي (ص) قال : «الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ثم يهوي ، وهو كذلك فيه أبدا» [3] ، وعن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قال : «**إنّ في جهنم جبلا يقال له صعود ، وإنّ في صعود لواديا يقال له سقر ، وإنّ في سقر لجبّا يقال له هبهب ، كلّما كشف غطاء ذلك الجب ضجّ أهل النار من حرّه ، وذلك منازل الجبّارين**» [4] ، ويقال للألم الذي يصل إلى الرأس صعود لأنّه يرتفع إليه ولأنّه شديد أثره ، وربما تتسع الكلمة إلى معنى التزايد فإنّ العذاب الإلهي في تصاعد مستمر.

(1) التحقيق في كلمات القرآن ج 6 ص 273.
(2) تفسير البصائر ج 50 ص 430.
(3) فتح القدير ج 5 ص 329.
(4) تفسير البصائر ج 50 ص 430 عن روضة الواعظين.

ويـبين القـرآن السـبب الرئيسـيّ الآخر الـذي يـؤدّي بالإنســان إلى الشــقاء والعــذاب في الحيــاة وهو أولا : فقدانه بركة رســالات الله وآياته ، وثانيا : اتباعه المنــاهج البشرية الضالة ، واعتمـاده على فكـره الضّـحل وتقـديره الخاطئ.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

والتفكـير هو تقليب وجـوه الـرأي ، بينما التقـدير هو تحويل التفكـــير إلى خطة بعد الدراسة ، يقـــال فكّر في الأمر وتفكّر ، إذا نظر فيه وتـــدبّر ، ثم لمّا تفكّر رتّب في قلبه كلاما وهيّـأه ، وهو المـراد من قوله : «وقـدّر» [1] ، وفي تفسير الميزان قـال العلّامة الطباطبـائي : والتقـدير عن تفكـير نظم معـاني وأوصـاف في الـذهن بالتقـديم والتأخير ، والوضع والرفع لاسـتنتاج غـرض مطلـوب ، وقد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القـرآن شـيئا يبطل به دعوته [2]. ولقد تــوهّم الوليد بتفكــيره وتقــديره أنّ تهمة السحر ستدحض الحق .. وليس الأمر كذلك.

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

ولقد ذمّ الله تفكيره لأنّه فكّر فكرا يحتال به للباطل ، ولو فكّر على وجه طلب الرشاد لم يكن مـذموما بل كـان ممدوحا [3] ، لأنّ التفكـير والتخطيط بإعمـال العقل على ضـــوء المعلومــات والمعطيــات أمر حسن بذاته ، وإنّما جـاءت رسـالات الله وبعث الأنبيـاء لغـرض إصـلاح النـاس وهدايتهم باستثارة العقول.

بلى. إنّ العقل بذاته وسـيلة خـير وصـلاح ، وهو يعمل لصــالح الإنســان ، ولكن بشــرط أن يكــون خيــاره الأول صحيحا ، أمّا لو اختار الباطل ثم استثار عقله في هذه

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 200.
(2) الميزان / ج 20 ص 86.
(3) التبيان ج 10 ص 177 بتصرف.

القنــاة فلن يجــني من تفكــيره وتقــديره ســوى الضــلال والعــذاب ، ويســمّى ذلك بــالمكر وهي حيل الشــيطان ، وهكــذا الفكر ، وذلك أنّه ســلاح ذو حــدّين ، يكــون تــارة لصالح صـاحبه وخـير البشـرية إذا كـان قائما على أسـاس العقل ، ويكــون أخــرى أداة لــدمارها ووســيلة لإشــعال الحروب ، كما تفعل خـبرات القـوى الاسـتكبارية في هـذا العصر.

إنّ الإنسان قادر على نيل الحياة بالتفكير والتقدير إذا اختـار مسـبقا هـدفا نـبيلا واتخذ فكـره وسـيلة لتحقيقه ، فــالمهم ليس أن تفكّر وتقــدّر بل الأهم لما ذا تمــارس التفكير والتقدير ، وإلى ذلك يوجّهنا القرآن بطرح السؤال : «كيف قدّر» مكرّرا؟

ويصف عليّ بن إبـــراهيم القمّي حالة الوليد عند ما فكّر وقـدّر ويقـول : نـزلت في الوليد بن المغـيرة وكـان شــيخا كبــيرا مجرّبا من دهــاة العــرب ، وكــان من المستهزئين برسـول الله (ص) ، وكـان رسـول الله (ص) يقعد في الحجـرة ويقـرأ القـرآن فـاجتمعت قـريش إلى الوليد بن المغـيرة ، فقـالوا : يا أبا عبد الشـمس ما هـذا الـذي يقـول محمد أشـعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقـال : دعوني أسمع كلامه ، فدنا من رسول الله (ص) فقـال : يا محمد أنشدني من شـعرك ، قـال : «ما هو شـعر ، ولكنّه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه» فقـال : اتل عليّ منه شيئا ، فقرأ رسـول الله (ص) حم السـجدة ، فلمّا بلغ قوله (**فَـإِنْ أَعْرَضُـوا**) (يا محمّد أعـني قريشـا) (**فَقُـلْ**) (لهم) (**أَنْـذَرْتُكُمْ صـاعِقَةً مِثْـلَ صـاعِقَةِ عـادٍ وَثَمُـودَ**) فاقشـعرّ الوليد ، وقـامت كـلّ شـعرة في رأسه ولحيته ، ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك ، فمشـوا إلى أبي جهل فقــالوا : يا أبا الحكم إنّ أبا عبد الشــمس صــبا إلى دين محمد أما تــراه لم يرجع إلينــا؟ فغــدا أبو جهل فقــال له : يا عم نكست رؤوســنا وفضــحتنا وأشــمتّ بنا عــدوّنا وصــبوت إلى دين محمد ، فقــال : ما صــبوت إلى دينه ، ولكني سمعت منه كلاما صعبا تقشعرّ منه الجلــود ، فقـال أبو جهل : أخطب هــو؟ قــال : لا. إنّ الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور

ولا يشـبه بعضه بعضا ، قـال : أفشـعر هـو.؟ قـال : لا. أما أنّي قد سـمعت أشـعار العـرب بسـيطها ومديـدها ورملها ورجزها وما هو بشعر ، قال : فما هو؟ قـال : دعـني أفكّر فيه ، فلمّا كـــان من الغد قـــالوا : يا أبا عبد الشـــمس ما تقول فيما قلناه؟ قال : قولـوا هو سـحر فإنّه أخذ بقلـوب الناس [1]. لقد انتهى به تفكيره القائم على أساس العنـاد إلى هذه النهاية الخاطئة ، فتفوّه بهـذا الباطل ، وكـان من الممكن أن يوصـــله العقل إلى ســـاحل الأمن والهـــدى ، ولكنّه لم يفكّر ويقدّر حينما فكّر وقدّر بمنهجية موضــوعية ومنطلقات سـليمة ، إنّما مـارس كـلّ ذلك بهـدف تضـليل الآخرين ، وتـبرير ما هو عليه من الباطل والضـلال لنفسه أمام وجدانه أولا ثم للنـاس المغـرورين به ، فـأوقع نفسه في الشقاء ، واستحقّ بذلك اللعنة والعذاب.

(**ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**)

وتكرار اللعنة بالقتل عليه دلالة على استحقاقه ضـعفا من العـــذاب ، الأول على عنـــاده الآيـــات الربانية ، والآخر على اتباعه هواه وبنات فكره بدل تشـريع الله ، أو يكـون أحدهما جـزاء التفكـير المنحـرف ، والثـاني جـزاء التقـدير الخاطئ. قـال العلّامة الطبرسي : هـذا تكرير للتأكيد ، أي لعن وعذّب ، وقيل : لعن بما يجري مجرى القتل ، وقيل : معناه لعن على أيّ حال قدّر ما قدّر من الكلام ، كما يقال : لأضربنه كيف صنع ، أي على أيّ حال كان عليه [2].

بلى. إنّ الناقد المنصف لا يستطيع إلّا التسليم بصـدق الرســـول ، وأنّ الرســـالة حق ، ولكنّ الوليد وأمثاله من المـترفين وأعـداء الحق لم يكونـوا كـذلك ، بل سـعوا إلى الانتقـــاد عـــبر منهجية خاطئة تــتركّز على العــزّة بـــالإثم ، والمواقف العدائية السابقة ،

(1) تفسير القمي ج 2 ص 393.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 388.

وهذه من المؤثرات السلبية على نتيجة أيّ بحث وتفكـير ، ولعــلّ الســبب يعــود إلى حــالتهم الاجتماعية إذ هم من المســتكبرين الــذين يبنــون كيــانهم على أســاس الظلم واســتثمار المحــرومين وقهر المستضــعفين ، فــأنّى لهم القبول بقيادة ربّانية تفتخر بأنّها من الفقراء ، وتسـعى من أجل إسـعاد المحــرومين ، وتحرير المستضـعفين من نـير المترفين.

(**ثُمَّ نَظَرَ**)

والأقرب أنّ النظر هنا بمعـنى إعمـال الفكر والبصر ، فإنّ الطغاة المستكبرين حينما يريدون تضليل النــاس عن الحق يفكّــرون ويقــدّرون أولا ثم ينظــرون مفتّشــين عن ثغـرات وأسـاليب لبثّ أفكـارهم وتقـديراتهم ونشـرها بين النـاس ، فوسـائل الاعلام المضـللة من إذاعـات وتلفـزة وصحافة وحتى وسائل التثقيف والتربية الـتي تـروّج ثقافة الباطل ، وتبثّ الإشــــاعات ضد المؤمـــنين والقيــــادات الرسالية .. إنّها لا تتحـدث اعتباطا ، بل هنـاك وراء القنـاع خبراء إعلاميـون ونفسـيون وسياسـيون و.. و.. يخطّطـون للتضـليل ، وهـذه سـمة للأنظمة الفاسـدة .. فـإلى جـانب فرعون كان هامان وجنود كثيرون متخصصون في كلّ في جــانب من الجــوانب ، ومن قصة قــريش وأبي جهل مع الوليد يتضح أنّه من قيـاداتهم وعقـولهم المـدبّرة ، وهنـاك إشارات إلى هذا التفسـير وجـدتها لـدى بعض المفسـرين ففي البصائر : أي نظر في وجوه قومه [1] ، وفي الميزان : أي ثم نظر بعد التفكير والتقدير نظر من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه [2].

وبعد أن اختمـرت الفكـرة الشـيطانية في رأسه بـدأ حركته نحو الإنتـاج والإخــراج كي تكــون أمضى أثــرا في نفـوس الآخـرين ، فـإذا بكـلّ ملامحه مشـحونة بأمـارات الحقد

---

(1) البصائر ج 50 ص 362.
(2) الميزان ج 20 ص 87.

والغيظ على الرسالة والرسول (ص).

(**ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ**)

وهذه المظاهر الخارجية وأخرى غيرها ملامح لحـالات نفســية من الحقد والعنــاد يعكســها القــرآن بأســلوبه التصويريّ البديع ، وإنّها لطبيعة في الإنسان أن تبـدو على مظهـره علامـات مخـبره بحيث يقـول علمـاء النفس أنّك تسـتطيع قـراءة داخل الإنسـان بمظـاهره ، وفي الحـديث الشريف قال أمير المؤمنين (ع) : «**ما أضـمر أحد شـيئا إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه**» [1].

قال القمي : العبوس للوجه ، والبسور إلقاء الشدق [2] ، وعن قتادة قال : قبض ما بين عينيه وكلح [3] ، وفي فقه اللغة للثعــالبي : إذا زوي ما بين عيــني الرجل فهو قاطب عابس ، فإذا كشّر عن أنيابه مع العبوس فهو كـالح ، فـإذا زاد عبوسه فهو باسر مكفهر [4] ، وذكر اللغويـون الاستعجال كواحد من معاني البسـور يقـال : بسر الغـريم أي تقاضاه قبل الأجل ، وبسر الدمّل : عصـره قبل نضـجه ، وبسر الفحل الناقة قبل الضـــــــبعة أي قبل أن تطلب اللقاح [5] ، فكـان الباسر في وجه أحد يسـتعجل به الأذى والشر ، وبذلك قال الراغب في مفرداته [6].

وقد تعبّر عن العبوس والبسور المفردات والتصرفات التي تصدر عن الإنسان بقلمه وفيه ومواقفه ، فالطـاغوت قد يعبّر عن عبوسه وبسورة وجهه ، وقد تظهر في قمعه

(1) نهج البلاغة حكمة 26 ص 472.
(2) تفسير القمي ج 2 ص 394 بتصرف.
(3) الدر المنثور ج 6 ص 283.
(4) فقه اللغة للثعالبي ص 140.
(5) البصائر ج 50 ص 280 وإلى مثله ذهب صاحب المنجد.
(6) مفردات الراغب مادة بسر.

الجنوني للمعارضة والجماهير ، وما يقصّه القـرآن الكـريم عن الوليد بن المغـــــيرة ليس إلّا شـــــاهدا على طبيعة الموقف الذي يتخذه المترفون في كلّ مكـان وزمـان ضد الدعوات الإصـلاحية ، فـإنّهم باعتبـارهم بـؤرة الفسـاد في المجتمع أول المتضـررين بهـذا التغيـير ، ولهـذا يكونـون طليعة المعارضة للحق.

(ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

بلى. إنّه فكّر في الموقف من الرســالة ، كــان يريد الوصـــول إلى أفضل طريقة للمعارضة والتضـــليل .. بل وتبرير كفره أمام عقله وضميره ، ولكنّه كلّما أعمل فكره ونظــره كلّما تجلّت له الحقيقة وعــاد بصــره خاسـئا وهو حسير ، وكان من المفروض أن يقبل على الإيمان بــالحق ، ويتواضع له عن مــراتب النفــور والاســتكبار والاعــتزاز بـالإثم ، إلّا أنّه أصـرّ على الكفر من لحظته الأولى فـازداد إدبارا ، وحيث اختار موقف الكفر فكّر مـرة أخـرى لتـبرير موقفه من الحقّ المبين ، فما وجد تهمة أصلح ـ في نظره ـ من قذف الرسالة بالسحر.

(فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)

ولكلمة «يؤثر» هنا معنيان ربما أرادهما السياق معا :

الأول : ينقل عن الآخرين ، وقد اتفق أكثر المفسرين عليه ، أي يـــؤثره عن غـــيره من القـــوى القـــادرة عليه كالسحرة والشياطين ، من قـولهم : اثـرت الحـديث اثـره أثــرا إذا حــدّثت به عن قــوم في آثــارهم ، ومنه قــولهم : حديث مأثور عن فلان.

الثاني : تميل إليه النفوس وتفضّله على غـيره ، قـال في المجمع : وقيل هو من

الإيثار ، أي سحر تـؤثره النفـوس ، وتختـاره لحلاوته فيها [1] ، وبذلك سعى الطاغية للتقليل من شأن أمرين مهمّين : أحـدهما : معجـزة القـرآن العظيمة بظـاهره ومحتـواه ، والآخر : ظاهرة الاستجابة للرسالة الجديدة والـدخول في دين الرسـول ، ومن ثمّ كـان الوليد ـ كما هو حـال أيّ طاغية ومـترف ـ يسـعى لتحقيق عـدة أهـداف خبيثة من وراء هذه الشائعة الضالة :

1 ـ تبرير هـزيمتهم في الصـراع المبـدئي والحضـاري مع الإسلام بقيمه وقيادته وحزبه.

2 ـ تضليل الناس عن الحق ووضع حدّ لزحفهم باتجاه الدخول في الدين الجديد.

وقد جعل تهمة القرآن بالسحر مدخلا إليه لحلّ عقـدة تواجه كـلّ من يحـارب الـذكر الحكيم ، ألا وهي أنّ آثـار الحكمة والعلم الإلهية واضحة في آياتـه. وإنّها لتهـدي كـلّ ذي لبّ منصف إلى كونها متنزّلة من عند ربّ العـــــزة ، وبـاعتراف الوليد نفسه حينما قـال : سـمعت منه ـ يعـني الرسول (ص) ـ كلاما صعبا تقشعرّ منه الجلود .. لا خطب ولا شـعر ، فمسـتحيل إذن أن ينسـبه إلى المخلـوقين من دون مقدّمة ، فالمسافة بينه وبين كلام المخلوقين لا تحـدّ وفضله عليه لا يوصف ، وهو كفضل الله على سـائر خلقه .. ومن هذه المقدمة انطلق إلى ما أراد قوله بالضبط.

(**إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ**)

فمتى ما أوصل هذه القناعة إلى أذهـان النـاس تقـدّم خطـوات أساسـية في الصـراع ضد الرسـالة الربانية في زعمه ، ومن أجل هذا الهدف جنّد طاقاته .. ففكّر وقدّر ..

(1) مجمع البيان ج 10 ص 388.

أنّه يستطيع إلى ذلك سبيلا ، وغاب عنه أنّ معجزة القرآن أعظم من أن يحجب نورها تقـــــــــدير الإنس والجن لو تظاهروا ، فكيف بجاهل سفيه كالوليد بن المغـيرة؟! «**ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**»؟!

من هنا فشـلت كـلّ جهـوده ومسـاعيه الرامية إلى تضـليل النـاس عن الحـقّ وحجبهم عن نـوره ، بل وحكم على نفسه بتفكيره وتقديره الخاطئين بالخسـارة وباللعنة التي خلّـدها القـرآن في الأجيـال بعد الأجيـال في الـدنيا ، وجـــرّ نفسه إلى الهلاك والعـــذاب المهين في الآخـــرة ، وأعظم منه غضب الله الذي توعّده بسقر فقال :

(**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**)

قال في التبيـان : أي ألزمه جهنم ، والاصـطلاء إلـزام موضع النـار .. وأصـله اللـزوم [1] ، وصـلى الكفّـار بالنـار جعلها أكثر وأشد مساسا بهم ، قال الإمـام الصـادق (ع) : «ان في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له سـقر ، شـكا إلى الله عزّ وجلّ حرّه ، وسأله أن يـأذن له أن يتنفّس فتنفّس فأحرق جهنم» [2] ، وعن ابن عباس قـال : سـقر أسـفل الجحيم ، نار فيها شجرة الزقوم [3] ، وإنّها من رهبتها وما تتميّز به من الصـفات لا يسـتطيع بشر أن يتصـوّر مـداها ويعي حقيقتها.

(**وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ**)

وفي هذه الصيغة اسـتثارة للإنسـان نحو السـعي إلى المعرفة ولو بصورة إجمالية ، والقرآن يـبيّن بعض صـفات سقر فيقول :

(**لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ**)

---

(1) التبيان ج 10 ص 180.
(2) نور الثقلين ج 5 ص 457.
(3) الدر المنثور ج 6 ص 283.

قيل : لا تبقيهم أحياء فهي تميتهم ، ولا تترك لأبـدانهم أثرا فهي لا تذرهم ، أي أنّ لها أثرين : الأول على الـروح ، والآخر على الجسم ، وقيل : أنّ الكلمـتين مترادفـتين في المعـنى مختلفـتين في الدرجة والأثر ، وذكرهما معا يفيد المبالغة والتأكيد ، وقـال في التبيـان : قيل : لا تبقي أحـدا من أهلها إلا تناولته ، ولا تـذره من العـذاب [1] ، وفي الميزان قال العلّامة الطباطبائي : لا تبقي شيئا ممّن نالته إلّا أحرقته ، ولا تدع أحـدا ممّن ألقي فيها إلّا نالته ، بخلاف نار الدنيا التي ربما تـركت بعض ما ألقي فيها ولم تحرقه [2] ، وعن مجاهد قـال : لا تحـيي ولا تميت [3] ، واستدل صـاحب المـيزان على هـذا الـرأي بقوله تعـالى : «**الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْـرى * ثُمَّ لا يَمُـوتُ فِيها وَلا يَحْـيى**» [4] ، والأقرب عندي أنّ معنى «لا تبقى» لا تـدع أحـدا من الناس الذين فيها باقيا بل تفنيهم جميعا ، ومعنى «لا تذر» أي لا تذر شيئا من أيّ واحد منهم ، فالأول يشمل كـلّ من فيها ، والثـاني يتسع لكـلّ جـزء ممّن فيها ، وهو أعظم ، وهذه ـ فيما يبدو لي ـ صفة النار مع قطع النظر عن صفة جهنم التي يجدّد الله فيها ما تحرقه النار ، فلا منافـاة بينها وبين قوله سـبحانه «**لا يَمُـوتُ فِيها وَلا يَحْـيى**» إذ الحـديث عن النـار هنا جـاء بقـدر فهمنا لها وحسب مقاييسـنا. ولعل من المعـاني : أنّ سـقر من حيث شـدة العذاب ونوعيته لا تبقي من يلقى فيها ، ومن حيث المـدة والملازمة فإنّها لا تـترك أهلها أبـدا ، وهـذا يهـدينا إلى أنّ أهلها من الخالدين في العـذاب ، فلا تـترك سـقر أهلها بل يبقـون خالـدين في العـذاب ، لأنّ الاحـتراق هنـاك ليس احتراقا عاديا وإنّما هو احتراق يشبه الاحتراق الذري الـذي لا ينتهي ، والله العالم.

وصفة أخرى لسقر هو تلويحها أهلها.

---

(1) التبيان ج 10 ص 180.
(2) الميزان ج 20 ص 88.
(3) الدر المنثور ج 6 ص 283.
(4) الأعلى 12 / 13.

(**لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ**)
في المنجد : ألاح فلانا أهلكه [1] فهي المهلكة للبشر ، ويقال : لوّح فلانا بالعصا والسيف والسـوط والنعل : علاه بها وضـربه [2] ، وقيل : المعطشة ، تقـول العـرب : إبل لـوحى ، ورجل ملـواح أي سـريع العطش ، ويقـال لمن ضربته الشـمس وغيّـرت لونه لوّحته تلويحا ، وكـأنّ سـقر من حرارتها تغيّر جلود أهلها ووجوههم.

وحين يـرد المجرمـون وادي سـقر يسـتقبلهم ملائكة غلاظ شــداد .. هم مالك وثمانية عشر ، أعينهم كـالبرق الخـاطف ، وأنيـابهم كالصياصي ، يخـرج لهب النـار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسـيرة سـنة ، تسع كـفّ أحــدهم مثل ربيعة ومضر ، نــزعت منهم الرحمة ، يرفع أحدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم [3].

(**عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ**)
وتحتمل الآية معان عدة :

الأول : المعــنى الظــاهر وهو أنّ خزنة ســقر هــذه عــدتهم ، وليس ذلك بالقليل إذا كـانت صــفتهم كما ذكر صاحب المجمع ، بل إنّه تعالى قادر أن يجعل عليها واحـدا يدير شؤونها ويعذّب أهلها أشد أنواع العذاب.

الثـاني : أنّ التسـعة عشر خزنة وادي سـقر فقط ، ولبقية أجزاء جهنم خزنة آخرون.

الثالث : أنّ العدد المذكور هم بمثابة القوّاد والمـدراء ، وتحت إمرتهم ما لا يدرك

---

(1) المنجد مادة لوح.
(2) المصدر.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 388.

عددهم إلّا الله من الملائكة ، وإلى هذا المعنى إشـارة في قول الله : «**وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**» ، والجهل بهذه الحقائق هو الذي دفع المشركين إلى الاستهزاء ، وكفرهم بـالغيب .. قـال أبو جهل يوما : يا معشر قـريش! يـزعم محمد أنّ جنود الله الذين يعذّبونكم في النـار تسـعة عشر ، وأنتم أكـثر النـاس عـددا ، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟! [1] ، وقال رجل من قريش يدعى أبا الأشد : يا معشر قريش! لا يهولنّكم التسـعة عشر ، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة ، وبمنكبي الأيسر التسعة [2] فـأنزل الله : «الآية 31».

(**وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً**)

إنّ الله يمتحن عبـــاده بما يشـــاء ، وممّا يمتحنهم به أمرهم بالإيمان بـالغيب ، وكلّما كـان الغيب أشـدّ غموضّـا كلّما صعب الإيمـان به ، وكـان أرفع درجة في القـرب من الله ، ولـذلك جـاء في الحـديث عن الإمـام الصـادق (ع) : «إنّا صبّر وشيعتنا أصبر منا» (قـال الـراوي) قلت : جعلت فداك! كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟! قال : «لأنّا نصـبر على ما نعلم ، وشيعتنا يصـبرون على ما لا يعلمـون» [3] ، ولقد جعل الله الإيمان بالغيب ركنا أساسيا في الشخصـية الإيمانية ، ومن هــذا المنطلق أخفى كثــيرا من الحقــائق كـالموت والـبرزخ والآخـرة ، فأمّا الكفـار والمشـركون والذين في قلوبهم مرض فإنّ الغيب يزيدهم فتنة ونفورا ، ليس لأنّه لا واقعية له ، فالآيـات الهادية إليه كثـيرة ، وإنّما لأنّ الإيمــان به درجة رفيعة من العلم والإيمــان ، لا يصل إليها إلّا عبـاد الله المتميّـزون المتقـون «**الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـلاةَ**» [4] ، وسـبيل المؤمـنين إلى اليقين بالغيب أمران :

---

(1) أسباب النزول للسيوطي ص 224.
(2) المصدر أخرجه السدي.
(3) موسوعة بحار الأنوار ج 71 ص 80.
(4) البقرة 3.

أحـــدهما : الآيـــات والحجج الهادية إليه ، فمن آثـــار الحكمة والعلم والنظـام المتجلية في الكـون يهتـدون إلى الإيمـان بـربهم ، ومن شـواهد سـنّة الجـزاء في التـاريخ والواقع يؤمنـــون بـــالجزاء الأعظم في الآخـــرة ، فهم لا ينتظرون أن تلامس جلودهم النار ، وتبصر أعينهم الملائكة ، ويقعون في قبضة المـوت حـتى يؤمنـوا بكـلّ ذلك ، إنّما يكتفون بظهور الآيات والحجج .. وهذه من أهمّ الخصـائص التي تميّز العاقل عمّن سواه.

الثـــاني : إيمـــانهم بالله عـــزّ وجـــلّ كما وصف نفسه وتجلّى في كتابه وخلقه بأسـمائه الحسـنى ، فهم يؤمنـون بالله القـادر ، القـاهر ، العليم ، الـرحمن الـرحيم و.. و.. إيمانا قائما على اليقين والمعرفـة. ومـتى ما بلغ الإنسـان هـذه الغاية صـار مسـلما بكـلّ الحقـائق الغيبية ، فلا يشك في الجنة والنـار وما فيهما من النعيم والعـذاب ، لأنّ الله الذي وعدنا بهما مطلق القدرة لا يعجـزه شـيء أبـدا ، ولا يـدخل في نفق الجـدال والشك في عـدد أصـحاب النـار وصفاتهم ، بل يسلّم بما يسمعه عن الله تسـليما مطلقـا. ولأنّ الكفّار والمشركين ومرضى القلـوب لم يبلغـوا هـذه الغاية الأساسية صـاروا إلى الشك في حقـائق الغيب ، بل في حقـائق الشـهود أيضا ، فـإذا بواحـدهم يشك في أصل وجوده ، كما فعل السوفسطائيون!

إنّ المـؤمن ليس مسـلّما لله بفعله وقوله فقط ، بل هو مســـلّم بعقله وعلمه أيضا ، ففي ســـلوكه ومواقفه لا يخالف الحق ، وفي داخله لا يثير أدنى تساؤل شكّي حول آيـات ربه .. وهـذه من أهم مرتكـزات الإيمـان والإسـلام ، كما قـال الله : «**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً**» [1] .. بلى. قد لا نـــدرك خلفيـات بعض الأحكـام الإلهية ، وقد لا نسـتوعب بصـورة تامة بعض الحقائق ، ولكنّ ذلك ليس مبرّرا للكفر بها أبـدا في منطق الإسـلام ولا عند العقلاء ، وهــذه قيمة علمية مسلّمة ومن صفات الراسخين في

(1) النساء 65.

العلم ، قال تعالى : «**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**» [1] ، فالراسخون في العلم ـ غير أهل البيت ـ قد لا يدركون تأويل بعض الآيات ولكنّهم لا يكفرون بها ، فذلك ليس من منطق العقلاء وأصحاب الألباب ، وإلّا لكان الكفر بالله أولى من كلّ شيء لأنّنا قاصرون عن إدراك كنهه ومعرفة ذاته!

إنّ في قلوب الكفّار والمشركين لمرضا عضالا هو كفرهم بالله ، وذلك الكفر الذي تأباه عقولهم وفطرتهم ومن ثمّ اتباعهم الباطل بصورة مفضوحة ، ولذا فإنّهم يبحثون دائما عمّا يبرّر لهم هذا الموقف ، فإذا بهم يختلفون في عدد الملائكة وألوانهم وأشكالهم ، بدل أن يسلّموا لآيات الذكر الحكيم. وما ذا ينفعهم الاطّلاع على ذلك؟ هل ينجيهم من عذب النار؟ كلّا ..

(**وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا**)

فهي من جهة تزيدهم ضلالا ونفورا ، ومن جهة أخرى تظهر حقيقة معدنهم وشخصيتهم ، كما تظهر النار طبيعة المعدن ذهبا وغيره ، بينما ترفع هذه الآية وما تبيّنه من حقيقة المؤمنين درجة رفيعة في الإيمان .. حيث اليقين والتسليم بآيات الله ووعوده.

(**لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ**)

قيل هم اليهود والنصارى ، وسبب استيقانهم أنّه مذكور في كتابهم (التوراة

(1) آل عمران 7.

والإنجيل) أنّ هذه عدّة ملائكة سقر ، وحيث يبيّنها القــرآن فـذلك يـدعوهم لليقين بأنّه من عند الله ، والأقـرب حمل المعـنى على أنّهم العلمـاء الـذين حملـوا رسـالة الله ، أو الذين أعطوا الكتـاب ، والكتـاب هنا كناية عن العلم الـذي يسـطّر فيـه. وإنّما يسـتيقنون لأنّ ما تطرحه الآية تكشف لهم عن حقيقة جديدة من الغيب تزيدهم إيمانا باعتبار كلّ حقيقة من الغيب يؤمنـــون بها يرتفعـــون بها درجة في معراج اليقين.

(**وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً**)

لأنّ المـــؤمن كلّما اطّلع على شـــيء من الغيب كلّما تكـــاملت معرفته به ، ولا ريب أنّ هـــذه المعرفة تعكس أثرها الـــروحي في شخصـــيته ، فـــيزداد خوفا من ربه ، وإيمانا به ، وعملا بأحكامه وشرائعه.

(**وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ**)

أي يصلون إلى مرتبة من الإيمان لا شك معها ، وهذه من الدرجات الرفيعة ، لأنّ القليل من المؤمنين هم الذين يستطيعون تطهير قلوبهم من رواسب الشك والتردد. وإذا بلغ أحد ذلك فإنّه يتجـاوز كـلّ ابتلاء وفتنة لأنّ «**الشـكوك والظنــون لــواقح الفتن ، ومكـدّرة لصـفو المنـائح والمنن**» كما قال الإمام زين العابدين (ع) [1].

(**وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**)

يعــني المنــافقين وضـعاف الإيمــان ، الــذين يخالط إيمانهم الشك والريب والشرك.

(**وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً**)

وبكلمة : إنّ الحكمة من وراء ذكر عدة التسـعة عشر ابتلاء الناس ليعلم من

---

(1) الصحيفة السجادية / مناجاة المطيعين.

يؤمن بـالغيب فـيزداد درجة في إيمانه حـتى يبلغ مسـتوى اليقين الذي لا ريب معه ، وليعلم المنافق والكافر بـالغيب فـيزداد شـكّا وضـلالا. وهكـذا نجد هـذه الحكمة في سـائر شرائع الدين.

وإشارة القرآن لسـؤال الكـافرين ومرضى القلـوب : «**ما ذا أَرادَ اللـهُ بِهـذا مَثَلاً**» يكشف عن جهلهم ومـدى ضلالهم وطريقتهم الاستهزائية بالآيـات ، فـإنّ هـدفهم من وراء ذلك ليس البحث عن الحق ، بل هو مجـرد السـؤال كطريق للهروب من مسئولية الإيمان ، وتشـكيك أنفسـهم والمؤمنين في الحق .. فهم لا يعلمون الغيب حينما راحـوا يشكّكون في صحة قول الله عن عدّة أصـحاب النـار ، ولا يسـتطيعون انكـار ذلك إذ لا دليل عنـدهم على خلافه .. ولذلك تساءلوا عن الخلفيـات لهـذه الحقيقـة. ولو أجـابهم القرآن ببيان سرّ هذا العدد لاختلقوا سؤالا آخرا ، وهكذا.

(**كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ**)

أي أنّ ما طرحته الآيات هو مثل حيّ للضلال والهداية ، فالحقيقة الـتي بيّنها الله في كتابه واحـدة ، والمعطيـات لـدى الفـريقين ومن بينها العقل والإرادة واحـدة ، إلّا أنّ الموقف مختلف تماما ، وهذه الصـورة العملية للمـوقفين تكشف عن أنّ الهـدى والضـلالة وإن كانا بيد الله إلّا أنّ العامل الرئيسي فيهما هو الإنسـان نفسه .. بإرادته واختياره ، وليس كما يزعم الجبرية أبدا.

(**وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**)

لأنّهم غيب مسـتور ، ولأنّهم من الكـثرة بحيث لا يسـتطيع عـدّهم أحد ، فكيف وربنا يخلق كـلّ لحظة من ملائكته ما لا يحصيه إلّا هو سبحانه وتعالى؟! ففي الأخبـار أنّ لكـلّ قطـرة غيث تـنزل من السـماء إلى الأرض ملكا موكّلا بها ، وأنّه عزّ

وجلّ خلق ملكا اسـمه الـروح له ألف رأس في كـلّ رأس ألف لسان وكلّ لسان ينطق بألف لغة يسبّح الله تعـالى ، فيخلق الله بكلّ تسبيحة من تسبيحاته ملكا يسبّح الله إلى يوم القيامة ، أي أنّه يخلق عند كلّ تسبيحة واحـدة مليـارد ملك (سبحان الله).

(**وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ**)

قيل : أنّ الضـمير عائد إلى سـقر ، وقيل : عائد إلى عـدّة الملائكة ، وكلاهما صـحيحان لأنّ الحقيقة واحـدة ، فكلاهما ذكرى للناس ومتصلان بموضوع الجزاء والعـذاب. فـالمهم إذا أن يتـذكّر الإنسـان ربه وحقـائق الغيب ، لا أن يجادل في القشور .. وقد حـذّرنا أمـير المؤمـنين عليّ بن أبي طالب (ع) من النـار مبيّنا صـفة واحد من خزنة جهنم فقـال : «واعلمـوا أنّه ليس لهـذا الجلد الرقيق صـبر على النـار ، فـارحموا نفوسـكم ، فـإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا. أفرأيتم جزع أحـدكم من الشـوكة تصـيبه ، والعـثرة تدميه ، والرمضـاء تحرقـه؟ فكيف إذا كـان بين طابقين من نار ، ضجيع حجره ، وقرين شيطانه؟! أعلمتم أنّ مالكا إذا غضب على النار حطم بعضـها بعضا لغضـبه ، وإذا زجرها تـوثّبت بين أبوابها جزعا من زجرته .. فالله الله معشر العباد! وأنتم سالمون في الصـحة قبل السـقم ، وفي الفسحة قبل الضـيق ، فاسـعوا في فكـاك رقـابكم من قبل أن تغلق رهائنها» [1].

(1) نهج البلاغة خ 183 ص 267.

كَلاَّ وَالْقَمَـرِ (32) وَاللَّيْـلِ إِذْ أَدْبَـرَ (33) وَالصُّـبْحِ إِذا أَسْـفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْـدَى الْكُبَـرِ (35) نَـذِيراً لِلْبَشَـرِ (36) لِمَنْ شـاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَـدَّمَ أَوْ يَتَـأَخَّرَ (37) كُـلُّ نَفْسٍ بِما كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ (38) إِلاَّ أَصْـحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسـاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْـرِمِينَ (41) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُـوضُ مَـعَ الْخائِضِـينَ (45) وَكُنَّا نُكَـذِّبُ بِيَـوْمِ الـدِّينِ (46) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47) فَما تَنْفَعُهُمْ شَـفاعَةُ الشَّـافِعِينَ (48) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيـدُ كُـلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّـرَةً (52) كَلاَّ بَـلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلاَّ إِنَّهُ تَـذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شـاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَـذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشـاءَ اللـهُ هُـوَ أَهْـلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

هدى من الآيات :

«كلّا» .. بهـذا الـردّ القـاطع والعـنيف يواجه القـرآن أباطيل الكفّار في شأن الوحي ، إذ زعموا أنّه سحر يؤثر ، وأنّه قـــول البشر ، ويوجّهنا إلى ثلاث من آيـــات الله في الطبيعة ، وهي القمر ، وحين إدبـــار الليل ، وعند إســـفار الصباح ، فعند ما يتدبّر الإنسان في هـذه الآيـات تتجلّى له ذات الحقيقة العظمى الـتي تهـدي إليها آيـات الـذكر وهي حقيقة التوحيد ، بل يجـــدها شـــهادات هادية إلى الإيمـــان بالرسـالة .. وكأنّها تقـرأ عليه الآيـات الثلاث (35 ، 36 ، 37) من المـدثر ، وهكـذا نجد القـرآن في كثـير من آياته يربط بين التفكّر في الطبيعة والإيمان بـالحق المـنزل في الكتـاب ، ذلك أنّ القـرآن ينطق بسـنن الله في الخليقة ، والكائنات تجسّد آيـات الله في القـرآن ، وهنا وهنـاك نجد تجلّيات أسماء الله سواء بسواء ، وكـلّ واحد منهما يهـدي إلى الآخر ، فكما أنّ آياته تكشف عن حقائقها والأنظمة الحاكمة فيها ، وتفسّر ظواهرها ، فإنّها هي الأخـرى تهـدي إلى الإيمان به (الآيات 31) من خلال توافقها مع الكتاب ،

وتمثيلها لما فيه.

ولأنّ سـبيل الكتـاب قـويم وقـائم على التـوازن بين السـلب والإيجـاب فإنّه يؤكد صـدق آياته «**إِنَّها لَإِحْـدَى الْكُبَرِ* نَذِيراً لِلْبَشَرِ**» وذلك مباشرة بعد أن يسفّه مزاعم الكفار حول الرسالة ، مؤكّدا بأنّ الموقف منها هو العامل الرئيسي في تقـدّم البشـرية أو تأخّرها ، وذلك أنّ النفس البشــرية رهينة في ســجن الجهل والظلم والهــوى والشيطان و.. و.. وسعيها لا يزيدها إلّا ارتهانا وقيـودا على قيودها ، إلّا أن تفك رهانها وتصــلح ســعيها بالســير على هـدى ذكر الله ونـذيره للبشر وهو كتابه الكـريم ، كما فك رهانهم به أصحاب اليمين (الآيات 35).

ومن خلال حــوار بين هــذا الفريق المفلح وبين المجرمين الذين سلكوا سـقر المحرقة والمخزية يـبيّن لنا القرآن معـالم الطريق إليها ، فهي وإن كـانت في الآخـرة دركة من النـار إلّا أنّها منهجية عملية في الـدنيا تتمثّل في تـرك الصـلاة ، وعـدم مسـاعدة المحتـاجين والضـعفاء ، والخـوض مع الخائضـين ، والتكـذيب بـالآخرة ، ولقـاء الله على هذا الضلال البعيد ، والـذي لا ريب أنّ أحـدا لا يشـفع لصــاحبه عند الله ، بل لا تنفعه فيه شــفاعة الشــافعين (الآيات 40).

ويســتنكر ربنا على الكفّـار حمـاقتهم واسـتحمارهم بـالإعراض عن التـذكرة الـتي جـاءت لإنقـاذهم من سـقر الجهل والتخلف والضـلال في الـدنيا ومن سـقر النـار في الآخرة ، ولكنّ هزيمة الإنسان أمام هـوى نفسه وهمـزات الشـيطان ، وعـدم حضـور الآخـرة في وعيه ، هما اللـذان يدفعانه إلى الإعراض عن التذكرة المبينة (الآيات 49).

ولأنّ المقيــاس الســليم لمعرفة الحق ليس موقف النـاس ، بل معرفته بذاته ، فـإنّ إعـراض المجـرمين عن القرآن لا يعني من قريب ولا بعيد أنّه باطل ، ولا يغيّر من

واقعه .. «كلّا» إنّه تذكرة اقبل عليه الناس أو أدبروا عنه ، فمن شـاء تـذكّر به ربّه والحق ، «**وَما يَـذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**» بلطفه وتوفيقه (الآيات 54).

بينات من الآيات :

[32 ـ 37] إنّ الرسـالة الإلهية ذكـرى للبشر ، ولكنّ الكفّـار ــ وبالـذات المـترفين وأصـحاب السـلطة منهم ــ يخشــون من الاعــتراف بها ، لأنّها تفضح ما هم عليه من الإثم والضـلال ، ولـذلك تجـدهم لا يعـترفون ؛ تمنعهم عن ذلك عـزّة الجاهلية ، كما أنّها تفــرض عليهم مجموعة من المسؤوليات والتنازلات كمسؤولية الإنفاق في سـبيل الله ، والطاعة للرسول (ص) ، والتنـازل عن السـلطة ، وذلك ممّا لا تطيقه أنفسهم الضيقة المستكبرة .. فلا بـدّ إذا من إخـراج لمـوقفهم الباطل من هـذه الـذكرى ، ولما فكّـروا وقدّروا بهذه الخلفيّة الثقيلة تمخّضت أفكارهم وتقديراتهم عن نتائج خاطئة ، فزعموا أنّ الرسالة «سحر يـؤثر» وأنّها ليست «إلّا قول البشر» ، وحتى إنذار الله لهم بالسقر لم ينفعهم ، بل اتخذوه تبريرا جديدا لكفرهم ، حيث قالوا بأنّ العـدد المـذكور عن حرّاسـها التسـعة عشر : عـدد قليل يمكن مواجهتهم!

وهكذا يفعل كلّ مترف ومتسلّط ، لا تزيـده الحجج إلّا لجاجا ، إذ يبحث فيها عن تـبرير جديد يـزعم أنّه يسـوغ له الكفر وحتى الاستهزاء حتى أنّك تجد مثلا بعض المتصـوّفة يستهزئ بالنار ويقول : سوف أطفئها بطرف ردائي!

وهكـذا تـوالت كلمـات القسم في السـياق لعلنا نستجيب لها ، ونفكّر جدّيّا بأمر لعقاب.

(**كَلَّا وَالْقَمَرِ**)

قيل : معنـاه ليس الأمر على ما يتوهّمونه من أنّهم يمكنهم دفع خزنة جهنم

وغلبتهم [1] ، وقال الرازي وهو بعيد : إنّه إنكـار ــ بعد أن جعلها ذكرى ـ أن تكون لهم ذكـرى لأنّهم لا يتـذكرون [2] ، ومثله الزمخشري في الكشّاف. ووجه استبعاد هذا الـرأي أنّ نفي الــذكرى بعد إثباتها بقوله : «**وَما هِيَ إِلَّا ذِكْـرى لِلْبَشَرِ**» يحتاج إلى تبعيض وتخصيص يفرد الكفّار ومرضى القلــوب عن عمــوم البشر ، ولا دليل عليــه. والأفضل أن نقــول : إنّ كلمة «كلّا» تـأتي لــردع الإنســان عن الجهل والغفلة وعن مجمل الأفكـــار الباطلة الـــتي كـــان أولئك يؤمنــون بها ، لأنّها تــأتي في ســياق الجــدال مع الخصم فيتأوّل ـ عند السامع ـ إلى نفي أفكاره.

وقسم الله بهــذا الكــوكب كقســمه بـأيّ شــيء آخر يعطيه أهمية وشـأنا في وعي الإنسـان المـؤمن بالـذات ، ونحن على ضــوء هــذه الإشــارة الإلهية القرآنية ينبغي أن نتحــرك لفتح آفـاق من المعرفة بهــذا الكــوكب وأهميته ، وعلاقة القسم به بما يريد بيانه القـــرآن في هـــذه الآية وسياقها.

إنّ القمر وهكذا الليل بإدباره والصبح عند تنفّسه كـلّ هـذه الظـواهر الكونية تهـدينا عند التفكر فيها إلى عظمة الرســالة ، وأنّها فعلا لإحــدى الكــبر ، وأنّ أباطيل الكفّــار ليست صحيحة أبـدا. ولعـلّ القسم بـالقمر جـاء للأغـراض التالية : أنّ الحقيقة ــ وجــزء منها رســالة الله ــ قضــية واقعية لا تنتفي بمجــرد إنكارها ، كما أنّ القمر والحقـائق الأخرى لا تنمحي من واقع الوجود بإنكار البعض لها.

وهكـذا تبقى الرسـالة كـالقمر المنـير تفـرض نفسـها على ظلام الكفر أنّى حـاولوا إنكارهـا. إنّها رسـالة عظيمة لو وعوا حقيقتها لتذكّروا بها ، وعرفوا كم هي إنذار شــديد وعظيم للبشر.

(1) مجمع البيان ج 10 ص 391.
(2) التفسير الكبير ج 30 ص 208.

(**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ**)

قال أكثر المفسرين أنّ «أدبـر» بمعـنى ولّى وذهب ، أي قسما بالليل إذ سحب ذيوله مؤذنا بطلوع الفجر. وفي التفسير الكبير قال قطـرب : إذا أقبل بعد مضـيّ النهـار [1] ، على أساس أنّه يقع في دبر النهار ويحلّ ظلامه على خطى رحيله الأخـيرة ، وهـذا رأي بعيد ، وقد عجز البعض عن إدراك وقع «إذ» في هـــــــذه الآية ودورها في أداء المعـنى ، فـافترض ما يشـاء ، واعـترض على قـول الله سبحانه. قـال القرطـبي بعد بيـان الاختلاف في القـراءات والمصـاحف : واختـار أبو عبيد إذا أدبر (وليس إذ) قـال : لأنّها أكـثر موافقة للحـروف الـتي تليه ، أتـراه يقـول : (**وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ**) ، فكيف يكـون أحـدهما «إذ» والآخر «إذا»؟ وليس في القـــرآن قسم تعقبه «إذ» وإنما يتعقّبه «إذا» [2] ويبدو لي أن «إذ» هنا ظرفية لا شـرطية كما في «إذا أسـفر» ، فيكـون المعـنى أنّه تعـالى يقسم باللحظة المباشـــرة لجمع الليل فلـــول ظلامه ، وكأنّه يريـــدنا أن نعيش ظاهرة إدبار الليل وبزوغ الفجر.

(**وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ**)

أي أضـاء وانبلج نـوره ، لأنّ الصـبح له مراحل يتـدرج عبرها ويتضح شيئا فشيئا ، حتى تطلع الشمس فتطرد كلّ فلول الظلام ، وتكشف للناظر عن وجه الطبيعة من حوله ، وفي اللغة : سـفرت المـرأة سـفورا كشـفت عن وجهها فهي سـافر ، وأسـفر مقـدّم رأسه : انحسر عنه الشـعر ، وانسفر الغيم تفرّق [3] فأبدى وجه السماء ، ويقال للصـبح أســفر لأنّه حينما يتشعشع نــوره يكشف عن نفسه وعن الطبيعة بكـلّ وضـوح. وربّنا يقسم به في مرحلة الإسـفار وليس في أيّ مرحلة أخرى من مراحله ،

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 209.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 19 ص 84.

(3) المنجد مادة سفر.

لتعلّق شرط «إذا» بها بالذات.

وحينما يلتفت الإنسـان ببصـره إلى هـذه الظـواهر الكونية الثلاث ، ويتفكّر فيها بعقله ، فإنّه يجـدها آيـات هادية إلى حقيقة التوحيد والربوبية العظمى ، وإلى ذات الحقيقة بتفاصيلها تهديه آيـات القـرآن ، وحديثه عن سـقر وملائكتها وتذكّره بها ، ممّا يؤكّد أنّ الذي خلق هذا الكـون هو الذي أنزل ذلك التشريع ، وأنّه إذا كانت هذه الظـواهر وأمثالها كبـيرة في نفس الإنسـان وعظيمة فـإنّ القـرآن والآخرة واحدة من أعظم الحقائق المنذرة.

(**إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ**)

قـال القرطـبي : روي عن ابن عبـاس «إنّهـا» أي إنّ تكـذيبهم بمحمد (ص) «**لَإِحْـدَى الْكُبَـرِ**» أي لكبـيرة من الكبائر [1] ، وليس في السياق ما يؤيّد هذا الرأي ، بالذات إذا وصلنا الآية بما يليها ، وقيل : إنّ قيـام السـاعة لإحـدى الكبر [2] ، وهذا صحيح مسلّم به إلّا أنّه لا دليل عليه لا في النص ولا في السياق ، وقيل : يعني سقر ، وفيه وجه لأنّها واحدة من أعظم شعب النـار ، وأكـبر النـذر للنـاس ، وقد ذكرت وقيل : آيات القـرآن لإحـدى الكـبر في الوعيد [3] ، وهو أقـرب الآراء والمصـاديق إلى الآيـة. كما أوّلها أئمة الهـدى في الولاية ، عن أبي الحسن الماضي قـال : «الولايـة» [4] باعتبارها سـنام الإسـلام ، وواحـدة من أكـبر أركانه وأهمها ، وعن الباقر (ع) قال : «يعني فاطمة عليها السلام» [5] لأنّ ولاءها وحبّها جزء من تولّي

---

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 19 ص 85.
(2) المصدر.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 331.
(4) نور الثقلين ج 5 ص 458.
(5) تفسير القمّي ج 2 ص 296.

الله ورسوله وحبهما بإجماع كل المذاهب الإسـلامية الـتي تواترت أحاديث فضلها في كتبهم. ثم يقول الله :

(**نَذِيراً لِلْبَشَرِ**)

عن كلّ ضلال وتقصير وذنب ، وإنّما يتمّ الإنـذار ببيـان العـواقب السـيئة لكـلّ ذلك ، وبيـان طريقة تجنّبهـا. وقد اختلف في من هو النذير إلى أقوال أقربها ثلاثة : أحـدها : أنّه النار الـتي ما جعل الله أصـحابها إلّا ملائكة ، والثـاني : أنّه رسول الله صلّى الله عليه وآله ، والثالث : وهو أقربها جميعا : أنّه القرآن باعتباره المنـذر الأعظم والثقل الأكـبر على مرّ الدهور والأجيال.

(**لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**)

فالرســالة الإلهية إذا لا جــبر فيها لأحد على اختيــار طريقها ، بل الناس بالخيار بين الإيمـان والكفر ، والتقـدّم والتــأخر ، وعلى هــذا الأســاس يجب على كــلّ مصــلح ممارسة التغيير والإنذار في مجتمعة وأمّته. هـذا واحد من معاني الآية وهناك تفاسير خرى :

الأول : فمن شــاء أن يتقــدم في الإيمــان بالرســالة فيكون من السـابقين أو يتـأخّر فيكـون من اللّاحقين فـإنّ القرآن نذير له.

الثاني : أنّ «سقر» نـذير وجـزاء لكـلّ من تقـدّم إلى أئمة الهدى ونهجهم فأمن أو تأخّر فكفر بهم لا فرق.

وعن أبي الفضـيل عن أبي الحسن (ع) قـال : «**كـلّ من تقدّم إلى ولايتنا تأخّر**

عن ســقر ، وكــلّ من تــأخّر عن ولايتنا تقــدّم إلى سقر» [1] ، وإلى قريب من هذا المعنى أشار ابن عباس بقوله : من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخّر عنها [2] ، وقـــال العلّامة الطبرسي : وقيل أنّه ســـبحانه عبّر عن الإيمان والطاعة بالتقـدّم لأنّ صـاحبه متقـدّم في العقـول والدرجات ، وعن الكفر والمعصية بالتـأخّر لأنّه متـأخّر في العقول والدرجات [3].

الثــالث : التقــدم والتــأخر الحضــاريين في الــدنيا ، والتقـــدم والتـــأخر في الـــدرجات في الآخـــرة ، فإنّهما مرهونان بموقف الإنسـان (فـردا ومجتمعا وأمّة وبشـرية) من كتـاب الله وذكـراه للبشـرية ، فـإن اسـتمعت للنـذر واتبعت الآيات وصلت إلى السعادة في الـدّارين وتقـدّمت مســـيرتها ، وإلّا صـــارت إلى الشـــقاء والتخلف وواقع المسلمين في التاريخ والآن خير دليل على هذه الحقيقة ، فهم لمّا اتبعــوا القــرآن ســعدوا وتقــدموا وقــادوا ركب الحضارة البشرية ، ولكنّهم الآن حيث هجروه تورّطـوا في أنـواع المشـاكل والبلاء ، وصـدق رسـول الله (ص) حينما قال : «**القرآن هدى من الضلالة ، وتبيـان من العمى ، واسـتقالة من العـثرة ، ونـور من الظلمة ، وضـياء من الأحـــزان ، وعصـــمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيـــان من الفتن ، وبلاغ من الـــدنيا إلى الآخرة ، وفيه كمال دينكم (قال الإمام الصادق عليه السلام) فهـذه صـفة رسـول الله للقـرآن وما عـدل أحد عن القرآن إلّا إلى النّار»** [4].

[38] ومع أنّنا نقول بأنّ للرسالة الإلهية دورا أساسـيا في تقــدم البشــرية أو تخلّفها ولكن بشــرط أن يســعى الإنسان جاهدا في العمل بها.

(1) مجمع البيان ج 10 ص 391.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 385.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 390.
(4) موسوعة بحار الأنوار ج 92 ص 26.

(**كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**)

وتأكيد القـــرآن على هـــذه الحقيقة في كثـــير من المواضيع وبصيغ مختلفة ينطلق من كونها بصيرة أساسـية يجب على الإنســــــــان وعيها في حياته ، إذ هي روح المسـؤولية ، والـدافع الحقيقي لتحمّلها .. فمـتى ما آمن أحد بالعلاقة بين واقعه وبين سعيه ومسـتقبله وبين سـعيه في الحيـاة تحمّل مسـئوليته بتمامهـا. ومن الآية الكريمة نهتدي إلى البصائر التالية :

ألف : أنّ فكـرة الجـبر فكـرة خاطئة ، فـإنّ الله قد جعل مصـــــير البشر بأيـــــديهم ولم يشأ أن يحتّم عليهم مصائرهم ، بل إنّهم هم الذين يرتهنـون أنفسـهم في النـار بسعيهم السيء كالمجرمين أو يفكّـون أسـرهم ويصـيرون إلى الجنة بأعمــالهم كأصــحاب اليمين ، وهــذا من أبــرز مظاهر العدالة والحكمة الإلهية. قـال الامـام الصـادق (ع) يعظ واحــدا من أصــحابه : «**اقصر نفسك عما يضـرها قبل أن تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسـعى في معيشتك ، فإنّ نفسك رهينة بعملك**» [1]

بـاء : أنّ هـذه القاعـدة جارية على كـلّ نفس بـدون اسـتثناء أو تميـيز بين أبيض وأسـود ، أو ذكر وأنـثى ، أو عربي وأعجمي ، فلا قيمة أسمى من العمل الصالح. هكذا يشرّع الله لعباده ، وذلك يعني أنّ كلّ الفلسـفات الضـيقة العنصرية والعرقية والقومية و.. و.. مرفوضة.

جيم : أنّ أغلب المآسي الـتي تصـيب النفس وتصـبح رهينة لها هي من كسبها وسعيها ، كما قال ربنا سـبحانه : «**وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُـوا عَنْ كَثِيرٍ**» [2] ، فالحوادث إنّما نذوق طعمها لقلّة انتباهنا وضعف وعينا بأمور الحياة

(1) مجمع البيان ج 10 ص 458.
(2) الشورى 30.

وقوانينها ، والأمــراض إنّما تتســلّل إلى أجســادنا لعــدم اهتمامنا والقواعد الصـحّيّة ، والتخلّف والتمـزّق وسـيطرة الطغـاة والظـالمين ، وحـتى الـزلازل والانهيـارات وسـائر الكـوارث الطبيعية .. إنّها جميعا من عند الإنسـان نفسه ، وهكـــذا الجـــزاء الأخـــروي ، فـــإنّ أصـــحاب النـــار هم المســـؤولون عن تـــورّطهم فيها لما أقـــدموا عليه من الجـرائم والسـيئات ، كما أنّهم كـانوا قـادرين قبل انقضـاء فرصة العمر على افتـــداء أنفســـهم وفك أســـرها بعمل الصـالحات ، كأصـحاب اليمين الـذين يمتـازون عن سـائر الناس بذلك.

(**إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ**)

قال الإمام الباقر (ع) : «نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكلّ من أبغضنا أهل الـبيت فهم المرتهنـون» [1] ، وفي الكشّـــاف : وعن علي (ع) أنّه فسّـــر أصـــحاب اليمين بالأطفـال ، لأنّهم لا أعمـال لهم يرتهنـون بها [2] ، ورجّحه الـرازي في تفسـيره ، وليست هـذه إلّا مصـاديق لحقيقة واحـدة ، فالأصل من اليمن نقيض الشـؤم ، كما مـرّ علينا في سورة الواقعة عند قول تعالى : «**فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَـةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَـةِ* وَأَصْـحابُ الْمَشْـئَمَةِ ما أَصْـحابُ الْمَشْـئَمَةِ**» [3] ، وإرجـاع التعبـير إلى أصـله يجعله يتسع لمصاديق أخـرى كثـيرة. وقد اسـتثنى ربّنا أصـحاب اليمين باعتبارهم من دون كلّ النـاس ليسـوا رهـائن لأنّ كسـبهم وسعيهم محمود ، بل هم في نعيم واسع مقيم.

(**فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ**)

والســؤال ما هي أهمية التســاؤل عن المجـــرمين بالنسبة لأصحاب الجنة؟

أولا : لإنّ ذلك يزيد المؤمـــنين لـــذّة بـــالنعم مادية ومعنوية ، فكما أنّ تحسس الغني

(1) تفسير البصائر ج 50 ص 432.
(2) الكشّاف ج 4 ص 655.
(3) الواقعة 8 / 9.

لأوضـــاع الفقـــراء يزيـــده شـــعورا بفضل الله عليه فـــإنّ أصـــحاب اليمين تـــزداد لـــذّتهم بنعم الجنة ونعمة الهداية حينما يطّلعون على نقيضهم.

ثانيا : هذا الحوار المستقبلي نافع للمؤمنين في الدنيا ، لأنّه يكشف لهم عن مكامن الخطر ، ومعالم طريق النار ، مّما يمكّنهم من تجنّب الأخطاء والمزالق ، فـإنّ المعرفة بها لا تقـلّ أهمية عن المعرفة بالصـواب والحـق. والـذي يسعى لبناء شخصية إيمانية في نفسه ينبغي له أن يعـرف صفات أهل النار ليتجنّبها.

(**ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**)

أيّ شيء (عمل ومنهج) قادكم إلى النار؟

وإجـابتهم تـبيّن معـالم الشخصـية المجرمة من جهة ، وتؤكّد عمليا ارتهان كلّ نفس بكسبها من جهة أخرى ، فما هي الأســـباب الـــتي أدّت بهم إلى الجريمة ومن ثمّ إلى عذاب سقر؟

أولا : تركهم الصلاة.

(**قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**)

والآية تشمل التـاركين للصـلاة من الأسـاس كالكفّـار والممســوخين من المســلمين ، كما تشــمل أولئك الــذين يمارســـون طقـــوس العبـــادة ولكنّهم لا يلـــتزمون بقيمها وأهدافها ، وهم الذين قال عنهم ربّنا : «**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ**» [1] ، فـإنّهم عند الله ليسوا من عـداد المصـلين ، لأنّ تـارك الصـلاة إنّما يصـبح مجرما لأنّه تـرك أعظم دافع نحو الخـير وأفضل رادع عن الشر وهو الصلاة ،

---

(1) الماعون 4 / 5.

قال تعالى : «**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ**» [1] وذلك أنّها عمود الدين ، وروح الإيمان ، وصلة التقرب بالله.

قال الإمام علي (ع) يعظ محمد بن أبي بكر : «واعلم يا محمد أنّ كلّ شيء تبع لصلاتك ، وأعلم أنّ من ضيّع الصلاة فهو لغيرها أضيع» [2] ، وقال رسول الله (ص) : «**لا يزال الشيطان يرعب من بني آدم ما حافظ على الصلوات الخمس ، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه وأوقعه في العظائم**» [3].

وقد أعطى أئمة الهدى بعدا سياسيا واجتماعيا لهذه الآية ، من خلال تفسير ترك الصلاة في ترك الانتماء إلى حزب الله ورفض القيادة الرسالية ، قال إدريس بن عبد الله سألته ـ يعني الإمام الصادق (ع) ـ عن تفسير هذه الآية ، قال : «أي لم نك من أتباع الأئمة عليهم السلام» [4] ، وقال : «أما ترى الناس يسمّون الذي يلي السابق في الحلبة المصلي؟! أعني حيث قال : الآية» لم نك من أتباع السابقين [5] ، وهذا واضح في نصّ الآية الكريمة عند قوله : «من المصلين» .. فالمصلون إذا خط وحزب وقيادة ، وعدم الانتماء إليهم يستوجب عذاب سقر .. ومن هذه الفكرة نهتدي إلى أنّ التفرّج على الصراع بين الحق والباطل في المجتمع دون الانتماء إلى فريق الحق مسألة مرفوضة في الإسلام.

ومع أنّ الكفار والمشركين كافرون بأصول الدين إلّا أنّ الله يشير إلى كفرهم بالصلاة وهي فرع من فروع الدين كواحدة من الكبائر. لما ذا؟! لأنّها عمود

---

(1) العنكبوت / 45.
(2) موسوعة بحار الأنوار ج 83 ص 24.
(3) المصدر ج 83 ص 202.
(4) البرهان ج 4 ص 404.
(5) المصدر.

الــــدين ، ولأنّ الكفّـــار يحاســـبون على الفـــروع أيضا ، فالقانون واحد لا فرق فيه بين المؤمنين والكفار.

ثانيا : عدم إطعام المسكين.

(**وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**)

والمسكين أشدّ حاجة من الفقـير ، لأنّه الـذي يسـكنه الفقر ولا يملك قـوت يومه ، ومسـاعدة هـذه الطبقة من النـاس واجب شـرعي إنسـاني اجتمـاعي يفرضه الإسـلام كما يفرضه العقل والعرف ، فحينما يصل العـوز بفـرد من الأفراد إلى حدّ الضروريات الأوليّة كالطعـام اللازم للحيـاة فـــإنّ المجتمع مســـئول أمـــام الله عن رفع حاجته بأيّة طريقة ممكنة.

وقد عكس الإسلام هذا المبـدأ في نظامه الاقتصـادي وتشـريعاته الجنائية والقضـائية ، بحيث رفع حـدّ السـرقة عمّن تدفعه إليها الحاجة الضـــــرورية وقد تخلّف مجتمعة عن أداء مســـئوليته تجاهـــه. واعتـــبر دراسة الأحـــوال الشخصـــية والظــروف الاجتماعية والاقتصــادية جــزء من نظامه القضائي في المجتمع. وتأخــذنا الآية الكريمة حينما نتـدبّرها ضـمن سـياقها (صـفات المجـرمين) إلى أبعد من ذلك حينما تعتبر الإنسان الذي لا يتحمل مسئولية الفقــراء والمساكين (فردا ومجتمعـا) هو مجرما أيضا ، لأنّ انـدفاع المسكين إلى ممارسة السرقة والفساد تحت مسّ الجوع والحاجة ليس بأعظم جريمة من جريمة عدم إسـعافه من قبل ذوي الاستطاعة.

إنّ موقف الإســـلام الحـــازم والواضح من مســـاعدة المســـاكين والمحـــرومين جـــزء من نهجه الأقـــوم لعلاج مشـــكلة الظلم والطبقية ، وقد ربط القـــرآن بين العاقبة (سلوك سقر) وبين الأسباب (الآيات 43) لبيان أنّ عــذاب سقر ليس إلّا سلوكيات

وأخلاق تتجسّـد في الآخـرة. ولتقـريب الفكـرة نقـول : لو افترضنا (سقرا) سـجنا ذا أربعة جـدران من نـار فـإنّ كـلّ واحدة من صفات المجرمين الأربع تمثّل واحدا منها.

ثالثا : الاسترسال مع التيّار.

(**وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ**)

قال قتادة : معناه كلّما غوى غاو للـدخول في الباطل غوينا معه ، أي كنّا نلـوّث أنفسـنا بـالمرور في الباطل كتلويث الرجل بالخوض ، فلمّا كان هؤلاء يخرجون مع من يكذّب بالحق مشيّعين لهم في القول كانوا خائضـين معهم [1] ومثّل لـذلك ابن زيد فقـال : نخـوض مع الخائضـين في أمر محمد (ص) وهو قولهم : كاذب ، مجنـون ، سـاحر .. [2].

الاسـتقلال من أهمّ أهـداف الإنسـان في الحيـاة ، باعتبـاره محتـوى التوحيد ، وجـوهر العبودية لله ، ولبـاب حرية الإنسـان .. من هنا كـان الخـوض مع الخائضـين والاسترسـال مع التيّـار الغـالب أنّى اتجه كـان ذلك جرما عظيما يرتكبه الإنسان في حـقّ نفسه ، وهو يعتـبر كـذلك من مصاديق الشرك بالله ، الذي يسـتوجب عند الله أشـدّ العـذاب ، لأنّه عامل رئيسي من عوامل خطأ الإنسـان وانحرافه وضلاله [3].

وقد جـاءت رسـالات الله تهـدي الإنسـان إلى ذاته ، ومعرفة كرامته عند الله ، وآفـاق عالمه الكبـير ، بينما الشيطان ، وأولياؤه يريـدون تضـليل الإنسـان عن نفسه ، وتجهيله بقيمتها وكرامتها ودورها المرسـوم في انتخـاب الخير ومحاربة الشر ، ومن هنا

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 386.

(2) فتح القدير ج 5 ص 333.

(3) لقد بيّنا دور حسّ التوافق الاجتمـاعي السـلبي في كتابنا المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه ص 219 / 240.

نجد الطغاة والمترفين اليـوم قد تسـلّحوا بـأجهزة إعلامية فائقة الكفاءة من أجل سلب الإختيار من الإنسان الفـرد ، وقولبة شخصيته ضمن القنوات التي يختارونها له ، وتلقّي المواقف والأفكـار الجـاهزة من خلال وسـائل السـلطة. ولقد اسـتطاعت الأنظمة الاسـتكبارية في الغـرب ربط شـعوبها بوسـائلها الإعلامية بالخصـوص في القضـايا السياسية ، فهي تخوض حينما خاضت حكوماتها وأحزابهـا. والشاشة الصـغيرة وشـبكات الصـحف الكبـيرة أصـبحت اليوم آلهة تعبد من دون الله ، وتفرض آراءها على النـاس في شـتّى الأمـور. وحـتى اختيـار لـون فسـتان زوجته ، وتسـريحة شـعرها ، وطبيعة العلاقة معها ، يسـتمده الإنسان الغربي من وسـائل الدعاية والاعلام لا من اختيـار حرّ مستقل.

أمّا كيف يـؤدّي حس التوافق إلى الجريمـة؟ فـالأمر واضح جـدا ، إذ أنّ الفـرد الـذي فقد الاسـتقلال سـوف يشـارك مجتمعة في أخطائه حينما يتجه مركبه صـوب الجريمة والضلال ، فإذا فسد أخلاقيّا فسد معه ، وإذا شنّ حربا ظالمة على الآخرين خاض في دمائهم كما يخوضـون ، وإذا جلس مجالس الغيبة والبهتـان والنميمة أدلى بـدلوه في لهو الحديث ولغوه دون أن يملك شجاعة المعارضة.

رابعا : التكذيب بالآخرة.

(**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ* حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ**)

واليقين هنا بمعـنى العلم ، وقد فسّـرت الكلمة بـالموت لأنّ الإنسـان حينما يمـوت يرتفع عن بصـره كـلّ حجاب ، فيرى الآخرة والجزاء وكلّ الحقـائق الـتي ذكّـرت بها رسـالات الله عين اليقين. وفي الآيـتين إشـارة إلى أنّ فرصة النجـاة قائمة ما دام حيّا ، فلو وقع في خط الباطل والاجـرام ثمّ تـاب وأصـلح قبل المـوت نفعه ذلك وإلّا فلا. وحيث لا يعلم الإنسـان موعـده مع المـوت ولقـاء ربه وجزائه فإنّه ينبغي له ملازمة

الطاعة والعمل الصــالح بلا انقطــاع ، فلعلّه وقد فكّر في المعصـية وواقعها وافـاه الأجل فصـار إلى سـوء العاقبـة. هكذا أوصى أمير المؤمنين ابنه الحسن ـ عليهما السلام ـــ محـــذرا إيّـــاه من المـــوت : «**فكن منه على حـــذر أن يدركك وأنت على حال سيئة ، قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك وبين ذلك ، فــإذا أنت قد أهلكت نفسك**» [1].

ويعتــبر الإســلام التكــذيب بــالآخرة وجزائها من أهم العوامل الــتي تــدعو البشر إلى التحلّل من المســؤولية ، والإفراط في الانحراف والذنوب ، والتعبير القرآني الـوارد في الآية دقيق جدا إذ يقـول الله «**نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ**» وكأنّ التكـذيب بـالآخرة وسـيلة إلى كـلّ تكـذيب. بلى. إنّ خشية العقاب تردع الإنسان من مخالفة القوانين ، ومن لا يخشى عقـــاب ربه كيف يلـــتزم بشـــرائعه؟ من هنا يؤكّد العلمـــاء على ضـــرورة القـــوانين الجزائية ، لأنّها ضـــرورة ملحّة في تنظيم علاقات المجتمع.

وقد أطلق الله على يـــوم القيامة أســـماء كثـــيرة قد تتّفق في حيثيّاتها الأوليّة ، ولكنّها بلا شك تختلف في إيحاءاتها النفســية والمعنوية ، بحيث يمكن لنا القطع بــأنّ التعبـير ب «يـوم الـدين» في هـذا السـياق أصـلح من أيّ تعبـير آخر ، ونكتشف ذلك في المفـردات ضـمن السـياق الذي ترد فيه.

ولأنّ سياق سورة المدثر عن تبليغ الرســالة وتكـذيب الكفّـار ومرضى القلـوب بحقـائق الـدين كـان من الحكمة التأكيد على «يـوم الـدين» بالـذات ، لبيـان أنّ الـدين هو المحور والميزان في الآخرة ، وأنّ حقائقه التي يكـذّب بها أعداء الرسالة سـوف يـأتي اليـوم الـذي يجليها ، وبالتـالي التأكيد على أنّ التديّن ضرورة مصيرية لكلّ إنسان.

[48] ويبيّن لنا القـرآن صـفة خامسة لأصـحاب سـقر هي في الحقيقة

---

(1) نهج البلاغة ك 31 ص 400.

عامل رئيسيّ من عوامل الجريمة والمعصـية ، وهو الفهم الخاطئ لمفهوم الشفاعة الذي تنادي به كلّ رسالات الله ، حيث التمنّيات التي تحوّلها إلى مبرّر لممارسة الخطايا.

وإذا كان هذا الفهم تبلور لدى اليهود في نظرية البنوّة وشعب الله المختار ، ولدى النصـارى في نظرية الفـداء ، فإنّ بعض المسـلمين أيضا انزلق إلى مثل هـذه المفـاهيم والتمنيات ، ولكن بقـوالب وتعـابير مختلفة ، فقـال البعض أنّ المسلمين خير أمّة أخرجت للناس ، وأنّ الله لا يعـذّب أمّة فيها حبيبه النـــبي محمد (ص) ، وقـــال فريق : انّ الأوليـــاء يشـــفعون له الخطايا من دون قيد وشـــرط ، والقـرآن ينسف كـلّ هـذه التمنّيـات الباطلة حـتى لا يـدع مجالا للإنسان يفرّ عبره عن تحمّل المسؤولية ، وقد حـذّر أئمة الهـدى من هـذا الفهم الخـاطئ للشـفاعة ، قـال أبو بصـير : دخلت على حميـدة أعزّيها بـأبي عبد الله فبكت ، ثم قالت : يا أبا محمد لو شهدته حين حضـره المـوت وقد قبض إحدى عينيه ثم قال : «ادعوا لي قرابتي ومن لطف لي» فلما اجتمعـوا حوله قـال : «**إنّ شـفاعتنا لن تنـال مستخفا بالصلاة**» [1].

والآية القرآنية قوية في وقعها.

(**فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ**)

لأنّ أحدا لا يشفع لهم ، وعلى افـتراض ذلك لا تنفعهم ، فكيف وأنّ أوليـــاء الله لا يشـــفعون إلّا لمن ارتضى ربّ العزة؟ وإنما عبّر القرآن بهـذه الصـيغة لينسف تصـوراتهم الخاطئة والمغرقة في الأماني ، وليس لبيـان أنّ أحـدا قد يتقدّم للشفاعة في المجرمين ، بلى. إنّ الشـفاعة حقيقة واقعية ولكنّها تنفع من تكـــون مســـيرته الكلّيّة مســـيرة صحيحة فتسـقط عنه سيئاته الجانبية ، ولا تكـون مسـيرة الإنسان العامة سليمة إلّا بالإقبال على رسالة الله ، واتباع رسله وأوليائه ، من هنا يستنكر الله على الكفار

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 82 ص 236.

والمشـــركين إعراضـــهم عن تذكرته في الـــوقت الـــذي يتطلّعون إلى ذلك.

(**فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ**)

قـــال مقاتل : الإعـــراض عن القـــرآن من وجهين : أحـدهما الجحـود والإنكـار ، والوجه الآخر تـرك العمل بما فيه [1] ، مع أنّ التـذكرة إنّما جـاءت من أجل نجـاتهم (البشر) بتعبير القرآن ، وليس ضدهم ، فحـقّ أن يسـتنكر القرآن مـوقفهم اللـئيم من إحسـان الله إليهم بالرسـالة ، وأن يشبّههم بالحمير وصفا لواقعهم وحطّا من قدرهم.

(**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**)

والاســتنفار من النفــور المختلط بشــعور الخــوف والخطر ، والكلمة دخلت مصـطلحا في علم العسـكرية ، يقــال : اســتنفر الجيش إذا توقّع وتــأهّب لدفعه ، وفي المنجد : المسـتنفر الشـارد المـذعور [2] ، والكلمة على وزن مستفعل ممّا يهـدينا إلى أنّ المعرضـين عن التـذكرة يزيد أحـــدهم الآخر إعراضا ونفـــورا عن الحق ، كما يزيد أفــراد القطيع من حمــار الــوحش بعضــهم بعضا ذعــرا وشــرودا من ســطوة الأسد الهصــور حينما يهجم عليهم. والقســـورة على الأقـــرب اسم الأسد حينما ينقضّ على طريدته ، من القسر بمعنى القهر ، أي أنّه يقهر الســباع ، والحمر الوحشـية تهـرب من السـباع [3] كأشـدّ ما يكـون ، وسمّي الرامي والصيّاد قسورة لأنّه بسهمه يصطاد الصـيد ويقهره ، وتقول العرب لكلّ رجل قويّ شديد قسورة لأنّه يصـرع الأقـران ، ويخافه الآخـرون ، وما أبلغه من تشـبيه تصويريّ رائع.

ولعـلّ سـائلا يسـأل : لما ذا يفـرّ البشر من التـذكرة؟ والجواب : إنّ وجدان

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 19 ص 88.
(2) المنجد مادة نفر.
(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 19 ص 89.

الإنسان وعقله يرفضان كفره وعصيانه ، ويعيش المجــرم صراعا دائما معهما ولكنّه قد عقد عزمه عي المضيّ قدما مع شهواته ، فيتهرب من الوعظ والإرشـاد حـتى لا يـدعم جـانب عقله ووجدانه ، لأنّ الرسـالة تكبح جمـاح الهـوى ، وتحـدّد تصـرفّات النفس بالأحكـام والنظم ، وتحمّله كامل المســـؤولية في كـــلّ بعد من أبعـــاد الحيـــاة الفردية والاجتماعية.

(**بَـلْ يُرِيـدُ كُـلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُـؤْتى صُـحُفاً مُنَشَّرَةً**)

قال ابن عبّاس : كانوا يقولون : إن كان محمد صادقا فليصـبح عند كـلّ رجل منّا صـحيفة فيها براءته وأمنه من النـار ، قـال مطر الـورّاق : أرادوا أن يعطـوا بغـير عمل ، وقال الكلبي : قال المشـركون : بلغنا أنّ الرجل من بـني إسرائيل كـان يصـبح عند رأسه مكتوبا ذنبه وكفّارته ، فاتنا بمثل ذلك ، وقيل : أنّ أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد! ائتنا بكتب من ربّ العـالمين مكتـوب فيها : إنّي قد أرسـلت إليكم محمـدا (ص). نظـيره : «**وَلَنْ نُـؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْـرَؤُهُ**» [1]. وما يريدونه محمول على ثلاثة أوجه :

الأول : أنّهم يريدون مشـاهدة الرسـالة الإلهية تتـنزّل في قرطـاس يلمسـونه ، ويكـون متميّـزا معجـزا من كـلّ جهاته ، وما ذلك إلّا شـرط تـبريريّ للفـرار من مسـئولية الإيمـــان والطاعة للرســـول ، وقد فضح الله هـــذه النوايا الخفيّة ، وكشف عمّا في قلوبهم من مرض فقال : «**وَلَـوْ نَزَّلْنا عَلَيْـكَ كِتابـاً فِي قِرْطـاسٍ فَلَمَسُـوهُ بِأَيْـدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**» [2].

الثـــاني : أنّ الخضـــوع لقيـــادة الآخـــرين ، وبالـــذات الخضوع الشامل لجوانب

---

(1) المصدر ص 90 بتقديم وتأخير.

(2) الأنعام / 7.

الحياة ، كما في الأطروحة الإسلامية للقيادة ، من أصـعب الأمور على الإنسـان ، باعتبـاره يفـرض عليه الخـروج من شحّ النفس وحبّ الذات ، ويحدّد مواقفه وتصـرفّاته ، هـذا في سـائر النـاس ، أمّا إذا كـان من المـترفين وأصـحاب الوجاهة فـالأمر أثقل عليه وأصـعب ، حيث تتـوق نفسه للرئاسة على الآخـرين ، بينما النظـام الإسـلامي يفـرض عليه الانصياع لأوامر القيادة الرسالية ، وربما التنـازل عن المراكز الإجتماعية التي لا يستحقّها والأموال الـتي جمعها من غير حلّها .. وهذا ما لا يطيقه أبو جهل وأمثاله ، لـذلك تـرى كـلّ واحد منهم يتمنّى لو يكـون هو الرسـول الـذي يختاره الله فينزل عليه وحيه ، ومن ثمّ يفرض قيادته على الناس ، ويـوجب عليهم الخضـوع لـه. قـال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كلّ واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل : إلى فلان بن فلان [1]. وفي الآية اعـتراف ضـمني من المشركين والكفّار بأنّ الرسـالة فضل عظيم ، تمنّاها كـلّ واحد منهم لنفسه لما فيها من الشرف.

الثالث : أنّ هـذه الآية كشـفت عن عقـدة مستعصـية عند الإنسان لا بدّ من الجهاد حتى يتغلّب عليها ، وهي تلك العقـدة الـتي أشـارت إليها آيـات عديـدة في الـذكر تـبيّن طلبـات الكفّـار الإعجازية ، مثل قوله سبحانه : «**وَقـالُوا لَنْ نُـؤْمِنَ لَـكَ حَتَّى تَفْجُـرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعـاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهـارَ خِلالَها تَفْجِيراً* أَوْ تُسْـقِطَ السَّـماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَـفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً**» [2] ، وقالوا : «**ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعـامَ وَيَمْشِـي فِي الْأَسْـواقِ لَـوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَـذِيراً**» [3] ، فهـذه الآيـات ونظائرها تكشف عن عقدة أساسية عند الإنسان وهي أنّه ينتظر ما يجبره على اتباع الحق جبرا ، فتراه دائم الطلب بما يراه علّة لإيمانه أو يسوّف الإيمان والعمل الصالح إلى أيّام يزعم أنّه يجد فيها ما

(1) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 19 ص 90.
(2) الإسراء 90 / 92.
(3) الفرقان / 7.

يكــون ســببا تامّا لهمــا. وكما تتجلّى هــذه الطبيعة في الإنسان الفرد فإنّها قد تتجلّى في شعب كامل وأمة كاملة ، وثـابت عمليّا في تـاريخ البشر ولـدى علمـاء النفس أنّ بعض الشعوب تنتظر حالة الكره على القانون حتى تلـتزم به ، وهو انتظار سخيف ، إذ شرف الإنسان وكرامته (فـرد أو أمّــة) يتمثّل في انتخابه الحر للخـير والفضـيلة ، وليس في تحويله إلى أداة طيّعة لإرادة قـــــاهرة حـــــتى ولو استخدمت في الطريق الصحيح.

هكـذا كـانت الهداية من مسـئولية الإنسـان ذاته ، أن يختارها ، ويسـعى جاهــدا إليها ، ويجــأر إلى ربه لتوفيقه إليها .. ويكـــون دليله في كــلّ ذلك عقله الــذي يميّز له وبوضـوح كـاف سـبيل الهـدى عن طريق الضـلال ، ممّا لا يـدع له مجـالا للتـبرير ، وهو أكـبر حجة لله عليه ، ولعـلّ الكلمة التالية توحي بذلك :

(**كَلَّا**)

ليس تبريرهم مقبولا ، وليس سبب اسـتمرارهم على الكفر عدم وجود هذا الشرط أو ذاك.

وقوله في الآية السابقة «**كُلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ**» إشـارة إلى كون هذه الصفة مرتكزة في كلّ فرد فــرد من البشر إلّا ما شـــاء الله ، وإلّا من ينتصـــرون عليها ويصـــلحون أنفســهم. ثم يــبيّن ربّنا بقــول فصل العامل الرئيسي في موقف الكفّــار من قيم الــدين وقيـادة الرسـول ، ألا وهو عدم حضور الآخرة في وعيهم.

(**بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ**)

إذن فطلبهم صحفا منشّرة والمعجزات الأخــرى ليس إلّا تبريرا لموقفهم ، وغطاء لشـيء آخر هو عـدم الخـوف من الآخرة ، فالآخرة إذن ليست فكرة مجرّدة يكفي

الإنسـان أن يلقلق بها لسـانه ، ويحفظها في ذاكرته ، بل هيه حقيقة كبـيرة يجب أن يتفاعل معها عمليّا ، فتعكس آثارها في سلوكه وشخصيته ، وأظهر آيات ذلك الخوف من الآخرة ، بالخوف من عذاب الله وغضبه ، فإنّها أحقّ بأن يخافها البشر.

وعـدم الخـوف من الآخـرة قد يكـون نتيجة للكفر المحض بها ، وقد يكـون نتيجة للأفكـار التبريريّة الـتي ينسجها الإنسان بخياله ، كالشرك بالله ، وأفكار الفداء الخاطئة.

[54] ثم يقول الله :

(**كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ**)

أي أنَّ الإعراض والنفور عن القرآن لا يصيّره بـاطلا ، فهو بآياته وحقائقه يـذكّر البشر بـأعظم الحقـائق ، بل بها كلّها ، إذ فيه تبيان لكلّ شيء.

والرسـول هو الآخر مصـداق للتـذكرة ، حيث يقـوم بـذات الأهـداف الـتي جـاء من أجلها القـرآن ، وأعظمها تذكير الإنسان بربّه عزّ وجلّ ، عبر الأدلّة والآيات التي تثير فيه العقل وتوقظ الضمير ولكن من دون جبر ، فالرسـول ما عليه إلّا البلاغ المـبين ، والقـرآن ليس دوره إلّا بيـان الحق والباطل معا ، ووضع الإنسـان بكـلّ وجـوده المـادي والمعنوي أمام الإختيار.

(**فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ**)

بإرادته ووعيه ، فإنّ أيّ اختيـار آخر مرفـوض عند الله ، ولا ينفع صـاحبه بشـيء لا في الـدنيا ولا في الآخـرة ، ولعمري إنّها لمن أظهر الآيات على أنّ الرسـالة حق ، أن تعـترف للإنسـان بحرّيّته واختيـاره ومسـئوليته ، وأن لا يمارس معه أيّ لون من ألوان الإكـراه إذ «**لا إِكْـراهَ فِي الدِّينِ**» انطلاقا من حاجته هو إلى الحق ، وليس العكس. وهذه في نفس الـوقت خصيصة تميّز الرسـالة الإلهية عن الدعوات البشرية

المرتكـــزة على الجـــبر والإكـــراه ، ومن ثمّ تجاهل دور الإنسان وحقّه في تعيين مصيره.

وتــوازن الآيــات بين الجــبر والتفــويض ، لأنّ بصــيرة القرآن تهدي إلى أمر بين أمرين ، وذلك من خلال تذكيرنا بحقيقة مهمّة بقرار الإنسان واختياره في الحياة ، ألا وهي أنّ مشــيئته لا تكــون إلّا باللــه. أوليس الله خلق الإنســان وأســبغ عليه نعمه ظــاهرة وباطنة ، فلو لا خلقه هل كــان شــيئا حــتى يشــاء؟ ثم إنّه منحه العقل والإرادة ، ووفّر له فرصة المشيئة ، ولو كان الإنسان كالحجر لا يملك عقلا أو إرادة فهل كــان يشــاء شــيئا؟ وعند ما وفّــرت له فرصة المشيئة وفي لحظة المشيئة لو لا نــور التأييد الــذي ينمّي إرادته لم يكن يمضي في مشـــــيئته قـــــدما في مقاومة جــواذب الشــهوة وركــائز النقص والعجز والجهل الــتي هو فيها. أليس كــذلك؟ وحينما تكــون الهداية محــور المشــيئة أفيمكن للإنسان أن يبلغها من دون تذكرة ربه وتوفيقه؟

بلى. وهكذا قرار الإنسان مركّب من أمرين : أحــدهما متصل به ، والآخر متصل بربه ، فحيث يختـــــــــار الهداية ويسعى إليها سعيها يهديه الله ويبارك سعيه ، وهذا معــنى قول الإمام الصادق (ع) : «لا جبر ولا تفــويض ، ولكن أمر بين أمــرين» (قــال المفضّــل) قلت : ما أمر بين أمــرين؟ قـــال : «مثل رجل رأيته على معصـــية فنهيته فلم ينته ، فتركته ففعل تلك المعصـــــية ، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية» [1] ، وقال ـ عليه السلام ـ : «الله تبارك وتعالى أكــرم من أن يكلّف النــاس ما لا يطيقونه (يجــبرهم) ، والله أعــزّ من أن يكـــون في سلطانه ما لا يريد» [2] (فيفوّض لهم الأمر).

وقـــال الإمـــام عليّ بن موسى الرضا (ع) لمّا ســـأله المأمون : يا أبا الحسن! الخلق

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 5 ص 17.

(2) توحيد المفضل ص 360.

مجبورون؟ : «الله أعـدل من أن يجـبر خلقه ثم يعـذّبهم» قــال : فمطلقــون؟ قــال : «**الله أحكم من أن يهمل عبده ويكله إلى نفسه**» [1] ، وهذا البيان العميق للأئمة ـ عليهم السلام ـ في شأن إرادة الإنسـان وقـراره هو الحق الـذي تهـدينا إليه الأدلّة والحجج البالغة ، وأهـداها وجـدان الإنســان نفسه وتجاربه الشخصــية ، فــإنّ الجبريّة وإن جــادلوا عن رأيهم إلّا أنّ كــلّ واحد واحد منهم يعلم علم يقين أنّه الذي يقـرّر ما يريد لا يكرهه أحد على ذلك ، وإنّ المفوّضة ليعلمون بأنّ الأمور ليست كلّها بأيديهم.

(**وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ هُـوَ أَهْـلُ التَّقْـوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**)

أي أنّه ــ عـزّ وجـلّ ــ أهل أن يتقيه خلقه ويخـافوه ، وأهل أن تـرجى رحمته ومغفرته ، وهـذه اللمسة القرآنية الأخيرة تضع الإنسـان على الصـراط السـويّ بين الخـوف والرجاء ، كما وضعته الآيـات بين الجـبر والتفـويض ، على أنّ مغفرة الله تسبق غضبه.

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 5 ص 59.

سورة القيامة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

عن أبي جعفر (الإمـام البـاقر) عليه السـلام قـال : **«من أدمن قـراءة «لا أقسـم» وكـان يعمل بها بعثه الله عزّ وجلّ مع رسـول الله ــ** صـلّى الله عليه وآله **ــ من قبره في أحسن صـورة ، ويبشّـره ويضـحك في وجهه حتى يجوز على الصراط والميزان»**

نور الثقلين / ج 5 ص 461

الإطار العام

(**أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُـدىً**)؟ أيّ شـيء في كيانه يـدل على العبثية واللهـو؟ خلقه أطـوارا ، أم فطرته القويمة ، أم نفسه اللوّامة الـــتي تبصّـــره بنفسه رغم المعـــاذير الـــتي يلقيها ، أم الحجج البالغة وأعظم بها كالقرآن الذي تكفّل الربّ بجمعه وبيانه؟

هكذا تترى آيات السـورة تعمّق في وعينا المسـؤولية التي تتجلّى في يوم القيامة حيث يسوّي الله حتى البنان ، وحيث تـترى فيه الفـواقر والـدواهي .. ولا يجد الإنسـان مفرّا ولا وزرا يلجأ إليه.

هكذا نهتدي إلى محور السـورة المسـؤولية ، وهـدفها تعميق الشعور بها ، والآية الـتي تتجلّى بها قوله سـبحانه : «**بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**».

وتفصـيل هـذه الحقيقة أنّ القـرآن يـذكّرنا في مطلع الســـورة بحقيقـــتين : القيامة والنفس اللوّامة ، ويربط بينهما على أساس أنّهما مظهر للمسؤولية ، فكما يستحثّ الإيمان بالقيامة الإنسـان لتحمّلها فـإنّ النفس اللوامة هي الأخرى تقوم بذات الدور

من بعد آخر ، إذ تقف أمام تراجعاته ، وتنهره عن التقصير في أداء الواجب ، وعن اقتحام الخطيئات (الآيات 1 ـ 2).

ويستنكر السياق زعم الإنسان أنّه لن يبعث تارة اخرى بعد أن يصير أشلاء موزّعة ورميما. هل يحسب أنّ قدرة الله محدودة مثله؟ كلّا .. قدرته تفوق تصوّر البشر .. فهو ليس قادرا على جمع عظامه وحسب ، وإنّما يقدر أن يسوّي بنانه أيضا ، والإنسان حينما يراجع نفسه ويتفكّر في آيات قدرة الله في الطبيعة فإنّه يعرف تلك الحقيقة ، ولكنّه إنّما يخترع تلك الأفكار تبريرا للهروب من عرصة المسؤولية ، والإيمان بالرسالة التي تحدّد تصرفاته ولا تجعله مطلقا يتّبع الهوى كما يريد .. ويؤكّد القرآن مرة أخرى أنّ هذه هي الخلفية الحقيقة لسؤاله عن القيامة (الآيات 3 ـ 6).

ويداوي ربّنا هذا المرض المستعصي في النفس البشرية بالتأكيد للإنسان أنّه وإن استطاع موقّتا (في الدنيا) تبرير ضلاله والفرار من المسؤولية تحت غطائه فإنّه لن يجد في المستقبل مفرّا من ربه حينما تقوم القيامة «**فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ* وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**» وعبر قنطرة الدنيا الفانية إلى دار الاستقرار عند الله ، فهنالك يجد نفسه وجها إلى وجه مع حقيقة أمره حيث يجد ما عمل محضرا أمامه (الآيات 17 ـ 13).

ويثير الوحي فينا حسّ النقد الذاتي ، عن طريق تذكيرنا بحقيقة وجدانية مسلّمة ، ألا وهي بصيرة الإنسان على نفسه ، فإنّه قبل الآخرين شاهد عليها وعالم بواقعها ، مهما توسّل بالأعذار والتبريرات الواهية ، وإنّما يؤكّد القرآن هذه الحقيقة لأنّ المراقبة الذاتية أعظم أثرا ، وأرسخ للتقوى في شخصية الفرد (الآيات 14 ـ 15).

ثم ينعطف السـياق إلى الحـديث عن القـرآن نفسه ، داعيا الرسول إلى عدم التعجّل به من قبل أن يقضى إليه وحيه ، مؤكّـدا تكفّله تعـالى بجمعه وقرآنه ثم بيانه للنـاس .. وهذا ممّا جعل المفسرين يتحيّرون في فهم العلاقة بين سياق السورة وبين هذا المقطع ، إلّا أنّ هناك علاقة متينة سنتعرّض لإيضاحها في البيّنات (الآيات 16 ـ 19).

وتهدينا الآيـات إلى واحد من عوامل الانحـراف وعـدم تحمّل المسؤولية عند الإنسان ، والذي لو استطاع التغلب عليه لاهتدى إلى الحق ، وسقط الحجاب بينه وبين الآخرة ، ألا وهو حبّ العاجلة (الــدنيا) على حســاب الآخــرة ، والبحث عن النتـائج الآنية وإنكـار الجـزاء الآجل ولو كـان الأفضل ، بل ولو كـان مصـيريّا بالنسـبة إليه ، فهو يعيش لحظته الراهنة دون التفكـير في المسـتقبل ، وهي نظـرة ضـيّقة خطــيرة. وحين يفشل الإنســان في الموازنة بين الحاضر والمستقبل ، وبين الـدنيا والآخـرة فإنّه يخسـرهما معا (الآيات 20 ـ 21).

والحـلّ النـاجع لهـذه المعضـلة عند البشر يتمّ بإعـادة التــوازن بينهما إلى نفسه ، ولأنّ العاجلة شــهود يعايشه بوعيه وحواسه فــــإنّ حاجته الملحّة إلى رفع الغيب إلى مستوى الشهود عنده ، ولذلك يضعنا القرآن أمام مشـاهد حيّة من غيب الآخرة حيث الناس فريقان : فريق السعداء الذين تجلّل وجوههم النضارة ، ويصلون إلى غاية السعادة بـالنظر إلى ربّهم عـزّ وجـلّ ، وفريق البؤسـاء الخاسـرين أصـحاب الوجـوه الباسـرة ، الـذين ينتظـرون بأنفسـهم العذاب والذلّة (الآيات 22 ـ 25).

ويمضي بنا السياق شوطا آخر يحدّثنا فيه عن لحظات الموت الرهيبة حيث تبلغ النفس التراقي فيعـالج الإنسـان سـكرات المـوت حيث يلـفّ سـاقا بسـاق ، ويقبض كفّا ويبسط أخرى ، بلى. إنّه أوّل مشهد من الآخرة ، والنافذة على عالمها الواسع.

وكما أنّ تكـذيب أحد بهـذه الحقيقة لا يـدفعها عنه ولا يغيّر من شأنها فإنّ التكذيب بالآخرة هو الآخرة لا يغيّر قدر ذرّة من أمرها ، لأنّها حقيقة واقعة وقائمة (الآيات 26 ـ 29).

ولأنّ مشـكلة الإنسـان ليس إنكـار المـوت ، ولا زعم القـــدرة على دفعه ، بل الشك فيما بعـــده أو الكفر به ، انعطف القرآن نحو إنقاذه من حيرة الشك في المسـتقبل والجهل به ، وكأنّه يحلّ لغزا رجع صداه في أكثر النفــوس البشرية ، ببيان أنّ مسيرته في الحيـاة لا تنتهي بـالموت ، وإنّما الموت جسر إلى عالم أبـديّ أوسع ، هو عـالم لقـاء الله والحســـــاب والجــــزاء بين يديه ، وذلك ممّا يعمّق الشعور بالمسؤولية في النفس (الآية 30).

وغياب هذه الحقيقة من وعي الإنسـان هو المسـؤول عن عدم تصديقه به وصلاته له ، وهو يدفعه إلى التكـذيب ، وركوب مطيّة الغرور. وانّ من يكون على هذه الصـفات أولى له الموت من الحياة ، والعـذاب من الرحمة (الآيـات 31 ـ 35).

ويرجعنا القــرآن إلى الجــذر الأصــيل لكفر الإنســان بـالبعث والجـزاء : إنّه جهله بقـدرة ربه سـبحانه ، فليتفكّر في أصل خلقته حين كان «**نُطْفَـةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْـنى * ثُمَّ كــانَ عَلَقَــةً**» فخلقه الله وســوّاه ، متكــاملا في ذاته ، ومتكــاملا مع الجنس الآخر بــأن خلق «**مِنْــهُ الــزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى**» فهذه آية واضـحة للعقل على قـدرة الله «**عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـــــوْتى**» ، لأنّ أصل الخلق أعجب وأدلّ على قدرته تعالى من الإعادة (الآيات 36 ـ 40).

سورة القيمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَـةِ (1) وَلا أُقْسِـمُ بِـالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسـانُ أَلَّنْ نَجْمَـعَ عِظامَـهُ (3) بَلى قــادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَــوِّيَ بَنانَــهُ (4) بَـلْ يُرِيــدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَـوْمُ الْقِيامَـةِ (6) فَإِذا بَـرِقَ الْبَصَـرُ (7) وَخَسَـفَ الْقَمَـرُ (8) وَجُمِـعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلاَّ لا وَزَرَ (11) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَـوْ أَلْقى مَعـاذِيرَهُ (15) لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ

---

4 [بنانه] : البنان الأصابع ، واحدها بنانة.

11 [لا وزر] : لا ملجأ يلجــأون إليه ، والــوزر ما يتحصّــن به من جبل أو غيره.

وَقُرْآنَهُ (17) فَـإِذا قَرَأْنـاهُ فَـاتَّبِعْ قُرْآنَـهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَــهُ (19) كَلاَّ بَـــلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَـــةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِـرَةَ (21) وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِـرَةٌ (22) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَــلَ بِها فــاقِرَةٌ (25) كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِـراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّـاقُ بِالسَّـاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسـاقُ (30) فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَـوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى لَـكَ فَـأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسـانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُدىً (36)

---

24 [باسـرة] : كالحة متغيّـرة ، وقـال الـراغب في معـنى البسـور : أنّه إظهـار العبـوس قبل أوانه وفي غـير وقته ، ويـدلّ على ذلك قوله عـزّ وجلّ : «**تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ**».

25 [فــاقرة] : هي الكاســرة لفقــار الظهر ، وقيل : الفــاقرة الداهية والآبدة.

26 [التراقي] : العظام المكتنفة بالحلق.

27 [راق] : طبيب.

33 [يتمطّى] : جاء في مفردات الـراغب : أي يمـدّ مطـاه أي ظهـره ، والمطيّة ما يــركب مطــاه من البعــير ، وقد امتطيته ركبت مطــاه ، والمطو الصاحب المعتمد عليه ، وتسميته بذلك كتسميته بالظهر.

أَلَمْ يَـكُ نُطْفَـةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْـنى (37) ثُمَّ كـانَ عَلَقَـةً فَخَلَـقَ فَسَـوَّى (38) فَجَعَـلَ مِنْـهُ الـزَّوْجَيْنِ الـذَّكَرَ وَالْأُنْـــثى (39) أَلَيْسَ ذلِـــكَ بِقـــادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40))

بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ

بينات من الآيات :

[1 ـ 2] حـتى يتعمّق الإيمـان عند الإنسـان ويتحمل مسئولياته في الحياة لا بد أن يسـتثار فيه حـافزان : وعي الآخرة مما تعنيه من بعث وجزاء ، ثم نفسه اللوّامة الـتي تثـير في داخله النقد الـذاتي بما يعـني ردعه عن اقتحـام الخطيئة ، فالمسئولية إذا هي الجـذر الأصـيل الـذي تلتقي فيه فكرة القيامة وحقيقة النفس اللوّامة ، من هنا يـذكّرنا القرآن بهما جنبا إلى جنب في سياق علاجه لموضوعها.

(**لا أُقْسِـمُ بِيَـوْمِ الْقِيامَـةِ* وَلا أُقْسِـمُ بِـالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**)

وإنّ لكلمة «القيامـة» تعبـيرا عن الآخـرة هنا إيحـاء نفسيّا خاصّا ، يـذكّر الإنسـان بـالبعث في واحد من أعظم مشاهد تلك الحياة حيث القيام من وهـدة القـبر للحسـاب والجزاء. والقيام أظهر تجلّيات الحيـاة إذ لا يقـوم الشـيء حتى يستوي تماما ويكتمل.

ولقد مضى الكلام عن كلمة «لا» في القسم ، وخلاصة القول : أنّها تفيد معـنى القسم ، وأنّ ما يليها من كلام في منزلة من الوضـــوح لا داعي معها إلى القسم [1] أو أنّ ما وراءها من حقيقة نقسم بها عظيمة نجلّها عن القسم ، وهما معا يفيـــــدان معــــنى التفخيم. ولا حاجة للحــديث هنا عن اختلاف المفســرين في تفســير هــذه الصيغة القرآنية لكونه نقل في مواضع أخرى سبقت.

أمّا عن النفس اللوّامة فهنــاك أقــوال كثــيرة ، فعن قتــادة : (أنّها النفس) الفــاجرة يقسم بها [2] ، وعن ابن عبـاس قـال : المذمومة [3] ، وهما رأيـان بعيـدان جـدّا تخالفهما النصوص الـتي جـرى اسـتخدام الكلمة فيها على وجه الإيجاب ، كما يخالفهما المعنى اللغـوي للوّامة ، وعن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه [4] ، وعن الحسن قــال : إنّ المــؤمن لا تــراه إلّا يلــوم نفسه ، وإنّ الفــاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه [5].

والذي أختـاره وتـدلّل عليه النصـوص أنّ في الإنسـان نفسـين : أحـدهما تختـار الباطل والفسـاد وهي الأمّـارة ، والثانية تدعو إلى الحق والصلاح وهي اللوّامة ، ونعبّر عنها في الأدب الحــديث بالضــمير والوجــدان ، وهــذه النفس تستيقظ داخل الإنسـان لتعاتبه على عـدم العمل بـالحق ، وتنهره عن اقتحام الباطل. وإنّما عبّر القـرآن عنها بصـيغة المبالغة (فعّالــة) لأنّها كثـيرة الملامة لصـاحبها والنصـيحة إليه ، فــإذا ما اســتجاب لها نمت وأخــذت موقعها ودورها الإيجــــابي في حياته ، وإذا أدمن الصـــــدّ عن نـــــداءاتها ومخالفتها تباطأت عن العمل فلا تعود تلومه على خطايـاه كثيرا.

---

(1) راجع سورة الواقعة عند الآيتين (75 ـ 76) وما يليها.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 287.
(3) المصدر.
(4) المصدر.
(5) المصدر.

وبـرامج الإسـلام تهـدف تنمية هـذه النفس ، وتعتمد عليها في كثير من تشـريعاته جنبا إلى جنب اعتمـاده على العقل ، وهكـذا يكـون للإنسـان محكمتـان : محكمة نفسه اللوّامة ، ومحكمة الآخرة ، قال الإمام الصـادق (ع) : «**ألا فحاســبوا أنفســكم قبل أن تحاســبوا ، فــإنّ في القيامة خمسين موقفا كلّ موقف مقام ألف سـنة**» [1] ، وقال الإمام السجّاد (ع) : «**ابن آدم! لا تزال بخير ما كـان لك واعظ من نفسك ، وما كـانت المحاسـبة من همّك**» [2]

ولأنّ النفس اللوّامة تقـوم بـدورها في حيـاة الإنسـان تجعل الرســالات الإلهية والمواعظ الخارجية تلقى تجاوبا منه ، وإلّا فهي لا تؤثّر شيئا إذا عطّل العقل ومات الضمير ، قــال الإمــام الصــادق (ع) : «**من لم يجعل له واعظا من نفسه فإنّ مواعظ الناس لن تغـني عنه شـيئا**» [3].

[3 ـ 4] وكما أنّ القيامة يــوم البعث وجمع العظــام فــــإنّ النفس اللوّامة آية وجدانية على القيامة باعتبارها صورة مصغرة عن تلك المحكمة العظمى ، بل إنّها تصــبح بلا مبرّر لو لا أنّ الإنسان سيلاقي حسـابه الأوفى في يـوم من الأيــام. من هنا يكــون كفر البشر بــالآخرة مع وجــود النفس اللوّامة فيه موضع اســتنكار ، ودليل ضـــلال فيه مبين ، ما توحي به الآية :

(**أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ**)

والمتتبع لموارد استخدام كلمة (حســب) على صـيغها المختلفة في القرآن يجد أنّها تعني الظن والزعم الــذي لا أساس له ، وذلك يعني أنّ تشكيك الإنسان بالآخرة لا

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 70 ص 64.
(2) المصدر.
(3) المصدر / ص 70.

مبرّر له أبدا ، وإنّما يعتمد على التمنيات الواهية ، والخيال البعيد ، كما تـوحي الآية بـأنّ مشـكلة الإنسـان ليست في عدم إيمانه بخطئه ، إذ أنّه إن لم يعترف به للنـاس فإنّه لا يستطيع الفرار منه أمام محكمة الضمير ، ولكنّ مشــكلته كفره بالحقيقة الثانية ألا وهي القيامة ، الـتي تعـني البعث والحساب والجزاء ، وذلك أنّه لا يستطيع اسـتيعاب حقيقة العـودة إلى الحيـاة بعد أن يمـوت ويصـير أشـلاء موزّعة وعظاما بالية تستحيل ذرّات تراب مع الأيام.

وجـذر هـذا التصـور نجـده حينما نبحث عنه في جهل الإنسان بقدرة ربه الـتي لا تحـدّ ، وتقـييم شـؤون الخلائق بما فيها البعث والنشور من خلال قياسـاته الذاتية وقدراته المحـدودة ، دون أن يعـرف أنّ للكائنـات العظيمة الـتي خلقها الله من جبـال ووهـاد وأراضي وبحـار وسـموات ومجرّات .. أنّ لها مقاييس أخرى لا تقاس بذاته.

ولهـذا فإنّه حيث يجد نفسه عـاجزة عن جمع عظـام المـوتى يحسب الأمر مسـتحيلا ، أمّا لو عـرف ربّه لتغيّر تصوّره وموقفه ، وآمن بالآخرة مصدّقا قول ربه :

(**بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ**)

عن سعيد بن جبير قال : سـألت ابن عبّـاس عن الآية فقـال : لو شـاء لجعله خفّا أو حـافرا .. ولكن جعله الله خلقا سويّا حسـنا جميلا [1] ، وعنه قـال : نجعلها كفّا ليس فيه أصابع [2] ، والأقرب منه أن تكون التسوية هنا بمعنى الخلق الكامل ، بإعـادة البنـان على خلقها وكمالها الأوّل بعد المـوت والتحلّل في الـتراب ، وهـذا ردّ على شك الإنسـان في قـدرة الله على جمع الأعظم المتفرّقة الرميمة ، أي أنّه تعـالى ليس قـادرا على جمعها وحسب ، بل هو قادر على كسوها لحما وإعادة الحياة إليها. وإذا

(1) الدر المنثور ج 6 ص 287.
(2) المصدر.

كانت اليدان من خصائص الحضارة البشـرية فـإنّ الأصـابع هي ميزة اليد عند الإنسان بما فيها من دقة وقوة وأناقة ، وخصوصا البنان الذي يقوم بدور عظيم في حياة الإنسان.

وقد اعتــبر البعض هــذه الآية ســبقا في بيــان حقيقة علمية يســتفاد منها كثــيرا في القــانون الجنــائي ، وهي : اختلاف خطــوط أطــراف الأصــابع من إنســان إلى آخر ، والتي أصبحت بذاتها علما مستقلا يسمّى بعلم البصمات ، ترتكز عليه الـــدوائر الأمنية في مكافحة الجريمة ومعرفة المجرمين.

وتعبــير الله في الآية الثالثة «نجمع عظامــه» يهــدينا إلى أنّ الإنســان مهما تحلّل في الــتراب إلّا أنّه لا يتحــوّل إلى العــدم ، بل يبقى أجــزاء وذرأت صــغيرة متفرقة هنا وهناك ، والخلق الثاني بالبعث يبدأ بجمعها إلى بعضها عبر قوانين وإرادة إلهية تجعل ذرأت كـلّ فـرد وعضو وجزئياته تجتمع وتلتحم مع بعضها ، والله العالم.

[5 ـ 6] أمّا ســبب كفر الإنســان بـالآخرة فهو أنّه لا يريد الالتزام بالشرائع والحدود ، بل يريد أن يطلق العنـان لأهوائه وشهواته ومن ثمّ لا يتحمّل مسئولية في الحياة.

(**بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ**)

قال الإمام الصادق (ع) : «أي يكذّبه» [1] ، وعلى هذا أجمع جلّ المفسـرين ، قـال العلامة الطبرسي : فـالفجور هو التكذيب [2]. وقال الفخر الرازي : أي يكــذّب بما أمامه من البعث والحسـاب ، لأنّ من كـذّب حقّا كـان فـاجرا [3].

والذي يبدو لي

(1) البرهان ج 4 ص 406.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 395.
(3) التفسير الكبير ج 30 ص 318.

أنّ الكلمة بمعناها الأصـــلي وهو الشق والتحطيم ، وإنّما سمّي الفجر فجـرا لأنّه يشـقّ الظلام ويحطّمه ، والفجـور في الأخلاق والسلوك مثل ذلك ، حيث أنّ الفاجر لا يلـتزم بقيمة ولا قانون ، بل يشق عصا المجتمع والشرع باقتحام اللـذات والخطايا ، ولا يريد أمامه شـيئا يعيقه أبـدا ، وهـذا التفسير لا يعارض حديث الامام ولا أقوال المفسـرين لأنّ التكذيب مقدمة ومصداق للفجور. ولم أجد من المفسرين من قـال ذلك ، إلّا إشـارة عند الـرازي إذ قـال : من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذي حكاه الله تعـالى بقوله «الآيــة» ، ومعنــاه : أنّ الإنســان الــذي يميل طبعه إلى الاسترســال في الشـهوات ، والاسـتكثار من اللـذات ، لا يكــاد يقــرّ بالحشر والنشر ، وبعث الأمــوات ، لئلّا تنغّص عليه اللذات الجسمانية ، فيكون أبدا منكرا لذلك [1].

والضمير في «أمامه» إمّا أن يعود إلى يــوم القيامة ، أو إلى الله عزّ وجلّ ، حيث أنّ الفاجر يمارس فجوره في حضور وشهادة الله ، أو يكـون عائـدا على الإنسـان نفسه باعتبـاره يفجر أمـام ضـميره وبشـهادة من جوارحه الـتي تـدلي بشـهادتها عليه عند الحسـاب. والأصح أنّ الضـمير يرجع إلى الإنســان ، لأنّ الحـديث حوله وسـائر الضـمائر ترجع إليه ، ولعل هذا جعل ذلك مستساغا بينما يقال عادة : أمام نفسه.

(**يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ**)

لأنّ الكفر بالقيامة هو الـــذي يــــبرّر له التحلّل من المسـؤولية ، فهو في سـعي حـثيث وجـدل دائم من أجل إنكارها ، وصناعة قناعة ولو داهية لنفسه وللآخرين بذلك ، فســؤاله ليس ســؤال اســتهزاء وســخرية فقط ، بل هو سؤال تبرير وجدل أيضا. وإنّها لصفة كلّ من يــترك العمل بالحق ويخـالف القيم ، إذ لا بد من تـبرير لموقفه ، فكيف إذا كان فجورا؟

---
(1) المصدر ص 319.

ولصيغة السؤال هذه استبعاد وتسـويف بالتوبة ، قـال الزجّــاج : ويجــوز أنّه يريد أن يســوّف التوبة ، ويقــدّم الأعمال السيئة [1] ، وقيل معناه : أنّه يتعجّل المعصية ثم يسوّف التوبة ، ويقول : أعمل ثم أتوب [2].

[7 ـ 13] ويبقى المكذّب بالآخرة مسترسلا مع أهوائه وشـهواته ، في فجـور بعد فجـور ، لأنّه لا يحسب حسـابا للقــاء ربه ، ووقــائع القيامة الــتي تطبع آثارها المذهلة والرهيبة عليه وعلى الطبيعة من حوله ، فهنالك لا يجد مفـــــرّا من حكومة الله وجزائه ، لأنّ الوضع يختلف في الآخرة عن الدنيا ، حيث تنتهي فرصة الامتحان والحرية.

(**فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ**)

قال في التبيان : يقال برق البرق إذا لمع ، وأمّا بــرق بالكسر فمعناه تحيّر ، وقال الزجّاج : برق إذا فزع ، وبرق إذا حار [3] ، وفي المجمع قال أبو عبيدة : برق البصر : إذا شـقّ وانشد [4] ، وقـال العلّامة الطبرسي : أي شـخص البصر عند معاينة ملك المــوت ، فلا يطــرف من شـــدة الفزع ، وقيل : إذا فزع وتحيّر من شدة أهوال القيامة [5] ، وقـال الـرازي بعد أن نقل رأي الزجّـاج : والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق ، فيؤثّر ذلك في نـاظره ، ثم يسـتعمل ذلك في كـلّ حـيرة ، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق [6]. وما أختاره أنّ بروق البصر يحمل معنى الحيرة والدهشة لحالة الذهول والخوف التي تصيب الإنسـان لسـبب من الأسـباب. وإنّه يحـدث بعض الأحيـان نتيجة الإرهــاق أو الصــدمات الروحية والمادية أن يــرى الواحد

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 395.
(2) المصدر.
(3) التبيان ج 10 ص 192.
(4) مجمع البيان ج 10 ص 394.
(5) المصدر / ص 395.
(6) المنجد / مادة برق.

أمـام ناظريه ما يشـبه النجـوم الصـغيرة ، ولعـلّ هـذه الظاهرة لـون من بـروق البصـر. وفي المنجد : بـرق برقا تحيّر ودهش فلم يبصر ، البرقة : الدهشة والخـــوف [1].
وبصر الإنسـان يـبرق يـوم القيامة .. ومع أنّه يـبرق عند المـــوت إلّا أنّ حمل المعـــنى على القيامة أقـــرب إلى السـياق فالحـديث عنها ، والمشـاهد التالية متصـلة بها لا بالموت.

(**وَخَسَفَ الْقَمَرُ**)

قال الزمخشـري : ذهب ضـوؤه ، أو ذهب نفسه [2] ، وجـاء الفعل معلوما بينما يقـال عـادة خسف ببنـاء الفعل للمجهـول ، ولعلّه للدلالة على أنّه في الحـالات الطبيعية يحجب نـــوره بعوامل خارجية كوقـــوع الأرض بينه وبين الشـمس في حركتها السـنوية ، ممّا يتسـبب في حجب شعاعها عنه ووقوع ظل الأرض عليه. أمّا في الآخرة فـإنّ القمر نفسه يخسف ولا يخسف بشـــيء خـــارجي ، فهو فاعل الخسف وليس غيره.

ومشـــهد مريع آخر يلفت القـــرآن نظرنا إليه ، وهو اختلال النظـام الكـوني في الحيـاة ، ومن مظـاهره جمع الشـمس والقمر ، وهـذه النتيجة حتمية وطبيعية في ذلك اليـوم ، فـالكون والنظـام إنّما أوجـدهما الله للإنسـان ، وحيث ينتهي دوره في الدنيا ينتهي معه كلّ متعلّق به.

(**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**)

وعلمـاء الفلك يـدركون الآثـار الـتي يخلّفها مثل هـذا الأمر على الكائنـــات ، وما هو أعظم وأرهب بالنســـبة للإنسـان من هـذه الأحـداث الكونية تلك الحقـائق الـتي يمثّلها يـوم القيامة ويكشف عنها ، وأهمّها حقيقة الجـزاء والمسؤولية ، التي طالما كذّب بها

---

(1) المنجد / مادة برق.
(2) الكشّاف / ج 4 ص 660.

وسـعى للفـرار منها بشـتى الحيل والـذرائع ، فهنـاك يجد نفسه وجها لوجه أمامها ولا سبيل له للهرب منها.

(يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)

وإنّما يكشف القـرآن للإنسـان مشـاهد الآخـرة حـتى يزرع التقوى في نفسه فيضع بذلك حدا لفجوره وغروره ، ولأنّ المعرفة بالمسـتقبل والإيمـان بحقائقه يخلّف توازنا في مسـيرته الدنيوية الحاضـرة ، فهو إنّما يفجر زعما منه بأن سيجد مهربا من المسؤولية.

(كَلَّا لا وَزَرَ)

أي ملجأ ومـأوى. قـال المـبرّد والزجّـاج : أصل الـوزر الجبل المـنيع ، ثم يقـال لكل ما التجـأت إليه وتحصّـنت به وزر [1] ، ومنه الوزير الذي يلجأ إليه في الأمور [2] ، يقال وزرت الحائط ، إذا قـويت بأسـاس يعتمد عليه ، وقـال الحسن : لا جبل ، لأنّ العرب إذا دهمتهم الخيل بغتة قالوا : الوزر ، يعنون الجبل [3].

وفي الآخـرة لا يجد أحد مفـرّا ولا ملجأ من جزائه ، وعـذاب ربه ، بلى. هنـاك مفر واحد فقط ينفع الإنسـان ، وهو أن يفر إلى ربه الذي منه العذاب ، وإليه المصير ، ولا يكـون ذلك فجـأة ، إنّما يحتـاج الأمر إلى تمهيد في الـدنيا قبل الآخرة.

(إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

قـال صـاحب المجمع : أي ينتهي الخلق يومئذ إلى حكمه وأمره ، وقيل «المستقر»

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 221.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 395.
(3) التبيان ج 10 ص 194.

المكان الذي يستقرّ فيه المؤمن والكـافر ، وذلك إلى الله لا إلى العبـاد [1]. والأصح إطلاق الكلمة كي تتسع إلى كـلّ المعـاني الموحية بها هـذه العبـارة ، كـالقرار ، والمصـير ، والمقر ، والحكم ، والأمر .. إلخ ، وفي ذلك تنبيه للإنسـان على أنّ الدنيا ليست محلّا للخلود والاسـتقرار ، ولا محطة أخــيرة ، فيجب أن يكيّف نفسه مع هـذه الحقيقة الهامة ، وليس معـنى الآية أنّ المسـتقر دون ذلك اليـوم ليس لله «**فَلِلَّهِ الْآخِـرَةُ وَالْأُولى**» [2] ، ولكن حكمته اقتضت أن تكــون لنا الحرية في الــدنيا ، ويومئذ يكشف لنا الغطــاء بصـــورة أوضح وأجلى عن هيمنته وســـلطانه المطلقين ، ونكتشف فيما نكتشف علمه وإحاطته التـــــــــامّين حينما يعرضـنا للحسـاب والجـزاء فنجد أنّه أحصى كـلّ صـغيرة وكبيرة لنا وعلينا.

(**يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ**)

في التبيـان ومثله المجمع : أي يخــبر الإنسـان يــوم القيامة بـأوّل عمله وآخـره فيجـازى به ، وقيل : بما قـدّم من العمل في حياته ، وما ســـــنّه فعمل به بعد موته من خـــــير أو شر ، وقيل : بما قــــدّم من المعاصي (على الطاعـات) وأخّر من الطاعـات [3] (على المعاصـي). قـال الإمام الباقر (ع) : «**بما قـدّم من خـير وشر ، وما أخّر ممّا سنّ من سنّة ، ليستنّ بها من بعـده ، فـإن كـان شـرا كـان عليه مثل وزرهم ، ولا ينقص من وزرهم شـيء ، وإن كـان خـيرا كـان له مثل أجـورهم ، ولا ينقص من أجورهم شيء**» [4].

وحضور مشهد الحساب الأخـروي في وعي الإنسـان في الدنيا له دور كبير في

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 395.
(2) النجم / 25.
(3) مجمع البيان ج 10 ص 395.
(4) تفسير القمّي ج 2 ص 397.

بعثه على التقوى والطاعة ، وممارسة النقد الذاتي البنّـاء. وإنّ الله قادر أن يجازي الناس مباشرة بعد بعثهم ولا أحد يسـأله عمّا يفعل ، ولكنّه يـأبى إلّا أن يجلي علمه وعدالته لخلقه.

[14 ـ 15] والسـياق مهّد السـبيل للحـديث عن البصيرة الأساسية الـتي تعتـبر محـورا هامّا في السـورة ، وهي وعي الإنسان بمسؤوليته عبر اسـتثارة نفسه اللوّامة ، الــتي تجعله عليها شـاهدا ورقيبا ممّا يصـلح مسـيرته ويوجّهه إلى تحمّل المسؤولية بتمام المعـنى ، فلا يمـارس الخطيئة لأنّها تحتاج إلى التبريرات والأعـذار ، وهي لا تنفع شيئا عند الله ولا عند محكمة نفسه.

(**بَـلِ الْإِنْسـانُ عَلى نَفْسِـهِ بَصِـيرَةٌ* وَلَـوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ**)

وهنا نهتدي إلى عدّة بصائر :

1 / يهـدف الإسـلام عـبر منهجه الـتربوي تنمية وازع الضمير عند الإنسان كضمانة أساسـية لالتزامه بالشـرائع. من هنا فإنّ القرآن يـذكّره بالحقـائق الوجدانية المـرة بعد الأخرى.

2 / كما أنّ الإنسان لا يجد مفرّا من حكومة الله يـوم القيامة ولا تنفعه الأعـذار ، فإنّه حين يراجع ذاته (ضـميره وعقله) يواجه نفس الموقف ، حيث يعلم بأنّ الأعذار التي يقـدّمها لا واقع لها ، فهي قد تخـدع غـيره ولكن لن تخـدع وجدانه.

3 / إنّ الأعذار التي يلقيها الإنسان أكثرها كاذبة ، يلجأ إليها لتبرير أخطائه وسلوكيّاته المنحرفة ، وهي لا تغيّر من الواقع شـيئا لا عند الله ولا عنـده. وورود الكلمة بـالجمع «معـاذيره» فيه دلالة على أنّه يتقن فنّ صـناعة التـبرير ، وأنّه حينما يريد تـــــبرير موقف أو عمل ما متصل به لا يكتفي بعذر واحد بل يختلق أعذارا كثيرة.

وهـذه البصـائر تنسف الثقافة التبريرية الـتي هي أهم أسـباب التخلف والاجـرام ، ذلك لأنّ الإنسـان الـذي خلق في أحسن تقويم ، وأنشات نفسه على فطرة الاستقامة ، ثم زوّد بـالنفس اللوّامة الـتي تـراقب انحرافه بمقيـاس دقيق ، إنّه لا يقفز ـــ مـرة واحــدة ـــ من قمّة الحق إلى حضيض الباطل ، إنّما يهبط إليه عبر سلّم التـبرير وتقـديم الأعذار ، فإذا بنفسه الأمّـارة بالسـوء تسـوّل له الخطيئة ، تقول له مثلا : أنّى لك النقاء الكامل ، أنت طيّب أكـثر من اللازم ، ولا يمكنك أن تعيش من دون ظلم أحد ، كل الناس يظلمون بعضـهم .. وهكـذا يقـدّم الأعـذار لانحرافه حتى يبتعد كلّيّا عن طريق الحق ويتسافل إلى الحضيض.

وإذا عرف الإنسان الدور السلبي للأعـذار وأنّها غطـاء رقيق لارتكاب الجرائم الخطيرة وأنّها لا تعني شـيئا ، فـإنّ ذلك يساهم في استقامته على الحق.

قال الإمـام الصـادق (ع) : ما يصـنع أحـدكم أن يظهر حســنا ويســرّ ســيئا ، أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك؟ والله سبحانه يقول : «الآية» إنّ السريرة إذا صـلحت قـويت العلانية [1] ، وقـال (ع) : «**ما يصـنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس خلاف ما يعلم الله منه ، إنّ رسـول الله (ص) كـان يقـول من أسـرّ سـريرة ردّاه الله رداءها ، إن خيرا فخير ، وإنّ شـرا فشر**» [2]. واختلف في تاء «بصيرة» فقيل أنّها للتأنيث وتعود على الجـوارح ، فكـأنّ الآية تقـول : إنّ جـوارح الإنسـان على نفسه بصـيرة ، وقيل : هي للمبالغة فـإنّ العـرب تقـول : فلانة علّامة ، وفلان علّامـة. والـذي يبـدو لي إضـافة إلى ذلك أنّها راجعة إلى النفس ، فنفس الإنسان عليه بصـيرة ، ولم أجد من المفسرين من قال ذلك.

وقد اعتمد الفقه الإسلامي هذه البصـيرة القرآنية في تحديد بعض التشريعات

(1) مجمع البيان ج 10 ص 396.
(2) المصدر.

والتكــاليف ، بإيكــال تشــخيص موضــوعها وحكمها إلى الإنســــــان نفسه من دون حاجة إلى مراجعة الفقيه أو المختص ، قال زرارة : سألت أبا عبد الله (الإمام الصادق (ع)) : ما حــدّ المــرض الــذي يفطر صـاحبه؟ قـال : «بل الإنسان على نفسه بصيرة ، هو أعلم بما يطيق [1] ، وفي رواية أخــرى : «**هو أعلم بنفسه ، ذاك إليه**» [2] ، وقد ذهب بعض الفقهاء في فهمه لهـذه الآية إلى حـدّ القـول : بــأنّ كلام المختص ليس حجّة ملزمة دائما ، فلو أمـــره بالصـيام على أسـاس أنّ المـرض لا يضـره ولكنّه ارتـأى الضرر فله الحق في مخالفته ، والعكس كذلك صحيح.

[16 ـ 19] لكي تتبلــور نظـرة الإنسـان إلى نفسه ، وتتميّز في وعيه حوافز الخير والصـلاح عن شـهوات الشر والفساد ، لا بد أن يعي الآخرة وأهوالها ، وينتبه إلى نفسه اللوّامة ، ويستضـيء بـالقرآن الـذي هو حجة ظـاهرة فيما العقل حجة باطنة ، وهما يلتقيــان في الحق وفي إعطــاء الإنسان مقياسا سـليما فيـه. من هنا ينعطف السـياق إلى الحــديث عن تبليغ الرســالة داعيا النــبي (ص) إلى عــدم الاستعجال بالقرآن.

وقد تحيّر المفســرون في العلاقة بين الآيــات (16 ـــ 19) وبين السياق العام للسورة ، حتى قاد الجهل بعضهم إلى آراء بعيدة كلّ البعد عن حقيقة الرسالة ، فـزعم بـأنّ القـرآن تعـرّض إلى التغيـير عن مواضـعه ، إذ لا ينبغي أن تــرد الآيــات المــذكورة في مثل ســورة القيامة ، وقــال آخــرون بـأنّ الحــديث هنا ليس عن القــرآن وإنّما هو عن كتـاب الإنسـان الـذي يلقـاه يـوم القيامة منشـورا ، فقـال القفال : وأنّ قوله : «الآية 16» ليس خطاب مع الرسول (ص) بل هو خطـــاب مع الإنســـان المـــذكور في قوله : «**يُنَبَّؤُا الْإِنْســـانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَـــدَّمَ وَأَخَّرَ**» فكـــان ذلك للإنسان حالما ينبّأ بقبـائح أفعاله ، وذلك بـأن يعـرض عليه كتابه ، فيقال له : «**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ**

---

(1) المصدر.
(2) المصدر.

عَلَيْكَ حَسِيباً» فإذا أخذ في القرآن تلجلج لسانه من شدة الخوف ، وسرعة القراءة فيقال له : «**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ**» فإنّه يجب علينا بحكم الوعد وبحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك ، ونقرأها عليك ، فإذا قرأناه عليك «**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**» بالإقرار بأنّك فعلت تلك الأفعال [1]. ومثل ذلك قال العلّامة البلخي ونصّ كلامه : وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة ، يدلّ على ذلك ما قبله وما بعده ، وليس منه شيء يدل على أنّه القرآن ، ولا شيء من أحكام الدنيا [2].

والذي يبدو لي في الصلة بين الآيات ما سبق من أنّ القرآن ــ إلى جانب يوم القيامة والنفس اللوّامة ــ حجة على الإنسان ومحكمة لعمله ، يكشف للإنسان الحق عند ما يرجع إلى آياته ، ويعرض نفسه عليها ، وينبغي للرسول أن لا يستعجل به بهدف إكمال الحجة على الناس ، بل يجب أن يتبع ما يقضى إليه بشأنه ، فإنّ ذلك يكفي لهداية من يريد الهداية ويبحث عنها ، أمّا الذين لا يريدون تحمل المسؤولية ، ويسعون دائما لإلقاء الاعذار والتبريرات (فلا يخافون يوم القيامة ، ولا يسمعون ملامة أنفسهم) فإنّ الاستعجال بالقرآن وعرضه كله عليهم مرة واحدة لا يغيّر في حياتهم شيئا أبدا ، والسبب أنّ مشكلتهم ليست قلّة الآيات ، بل كونهم لا يريدون الإيمان وتحمل المسؤولية ، فلما ذا العجلة إذا؟

كما أنّ علاج الإنسان المشتمل على كثير من الصفات السلبية ، كالجدل ، وحب الراحة ، والتبرير ، وإرادة الفجور ، ومن ثمّ التكذيب بالقيامة وبما تعنيه من مسئولية في الدنيا ، وبعث وحساب وجزاء في الآخرة ، إنّ علاجه من كلّ هذه الأدواء لا يتم مرة واحدة ، بل لا بد من منهجية تربوية مخططة ومتدرجة ، تنتشله من حضيض الباطل إلى قمّة الحق لتسمو به في آفاق الكمال والهدى. وهذا يقتضي

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 222.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 397.

التدرج في طرح الإسلام عليه.

(**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**)

قــال ابن عبــاس : كــان النــبي (ص) إذا نــزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبّه إيّاه ، وحرصه على أخذه وضبطه مخافة أن ينساه ، فنهـاه الله عن ذلك [1] ، وفي الدر المنثور عن مجاهد قال : كان الرسول (ص) يسـتذكر القرآن مخافة النسـيان ، فقيل له : كفينـاك يا محمد [2] ، وعلى هذا الرأي مؤاخذات عدّة :

أوّلها : أنّ نهي الرســول (ص) عن فعل شــيء ما لا يعــني إتيانه له منذ قبل ، فليس صـحيحا أنّه كـان يخشى النسيان وهو على يقين بـأنّ الله يلهمه القـرآن ويثبّته في قلبه ، وقد نهى الله نبينا الأكرم (ص) عن أمور كثـيرة من قبيل إطاعة الكفّــار والمنــافقين فهل نفهم من ذلك أنّه خضع لهم؟ حاشا لحبيب الله. ومن ذلك قوله تعـالى : «**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللـهَ وَلا تُطِـعِ الْكـافِرِينَ وَالْمُنـافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً**» [3].

ثانيها : أنّه تعالى بيّن لنبيه (ص) بأنّه لا ينسى فقـال : «**سَـنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى**» [4] ، والـزعم بـأنّ رسـول الله (ص) كان قد خشي النسيان يعني (والعياذ باللـه) أنّه شك في وعد الله وكلامه هذا له.

ثالثها : أنّ القرآن يشير بوضوح إلى باعث النبي على التفكـير في الاسـتعجال بـالقرآن ، وهو خشـيته من أن تحول الظـروف دون أن يجمع القـرآن ويقـرأ على النـاس وتـبيّن معانيه لهم. أو كـان شـديد الاهتمـام بهداية النـاس بالقرآن حتى كاد

---

(1) المصدر

(2) الدر المنثور / ج 6 ص 289.

(3) الأحزاب / 1.

(4) الأعلى / 6.

يهلك نفسه ، حـتى قـال ربنا سـبحانه : «**فَلَعَلَّكَ بـاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلى آثـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهـذَا الْحَـدِيثِ أَسَفاً**» [1].

ويبدو أنّ الذين اخطؤوا في فهم الآية قادهم إلى ذلك التصـوير الفنّيّ في تعبـير القـرآن : «**لا تُحَـرِّكْ بِـهِ لِسانَكَ**» ، والذي هو أسلوب شائع في آياته الكريمة.

(**إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**)

أي جمع آياته فلا يضيع شيء منها ، والكلمة تتسع إلى معـنى التـأليف والنظم ممّا يهـدينا إلى أنّه تعـالى حفظ القرآن عن التحريف بزيـادة أو نقيصة ، وتكفّل هو بتـأليف آياته سورا سـورا ، فليس ترتيبه على هـذه الطريقة الـتي بين أيـدينا من فعل المسـلمين ، بل من فعل رسـول الله (ص) بـأمر الله عـزّ وجـلّ ، الـذي تكفّل إضـافة إلى ذلك بقراءته للناس بالكيفية الصحيحة التي يريـدها هو أن يقـرأ بها كتابـه. ولعل في ذلك إشـارة إلي بطلان فكـرة القراءات السـبع ، وأنّها من عند القـرّاء أنفسـهم ما أنـزل الله بها من سلطان. بلى هناك قـراءة صـحيحة علّمها الله لنبيه فعلّمها بدوره المسلمين.

وقـول الله تعـالى : «إنّ علينـا» لا يعـني أنّه بذاته يجمعه ويقـرأه ، كلّا .. بل أنّه سـبحانه قد هيّأ الأشـخاص الذين يقومـون بهـذا الـدور والظـروف الـتي تسـاعد على تحقّق هذه الغاية ، فلم يتوفّ نبيّه حـتى بلغ كامل رسـالته وقرأها للنـاس ، بل وكتبت بـأمره مبيّنا تـرتيب السـور والآيات.

وتجدر الإشـارة هنا إلى أنّ الإمـام علي (ع) كـان أوّل من كتب كامل القـرآن وجمعه في حيـاة الرسـول (ص) وبعده ، وهذا من أهمّ الأدوار الحضارية التي قام بها

---

(1) الكهف / 6.

ـ عليه السلام ـ ، لأنّ اندثار القيم الحضارية لأيّ أمّة يعـني نهاية الأمّة ، فقد تنحرف مسيرتها ومسـيرة قيادتها لفـترة من الــزمن فتبقى القيم ضـمانة العـودة ، أمّا لو خــرقت القيم نفسها فلا ضمانة لعودتها .. وهـذا ما يجعل تعهّد الله بجمع القـــرآن وبقرآنه وبيانه ضـــرورة حكيمة تقتضـــيها حكمته البالغة باعتبــار الإســلام دين الإنســان إلى يـــوم القيامة ، لا يجــوز له أن يبتغي غـيره ، فكيف يسـمح ربنا اللطيف أن تضـــيع على البشـــرية فرصة الهداية بتحريف القرآن؟

(**فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**)

قـــال في المجمع : أي قـــرأه جبرئيل عليك بأمرنا «**فَـاتَّبِعْ قُرْآنَـهُ**» أي قراءته ، والمعـنى : اقـرأه إذا فـرغ جبرئيل عن قراءته ، وقيل : أي فاعمل بما فيه من الأحكام والحلال والحرام [1] ، وفي النصـوص أنّ القـرآن أنزل جملة واحدة على الرسول في ليلة القـدر في شـهر رمضــان ، فكــان يــأمره الله حسب حكمته بقراءته على النـاس في المناسـبات المختلفـة. وكـانت الحكمة الإلهية تفرض على الرسـول التحـرك في المجتمع على ضـوء ما يقضى إليه من الآيات وبقـدره ، ليبـني المجتمع الإسـلامي النقي ، ومن ثمّ الأمة الإسـلامية الحنيفة على ضـوء آيـات الوحي ، ويتمّ ـ بالتالي ـ تثبيت فؤاد النبي وسائر المؤمنين عـبر القــرآن ، وهكــذا لم يــنزل القــرآن لمجــرد قراءته وحفظه ، بل حتى يطبّقه الناس ويتبعوا هداه في الحياة.

وهــذا يهــدينا إلى أنّ الله يوفّق الإنســان لفهم آيــات الذكر بما يتم عليه حجته البالغة ، فإن آمن واتبع هداه نوّر قلبه بالمزيد من المعرفة ، وإن كفر جعل قلبه قاســـيا ، وطبع عليه بكفره.

ولعل في ذلك بصــيرة يحتاجها كل داعية رســالي ألا وهي ضرورة تحدي انفعالاته

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 397.

وردود فعله ، بل يجب أن يتبع خططه الحكيمة ، وينتظر بكلّ خطوة وموقف الإذن والأوان المناسب.

قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : يا مفضّل! إنّ القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة ، والله يقول : «**شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**» ، وقال : «**إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**» ، وقال : «**لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ**» ، قال المفضل : يا مولاي! فهذا تنزيله الذي ذكره الله ، وكيف ظهر الوحي في ثلاث وعشرين سنة؟ قال : نعم يا مفضل! أعطاه القرآن في شهر رمضان ، وكان لا يبلّغه إلّا في وقت استحقاق الخطاب ، ولا يؤدّيه إلّا في وقت أمر أو نهي [1].

(**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ**)

إيضاح معانيه ، وبيان حقائقه وتأويلاته ، حتى لا تبقى للإنسان حجة على الله ، ولكي تكون لله الحجة البالغة عليه في الدنيا والاخرة. أمّا كيف يبيّن ربّنا قرآنه الكريم لكافّة الناس فلعل من أسبابه : أنّه يقيّض الدعاة إليه ، والأدلاء عليه ، وأهل البصائر النافذة لتفسيره وبيانه ، ثم أنّ لله حجتين على الإنسان واحدة باطنة هي عقله ، وأخرى ظاهرة هي رسالة الله ورسله ، وهما يلتقيان في وجدان كلّ إنسان سوي ، فما يأمر به القرآن من قيم الصدق والعدل والإحسان يأمر به العقل أيضا ، وهذا من سبل بيان القرآن لأنّه يتطابق ووجدان الإنسان وفطرته وعقله والعرف العام عند العقلاء.

وهناك سبب آخر لبيان القرآن : أنّه يفسّر بعضه بعضا ، فلا تكاد كلمة تذكر

(1) تفسير البصائر / ج 50 ص 569.

في سياق إلّا ويفسّرها ذات السياق قبله وبعده ، ببيان مصاديقها وأمثلتها التاريخية وشواهدها الواقعية ، فلا يدع الناس في حيرة من أمرها ، وأبرز مثل لذلك سورة الإخلاص حيث تأتي كلّ كلمة فيها تفسيرا لما سبقتها ، فتفسير «قل» يأتي بما بعده من قوله : «هو الله» ، وتأويل «هو» : «الله» ، وتفسير الصمد هو أنّه لم يلد ولم يولد ، كما أنّ مجملات القرآن في سورة تفسّرها مفصّلاتها في سور أخرى ، وهكذا جعل الله القرآن ميّسرا للذكر بسبل شتى.

[20 ـ 25] ولكن هل يقتنع الإنسان بذلك البيان ويلزم نفسه بالحجج؟

(**كَلَّا**)

لأنّه يريد أن يفجر أمامه ، ومن ثمّ لا يتبع عقله باعتباره يحدّد سلوكه وأفعاله ، وإنّما يتبع هواه ، وتابع الهوى لا يعرف حدّا ولا قيمة. وعنوان اتباع الهوى هو حبّ الدنيا الذي يترتّب عليه ترك الآخرة.

(**بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ* وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**)

وهذا هو جذر كلّ خطيئة عند الإنسان ، كما بيّن رسول الله (ص) في حديثه المشهور : «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة». وقد قال الله : «العاجلة» ولم يقل : (الدنيا) لأنّه يريد الحديث عن صفة عند البشر هي التي تدعوه للهث وراء حطام الدنيا وترك الآخرة ، وهي كونه يحب كلّ مقدّم معجّل ، ويقدّمه على كلّ مؤخّر مؤجّل ، دون النظر إلى المصلحة العامة والأساسية في أيّهما تكون ، فقد يختار دينارا معجّلا على ألف مؤجّلة ، مع أنّه قد لا يجد دليلا ينفي ما في المستقبل.

وعلاج هذه المعضلة البشرية يتم بإيجاد التوازن في وعيه بين الحاضر والمستقبل ، وينتهج القرآن من أجل ذلك نهج التذكرة والتصوير لمشاهد الآخرة ممّا يزيدها

حضورا في وعيه ، وهذا ما نقرأه في الآيات التالية.

(**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ**)

والكلمة تتسع لجميع معاني الحسن والجمـال والبشر الـتي تعبّر عن نفس مطمئنة راضـية تفيض سـرورا وأملا برحمة اللـــه. قـــال في المنجد : نضر الوجه نعم وحسن وكان جميلا ، فهو ناضر ونضر ونضير ، والنضر جمع نضـار ، وأنضر : الذهب والفضة ، يقال : «**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**» أي بريقه ورونقه [1]. ووجوه المؤمنين يوم القيامة ناضــرة فرحا وســرورا بلقــاء ربهم ، ورضــوانه ، وجزائه الحسن ، وغاية ذلك نظـــــــرهم إلى ربهم حيث يعرفون من أسماء ربهم الحسنى ، ويرون من آيـات بهائه وجلاله ، وينتظـــــــرون من آلائه ونعمائه ما يجعلهم في بحبوحة الرجـــاء ، وعنفـــوان الرضا ، ومهرجـــان الحبّ والقرب ، وشلّال لا ينقطع من نور الله البهي.

(**إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ**)

قال العلّامة الطبرسي : اختلف فيه على وجهين :

الأول : أنّ معناه نظر العين ، واختلف من حمله على نظر العين على قولين :

أحدهما : أنّ المراد إلى ثـواب ربها «نـاظرة» أي هي ناظرة إلى نعيم الجنة حالا بعد حال فيزداد بذلك سرورها.

الآخر : أنّ النظر بمعـنى الرؤية ، والمعـنى تنظر إلى الله معاينة ، رووا ذلك عن الكلبي ومقاتل وعطاء وغيرهم ، وعموم رأي أهل السنة ، (وردّ على هذا الـرأي فقـال :) وهـذا لا يجـوز ، لأنّ كـلّ منظـور إليه بـالعين مشـار إليه بالحدقة واللحاظ ،

---

(1) المنجد / مادة نضر.

والله يتعالى عن أن يشار إليه بـالعين ، كما يجـلّ سـبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع.

الثــاني : أنّه الانتظــار ، واختلف من حمله على هــذا المحمل على أقوال :

ألف : أنّ المعنى منتظرة إلى ثواب ربها ، وروي ذلك عن مجاهد والحسن وســعيد بين جبــير والضــحّاك وهو المـروي عن علي (ع) ، وسـاق ما قاله شـيخ الطائفة من الردّ على من اعترض على إمكان تعدّي النظر بإلى.

بــاء : أنّ معنــاه مؤمّلة لتجديد الكرامة ، كما يقــال : عيني ممـدودة إلى الله تعـالى ، وإلى فلان ، وأنا شـاخص الطرف إلى فلان.

جيم : المعنى أنّهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كـلّ شيء سوى الله تعالى [1]. وما يبـدو لي أنّ النظر هنا بكلا المعنــيين المجــازي والحقيقي ، فأمّا المجــازي فــإنّ المؤمنين يوم القيامة يتأمّلون من ربهم الثواب والكرامة ، ويقطعـــون أملهم إلّا منه ، و.. و.. وأمّا الحقيقي فـــإنّهم ينظـرون إلى ربهم ببصــائرهم لا أبصــارهم من خلال آياته ونوره الذي يتجلّى لهم إكراما منه تعالى لعباده المتقين.

أمّا النظر إلى ذات الله فهو مستحيل ، والقول بــذلك يســتدعي التجســيد ، وهو من الثقافة الشــركية الــتي تسربّت إلى بعض المسلمين من الثقافات الدخيلة.

وكيف يجـوز النظر إلى الله والعين لا تسـتوعب بعض آياتـه؟ هل نظـرت إلى عين الشـمس لحظـات؟ هل تفكّر في أن تحدق في الشمس من قـرب أو لا تحـترق عينـك؟ والشمس آية صغيرة متناهية في الصغر إذا قيست بــأنوار قـــدس الـــرب! لقد تجلّى الله للجبل فجعله دكّا ، فكيف يتحمّل هذا البشر الضعيف تجلّيات الرب إلّا بقدر ما

(1) مجمع البيان ج 10 ص 398 مع تصرف ترتيبا وتنقيطا واختصارا.

يشاء الله سبحانه وتعالى عن وصف الواصفين.

جـاء في الحـديث عن صـفوان عن ابن حميد قـال : ذاكـرت أبا عبد الله (الإمـام الصـادق عليه السـلام) فيما يروون من الرؤية (لذات الله عزّ وجلّ) فقال : «الشـمس جزء من سـبعين جـزء من نـور الكرسي ، والكرسي جـزء من سـبعين جـزء من نـور العـرش ، والعـرش جـزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جـزء من سـبعين جزء من نور السر ، فـإن كـانوا صـادقين فليملئـوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب!!» [1].

(**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ**)

وهي وجـــوه المجـــرمين حيث القيامة موعـــدهم مع الفضيحة والعذاب والذل ، وبسـور وجـوههم يحكي بـاطن نفوسـهم المنطوية على اليـأس والتشـاؤم والخـوف ممّا ستلاقيه.

(**تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ**)

قـــال في المنجد : الفـــاقرة جمعها فـــواقر : الداهية الشـــديدة ، فكأنّها تكسر فقر الظهر ، والفقـــرة : الأمر العظيم [2] ، وإنّ المجرمين يوم القيامة ليساورهم هاجس ورعب ينتظرهم من الدواهي ، وهـذا الهـاجس يعـدّ عـذابا عظيما بذاته.

[26 ـ 30] تلك هي حقـائق يـوم القيامة الـتي يجب على الإنسان أن يتذكرها دائما ، باعتبار الإيمـان بها يجعله متوازنا في التفكير ، ويسـوقه نحو التسـليم للحق والعمل به ، ولكنّ الحجب تحول بينه وبين الإيمان بذلك المستقبل فيكذّب به ، ولكن هل

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 4 ص 44.

(2) المنجد / مادة فقر.

يغيّر تكذيبه من الحقـائق شـيئا؟ كلّا .. فليكـذّب بـالموت فهل يمكنه أن يلغيه ، أو يجد مفرّا من ملاقـه؟ بـالطبع كلا .. فحركته نحونا وحركتنا نحـــوه ســـنّة حتمية ، وكـــذلك بالنسـبة لمواقف القيامـة. وعند ما يواجه الإنسـان المحنة الفـــاقرة في الـــدنيا تتســـاقط الحجب من عينيه فـــيرى الحقـائق بوضـوح ويعـترف بها بصـراحة ، وينـدم حـتى الأعمـاق على ما كـذّب به ، ولا محنة أعظم من المـوت ، ولا ســـاعة أشـــدّ على الإنسـان في الـــدنيا من ســـاعة السكرات.

(**كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ**)

وهي عظم وصل بين ثغـــــرة النحر والعـــــاتق من الجانبين [1] ، وقال صاحب المجمع : التراقي جمع الترقوة ، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصـدر ، تـترقّى إليه النفس عند المـوت ، وهنـاك تقع الحشـرجة [2] ، ويقـال : بلغت الــروح الــتراقي كناية عن صـعودها وقــرب خروجها من البـــــدن ومفارقتها له ، ولعلّها حقيقة يعانيها الميت عند سكرات الموت.

(**وَقِيلَ مَنْ راقٍ**)

أي وقـــال أهله : من راق؟ أي طـــبيب شـــاف يرقيه ويداويه ، وقيل : تختصم ملائكة الرحمة وملائكة العـــذاب أيّهم يـرقى بروحه [3] ، وبه قـال الـرازي والزمخشـري وصـــاحب تفســير فتح القــدير. ولعل المعـــنى من الرقية (الأدعية والتعويـذات الـتي تكتب في قرطـاس للتشـافي بهـا) وكـأنّ المعـنى أنّ أهله أو هو نفسه يسـألون عمّن يكتب له ذلك طمعا في الشفاء.

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 230.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 400.
(3) المصدر / ص 401.

(وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ)

ظن يقين يصل إلى حـدّ التصـور وشـبه الرؤية ، فإنّه حينئذ يعـاين حقيقة المـوت والآخـرة فـإذا به يقبض يـدا ويبسط أخـرى ، وهكـذا يعـالج سـكرات المـوت بروحه وحركاته اليائسة.

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)

عن قتـادة : هما سـاقاه عند الـنزع ، أما رأيته كيف يضـرب بإحـدى رجليه على الأخـرى؟ وقـال الحسن : هما ساقاه إذا التفّتا في الكفن ، وقيل : إذا مات يبست ساقاه والتصقت إحداهما بالأخرى [1] ، وعن الشعبي وأبي مالك : لأنّه يذهب بالقوة فيصير كجلدة يلتفّ بعضها ببعض ، وقيل : يضـطرب فلا يـزل يمـدّ إحـدى رجليه ويرسل الأخـرى. ولعـلّ الآية كناية عن الشـدائد والصـعاب الـتي يواجهها الإنسان عند الموت ، وقد وجدت إشارة إلى هـذا المعـنى في تفسير القرطبي قال : أي فاتصـلت الشـدة بالشـدة ، شـدة آخر الـدنيا بشـدة أوّل الآخـرة ، قاله ابن عبـاس والحسن وغيرهما .. وقـال الضـحاك : اجتمع عليه أمـران شديدان .. والعرب لا تذكر الساق إلّا في المحن والشدائد العظام ، ومنه قولهم : قامت الـدنيا على سـاق ، وقـامت الحرب على ساق [2].

وحينما يفارق الإنسـان هـذه الـدنيا بما فيها ومن فيها فإنّه لا يصير إلى العدم ، وإنّما ينتقل من فراقها إلى لقـاء عظيم بربه.

(إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ)

---

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 232.

(2) الجامع لأحكام القرآن / ج 19 ص 112.

قيل : يعـني إليه المنتهى أو غاية سـوق الملائكة لكـلّ نفس ، وهو صـحيح ، ولكن يبـدو لي أنّ «المسـاق» هنا يعـني المصـير ، حيث أنّ الأنفس بعد الحسـاب تسـوقها الملائكة إلى مأواها ومصـيرها ، فامّا تسـوق الإنسـان ملائكة الرحمة إلى الجنة ، وامّا تسـوقه ملائكة العـذاب إلى النـار ، وإلى الله وحـده وبيـده الأمر بكلا المسـاقين ، فما أحوجه إلى معرفة هـذه الحقيقة والإيمـان بها ، فـإنّ ذلك يبعث فيه روح التسليم إليه والسعي إلى القرب منه.

[31 ـ 35] وحين لا يؤمن الإنسـان بلقـاء ربه ينحـرف عن الصراط المستقيم ويترك الواجبات التي عليه.

(**فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى* وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**)

قيل : لا صـدّق بما له ذخـرا عند الله ، ولا صـلّى الصلوات التي أمـره الله بها [1] ، والأصح حمل التصـديق هنا على معنـاه الأصـلي ، وهو تصـديق الإيمـان بالعمل والبـاطن بالظـاهر والعكس ، وهـذا الفهم يجعل الكلمة تتسع لكثير من المفردات والمصـاديق ومن بينها الإنفـاق. كما أنّ الصـلاة رمز الصـلة والقـرب مع الخـالق ورمز التواصل مع الخلق ، وهكـذا الآيتـان تفسّـران بعضـهما ، فالتكـذيب نقيض التصـديق ، والتـولي نقيض التواصل ، والمكذّب بـالحق يـرتكب ذنـبين : أحـدهما عـدم التصـديق والصلاة ، والآخر التكذيب والتـولي ، وابتعـاد الإنسـان عن الحق ليس يقطع علاقته بالله وبرسـولـه فقط ، وإنّما يفسد علاقته بالنـاس أيضا ، فهو يـركب مطية الغـرور والتكبر بينهم.

(**ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى**)

---

(1) المصدر / ص 113.

أصل التمطّي تمدّد البدن من الكسل ، وهو من لوى مطاه أي ظهره. قالوا : إنّه إشارة إلى التبختر على نهج القرآن في ذكر الصفات بالتصوير الظاهر. ولعلّه أعمّ من ذلك حيث يدل على حالة اللامسؤولية والإشتغال باللهو واللعب عن الجد والاجتهاد.

ثم يتوعد الله من تكون صفاته التي مرّ ذكرها بالعذاب بعد العذاب فيقول :

(**أَوْلى لَكَ فَأَوْلى * ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى**)

قال عبد العظيم بن عبد الله الحسني : سألت محمد بن علي الرضا (ع) عن قول الله عزّ وجلّ : «الآيتين» قال : «**يقول الله عزّ وجلّ : بعدا لك من خير الدنيا ، وبعدا لك من خير الآخرة**» [1].

وأصل الكلمة وعيد وتهديد ، ومعناه : أنّ المكروه يقترب منك وأنت صاحبه وجاءت الرواية : أنّ رسول الله (ص) أخذ بيد أبي جهل ثم قال له : «**أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى**» فقال أبو جهل : بأيّ شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئا ، وإنّي لأعزّ أهل الوادي ، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله ، وقال القرطبي : وقيل : معناه الويل لك.

[36 ـ 40] ويستنكر القرآن على الإنسان شذوذه عن الحق وكفره به؟

(**أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً**)

كلّ شيء في حياة الإنسان يهديه إلى إحاطة تدبير الله به ، وشمول رعايته

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 466.

لحياته ، وإلّا لأعـدمت أو تحـوّلت جحيما لا يطـاق ، وأبـرز ذلك خلقته : كيف حملته يد اللطف من صـــلب أبيه حيث كــان حيوانا منويّا لا يــرى إلى رحم أمه ، وأجــرى له من الطعام والشـراب ، وضـمن له من السـلامة والأمن حـتى أصبح علقة ، ثم رعاه وحماه وربّاه حـتى جعله خلقا سـويّا .. فهل يعقل أن يترك في المستقبل سـدى وهو لم يـترك كذلك سلفا ، بل لا شيء في كيانه ترك بلا هدف أو غاية؟

(**أَلَمْ يَكُ نُطْفَـةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْـنى * ثُمَّ كـانَ عَلَقَـةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى**)

وكما أنّ هـذه المراحل حتمية بالنسـبة للإنسـان فـإنّ الآخــرة هي الأخــرى حتمية ، والفكــرة هــذه تفسّــر ربط القــرآن الــدائم بين الحــديث عن الآخــرة والحــديث عن مراحل خلقة الإنسان وأطواره ، التي يهتـدي المتـدبر فيها إلى معرفة ربه حيث هي آيـــات لطفه وحكمته وقدرتـــه. وبعد تفكّر البشر في نفسه وخلقه يجب أن يطـــرح على نفسه هذا السؤال الحاسم

(**أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى**)

ولن يجد أحدنا جوابا لهذا السؤال إلّا أن يقــول : بلى. وحينئذ سيؤمن بيـوم القيامة وحقـائق الآخـرة ، لأنّ الشك في فكــرة الآخــرة منبعث من الجهل بقـدرة الله النافـذة التي لا تحدّ.

سورة الإنسان

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

روي عن أبي جعفر (الإمام البـاقر) ــ عليه السـلام ــ قـال : من قـرأ سـورة «**هل أتى**» في كـلّ غـداة خميس زوّجه الله من الحور العين مـأة عـذراء وأربعة آلاف ثيّب ، وكان مع محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ.

نور الثقلين / ج 5 ص 467

الإطار العام

تفكّر حين لم تكن شيئا مذكورا ثم خلقك الله الحكيم المقتــدر من نطفة أمشــاج. تفكّر في هــدف ذلك هل هو سوى الابتلاء؟

هكـذا تفتتح ســورة الإنســان الـتي تـزرع في النفس خشــية الآخــرة ، وتجعلها معراجا للشخصــية إلى التكامل والسمو حتى تبلغ درجة الأبـرار ، الـذين تصـبغ شخصـيتهم الفـذّة صـفة الوفـاء بالنـذر ، والخـوف من يـوم القيامة ، والإيثـار ، والـترفّع عن شـهوة المـدح وحب التسـلّط على الآخرين.

وتمضي آيات السورة المباركة الـتي نـزلت في شـأن أهل الرسول ـ عليهم الصـلاة والسـلام ـ تمضي في بيـان نعيم الجنة التي تختمها بوصفها بالملك الكبير ، وبأنّ ربّهم الرحمن يسقيهم شرابا طهورا.

ولكي لا يعيش الإنســــان في أحلام التمنّي والتظنّي يـــذكّره الســـياق بـــأنّ ثمن الجنة الصـــبر لحكم الله ، والاستقامة ضد ضغوط الآثمين والكفّار ، وذكر الله بالليل

والنهار.

ويبيّن أنّ الضالين والظالمين انتهـوا إلى هـذه العاقبة السوأى بسبب تركهم ذكر يوم القيامة ذلك اليوم الثقيــل. وفي خاتمة السـورة يـذكّرنا الـربّ بـأنّ الإنسـان حـرّ في اتخاذ سبيل الله بتلك المشـيئة الـتي منحه الله إيّاها ، وأنّ مشيئته بالله العظيم الحكيم في عطائه وجزائه.

سورة الإنسان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**هَـلْ أَتى عَلَى الْإِنْسـانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـــيْئاً مَــذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْســـانَ مِنْ نُطْفَــةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَـمِيعاً بَصِـيراً (2) إِنَّا هَـدَيْناهُ السَّــبِيلَ إِمَّا شـــاكِراً وَإِمَّا كَفُــوراً (3) إِنَّا أَعْتَــدْنا لِلْكـافِرِينَ سَلاسِـلَ وَأَغْلالاً وَسَـعِيراً (4) إِنَّ الْأَبْـرارَ يَشْـرَبُونَ مِنْ كَـأْسٍ كـانَ مِزاجُها كـافُوراً (5) عَيْنـاً يَشْرَبُ بِها عِبـادُ اللـهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِـيراً (6) يُوفُـونَ بِالنَّذْرِ وَيَخــافُونَ يَوْمــاً كــانَ شَــرُّهُ مُسْـتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً**

2 [أمشاج] : مختلطة ، ومشجت هذا بهـذا أي خلطته ، وواحد الأمشـاج مشيج.

7 [مستطيرا] : أي فاشيا منتشرا ذاهبا في الجهات بلغ أقصى المبالغ.

وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْـهِ اللـهِ لا نُرِيـدُ مِنْكُمْ جَـزاءً وَلا شُـكُوراً (9) إِنَّا نَخـافُ مِنْ رَبِّنا يَوْمـاً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10) فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِـكَ الْيَـوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْـرَةً وَسُـرُوراً (11) وَجَـزاهُمْ بِما صَـبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (13) وَدانِيَـةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14) وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15) قَـوارِيرَا مِنْ فِضَّـةٍ قَـدَّرُوها تَقْـدِيراً (16) وَيُسْـقَوْنَ فِيها كَأْسـاً كـانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17) عَيْنـاً فِيها تُسَـمَّى سَلْسَـبِيلاً (18) وَيَطُـــوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـــدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِـــبْتَهُمْ لُؤْلُـــؤاً مَنْثُـــوراً (19) وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ

---

10 [قمطريرا] : الشديد في الشر ، وقد اقمطر اليوم اقمطـرارا ويـوم قمطرير وقمـاطر كأنّه قد التـفّ شـرّه بعضه على بعض. قـال الحسن البصري في هذا اليوم : ما أشدّ اسمه وهو من اسمه أشدّ.
13 [زمهريرا] : هو أشدّ ما يكون من البرد.
15 [قواريرا] : زجاجيّة.

خُضْـرٌ وَإِسْـتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسـاوِرَ مِنْ فِضَّـةٍ وَسَـقاهُمْ رَبُّهُمْ شَـراباً طَهُـوراً (21) إِنَّ هـذا كـانَ لَكُمْ جَـزاءً وَكـانَ سَـعْيُكُمْ مَشْـكُوراً (22) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْـكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْـرَةً وَأَصِـيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَـبِّحْهُ لَيْلاً طَـوِيلاً (26) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْمـاً ثَقِيلاً (27) نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِـئْنا بَـدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) إِنَّ هذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَنْ شـاءَ اتَّخَـذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ إِنَّ اللـهَ كـانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً (30) يُـدْخِلُ مَنْ يَشـاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31))

---

28 [وشددنا أسرهم] : أي أحكمنا خلقهم بتنظيم الأجهـزة ، فـإنّ الأسر أصله الشد ، ومنه سمّي الأسير أسيرا لأنّه يشدّ بالحبال.

إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ

بينات من الآيات :

[1 ـ 4] إذا عــرف الإنســان ربه عرّفه الله بنفســه. كــذلك إذا عــرف نفسه عــرف ربه ، حيث أنّه حين يتفكّر فيها لا يجد فيها إلّا آيات الصنع وشواهد التدبير.

وأهم أثارة علمية يلقيها القرآن على الإنسان : حقيقة حدوثه بعد العـدم ، وأنّه أصـبح شـيئا مـذكورا بعد أن كـان خاملا مجهولا.

(**هَـلْ أَتى عَلَى الْإِنْسـانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**)

وهـذه الأثـارة الـتي تنفذ في أغـوار الإنسـان ، والـتي تعبر عنها صـيغة الاسـتفهام ، إنّها تجعلنا عند ما نتفكّر في أبعادها نعيش وعي الصــيرورة الزمنية في نشــأتنا ، هــذا الــوعي الــذي يزيد العقل ، ويقضي على الغــرور ، ويرفع الإنسان إلى مستوى الحكمة.

وقد اختلفوا في حرف «هل» ، فقال بعضهم : أنّه هنا بمعنى (قد) ، وقال آخرون : بل هو استفهام تقريري ، يعرف السائل الجواب سلفا ، وإنّما يطرح الكلام لأخذ الإقرار من الطرف الآخر.

ويبدو لي أنّ الكلمات تبقى بمعناها اللغوي عند الاستعمالات الأدبية المختلفة ، إلّا أنّ هدف الاستخدام يختلف حسب السياق ، فهل هنا ـ مثلا ـ جاء بمعنى الاستفهام ، أمّا لما ذا جاء الاستفهام؟ فهو ليس شأن الكلمات إنّما هو شأن الذي استخدمها. ويكون مثل ذلك في عالم الماديات : السيارة التي تقوم بحمل الإنسان. أمّا إلى أين ولما ذا يتحرك الإنسان؟ فهذا ليس شأنها إنّما هو شأنه.

ولقد فسّر أئمة الهدى هذه الآية عدة تفاسير ممّا كشف عن أبعادها المتنوّعة ، فعن مالك الجهني قال : سألت أبا عبد الله الإمام الصادق (ع) عن قوله : «الآية» فقال : «كان مقدّرا غير مذكور» [1] ، وعن زرارة قال سألت أبا جعفر (الإمام الباقر) ـ عليه السلام ـ عن قوله : «الآية» فقال : «كان شيئا ولم يكن مذكورا» [2] ، وعن الباقر (ع) قال : «كان مذكورا في العلم ، ولم يكن مذكورا في الخلق» [3]. وهكذا روايات أخرى كثيرة تهدينا إلى أنّ الإنسان يمرّ قبل وجوده المادي في الحياة بمرحلتين هما :

الأولى : عالم التقدير في علم الله.

الثانية : عوالم النشأة ، مثل عالم الأشباح (الأرواح) ، عالم الذرّ ، عالم

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 468.
(2) المصدر.
(3) المصدر.

الأصـلاب ، ثم عـالم الأرحـام ، فعـالم الـدنيا ، وفي تلك العوالم وقبل عالم الدنيا كان الإنسان شيئا ـ في علم الله ـ ولم يكن مذكورا عند الخلق لضآلته المتناهية.

(**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ**)

أي مختلطة ، قـال الإمـام البـاقر (ع) : «مـاء الرجل والمرأة اختلطا جميعا» [1] ، كما أنّها مختلطة من الناحية المعنوية إذ تحمل الصـفات الوراثية والنفسـية والشـكلية من الطرفين بما يمثّلانه من امتـداد في التـاريخ والمجتمع كالأجداد والآباء والأخوال ، وقد أشار الإمـام علي (ع) إلى هذا المعـنى إذ وصف الإنسـان بقوله : «ومحـطّ الأمشـاج من مشـــارب الأصـــلاب» [2] ، ومن ناحية ثالثة يعيش الإنســان ثنائية هامة ، فهو في البداية خليط من تطلّعـات الفطـــرة والعقل والإيمـــان ، وشـــهوات الهـــوى والجهل والجحود ، بين جنود الرحمن ، وأعوان الشيطان.

وهكـــذا كـــلّ شـــيء في الإنســـان يحتمل نزعـــتين ، وصـبغتين ، ومنهجين ، ووجهـتين : الحق والباطل ، الله أو الشيطان ، العقل أو الجهل ، الإيمان أو الجحود ، الجنة أو النار ، ويبدو أنّ هذه الثنائية أقرب إلى كلمة الأمشـاج لأنّ شأن الثنائيات (الاختلاط بين ماء الرجل ومـاء المـرأة ، أو بين مختلف العوامل الوراثية من الآبـاء والأمّهـات) مقدمة لهذه الثنائية ، ويدلّ على ذلك بيان حكمة الابتلاء بعد بيـان الثنائية.

(**نَبْتَلِيهِ**)

ولا يصدق الابتلاء في حياة الإنسان حتى يكون مختارا ، وذلك بأن تكون

---

(1) المصدر / ص 469.

(2) المصدر نقلا عن نهج البلاغة.

خلقته خليطا من نزعتين وتطلّعين : أحدهما الخــير والآخر الشر. ومن الضروري للإنسان وهو يمـارس الحيـاة ونعمة الوجود أن يعرف بـأنّ الابتلاء جـزء من وجـوده ، من دونه تصـبح حياته بلا معـنى بلا روح وبلا هـدف .. تماما كتفّاحة فاسدة لا طعم لها ولا رائحة ، أو كمـاء آسن لا ينفع سـقيا ولا طهورا.

وإطلاق كلمة الابتلاء يـدلّنا على أنّ الإنســان ممتحن بكلّ شيء يتصل به خيرا كـان أو شـرا ، وأوّل ما يبتلى به نعمة الخلق ، فهل يشــكر ربه عليها حيث خلقه وأوجــده ولم يكن شيئا مذكورا أم يقابله بـالجحود والكفـران؟ قـال الإمام الباقر (ع) : «**إنّ النبيّ قال لعليّ (ع) : قل : ما أوّل نعمة أبلاك الله عزّ وجلّ وأنعم عليك بهـا؟ قـال : أن خلقني جلّ ثناؤه ولم أك شيئا مذكورا ، قــال : صدقت**» [1]

وحيث أراد ربنا امتحــان الإنســان وفــرّ من جهته الشــروط والمســتلزمات الـتي تجعل البشر مسـئولا عن الامتحان فتكون حجة عليه عند ما يكفر ، ووسيلة لصالحه عند ما يريد الإيمان والشكر.

(**فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً**)

والسمع والبصر نافذتان لعقل الإنسان على الخليقة ، وهما أهمّ أدوات المعرفة عنـده ، وبالتـالي أبـرز وسـائل الإختيــار ، فبســمعه يتلقّى نصـائح الآخـرين وتجـاربهم ، وببصـره وبصـيرته يـرى ويقلّب وجـوه الأمـور ثم يختـار لنفسه الموقف والطريق ، وذلك يكفي دافعا يحمّله المسؤولية ويقيم عليه الحجة ، ولكنّ الله أبى إلّا أن تكون له الحجة البالغة عليه فهــــداه الســــبيل مبيّنا له الحق والباطل والصواب والخطأ.

(**إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ**)

---

(1) المصدر.

فمعالم الطريق الصحيح بيّنة وواضحة للبشر ، هداه الله إليها بالفطرة والعقل والرسالات والرسل ، ولكنّه لم يجبره لكي لا يتنافى وحكمة الابتلاء ، وإنّما جعل القرار موكولا إليه يختار أحد الطريقين.

(**إِمَّا شاكِراً**)

يتبع فطرته وعقله وهدى ربه ، الذي هو السبيل الذي يسّره له ، فيشكره على كلّ نعمة ومن شكره طاعته.

(**وَإِمَّا كَفُوراً**)

لا يسمع نداء الحق ، ولا يبصر الطريق ولا يسلكه ، فلا يشكر ربه على نعمه ، وإنّما عبّر الله بالشكر والكفر عن الهدى والضلال لأنّهما الأساس والمعول ، فكلّ ضلال وكفر وانحراف في حياة البشر هو كفران لنعم الله عليه ، وكلّ هدى وإيمان وعمل صالح هو شكر.

قال حمران بن أعين : سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله عزّ وجلّ : «الآية» قال : «إمّا آخذ (بالسبيل) فهو شاكر ، وإمّا تارك فهو كافر» [1]. وحينما يكفر الإنسان بربه ونعمه فإنّه يصير إلى عذاب شديد أعدّه لكلّ كفور.

(**إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً**)

قال القرطبي : السلاسل : القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا [2] ، وقال الرازي : السلاسل تشدّ بها أرجلهم ، وأمّا الأغلال فتشدّ بها أيديهم إلى

---

(1) المصدر.

(2) الجامع لأحكام القرآن / ج 19 ص 123.

رقـــابهم [1]. ولعل السلاسل ما يشد بها المجرمــــون إلى بعضهم ويسحبون بها ، بينما الأغلال ما يقيّد بها الواحد من يديه ورجليه ورقبته. وهذا جـزاء مناسب للكـافرين ، لأنّهم يسـيئون الاسـتفادة من الحرية المعطـاة إليهم في الـدنيا فيقيّدون في الآخرة. وسلاسل الآخـرة وأغلالها تجسـيدات لمثلها في الدنيا ، لأنّ من يخالف قيم الحق وسبيل الهدى ويتبع المنـاهج البشـرية يتـورّط في أغلال العبودية والعقد والمشاكل المختلفة.

[5] أمّا الشـاكرون الـذين يهبهم ربّهم وسـام الأبـرار فإنّهم يتحررون من سلاسل الضـلال وأغلاله وسـعيره في الـــدنيا فقط ، بل ويكســبون الحرية الكاملة في الآخـــرة والثواب الجزيل جزاء شـكرهم واتبـاعهم رسـالة الله عـزّ وجلّ.

(**إِنَّ الْأَبْــرارَ يَشْــرَبُونَ مِنْ كَــأْسٍ كــانَ مِزاجُها كافُوراً**)

قيل : هو جمع بر ، وفي الصحاح : وجمع البر الأبرار ، وفلان يـبرّ خالقه ويتـبرّره أي يطيعه [2]. والقـرآن يفسّــر معـنى «الأبـرار» من خلال بيانه لصـفاتهم ، وهـذا يقـرّب المعنى ويرسّخه في الأذهان بصورة أوضح وأفضل.

وما يشـــربه الأبـــرار في الجنة مختلط طعمه ومزاجه بصـفات الكـافور الحسـنة ، وهو اسم عين مـاء في الجنة عن ابن عبّـاس [3] ، وقـال سـعيد عن قتـادة : تمـزج لهم بالكـــافور ، وتختم بالمسك ، وقيل : أراد كالكـــافور في بياضه وطيب رائحته وبـرده ، لأنّ الكـافور لا يشـرب [4] ، وقال مقاتل : ليس بكافور الدنيا ، ولكن سمّى الله

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 240.
(2) الجامع لأحكام القرآن / ج 19 ص 125.
(3) المصدر.
(4) المصدر.

ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلـوب [1]. ومن فوائد الكـافور طبعه البـارد ، وتسـكينه للعطش ، وحين يمـتزج بشراب يكون أنفع للجسم. وقوله «من كـأس» كناية عمّا في الكأس من الشراب.

[6] (**عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ**)

لما ذا اســتخدمت هنا كلمة «بهــا» أوليس الإنســان يشــرب من العين وليس بــالعين؟ قــالوا : إنّ الكلمة قد أشربت معنى الارتواء أي يشربون منها ويرتوون بها .. أمّا عن هذه العين فقد جـاء عن الإمـام الصـادق (ع) : قـال : «**هي عين في دار النبيّ (ص) تفجّر إلى دور الأنبياء والمؤمنين**» [2].

(**يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً**)

فمــتى ما أرادوا توجهــوا تلقــاء العين الــتي لا تــزال مختومة ففجّروها ـ بإذن الله ـ وشربوا من بـاكورة رفـدها الطاهر ما شاؤوا.

وفي تفسـير القرطـبي : إنّ الرجل منهم ليمشي في بويتاته ويصعد إلى قصـوره ، وبيـده قضـيب يشـير به إلى المــاء فيجــري معه حيثما دار في منازله على مســتوى الأرض في غـير أخــدود [3]. وإلى مثل هـذا الجــزاء تتطلّع النفــوس بصــورة فطرية ، من هنا يوجّهنا القــرآن إلى حقيقة هامة وهي أنّ ذلك النعيم لم يصل إليه الأبـرار عبثا ومن دون سعي ، وإنّما لما جسّدوا في حياتهم من صفات الخــير ، فــإنّ ما عند الله لا ينــال بــالتمنّي والتظنّي بل بالسعي والاجتهاد.

---

(1) المصدر / ص 126.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 477.
(3) الجامع لأحكام القرآن / ص 126.

[7] (**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**)

أي نـــــذر وعهد يقطعونه على أنفســـــهم ، وأظهر مصاديق النذر في حياة الإنسان عهده الذي أخذه الله منه ، وتعهّد هو بالوفـاء به في الميثـاق الأول في عـالم الـذر ، حيث قطع على نفسه بتوحيد ربه وطاعته وتـولّي أوليائه ، وقد بيّن أئمة الهدى هذا المعنى ، قال الإمـام الرضا (ع) : «يوفون بالنذر» الذي أخذ عليهم من ولايتنا [1] ، وعنه قال : «يوفــون لله بالنــذر الــذي أخذ عليهم في الميثــاق من ولايتنا» [2] ، وحينما تنبني شخصـية المجتمع على أسـاس الوفاء بالتعهّدات فذلك ممّا يزيد الثقة والاطمئنــان بينهم ، ويجعل المجتمع مهيّأً للتقدم والتحضّـر ، لأنّ الحضـارة في حقيقتها مجموعة من القيم التي يؤمن بها المجتمع ويتعهّد الوفــاء بها ، وأصل الحضــارة تكــاثف الجهــود ، وتــراكم الإنجـــازات ، وتركّز الخـــبرات ، وكـــلّ أولئك رهين الثقة المتبادلة والتي يزرعها الوفاء بالعهود.

أمّا لما ذا يلتزم الأبـرار بالعهد ويوفـون بالنـذر فلأنّهم يعيشون أهوال القيامة فيخشـونها ، ويرتفعـون إلى الحالة الجدّيّة التي يتطلّبها مثل ذلك اليوم!

(**وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً**)

قال الإمام الصادق (ع) : «**عابسا كلوحا**» [3] ، وعن علي بن إبراهيم قال : «المستطير العظيم» [4]. فـالخوف الحقيقي من الآخرة إذا هو الذي يتحـوّل إلى إيمـان يـردع الإنسـان عن الخيانة ونقض العهد والكـذب وكـلّ خطيئة ، ويدفعه إلى كلّ

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 477.
(2) المصدر / ص 478.
(3) المصدر / ص 477.
(4) المصدر / ص 478.

فضيلة وصفة حسنة في الدنيا ، وبتعبـير آخر : إنّ الخـوف من الآخـرة وقـود الإنسـان في مسـيرته الصـاعدة نحو الكمال. وهكذا تجد القـرآن يـذكّرنا بها المـرة بعد الأخـرى لتصـبح جـزء من كياننا الثقـافي ، ومزيجة مع شخصـيّاتنا ، وصبغة أساسية لحياتنا.

[8] وصـفة أخـرى تقـرّب الأبـرار إلى ربهم وإلى ذلك النعيم الكبـير هي تحمّل المسـؤولية الاجتماعية تجـاه الضـعفاء وأهل الحاجة بـالرغم من حـاجتهم الماسّـة إلى الطعام.

(**وَيُطْعِمُـونَ الطَّعـامَ عَلى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَيَتِيمـاً وَأَسِيراً**)

قيل : «على حبـه» أي على حبّ الله ، وهـذا صـحيح من ناحية المعـنى ، أمّا سـياق الكلام فيـدلّ على حبّ الطعام (لأنّه أقرب إلى الضمير ، ولأنّ حبّ الله (ووجهـه) ذكر في الآية التالية بصـورة مسـتقلّة لأهميته فلا داعي للتكرار ..).

وهذا يعني أنّ المراد من حبّ الطعام هنا : أنّ الأبـرار لا يطعمـون الآخـرين من فاضل طعـامهم ، بل ممّا يطعمونه أنفسـهم وإلى حـدّ الإيثـار ، بحيث يتصـدّقون بما عنـدهم وينفقونه مع حاجة وحبّ إليه ، وهـذه من أرفع مراحل التضـحية والعطـاء ، ويؤكّد ذلك أنّ الإنفـاق ممّا تحبه النفس من شـروط القـرآن لبلـوغ درجة الـبر ، كما قـال سـبحانه : «**لَنْ تَنـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ**».

[9] قد يكون الإنفاق بهدف الاسـتكبار والتعـالي على الآخرين وبسط السلطة عليهم. إنّه إنفـاق المنّ والريـاء ، ولكنّ الأبرار يخلصون في إنفاقهم.

(**إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيـدُ مِنْكُمْ جَـزاءً وَلا شُكُوراً**)

إنّ الأبـرار لا يتطلّعـون إلى شـيء وراء إنفـاقهم وخدماتهم للآخرين إلّا رضى الله

وثوابه ، ممّا يعكس تمحّض التوحيد في أنفسـهم ، فلا يطالبون حتى بكلمة الشكر (شكرا وأحسنتم) وما إلى ذلك ، قال الإمام الصادق (ع) : «**والله ما قالوا هذا ، ولكنّهم أضمروه في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم ، يقولون : لا نريد جزاء تكافوننا به ، ولا شكورا تثنون علينا به ، ولكنّا إنّما نطعمكم لوجه الله وطلب ثوابه**» [1] ، وهذا ما يجعلهم في عطاء دائم ، لأنّه لا ينقطع بسبب عدم مجازات الآخرين لهم أو حتى وقوفهم من إحسانهم موقفا سلبيّا.

[10] كيف يتجرّد الأبرار من حبّ الذات إلى هذه الدرجة السامية؟ كيف ينتزعون من أنفسهم حبّ الأموال التي يحتاجونها لطعامهم وقد فطرت الأنفس على حبّ المال ، وبالذات حينما يكون ثمن أهمّ حاجة عند الإنسان حاجة الطعام؟ وأعظم من هذا كيف يسيطرون على غريزة حبّ السلطة والعلوّ في الأرض التي هي أعظم غريزة عند الإنسان ، وكانت وراء خروج آدم (عليه السلام) من الجنة ، حتى تراهم لا يبحثون عن كلمة شكر تقال لهم ، أو أيّ جزاء من أيّ نوع يكافؤون به؟

الجواب : إنّهم يعيشون أهوال القيامة ، وكلّ همّهم النجاة منها. إنّهم يعيشون ـ إذا ـ عالما آخر له همومه وتطلّعاته المختلفة عن هذا العالم الماديّ المحدود ، وهم يعرفون أنّ ثمن النجاة في ذلك اليوم الرعيب الرهيب الفظيع إنّما هو باتقاء شح الذات وإيثار الضعفاء والمحتاجين ، إذ أنّ المسؤولية الاجتماعية تجاه المحرومين والبؤساء ليست اختيارية يتحمّلها الإنسان أو لا يتحمّلها ، وإنّما هي واجب ديني يتصل بمصيره في الآخرة ، وعاقبته عند الله ، وإذا ما دخلت هذ الحقيقة إلى وعي الإنسان فسوف لن يتوانى في أدائها.

---

(1) المصدر نقلا عن أمالي الصدوق.

(إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً)

أي شديدا وعسيرا ، قال الأخفش القمطرير : أشد ما يكون من الأيّام وأطوله في البلاء [1] ، وقال الكسائي : يوم مقمطر إذا كان صعبا شديدا [2].

ويجدر بنا أن ننقل هنا شأن نزول السورة حسب الرواة والمفسرين من كلّ الفرق الإسلامية ، لكي نعرف أنّ هذه الصفات المذكورة في القرآن قد جسّدها فعلا بشر أمثالنا ، قد خلقوا من لحم ودم وكانت فيهم الحاجات والغرائز فتغلّبوا عليها بحول الله وقوته وبفضل وعي الآخرة. إنّهم ذريّة رسول الله فاطمة وبعلها وبنوها وخادمتهم فضّة عليهم السلام.

قال العلامة الطبرسي : نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ وجارية لهم تسمّى فضّة ، وهو المروي عن ابن عبّاس ومجاهد وأبي صالح ، والقصة طويلة جملتها أنّهم قالوا : مرض الحسن والحسين فعادهما جدّهما ووجوه العرب ، وقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا؟ فنذر صوم ثلاثة أيّام إن شفاهما الله سبحانه ، ونذرت فاطمة (عليها السلام) وكذلك فضة ، فبرءا وليس عندهم شيء ، فاستقرض علي ـ عليه السلام ـ ثلاثة أصوع من شعير من يهودي ، وروي : أنّه أخذها ليغزل له صوفا ، وجاء به إلى فاطمة فطحنت صاعا منها فاختبزته وصلّى علي (ع) المغرب وقرّبته إليهم فأتاهم مسكين يدعوهم وسألهم فأعطوه ولم يذوقوا إلّا الماء ، فلمّا كان اليوم الثاني أخذت صاعا وطحنته واختبزته وقدّمته إلى علي (ع) فإذا يتيم بالباب يستطعم فأعطوه ولم يذوقوا إلّا الماء ، فلما كان اليوم الثالث عمدت الباقي فطحنته واختبزته وقدّمته إلى علي (ع) فإذا أسير بالباب يستطعم فأعطوه ولم يذوقوا إلّا الماء ، فلمّا كان اليوم الرابع وقد قضوا

---

(1) الجامع لأحكام القرآن / ج 19 ص 135.

(2) المصدر.

نذورهم أتى علي ومعه الحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ إلى النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ وبهما ضعف فبكى رسول الله (ص) ونزل جبرئيل بسورة : «هل أتى» [1].

[11] (**فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً**).

قال الحسن ومجاهد : نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم ، وقوله «فوقاهم» يدلّ على أنّ النجاة من عذاب ذلك اليوم والفوز بجنة الله ورضوانه نتيجة لأمرين هما : الخوف من الآخرة والعمل الخالص لوجه الله : وفي الرواية عن الإمام الباقر (ع) : قال : «**قال رسول الله (ص) يؤتى يوم القيامة برجل فيقال له : احتج ، فيقول : يا ربّ خلقتني وهديتني فأوسعت علي ، فلم أزل أوسع على خلقك وأيسّر عليهم لكي تنشر عليّ هذا اليوم رحمتك وتيسّره؟ فيقول الربّ جلّ ثناؤه وتعالى ذكره : صدق عبدي أدخلوه الجنة**» [2].

[12] وهكذا يؤكّد ربّنا ـ سبحانه ـ على أنّ ثمن نعيم الآخرة الصبر في الدنيا فيقول :

(**وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا**)

على الطاعة ، وعن المعصية ، وعند المصائب والنوائب.

(**جَنَّةً وَحَرِيراً**)

ولعلّ في الآية إشارة إلى أنّ إخلاص الإنسان في عمله ، وخروجه من حبّ

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 405 بنقل صاحب نور الثقلين.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 479.

الــذات (حبّ التظــاهر والإطــراء) عند الإنفــاق بالــذات ، بحاجة إلى إرادة عالية وصــبر عظيم يقــاوم بهما تحــدّيات النفس والشيطان.

[13 ـ 19] ويفصّل القرآن في بيــان نعيم جنة الأبــرار تشويقا لنا في الرغبة إليها والعمل على الفوز بها.

(**مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ**)

جمع أريكة ، وهي الأسرّة المحشوّة على أفضل وجه.

(**لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً**)

والشــمس كناية عن الحــرّ ، أمّا الزمهرير فهو الــبرد الشديد ، قال الإمــام الرضا (ع) : «**إنّ الشـمس والقمر آيتان من آيــات الله ، يجريــان بــأمره ، مطيعــان له ، وضووؤهما من نور عرشه ، وحرّهما من جهنم ، فــإذا كــانت القيامة عــاد إلى العــرش نورهما ، وعــاد إلى النار حرّها ، فلا يكون شمس ولا قمر**» [1] ، فالجنة إذا مكيّفة أجواؤها بر بيع دائم.

(**وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها**)

ليس لأنّ فيها شمسا وحرّا ، بل هي كناية عن تناسب أشــجار الجنة وحالة الرفــاه المهيّــأة لأهلها بحيث تغطّي فــــوقهم. ولكنّها في نفس الــــوقت قريبة ثمارها إليهم ، ميسّرة عليهم تناولها.

(**وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً**)

---

(1) المصدر / ص 480.

والمفعـول المطلق «تـذليلا» يفيد التأكيد والمبالغة ، أي أنّها مذلّلة أيّما تـذليل ، قـال رسـول الله (ص) : «**من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الـذي يشـتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ ، وإنّ الأنواع من الفاكهة ليقلن لـوليّ الله : يا وليّ الله كلـني قبل أن تأكل هذه قبلي**» [1].

وحيث تغمر الأبـرار فرحة الفـوز والبهجة بما في حياتهم من النعيم يتقدّم إليهم خدمهم من الولدان بـأواني وأكواب في غاية الروعة معدنا ومنظرا وشرابا.

(**وَيُطـافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَـةٍ مِنْ فِضَّـةٍ وَأَكْـوابٍ كـانَتْ قَوارِيرَا**)

ولعلّ الآنية المطاف بها هي التي يستقلّ الولدان فيها أكواب الشراب ، أو التي يكون فيها الشراب الـذي يصـبّ في الأكـواب بعدئذ ، أو هي أواني الأكل والفواكه الـتي يحملها الولدان إلى أولياء الله عزّ وجل. بينما الأكواب هي الكـؤوس الـتي لها مقبض وعـروة ، وفي صـنعتها الرائعة تتجلّى قدرة الله وكرامته لأوليائه.

(**قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ**)

قـال الإمـام الصـادق (ع) : «**ينفذ البصر في فضّـة الجنة كما ينفذ في الزجـاج**» [2] ، وعن قتـادة قـال : صفاء القوارير في بيـاض الفضة [3] وقـال ابن عبّـاس : لو أخذت فضة فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الـذباب لم ير المـاء من ورائها ، ولكنّ قـوارير الجنة بيـاض الفضة في صفاء القوارير [4] ولن يستطيع بشر تصوّر شـيء من نعيم الجنة على حقيقتها أبدا.

---

(1) المصدر / 481.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 410.
(3) الدر المنثور / ج 6 ص 300.
(4) المصدر.

ثم يشير القـرآن إلى صـفة أخـرى في الأكـواب الـتي يطاف بها على المؤمنين فيقول :

(**قَدَّرُوها تَقْدِيراً**)

قـال ابن عبّـاس : أتـوا بها على قـدرهم ، لا يفضـلون شيئا ، ولا يشتهون شيئا بعــدها ، وعن مجاهد : أنّها ليست بالملأى التي تفيض ، ولا ناقصة بقدر ، وقـال ابن عبّـاس : قـدّرتها السـقاة [1] ، وقيل : قـدّروها في أنفسـهم قبل مجيئها على صـفة فجـاءت على ما قـدّروا ، والضـمير في قدّروها للشـاربين [2]. والـذي يبـدو لي أنّ المـراد من الآية هنا أنّ الأكواب الـتي يطـاف بها مقـدّرة ومحكمة من كـلّ جوانبها ، في شكلها وحجمها وشرابها وعددها وكلّ شيء. قـال الزمخشـري : فـإن قلت ما معـنى كـانت في قوله : «**كانَتْ قَـوارِيرَا**»؟ قلت : هو من يكـون في قوله : «كن فيكـون» أي تكـوّنت قـواريرا بتكـوين الله ، تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشـأن ، الجامعة بين صـفتي الجـوهرين المتباينين [3].

(**وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً**)

والزنجبيل يعطي ما يمـــزج إليه نكهة طيّبة ، كما أنّه بذاته فيه فوائد كثيرة ، قال في التبيـان : الزنجبيل ضـرب من القرفة ، طيّب الطعام ، يلذع اللسان ، يـربى بالعسل ، يستدفع به المضار ، إذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ ، والعرب تستطيب الزنجبيل جدّا [4]. وربّنا يقول :

(1) المصدر / 301.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 410.
(3) الكشّاف / ج 4 ص 670.
(4) التبيان / ج 10 ص 214.

(**عَيْناً فِيها**)

قيل : «فيهـا» عائـدة إلى الكـأس ، وقيل : يعـني في الجنة.

(**تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً**)

قال في المجمع : والسلسبيل الشراب السهل اللذيذ ، يقـال : شـراب سـلس وسلسـال وسلسـبيل ، قـال ابن الأعـرابي : لم أسـمع السلسـبيل إلّا في القـرآن ، وقـال الزجّـاج : هو صـفة لما كـان في غاية السلاسة [1] ، وفي الكشّـــاف : يعـــني أنّها في طعم الزنجبيل ، وفيه لذعة ، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة [2].

(**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ**)

قيل : يعني ملبسون الخلـدة وهي ضـرب من القـرط من الـذهب أو الفضة ، ويبـدو لي أنّ «مخلّـدون» بمعـنى أنّهم يبقون على نضارة الغلام دائما لا يتداركهم شباب ولا هرم ، وإنّما يبقيهم الله كذلك لأنّ خدمة الصغار على هـذا السـنّ ألـذّ لأهل الجنة من خدمة غـيرهم ، والولـدان في تطواف دائم يـترقّبون أمر المؤمـنين لهم ، على اسـتعداد تامّ لخدمتهم ، بل أنّ مجرّد تطـوافهم أمـامهم يبعث فيهم البهجة والســرور ، لما يمثّله الولــدان من نعمة الخدمة ، ولمنظرهم الأنيق والجميل.

(**إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً**)

قــــال العلامة الطبرسي : إنّما شـــبّههم بـــالمنثور لانتشارهم (وتوزّعهم) في الخدمة ، فلو كانوا صـفّا لشـبّهوا بـالمنظوم [3]. كما أنّ للؤلؤ حينما ينــثر منظــرا رائعا في الجمال

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 410.
(2) الكشّاف / ج 4 ص 672.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 411.

والجاذبية خصوصا في المـروج الخضـراء ، وتنقّل الولـدان للخدمة من موقع لآخر يعطي المنظر روعة جديـــدة كما يتجلّى اللؤلؤ بتحريكه.

[20 ـ 22] ولا ينتهي نعيم الأبـرار إلى هـذا الحـدّ فهو كبـير جـدّا ، وواسع بحيث لا يسـتطيع بشر أن يسـتوعب تعداده وبيانه ، وإلى هذه الحقيقة يهدينا القرآن الكريم.

(**وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً**)

وحتى نفهم معـنى كلمة «كبـيرا» يجب أن ننظر إليها على أسـاس أنّها تعبـير عن أربعة أمـور ، هي : الكـثرة ، والحجم ، والتنوّع ، والعظمة. وتكـرار كلمة «رأيت» يـأتي لبيان أنّك مهما تكرّر بنظرك وتعيد الرؤية فإنّك لا تستطيع أن تصل إلى حـدّ ملك الأبـرار من النعيم في الجنة ، وإنّما تعلم بصورة مجملة أنّه نعيم وملك كبـير. وكفى به عظمة وسعة أنّه يزداد مع الزمن بفضل الله وكرمه المتتابع على أهل الجنة. قد أشار الإمام الصادق (ع) في حـديث له الى تفسير الكبـير بالعظمة ، قـال عبـاس بن يزيد : قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ وكنت عنـده ذات يـوم : أخـبرني عن قول الله عزّ وجلّ : «الآيـة» ما هـذا الملك الـذي كبّر الله عزّ وجلّ حتى سـمّاه «كبـيرا»؟! قـال : إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أرسل رسـولا إلى وليّ من أوليائه ، فيجد الحجب على بابه ، فتقول له : قف حتى نستأذن لك ، فما يصل إليه رسـول ربه إلّا بـإذن ، فهو قوله عــزّ وجــلّ : «الآية» [1] ، وقال ـ عليه السلام ـ مبيّنا معـنى الآية : «لا يزول ولا يفنى» [2] ، وقيل : هو أنّهم : لا يريدون شيئا إلّا قـدروا عليه [3] ، وعن الحسن البصـري عن رسـول الله (ص) أنّه

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 481.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 411.
(3) المصدر.

قـال : «**أدنى أهل الجنة منزلة الـذي يـركب في ألف ألف من الخدمة من الولدان المخلّدين على خيل من ياقوتة حمراء لها أجنحة من ذهب**» [1].

وعن أبي جعفر (الإمام الباقر) ـ عليه السلام ـ قـال : إنّ رسول الله (ص) سئل عن قول الله عزّ وجلّ : «**يَـوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً**» فقـال : يا علي إنّ الوفد لا يكـون إلّا ركبانا إلى قوله : فقـال علي ـ عليه السـلام ـ يا رسـول الله أخبرنا عن قـول الله عـزّ وجـلّ : «**غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ**» بما ذا بـنيت يا رسـول الله؟ فقال : يا علي تلك غرف بناها الله عزّ وجـلّ لأوليائه بالـدر واليـاقوت والزبرجد ، سـقوفها الـذهب محبوكة بالفضة ، لكـلّ غرفة منها ألف بـاب من ذهب. على كـلّ باب منها ملك موكّل به ، فيها فرش مرفوعة بعضها فـوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة وحشوها الكافور والعنبر ، وذلك قول الله عزّ وجلّ : «**وَفُرُشٍ مَرْفُوعَـةٍ**». إذا أدخل المـؤمن إلى منازله في الجنة ، ووضع على رأسه تـاج الملك والكرامة ، ألبس حلل الـذهب والفضة واليـاقوت والـدر منظومة في الإكليل تحت التـاج ، قـال : فألبس سبعين حلّة حرير بألوان مختلفة وضـروب مختلفة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر ، فذلك قوله عـزّ وجـلّ : «**يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَسـاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ**» ، فإذا جلس المؤمن على سريره اهتزّ سريره فرحا ، فإذا استقرّ لوليّ الله عزّ وجلّ منازله في الجنـان اسـتأذن عليه الموكّل بجنانه ليهنّئه بكرامة الله عزّ وجلّ إيّـاه ، فيقـول له خـدّام المـؤمن من الوصفاء والوصـائف : مكانك فـإنّ وليّ الله قد اتّكى على أريكته ، وزوجته الحوراء تهيّأ له فاصبر لوليّ الله [2].

(**عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ**)

---

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 301.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 482.

قال شيخ الطائفة : السندس الديباج (الحرير) الرقيق الفاخر الحسن ، والإستبرق : الديباج الغليظ الذي له بريق [1]. وفي «عــــاليهم» اختلفـــوا ، فمنهم من جعلها ظرفا بمنزلة قولك : فــوقهم ثيــاب ســندس ، ومنهم من جعلها حالا فهو بمنزلة قولك : يعلوهم ثياب ســندس ، وروي عن الإمام الصادق (ع) : «**تعلوهم الثياب فيلبسونها**» [2].

(**وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ**)

والتحلية بمعــنى الزينة ، أي زيّنــوا بإلباســهم حلالا أســاور من فضة ، ويعلم الله كم هو جمــال تلك الأســاور التي صـنعتها يد القـدرة الإلهية وأبـدعتها ، وكم هو الرونق والجمال الذي تعطيه للابسها حينما يتزيّن بها.

(**وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً**)

قال في المجمع : أي طاهرا من الأقذاء ، لم تدنّســها الأيدي ، ولم تدسها الأرجل كخمر الدنيا ، وقيل : طهورا لا يصـير بـولا نجسا ، ولكنّه يصـير رشـحا في أبـدانهم كـريح المسك ، وإنّ الرجل من أهل الجنة يقسم له شــهوة مائة رجل من أهل الدنيا ، وأكلهم ونهمتهم ، فـإذا أكل ما شـاء سقي شـرابا طهـورا فيطهّر بطنه ، ويصـير ما أكل رشـحا يخرج من جلده ، أطيب ريحا من المسك الأذفر ، ويضـمر بطنه ، وتعود شـهوته. رواه أبو قلابـة. وقيل : «**يطهّرهم من كـلّ شـيء سـوى الله ، إذ لا طـاهر من تـدنّس بشـيء من الأكـوان إلّا الله**» عن الصـادق (ع) [3]. وقد يكون هو شـراب نهر الكـوثر الـذي يعطيه الله لأهل الجنة بيد رسوله (ص) ووليه

---

(1) التبيان / ج 10 ص 217 ـ 218.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 411.
(3) المصدر.

أمير المؤمنين (ع) قبل دخـولهم إلى الجنة فيطهّـرهم من كل عيب ودنس. وقال الرازي : وإنّه المطهّر [1].

ويبـدو لي أنّ الله سـبحانه وتعـالى هو الـذي يسـقي الأبرار ذلك الشراب بصـورة غيبية ، لا عن طريق الولـدان ، إكراما لهم منه عزّ وجلّ. ولكن ما هذا الشـراب الطهـور الـذي يسـقيهم الـربّ بيـده؟ هل شـراب سـائل كالمـاء والخمر والعسل واللبن ، أم هو شـــراب الـــودّ والقـــرب والحبّ والنجوى؟

لأنّ الأدب القـرآني أدب تصـويري يهـدينا من ظـاهر الأحداث إلى غيب الحقائق فإنّ لنا أن نتصوّر أنّ الشـراب الربّاني ليس مجرد شـراب مـادي ، وحـتى لو كـان كـذلك فإنّه حين يكون الساقي هو الربّ البـاقي فإنّه يتحـول من نعمة مادية إلى درجة معنوية دونها كلّ درجة ، فأيّ كرامة أعظم من إقامة صـــلة قريبة بين العبد هـــذا المخلـــوق المتضـــاءل المتنـــاهي في الضـــعف والعجز وبين الـــربّ العظيم المتعال ، وأيّ نشاط يسري في نفس العبد هـذا ، وأيّ جمـال يغمر فـؤاده ، وأيّ سـكينة تغشى نفسه ، وأيّ عزّة تحيط كيانه .. سبحان اللـه! لا علم لنا ، ولا نـدري ما نقول.

إنّ مثل الإمـام زين العابـدين ــ عليه السـلام ــ حـريّ بوصف تلك اللحظـات الـتي يقـترب العبد فيها من الـربّ حين يقول :

«فقد انقطعت إليك همّتي ، وانصرفت نحـوك رغبـتي ، فأنت لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرّة عيني ، ووصلك منى نفسي ، وإليك شـوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بغيـتي ، ورؤيتك حـاجتي ، وجـوارك طلـبي ، وقربك غاية سـؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علّتي ، وشفاء غلّتي ، وبرد لوعتي ، فكن أنيسي في

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 254.

وحشتي ... ولا تقطعني عنك ، ولا تبعـدني منك ، يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي» [1].

وفي مناجاة كريمة أخرى يقول ـ عليه السلام ـ : «... وغلّتي لا يبرّدها إلّا وصلك ، ولوعتي لا يطفيها إلّا لقـاؤك ، وشوقي إليك لا يبلّه إلّا النظر إلى وجهك ، وقراري لا يقـرّ دون دنـوّي منك ، ولهفـتي لا يردّها إلّا روحك ، وسـقمي لا يشـــفيه إلّا طبّك ، وغمّي لا يزيله إلّا قربك ... فيا منتهى أمل الآملين ، ويا غاية سـؤل السـائلين ، ويا أقصى طلبة الطـالبين ، ويا أعلى رغبة الراغـبين ... أسـألك أن تنيلـني من روح رضوانك ، وتديم عليّ نعم امتنانك» [2].

ونلاحظ أنّ إيحـاء الآيـات ينتهي إلى هـدف واحد هو بيـان أنّ الأبـرار في راحة تامّة عند ربّهم في الآخـرة ، «متكـئين ، دانية ، ذلّلت ، يسـقون ، يطـوف عليهم ، وسقاهم ربّهم» وذلك لأنّهم في الدنيا يتعبون أنفسـهم في خدمة الناس وبالأعمال الصالحة لوجه الله ، ويمسّـهم من ذلك الكثـير من التعب ، وليس أنسب لتسـكين أنفسـهم وإشباع تطلعاتهم من بيان ما يصيرون إليه من الراحة في الآخرة.

(**إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً**)

وهـذا جـواب نيتهم الخالصة لوجهه تعـالى وقـولهم : «**إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْـهِ اللـهِ لا نُرِيـدُ مِنْكُمْ جَـزاءً وَلا شُكُوراً**» ، فحيث ترفّعـوا عن أيّ ريـاء ومطمع مـاديّ من وراء عملهم الصالح وإنفاقهم في سبيل الله جازاهم ربّهم على ذلك خير الجزاء وشكر سعيهم بأفضل الشكر.

---

(1) مناجاة المريدين / الامام السجاد / مفاتيح الجنان.
(2) مناجاة المفتقرين / المصدر.

وإنّ تحسـيس المـؤمن في الجنة بـأنّ كـلّ تلك النعم العريضة الواسعة هي شكر لأعماله وجزاء إخلاصه إنّ هذا التحسـيس بذاته كرامة جديـدة لأهل الجنة ونعمة كبـيرة ، إذ يجعلهم في نهاية الراحة النفســـية أنّ اختيــــارهم في الدنيا كان صائبا وأعمالهم كانت مقبولة.

[23 ـ 26] وحيث حـدّثنا ربّنا عن نعيم الأبـرار فـإنّ نفوســنا لا ريب سـتتوق إليه ، والقــرآن يســتجيب لهــذه الصـفة الفطرية بتوجيه تمنيـات الإنسـان وتطلعاته ضـمن قناتها الصــحيحة حيث العمل بــالمنهج الحق الموصل إلى ذلك النعيم ، ومن هذا المنطلق تأتي الإشـارة إلى القـرآن الكريم.

(**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً**)

أي منجّما وليس دفعة واحــــــدة ، وذلك يتماشى مع هدف القرآن ، وهو بناء شخصية الأبـرار في كـلّ الأبعـاد ، حـــتى يـــرتقي إلى قمّة ذلك الرضـــوان والنعيم الإلهي الســـامقة درجة درجـــة. ومن أراد الوصـــول إليها فـــإنّ الطريق واحد ، وهو أن يترك الأمـاني والظنـون المجـردة إلى السعي والاجتهاد على هدى كتاب الأبرار والسمو عبر معراج آياته. وهذا بحاجة إلى الصـبر على العقبـات ، فـإنّ طريق الجنة عموما محفـــوف بالمكـــاره فكيف إذا كـــان الهدف هو أعلى درجاتها وأفضلها (درجة الأبرار)؟

إنّ بلوغ هذا الهدف العظيم يسـتدعي الحقـائق التالية :

أولا : التسليم المطلق لقضاء الله وقدره ، وسننه في الخليقة وشرائعه.

(**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**)

وحكم الله هو تــدبيره لخلقه ورســالته إلى النــاس ، والمؤمن بحاجة إلى الاستقامة

والتحمّل كي يجني ثمار التوكّل على ربه والتسـليم لأمـره ورسالته ، فقد نطبّق رسالة الله ولكن ليس بالضرورة أن نحصل على النتائج مباشرة ؛ إذن يجب أن ندع الاستعجال ونفــوّض أمرنا إلى الله ســبحانه دون أن نتــأفّف على ما يقدّره الـرب أو نضـجر من طـول الانتظـار. ثم إنّ تطـبيق القــرآن يســتلزم روح الصــبر ، لأنّه يضع الإنســان أمــام قـرارات صـعبة وتحـديات كثـيرة في ذاته وفي المحيط ، وتجرّع مرارة الصبر على كلّ ذلك ضرورة أساسـية لبلـوغ أهداف الرسالة وتطلّعاتها.

ثانيا : الاستقامة أمـام الضـغوط ، لأنّ الإنسـان حينما يقرّر العمل بالقرآن وتغيـير نفسه وواقعه على هـدى آياته فسوف تتوالى عليه الضـغوط المختلفة من قبل الآخـرين الذين لا يريـدون الإصـلاح ولا التغيـير اجتماعيّا وسياسـيّا ، وبالذات أولئك الذين تقوم مصـالحهم على أسـاس الواقع المتخلّف والفاسد كالمترفين وأصحاب السلطة ، أو الذين تتعــارض أفكــارهم وثقــافتهم المبدئية مع خط الرســالة وقيمها.

أمّا وســائلهم في الضــغط فهي تختلف فقد تكــون مباشرة ، كما يفعل الحكّـام والطغـاة ضد المؤمـنين تـارة بــالترغيب وتــارة بــالترهيب ، وقد تكــون عــبر الاعلام والمواقف الاجتماعية والاقتصــادية و.. و.. ، ولا بد لكــلّ مؤمن يختار طريق الحق أن تكون هـذه الصـورة الواقعية حاضرة في وعيه ، حتى لا يتفاجأ من جهة ، ولكي يســتعدّ نفسيّا وعمليّا لمواجهتها.

(**وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً**)

قال الزمخشري : معنـاه : ولا تطع منهم راكبا لما هو إثم داعيا لك إليه ، أو فــــاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه ، لأنّهم إمّا أن يــدعوه لمســاعدتهم على فعل ما هو إثم أو كفر ، أو غــــير إثم ولا كفر ، فنهي أن يســــاعدهم على الإثنين دون الثالث [1].

(1) الكشّاف / ج 4 ص 674.

والـــذي يظهر لي أنّ الآية تشـــمل المنـــافقين الـــذين يتظاهرون بالإسلام ولكنّهم يرتكبون الإثم ويريدون الباطل ، كما تشـمل الكفّـار الـذين يبـالغون في الكفر ويعـادون الحقّ بصورة صريحة وظاهرة.

ثالثا : الروحيّة العالية ، وذلك لأنّ هزيمة الإنســــــان وانتصاره واسـتقامته وتراجعه كـلّ أولئك يرتكز على قـوة إرادته وصـلابة شخصـيته ، فعلى المؤمـنين أن يشـحذوا عـزائمهم ، ويـوفّروا إرادتهم ، وينمّـوا قـوة شخصـياتهم ، حـتى يرتفعـوا إلى مسـتوى الالـتزام بالرسـالة ومقاومة التحـديات في الـدنيا ، وإلى مسـتوى الأبـرار ونعيمهم في الآخـــرة. وذكر الله الـــدائم وصـــلاتهم بالليل هما معـــراج المؤمـنين إلى تلك الفضـيلة والمنزلة ، لـذا يـدعو القـرآن رسول الله وكلّ فرد مؤمن إلى الذكر والصلاة.

(**وَاذْكُـرِ اسْـمَ رَبِّكَ بُكْـرَةً وَأَصِـيلاً* وَمِنَ اللَّيْـلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**)

والبكـــور هو أول الصـــباح ، والأصـــيل هو أول الليل وأصله ، والمراد هو المداومة على الذكر نهارا وليلا. وقيل : «بكرة» يعـني صـلاة الصـبح ، و «أصـيلا» يعـني صـلاتي الظهر والعصر ، «ومن الليل» إشارة إلى صلاتي المغرب والعشاء اللتان تقعان في بعض الليل من أوله ، «**وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**» يعني «صلاة الليل» [1] روي ذلك عن الإمـام الرضا (ع). وتأكيد الله على مفـــردات معينة في الآيـــتين لحكمة ، فقد قـال الله : (اذكر ، اسـجد ، وسـبح) وكلّها تتمحـور حـول قيمة التوحيد وتأكيد العبودية لله ، وذلك هو سر الفضـيلة والتسـامي على الضـغوط والتحـديات الـتي تدعو الإنسان إلى الشرك.

[27 ـ 31] وبعد أن فصّـل لنا القـرآن الحـديث عن الأبرار الذين يختارون

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 489.

سبيل الشكر والهدى ، وأنّ إيمانهم بـاليوم الآخر وخـوفهم منه عامل رئيس في اختيـــارهم طريق الحق وســـلوكهم السـليم في الحيـاة ، يؤكّد لنا بـأنّ مشـكلة الكفّـار الـتي دعتهم إلى الإثم والضـلال تتمثّل في حبهم الشـديد للـدنيا وكفرهم بالآخرة.

(**إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَـذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْمـاً ثَقِيلاً**)

ومن الآية نفهم أنّ حبّ الدنيا هو الحجاب الذي يحول بين الإنسـان وبين الإيمـان بـالآخرة ، وأنّ الطريق لخـرق هـذا الحجـاب هو حضـور يـوم القيامة العصـيب في وعيه بتذكّر مواقفه الرهيبة ومشاهده الثقيلة.

(**نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ**)

قال صاحب المجمع : الأسر أصـله الشـدّ ، ومنه قتب مأسور : أي مشدود ، ومنه الأسـير : لأنّهم كـانوا يشـدّونه بالقيد ، وقــولهم : خذ بأســره بشــدّه [1] ، «**وَشَــدَدْنا أَسْــرَهُمْ**» أي قوّينا وأحكمنا خلقهم عن قتــادة ومجاهد ، وقيل : أســـــرهم : أي مفاصــــلهم عن الربيع ، وقيل : أوصـــالهم بعضـــها إلى بعض بـــالعروق والعصب ، ولو لا إحكامه إيّاها على هــــذا الـــــترتيب لما أمكن العمل بها والانتفاع منها ، وقيل : جعلناهم أقوياء عن الجبائي ، وقيل معنـاه : كلّفنـاهم وشـددناهم بـالأمر والنهي كيلا يجـاوزوا حدود الله ، كما يشدّ الأسير بالقيد لئلّا يهرب [2].

ولعل المعنى هو ظـاهر الأسر ، فـإنّ ذلك يتناسب مع الشـطر الثـاني للآية ، وينسـجم مع السـياق ، فحيث بيّن الله حبّ الكفار للعاجلة ، ومن ثم تركهم الآخرة والالـتزام بـــأوامر الله ونواهيه ، وإطلاقهم العنـــان لأنفســـهم في الأهواء والشهوات ، أراد

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 412.
(2) المصدر / ص 413.

أن يؤكّد بأنّه لا يعصى عن غلبة أبــدا. وهــذا ما يســتدعي التأكيد على حاكمية الله في الإنســان وهيمنته عليه ، وأنّ حوله منه وقوته به ، وأنّه لا حول ولا قوة له ذاتية.

ولعل اسـتخدام كلمة الأسر هنا للإيحـاء بـأنّ الإنسـان مقيد بقـدرة الله وقوته حيث أنّ شـدّ أسـره بيـده (وبهـذا تجتمع معاني الأسر في الآية).

والــذي يتفكّر في وجــود الإنســان يجد أنّه أســير لله تكوينيّا وعمليّا ، فهو من جهة محكـــوم بقـــوانين تكوينية كالنمو والتنقل من مرحلة إلى أخرى قسرا عنه ، والدورة الدموية ودقّات القلب وحركة الجهـاز الهضـمي والكبد و.. و.. ، ومن جهة أخــرى هو أســير تــدبير الله وســننه في الحياة ، فلا يستطيع أن يقـاوم المـوت مثلا .. وقد وجـدت إشارة إلى هذا التفسير لدى العلّامة الطباطبائي إذ قـال : والآية في معــنى دفع الــدخل ، كـأنّ متوهّما يتــوهّم أنّهم بحبهم للــدنيا وإعراضــهم عن الآخــرة يعجزونه تعــالى ، ويفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنـوا ويطيعـوا ، فـأجيب بأنّهم مخلوقون لله ، خلقهم وشدّ أسرهم إذا شـاء أذهبهم وجاء بـآخرين ، فكيف يعجزونه وخلقهم وأمـرهم وحيـاتهم وقوتهم بيده؟! [1]. وأظهر آيات أسر الله للبشر هو الموت الــذي قهــرهم به ، فهو يميتهم حيثما شــاء وكيفما أراد ، ويأتي بغـيرهم دون أن يقـدر أحد على ردّ إرادته ، إذ توحّد بالبقاء «**وقهر عباده بالموت والفناء**» [2].

(**وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً**)

أي جئنا بـآخرين أمثـالهم بـديلا عنهم ، بـإهلاكهم ، أو بجعلهم الحـاكمين. وإنّما ذكـرت كلمة الأمثـال هنا ــ وفي موارد متشابهة ـ للإشارة إلى صفاتهم وأنّ من كان بصفة العجز والضعف والمحدودية ــ أمثـال هـؤلاء ــ لا يعجـزون الله شيئا ،

(1) الميزان / ج 20 ص 123.
(2) دعاء الصباح (مفاتيح الجنان).

لأنّ بيده أسرهم وهو قادر على تبديلهم.

علما بأنّ كلمة المثل تـدلّ على الشـبيه ولكن بلحـاظ مواصفاته وطبائعه ، والله العالم.

وحريّ بالإنسان الذي يأتي عليه المـوت أن يفكّر فيما بعـده من مسـتقبل ، ويسـتعدّ له ، باتبـاع الحق والصـراط المستقيم الذي هو السبيل إلى رضـوان الله ، الـذي بيـده الأمر والحكم وإليه المصير.

(**إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ**)

أي الـتي طرحتها الآية السـابقة وكـلّ آيـات السـورة. والموقف السـليم منها أن يهتـدي بها البشر إلى الإيمـان بربه ، واتباع سبيله المتمثل في رسالته وأوليائه وحزبه.

(**فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً**)

وتأكيد مشـيئة الإنسـان هنا هو تقرير لحرية الإختيـار عنـده ، ومسـئوليته عن مصـيره ، فالاختبـار بيـده يتبع أيّ سـبيل شـاء ، سـبيل الشـكر أو سـبيل الكفر ، وله الغنم وعليه الغرم.

(**وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**)

لأنّ المخلوقين لا يمكنهم أن يملكوا إرادة ذاتية أبـدا ، فهم حيث يشـاءون فوسـائل مشـيئتهم من عقل وإرادة وجوارح كلّها من عند الله ، ولا تنشأ لمخلوق مشيئة بدون إذنه ، فيسـلب البعض توفيق الهداية ويهبه لآخـرين. ولكن ليس اعتباطا ، بل على أسـاس علمه بحـال المخلـوق وحكمته البالغة.

(**إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً**)

فتعليقه لمشيئة المخلوق على مشيئته لا يعني الجــبر ، لأنّ ذلك يلغي دور الإنسان ومسئوليته ، كما ينفي حكمة الله حين خلقه وابتلاه ، فتعــالى الله عمّا يصــفون. ولكنّ إعطــاءه المشــيئة لهم لا يعــني اســتطالتهم على ربهم واســتقلالهم عنه ، فــإنّ هــذا من التفــويض الباطل ، إنّما أعطاهم المشيئة وهو المدبّر المحيط بهم علما وقدرة.

(**يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ**)

ولكنّه حين علّق مشــيئته بعلمه وحكمته فلن يــدخل في رحمته من ليس أهلها إنما الذي سـعى وعمل صـالحا. وهــذا ما يــبرّر عــدم ذكر النقيض للظــالمين ، واقتصــار القرآن على ذكرهم ، لأنّه لا يـدخل رحمة الله إلّا من كـان مؤمنا وطاهرا من دنس الضلال والظلم.

(**وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

جــزاء لظلمهم ، كما أنّ النعيم والملك الكبــير كــان للأبرار جزاء وكان سعيهم مشكورا.

سورة المرسلات

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من قرأ «والمرسـلات عرفـا» عرّف الله بينه وبين محمّد صلّى الله عليه وآله**».

نور الثقلين / ج 5 ص 487

الإطار العام

بتكــرار آية : «**وَيْــلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَــذِّبِينَ**» يظهر أنّها المحـور الـرئيس للسـورة الكريمة ، والـتي تهـدف ــ فيما يبـدو ــ تأكيد وعد الله الواقع في أنّ الويل للمكـذّبين به ، فبعد القسم بالمرسلات والناشرات يؤكّد ربّنا بــإنّ الحصر باللام أنّ وعده تعالى واقع لا محالة (الآيات 1 ـ 7).

ومع أنّ قول الله : «ما توعدون» شـامل لكـلّ ما يعد الله به أن يقع ، إلّا أنّ يوم القيامة وما يجلي من الحقـائق وما يعنيه من (بعث وحســاب وجــزاء) هو أظهر مصــاديق الوعود الإلهية الواقعة ، وحيث يحلّ أجل ذلك الوعد يشهد الوجـود حـوادث كونية رهيبة ، فتطمس النجـوم ، وتشـقّ السماء ، وتنسف الجبال ، وأعظم من ذلك شهادة الرسل على أممها عند الحســــاب والفصل بين النـــــاس وفي مصائرهم ، إذ أجّلها الله «**لِيَوْمِ الْفَصْــلِ* وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ**». إنّه يوم رهيب ومهول لأنّه يوم الفصل في مصــائر العبـاد ، فويل لأولئك الـذين كـذّبوا رسل الله من شهادتهم ضدهم عنده وما يتلو ذلك من عذاب شديد يصبّه عليهم ربّهم صبّا (الآيات 8 ـ 15).

وبالرغم من أنّ القرآن يوجّهنا إلى مشاهد ذلك اليـوم الأخـروي ومصـير المكـذّبين فيه ، كعلاج لموقف التكـذيب بحقائق المستقبل عند الإنسان ، إلّا أنّه لا يكتفي بـذلك بل يدعونا إلى الإعتبار بعاقبة المجرمين الآخرين بعد الأولين ، فإنّ المتفكر في هذا الأمر يهتدي إلى واقعية سنّة الجـزاء ، وذلك بـدوره يهديه إلى واقعية الآخـرة باعتبارها التجلّي الأعظم والأشـمل لها في واقع الحيـاة «**وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**» (الآيات 16 ـ 19).

ويربط القرآن بين خلقة الإنسـان وبين حقيقة الآخـرة ، وذلك أنّ خلقته بما فيها من أطـوار وتقـديرات تكشف عن حكمة الخـالق (وأنّه لم يخلق الخلق عبثا ، ولن يتركهم سـدى) والـتي لا تكتمل من دون الإيمـان بـالآخرة الـتي هي عنـوان الحكمة الإلهية ، ومنتهى الإنسـان وغايته الـتي تقتضـيها تلك الحكمة ، كما تقتضي العـذاب الأليم للمكذبين بالحق (الآيات 20 ـ 24).

ومن رحلة الإنسان في آفاق نفسه ينطلق به السـياق إلى آفـاق الكـون من حوله بموجوداته وظـواهره ، حيث جعل الله الأرض كفاتا تضـمّه حيّا وميّتا ، وجعل فيها جبـالا راسـية بأصـولها في الأرض شـامخة بقممها في آفـاق السماء ، وسـقانا منها مـاء فراتا سـائغا للشـاربين ، وكـلّ ذلك آيـات لحكمة الله ، وعلامـات تهـدي إلى ذلك اليـوم ، فالويل للمكذّبين به (الآيات 25 ـ 28).

ولقطع دابر التبرير والكيد ، اللذين يتخذهما الكـاذبون وسيلة لكـذبهم ، ويصـوّر السـياق عاقبة الكـذب ، إذ يـأتي النداء الإلهي إلى المكذّبين في حال تكاد الحسـرة تهلكهم لو لا مشيئته تعالى ؛ يقال لهم : «**انْطَلِقُـوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**» يعني جهنم وعذابها «**انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُـعَبٍ* لا ظَلِيـلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**» وحيث النار «**تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ* كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ**» فويل يومئذ للمكذّبين من

غضب الله وعذابه (الآيات 29 ـ 34).

وهنالك تنطق الحجة البالغة لله ، ولا ينطق المكذّبون باعتبــارهم تلجمهم الحجج من جهة ، «**وَلا يُــؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَـذِرُونَ**» وكفى بهـذا عـذابا مهينا لهم بين يـدي جبّـار السموات والأرض ، وأمام الخلائق في محشر يوم القيامة (الآيات 35 ـ 37).

ويتحـدّى السـياق المكـذّبين من الأولين والآخـرين ، بهـدف إذلالهم وإظهـار صغارهم أمـام النـاس حيث كـانوا يتكبرون في الدنيا بما عندهم من السلطة والمال ؛ يقـول لهم : «**هذا يَوْمُ الْفَصْلِ**» الذي طالما كذّبتهم واستهزأتم به ، وأنتم مجموعون إلى بعضكم (أوّلين وآخـرين) «**فَـإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ**» وذلك جـزاء كيـدهم ومحـاربتهم لله ولأوليائه في الـــدنيا ، فالويل لهم من ذلك الموقف وعذابه (الآيات 38 ـ 40).

ويـبيّن القـرآن سـبيل النجـاة من مصـير المكـذّبين السـيء ، ألا وهو تقـوى الله ، وهـذا البيـان يملأ قلـوب المتقين أملا في رحمة الله ، واطمئنانا إلى لطفه ، بالــذات والآية ظلال لغضب الله ووعيــده بكــلّ آياتها ومفرداتها عدا الآيات (41 ــ 44) .. فـالمتقون في مـأمن من العـــذاب ، «**فِي ظِلالٍ وَعُيُــونٍ* وَفَواكِــهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ**» يدعوهم ربّهم إلى مائدة فضله ورحمته «**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**» وإنّه لجـزاء كـلّ تقيّ محسن عنده تعالى (الآيات 41 ـ 44).

ويعود السياق موصولا بما سبق من الوعيد للمكـذبين ، وهو يهدّدهم بالعـذاب ، ويحـذّرهم من عـواقب انتهـاجهم سـبيل التكـذيب والجريمة ، مؤكّـدا بـأنّهم لن يطـول بهم المقام في متعهم الإجرامية حـتى يقع بهم غضـبه الـذي لا تقوم له السموات والأرض (الآيات 45 ـ 47).

وكيف لا يلحق بهم الويل والثبـور وهم يتمـرّدون على أوامر الله وأحكامه ، فلا يتبعـون رسـله ولا يصـدّقون آياته «**وَإِذا قِيـلَ لَهُمُ ارْكَعُـوا لا يَرْكَعُـونَ**»؟! بلى. سـوف يلحقهم العذاب (الآيات 48 ـ 49).

ويختتم ربّنا سورة المرسلات متسائلا سؤال اسـتنكار : «**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**»؟! وذلك ممّا يؤكّد القـول بـأنّ الإيمـان بـالآخرة وحـديثها حجر الأسـاس في صـرح الإيمان بكـلّ المبـادئ والحقـائق الأخـرى ، وهـذا ما يجعل حـديثها مـذكورا على الـدوام في آيـات الـوحي وبصـورة مفصّلة (الآية 50).

سورة المرسلات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفـاً (1) فَالْعاصِـفاتِ عَصْـفاً (2) وَالنَّاشِـــراتِ نَشْـــراً (3) فَالْفارِقـــاتِ فَرْقـــاً (4) فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُـذْراً (6) إِنَّما تُوعَـدُونَ لَواقِـعٌ (7) فَـإِذَا النُّجُـومُ طُمِسَـتْ (8) وَإِذَا السَّـماءُ فُــرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبـالُ نُسِـفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُـلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَـوْمِ الْفَصْـلِ (13) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ**

---

8 [طمست] : قال البعض : أي أنّ النجوم يذهب ضياؤها حتى تصـير بلا ضياء أو نور ، والأصح : أنّ ذات النجـوم تطمس فلا يبقى منها شـيء أو أثر ، جـاء في مفـردات الـراغب : الطمس إزالة الأثر بـالمحو ، قـال ــ تبـارك وتعـالى ــ : «**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْـوالِهِمْ**» أي أزل صـورتها ، «**وَلَـوْ نَشـاءُ لَطَمَسْـنا عَلى أَعْيُنِهِمْ**» أي أزلنا ضـوءها وصـورتها كما يطمس الأثر.

(17) كَــذلِكَ نَفْعَــلُ بِــالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْــلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَــــذِّبِينَ (19) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مـــاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى قَدَرٍ مَعْلُـومٍ (22) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَـلِ الْأَرْضَ كِفاتـاً (25) أَحْيـاءً وَأَمْواتـاً (26) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْـقَيْناكُمْ مـاءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ (28) انْطَلِقُـوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلى ظِــلٍّ ذِي ثَلاثِ شُـعَبٍ (30) لا ظَلِيــلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْـرِ (32) كَأَنَّهُ جِمـالَتٌ صُـفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

---

21 [مكين] : مســتحكم ، وقــال القرطــبي : اي في مكــان حريز وهو الرحم.

32 [كالقصر] : قيل : هو البنيان الضخم ، وقيل : أصل الشـجر ، وقـال البعض : أنّ الأوّل أظهر والثاني أنسب.

33 [جمـالت صـفر] : جمل أصـفر ، قـال البعض : شـرر النـار كالجمل الأصفر في لونه ، بعد ما كان بقـدر القصر في حجمه ، وتشـبيه الشـرر بالجمالة لأنّه لتتابعه وتطايرها كالجمالات التي ترتع هنا وهناك.

هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

بينات من الآيات :

[1 ـ 10] أرأيت الـذي يكـذّب بوعد الله يلغيـه؟ كلّا .. إنّه يـرتكب أكـبر جريمة بتكذيبه بـالحق ، فله الويل ثم له الويل.

وأنّى له التكـذيب بما تـواترت شـواهده ، وتظـافرت آياته ، بوعد الله الواقع الذي تكرّرت مصاديقه على امتداد التـاريخ ، وهـذه الريـاح الـتي يرسـلها ربّها بالعـذاب حينا وبالخيرات أحيانا ؛ إنّها بعض آيات الوعد الإلهي. قسما بها وبالملائكة الموكّلين بها وبما تقدمّه لنا من الإعذار والإنذار : إنّ وعد الله لواقع.

هكذا تترى كلمـات القسم الـتي اختلف في تفسـيرها وتأويلها ، إلّا أنّها تتصل ــ أنّى كـان تأويلها ــ بتلك الحقيقة العظمى : وقــوع وعد الله ، كاتصــال الشــاهد الحضــار بالغــــائب المنتظر ، وكاتصـــــال الحجج بالحقـــــائق ، والإرهاصات بالوقائع .. وهكذا سـائر ما في الـذكر الحكيم من قسم يتصل بما يقسم عليه اتصالا

واقعيّـــا. بلى. قد نجهل علاقة بعضه ببعض ، ولكنّا نعرفها عند التدبّر العميق فيها.

(**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً**)

اختلفوا في تأويل «المرسـلات» إلى رأيين أساسـيين :

الأول : أنّها الريـاح ، قـال في المجمع : والمرسـلات يعـني الريـاح ، أرسـلت متتابعة كعـرف الفـرس عن ابن مسـعود وابن عبّـاس ومجاهد وقتـادة وأبي صـالح ، فعلى هذا يكون «عرفـا» نصـبا على الحـال من قـولهم : جـاؤوا إليه عرفا واحدا ، أي متتابعين [1]. وقد استدل أصحاب هذا الـرأي بقـول رسـول الله (ص) : «**الريـاح ثمـان : أربع منها عـــذاب ، وأربع منها رحمة ، فالعـــذاب منها : العاصف ، والصرصر ، والعقيم ، والقاصف ، والرحمة منها : الناشـــــــرات ، والمبشّـــــــرات ، والمرسـلات ، والـذّاريات. فيرسل الله المرسـلات فتثـــير السـحاب ، ثم يرسل المبشّـــرات فتقلع السحاب ، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب فتـدرّ كما تدرّ اللقحة ، ثم تمطر وهي اللـواقح ، ثم يرسل الناشـرات فتنشر ما أراد**» [2] ، وفي نفس المصـدر : قام رجل إلى عليّ (ع) فقال : ما العاصفات عصفا؟ قـال : «**الرياح**» [3].

الثـاني : أنّها الملائكة ، وفسّـرت «عرفـا» على أنّها أرسـلت بـالمعروف من أمر الله ونهيه [4] ، وقيل : انّهم الأنبياء والرسل ، الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كلّ خـير ومعـروف ، فإنّه لا شك أنّهم أرسـلوا بلا إله إلّا الله ، وهو مفتاح كلّ خير ومعروف [5].

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 415.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 303.
(3) المصدر.
(4) مجمع البيان / ج 10 ص 415.
(5) التفسير الكبير / ج 30 ص 267.

والذي يبدو لي إمكانية الجمع بين القـولين ، إذا عرفنا أنّ للريـاح ملائكة موكلة بها ترسـلها وتزجرها بـأمر الله ، بالـذات وأنّ الصـيغة جـاءت للمبـني للمجهـول. ومن هـذا المنطلق نســتطيع القــول بــأنّ الآيــات ظاهرها الريــاح وباطنها الملائكة ، أمّا عن إلقــاء الــذكر الــذي نتلــوه في الســياق فيمكن تأويله بالريــاح والملائكة معا ، فــإذا أوّلنا «المرســــلات» بالملائكة فإنّها تلقي وحي الله وآياته إلى الأنبيـاء ثم إلى النـاس. وإذا أوّلناها بالريـاح فإنّها الأخـرى تلقي الغيث الذي يعدّ تذكرة للناس.

ويمكن أن يقال بأنّ «المرسلات عرفا» تعـني الريـاح التي تكون في صالح الناس وخـيرهم ، أي المرسـلات بما يعرفه الناس ويستسيغونه من غيث وبشارة.

وأنّى كان فإنّ إجمال مثل هذه الكلمات يجعلنا نوصل الحقائق ببعضها ، فلا نميّز بين الريـاح المرسـلات بـالغيث والبركة وبين الملائكة الموكّلين بها أو المرسـلين بـالوحي والرسالة ، فإنّ فائــدة القسم تتحقّق بهما ، كما أنّهما معا من شواهد وعد الله ، ويصحّ القسم بهما ، وهذا من روائع النهج القرآني في الأدب.

(**فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً**)

في التبيـان : يعـني الريـاح الهابّة بشـدّة ، والعصـوف مرور الريح بشدة ، وعصفت الريح تعصف عصفا وعصوفا إذا اشـتدّ هبوبها [1] ، وإذا صـرفنا المعـنى إلى الملائكة فللعصف وجهان : أحدهما : السرعة ، فإنّ العرب تقـول : فرس عصوف أي سريع الحركة ، قال العلّامة الطباطبائي : والمـراد بالعصف سـرعة السـير ، اسـتعارة من عصف الرياح أي سرعة هبوبها ، إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما أرسـلت إليه [2] ، والوجه الآخر : الإهلاك والتـدمير ، قـال الرازي : يعني أنّ الله لمّا أرسل أولئك

---

(1) التبيان / ج 10 ص 223.

(2) الميزان / ج 20 ص 146.

الملائكة فهم يعصــفون بــروح الكــافر ، يقــال : عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه [1] ، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم وأهلكتهم ، ويقـــال : عصف الـــدهر بهم أي أبادهم [2].

ويبدو أنّ الأقـرب إلى السـياق تأويل العصف بسـرعة الرياح في حمل الغيث ، وليس في سرعتها في الإهلاك.

(**وَالنَّاشِراتِ نَشْراً**)

إذا قلنا أنّها الريـاح فهي تنشر السـحاب في الآفـاق ، وتنشر الغيث والرحمة الإلهية من زرع وغـــيره ، كما أنّها تنشر الحبوب واللقـاح في بقـاع الأرض المختلفة ، كما أنّ الملائكة ينشـــرن أجنحتهنّ في الجـــوّ عند انحطـــاطهنّ بالوحي [3] ، وتنشر الكتب عن الله [4] ، أو تنشر الرحمة والعذاب ، أو تنشر الكتب يوم الحساب [5].

(**فَالْفارِقاتِ فَرْقاً**)

قيل : أنّها الرياح التي تفرّق بين السحاب فتبدّده (بعد اجتمــاع ، ليقف المطر ، وتطلع الشـــمس ، ويظهر وجه السماء بعد الغيب) عن مجاهد [6] ، كما تفرّق الملائكة بين الحـقّ والباطل بما تتـنزّل به من الآيـات والـوحي عن الله على رسله. هكذا في التبيان [7] والتفسير الكبير [8].

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 264.
(2) المنجد / مادة عصف.
(3) الكشاف / ج 4 ص 410.
(4) التبيان / ج 10 ص 223.
(5) التفسير الكبير / ج 30 ص 264.
(6) مجمع البيان / ج 10 ص 266.
(7) التبيان / ج 10 ص 224.
(8) التفسير الكبير / ج 30 ص 266.

(**فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً**)

الملائكة تلقي رســـالات الله على الأنبيـــاء ، ولكنّ الملائكة ليست وحـدها الـتي تـذكّرنا بالله إنـذارا وإعـذارا فإنّ الرياح تفعل ذلك أيضا ، لا فرق إن كانت رياح عــذاب أو ريــاح رحمة ، والغيث النــازل منها هو الآخر ذكر عظيم باعتبـاره يـذكّرنا بـالبعث والخـروج عند ما يسـقي الأرض فتراها اهــتزّت وربت وأنبتت من كــلّ زوج بهيج ، وهــذه الفكرة تفسّر لنا اقتران الكلام عن القـرآن ورسـلات الله كثـيرا بالحــديث عن منظر الغيث وما يتلــوه من ظــواهر طبيعية على الأرض.

(**عُذْراً**)

عــــذرا بإقامة الحجة حيث ألقى الله الــــذكر عــــبر الملائكة ، أو حذّرهم وذكّرهم بالرياح العاصـفة .. كـلّ ذلك قبل أن ينزل عليهم العذاب.

(**أَوْ نُذْراً**)

والإنذار معروف ، ولكن نتساءل عن الفـرق بينه وبين الإعــذار ، ولعــلّ الجــواب : أنّ الإعــذار يــأتي عند ما لا يستجيب الإنسان للإنذار ، بينما الإنـذار أعم ، وربما يكـون عند الاسـتجابة إذا قـورن بالإعـذار ، وقد قيل : لقد أعـذر من أنــذر ، وربما يعـود إلى هـذا المعـنى جملة ما ذكـره المفسّرون ، قال شيخ الطائفة : وقيل : إعـذارا من الله ، وإنذارا إلى خلقه ما ألقته الملائكة من الـذكر إلى أنبيائه ، وأضاف : فالعقـاب على القـبيح بعد الإنـذار يـوجب العـذر في وقوعه ، وإن كان بخلاف مراد العبد الذي اسـتحقّه [1]. وقيل : عـذرا يعتـذر الله به إلى عبـاده في العقـاب أنّه لم يكن إلّا على وجه الحكمة ، ونــذرا : أي إعلاما بموضـــوع المخافة ، عن الحسن [2].

(1) التبيان / ج 10 ص 224.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 415.

وإنّ أهم ما تلقيه المرسلات ملائكة ورياحا تذكيرها بالآخرة وبأنّ وعد الله صادق. أوليس تتلاحق الظواهر الطبيعية في الكائنات فتأتي الرياح مرسلات عاصفات ناشرات فارقات ، وتأتي بعدها المواسم الخيّرة والسنين المباركة ، أو تأتي العواصف الهوج ويأتي من بعدها الدمار؟ أوليست هذه الظواهر يشهد أوّلها على آخرها؟ كذلك شواهد العذاب تنذرنا بوعد الله الواقع به ، كما شواهد الرحمة تبشّرنا بوعد الله الواقع بها.

(**إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ**)

وهذا جواب القسم المتقدّم في الآيات السابقة ، وهو مدعوم بثلاثة تأكيدات : إنّ ، والحصر ، واللام في : «لواقع». ومع أنّ البعض حصر الوعد في القيامة واحتجّ : بأنّه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامة [1] ، إلّا أنني أختار الإطلاق الشامل لكلّ وعد إلهي ، كوعده بنصر المؤمنين ودحر الظلمة ، وإحياء الأرض بعد موتها بالمؤمنين ، وغلبة دينه ورسله والمؤمنين على الدّين كلّه في آخر الزمان بظهور منقذ البشرية الإمام الحجة المنتظر ـ عجل الله فرجه ـ والذي يهدينا إلى هذا التفسير الشامل هو أنّ القرآن حمّال ذو وجوه ، وتفسيره يكون أصحّا كلّما كان أشمل ، وقد وجدت من قال بإطلاق الوعد من المتقدّمين الكلبي الذي قال : المراد أنّ كلّ ما توعدون به من الخير والشر لواقع. وحيث أنّ وعد الله بالبعث والحساب والجزاء هو أظهر مصاديق الوعد وأقربها إلى الأذهان كما إلى دلالة السياق فإنّه الأظهر تأويلا من أيّ مصداق آخر.

وإنّ اطمئنان الإنسان لوعد ربه ـ وبالذات الآخرة ـ أمر في غاية الأهمية ، باعتباره يبعث روح التسليم لله في كلّ أبعاد الحياة ، ويبعث فاعلية العمل وتقوى

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 268.

الالــتزام بشـــرائعه ومناهجه .. فلو يئس المؤمنـــون من الإنتصار والتغيير لما أكملوا مسيرة الجهاد والإصـلاح ، ولو كفر الإنسان بالآخرة (البعث والحساب والجزاء) لما التزم بـالنظم والشـرائع الإلهية ، ذلك أنّ الإيمـان بسـنّة الجـزاء الممتـدة من الـدنيا إلى الآخـرة هو الـذي يحـرّك فيه روح الانضباط والمسؤولية.

والذي يتدبّر آيات القـران في موضـوع الآخـرة يلاحظ أنّها أصــبحت من الكــثرة والتفصــيل والتأكيد من أبــرز خصـائص هـذا الكتـاب ممّا يبعث السـؤال عن سـبب ذلك وخلفياته.

لعلّ أهم الأسباب هي التالية :

أوّلا : أهمية موضوع الآخرة ، فإنّ الآخرة ــ كما سـبق وأن قلنا في مواضع كثيرة ـ تعتبر حجر الأساس في تفكير الإنسان المؤمن وإيمانه.

ثانيا : إنّ الآخرة غيب في المستقبل والإسلام يريـدها حاضرة في وعي المؤمنين ، من هنا يفصّـل الحـديث فيها وينوّعه ويكـــرّره حــــتى يوصل ذلك الغيب إلى مســـتوى الشهود عندهم ، لذا نجد القـرآن بعد الإشـارة إلى الآخـرة يبيّن الأمر ويفصّل في توجيهنا إلى مشاهدها العظيمة.

(**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**)

قال القمي : يذهب نورها وتسقط [1] ، وقال العلّامة الطوسي : والطمس محو الأثر الـــدال على الشـــيء ، والطمس على النجوم كالطمس على الكتاب ، لأنّه يذهب نورها والعلامات التي كـانت تعـرف بها [2] ، وقـال الفخر الرازي : يحتمل أن يكون

---

(1) تفسير القمّي / ج 2 ص 400.

(2) التبيان / ج 10 ص 225.

المـــــراد محقت ذاتها ، وهو موافق لقوله «انتـــثرت» و «انكـدرت» وأن يكـون المـراد : محقت أنوارها ، والأوّل أولى لأنّه لا حاجة فيه إلى الإضمار [1]. والأقـرب عنـدي ما قاله الـــــرازي لأنّ أصل الطمس من المحو وغيـــــاب المطموس.

كما يظهر من ملاحظة الآيـات القرآنية الـتي تنـاولت موضـــوع القيامة من زاوية حـــال النجـــوم يومئذ أنّها كما الجبـال تمـرّ بمراحل حـتى تنتهي وتـزول ، فهي تنتـثر عن بعضـها ونسـقها بسـبب اختلال نظامها الكــوني أوّلا ، ثم تنكـــدر واحـــدة ، ثم تطمس تماما فلا يبقى منها شعاع يدلّ عليها.

(**وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ**)

في تفسير القمّي : «تنفـرج وتنشـق» هكـذا جـاء في رواية عن أبي الجـارود عن الإمـام البـاقر (ع) [2] ، وفي مجمع البيـان : أي صـارت فيها فـروج [3] ، بعد أن كـانت محبوكة محكمة لا ثغـــــرة في نظامها ولا منفذ في بنيانها أبدا (لا تفاوت ولا فطورا) ، ولعل هذه مرحلة أولية تعقبها مراحل متتالية أخـــرى. وحســـبما يظهر من آيـــات كريمة أخرى : أنّ مراد القرآن من ذكر تبدّل نظام الخليقة سلب اعتماد الإنسان عليه ، ليصبح وجها لوجه أمام مسئولياته ، فالسماء الـتي كـانت سـقفا محفوظا تصـبح يومئذ واهية ، والجبال التي كانت ملاذا وكهفا تصبح كثيبا مهيلا ، والأرض التي كانت مهدا مطمئنا تميد بزلزال عظيم ، وهكذا.

(**وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ**)

قالوا : نسف البناء : قلعه من أصله ، والجبـال : دكّها .. ونحن ندرك ما ذا يعني

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 269.
(2) تفسير القمّي / ج 2 ص 400.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 415 بتصرف.

نسف الجبـال الـتي جعلها الله أوتـاد الأرض ، فلا تسـتقرّ وتميد بأهلها ويتحطّم نظامها بحيث لا تصلح للعيش.

وتلك كلّها بعض مشـــــاهد القيامة الرهيبة ، ولك أن تتصـوّر هـذا المخلـوق الضـعيف كيف يعاصر تلك الأهـوال الكونيّة ، وأنّى له بركن يـأوي إليه منهـا؟! إلّا أن يكـون قد سعى سعيا صالحا يخلّصه منها.

[11 ـ 19] ويبقى المشـهد الأهم من ذلك والموقف العصيب حينما يحين ميعاد الشهادة فيـأتي الرسل شـهداء على المكذّبين من أممهم.

(**وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ**)

جعل لها ميعاد محدّد في وقت معلـوم للابتعـاث وفي أرض معلومة ولهم وقت معلـوم للشـهادة ، وذلك يهـدينا إلى أنّ حركة الأنبيـــاء وبعثهم ليست اعتباطية بل هم في الدنيا والآخرة يسيرون على أسـاس حكمة إلهية ، فلو أنّنا درسنا حركتهم التاريخية من جميع جهاتها وحيثيّاتها لوجدنا أنّ بعثهم قـــائم على مجموعة من القـــوانين الاجتماعية والحضارية ، بحيث أنّ زمن بعث نبيّنا محمد (ص) ومكـان بعثته مثلا كانا مناسبين تماما لرسالته ودوره ، وربما أشار إلى ذلك الإمام الباقر (ع) في رواية أبي الجارود عنه قـال : «**بعثت في أوقات مختلفة**» [1]. كما أنّ شهاداتهم في الآخــرة لا تبــدأ في أيّ وقت أو بمجــرّد أن تقــوم القيامة بـالبعث ، كلّا .. بل للرسل ميقـات معلـوم لا تـؤدّي دورها المناسب إلّا فيه.

(**لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ**)

قـال العلّامة الطباطبـائي : الأجل المـدّة المضـروبة للشيء ، والتأجيل جعل

(1) تفسير القمي ج 2 ص 400.

الأجل للشيء ، ويستعمل في لازمه وهو التأخير ، كقولهم : دين مؤجّل أي له مدّة بخلاف الحال ، وهذا المعنى هو الأنسب للآية [1]. وقد اختلف في الشيء الذي يعود عليه الضمير من «أجّلت» ، فقال صاحب الميزان أنّه : للأمور المذكورة قبلا ، من طمس النجوم ، وفرج السماء ، ونسف الجبال ، وتأقيت الرسل ، والمعنى : لأيّ يوم أخّرت يوم أخّرت هذه الأمور [2] ، وقيل : هو عائد إلى الرسل فقط. ومع أنّ لرأي صاحب الميزان محمل في الآيات حيث تفيد «إذا» الواردة في الآيات كلّها معنى التأجيل ، إلّا أنّ الأقرب هو عودة الضمير إلى الرسل باعتبار التصاق كلمة «أقّتت» بهم دون النجوم والسماء والجبال ، ولأنّهم أصحاب الشهادة وميزان الفصل بين الناس عند ربّ العزّة ، الذي جعل لهم شهادتين متكاملتين : إحداهما في الدنيا بقيامهم شهداء لله بالقسط وقد تقدّمت ، والأخرى في الآخرة ، بجعلهم الحجة والمعيار في محكمة القيامة ، وقد أجّلها ربّنا لذلك اليوم.

(**لِيَوْمِ الْفَصْلِ**)

بين الناس في اختلافهم من كلّ الجهات ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وسمّيت القيامة بيوم الفصل لأنّها اليوم الذي يفصل فيه الخطاب ويحكم للناس في مصائرهم. وإذا كانت الآخرة مقسّمة أيّاما ومراحل فإنّ الرسل يدلون بشهاداتهم ليس في يوم البعث عموما ـ حسبما يبدو ـ بل في ساعات الفصل عند الميزان.

(**وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ**)

إنّه يوم رهيب لا يمكن لبشر أن يستوعب أحداثه ووقائعه على طبيعتها وبحجمها

(1) تفسير الميزان / ج 20 ص 149.
(2) المصدر.

أبدا مهما عرّف له ، وذلك لأنّ تلك الحقـائق كبـيرة ليست بحجم معارفنا ، فهل نقـدر أن نسـتوعب ــ مثلا ــ معـنى انفجـار ألف قنبلة نووية في لحظة واحــدة؟ كلّا .. من هنا يؤكّد ربّنا في مواضع كثيرة بعد الحديث عن الآخرة القـول : «وما أدراك» تارة وما يدريك تارة أخرى.

ولا يفصل السياق في بيان أحوال النـاس ومصـائرهم يومئذ ، بل يكتفي بإشارة تتضـمّن الوعيد والإنـذار بمصـير أولئك المكـذّبين بـالآخرة ، الـذين أبعـدوا عن أفكـارهم مشـاهد الحسـاب وحقـائق الجـزاء الأكـبر فيها ، فـأطلقوا لأنفسـهم عنـان الهـوى والشـهوة ، وتخبّطـوا في الجريمة والفاحشة خبط عشـواء ، دون أدنى حسـاب أو إحسـاس بالمسؤولية.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

وكلمة «ويل» كما تكرّر القـول مطلقة تشـمل ألـوان العذاب المادي والمعنوي ، والتي تتجسّد في واد من أشدّ أودية جهنم خزيا وعذابا ، ولهذا تخصّص الويل بقوله تعالى : «يومئـذ» حيث لا يعـني أنّهم لا ويل لهم هنا في الـدنيا ، ولكنّه يحمل على أشـدّ ألـوان الويل هنـاك ، باعتبـار ذلك اليوم أظهر مصاديق ورطتهم في الويلات والثبور.

وأيّ ويل هـذا الـذي يهـدّد به القـرآن المكـذّبين؟ لكي نعرفه دعنا نتــذكّر نموذجا صــغيرا منه يتمثّل في عــذاب المكذّبين في الدنيا.

وهكذا يذكّرنا القرآن بعاقبة المكـذّبين في الـدنيا عـبر أرقام وحقائق مادية محسوسة لا تقلّ حقيقة الآخـرة عنها وضوحا لدى العقلاء إن لم تكن أشـدّ وأصـفى ، فيتسـاءل السـياق سـؤال مسـتثير لأولي الألبـاب نحو التفكـير في مصائر المكذّبين من خلال دراسة

التجارب التي خلّفها الآخرون.

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ* ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ)

ويمكننا حمل الهلاك على محملين :

الأول : أنّه الهلاك بالموت ، ونحن لا نكاد نقرأ آيات تحدّثنا عن سنّة الجزاء وحقيقة الآخرة إلّا ونقرأ إلى جانبها حديثا عن سنّة الموت ، والسبب أنّه تعالى يريد هدايتنا إلى أنّ الآخرة والجزاء حقّ كما الموت حق ، وأنّ تكذيب أحد بهما لا يمكن أن يغيّر من واقعهما شيئا ، كما لا يغيّر تكذيبه بوعد الله الواقع بالموت ذلك الحق ، والدليل واضح في مسيرة البشرية حيث أهلك الله الأولين وأتبعهم بالآخرين والحبل على الجرّار حتى لا يبقى أحد إلّا وجهه عزّ وجلّ.

الثاني : الهلاك بالأخذ والعذاب المتأسّس على سنّة الجزاء الإلهي في الحياة ، وهذا أقرب إلى السياق الذي يتوعّد بالمكذّبين ولا يزال بالويل ويؤكّد على الجزاء ، كما تؤيّده الآية التالية :

(كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

فهي إذن سنّة جارية في الحياة لا تتغيّر مع الزمن ، وهكذا تضع الآية الإنسان في كلّ عصر ومكان أمام تلك السنّة لكي لا يتصوّر أنّها محدودة في المجرمين التاريخيين وحدهم. ويعود السياق يوصل حقائق الماضي بالمستقبل من خلال سنّة الجزاء في الآخرة ، إذ أنّها أشدّ وقعا على المجرمين من أخذهم في الدنيا.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

وكفى بإهلاك المجرمين في الدنيا دليلا إلى عذابهم في الآخرة. وإنّما يصيرون إلى

الويل كنتيجة طبيعية لتكـــذيبهم بقيـــادة الحق ونهجه في الحياة ، وانصرافهم عنهما إلى قيادة ضـالة ومنهج خـاطئ يقودان الإنسان إلى الويل بعد الويل.

[20 ـ 24] ولما ذا يكذّب الإنسان بآيات ربه وبالـذات حقيقة الآخرة؟ لما ذا يكذّب بالبعث والنشور بعد المـوت؟ هل لأنّ الآيـات الهادية إلى ذلك غـير قائمة ، ولأنّ معرفته بربه وبقدرته الواسعة التي لا تحـدّ ناقصـة؟ كلّا .. فلنتفكّر في أصل خلقتنا ، وكيف أنّها آية بينة تهـــدي إلى الإيمـــان بقدرته تعـالى على كـلّ شـيء ، فلقد انطلقنا في الحيـاة الـدنيا من حـويمن صـغير وحقـير ومسـتقذر لا يـرى إلّا بالمجـاهر المكبّـرة ، اسـتقر ليس بإرادتنا بل بمشـيئة الله في رحم أمّهاتنا ، ثم نمّـــاه الله ضـــمن ملايين القـــوانين والسنن الـتي نجهل أكثرها فضلا عن ادّعـاء التحكّم فيها ، حتى خلقنا بشرا سويّا ذكرا أو أنثى. وربّنا يضعنا أمام هذه الحقائق الفطرية التي لا سبيل لأحد إلى إنكارها.

(**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ**)

قـال القمّي : منتن [1] ، وقيل : حقـير ، وعليه أكـثر المفسـرين ، وإنّ المتأمّل لـيرى كـلّ أسـباب الهـوان في ذلك الماء ، فحجمه صغير ، ورائحته منتنة ، وهو مســتقذر عند الإنســـان نفسه فلا يقيم له وزنا ، ولك أن تعجب إذا عجبت من البشر حينما يتكبّر ويركب مطيّة الغرور ، ليس في مقابل بني جنسه وحسب ، بل في مقابل ربه العظيم أيضا!! وحقّ لأمير المؤمـنين علي (ع) أن يعجب فيقـول : «**وعجبت للمتكبر الذي كان بـالأمس نطفة ، ويكـون غدا جيفة (إلى أن يقول :) وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى**» [2] ، وإنّه لعجب حقّا أن ينسى الإنسان فضل ربه عليه وإكرامه له بعد أن كـان مهينا ، فإذا به وهو المخلوق الضعيف يكذّب ربّ

(1) تفسير القمي / ج 2 ص 400.
(2) نهج البلاغة / حكمة 126.

العزّة جبّار السموات والأرض!!

ثم إنّه تعــالى جعل ذلك المــاء المهين في رحم الأم يحفظه وينشأ فيه ناميا صـــفة بعد صـــفة ومرحلة بعد الأخــرى ، تحوطه وترعــاه يد الغيب بما يعجز الإنســان نفسه عن إحصـائه من السـنن والقـوانين المحكمة الـتي تثبته في الرحم ، وتمكّنه من العيش والنمـوّ فيه ، دون أن يكون للأبوين شأن في ذلك الحمل.

(**فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ**)

في التبيان : القـرار : المكـان الـذي يمكن أن يطـول مكث الشيء فيه ، ومنه قولهم : قـرّ في المكـان إذا ثبت على طول المكث فيه [1] واستقر. وغضّ أكـثر المفسـرين الطـــرف عن المكين ، بينما ذكر صـــاحب المنجد أنّه المتمكّن : والمكين ذو المكانة ، واســـتمكن اســـتولى ، وتمكّن من الشيء قدر عليه [2] ، ووجدت في الميزان هذا النص : والمكين : المتمكّن ، وصــفت به الـــرحم لتمكّنها في حفظ النطفة من الضيعة والفسـاد ، أو لكـون النطفة مستقرة متمكّنة فيها ، والمعنى : ثم جعلنا الإنسـان نطفة في مســـتقرّ متمكّن وهي الـــرحم [3]. وقوله تعـــالى : «فجعلنـــا» تأكيد على الفعل الإلهي في الأمر إذ هو بعيد عن كـلّ فاعل ومريد سـواه سـبحانه ، وذلك ما يؤكّـده الإمـام علي (ع) في واحـدة من خطبه الـتي تطـرّق فيها إلى هـذا الأمر ، قـال : «أيّها المخلـوق السـويّ ، والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام ، ومضاعفات الأستار ، بدئت من سـلالة من طين ، ووضـعت «**فِي قَـرارٍ مَكِينٍ إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ**» ، وأجل مقسوم ، تمـور في بطن أمّك جنينا لا تحير دعاء ، ولا تسمع نداء ، ثم أخرجت من مقـرّك إلى دار لم تشـهدها ، ولم تعـرف سـبل منافعها ، فمن هـداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك ،

---

(1) التبيان / ج 10 ص 228.

(2) المنجد / مادة مكن.

(3) الميزان / ج 15 ص 20.

وعرّفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتـــــك؟» [1] ، والملاحظ اســتخدام الإمــام في الأفعــال صــيغة البنــاء للمجهـول (المنشأ ، بـدئت ، وضـعت ، أخـرجت) وكـذلك هداك وعرفك ، والهدف هو التأكيد على الإرادة الإلهية في الخلق.

ثم أنّ خلقة الإنســان لا تتحــرّك في الفــراغ ولا على أســاس الصــدفة ، إنّما هي قائمة على الحكمة الدقيقة ، والتـدبير الإلهيّ المـتين ، حيث القـوانين الـتي تجلي إرادة الله وحكمته للمتـدبّر ، فـالجنين لا ينمو ولا يمكث بلا قـدر ولا قانون في بطن أمه ، بل كما وصف الله تعالى :

(**إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ**)

وحيث يخرج يكون مهيّئا لممارسة الحياة خارج الرحم ، وتكـون أمّه مسـتعدة نفسـيّا وبـدنيّا لاسـتقباله وهكـذا عائلتـه. قـال الزمخشـري : إلى مقـدار معلـوم ، قد علمه الله وحكم به وهو تسعة أشهر أو ما دونها أو ما فوقها [2] ، وقال القمّي : منتهى الأجل [3]. وحين يحلّ الأجل فإنّ الأم لا تسـتطيع أن توقف التحـول النفسي والـبيولوجي الـذي يحـدث في كيانها وتوقف حركة الجـنين باتجـاه الخـروج ، كما لا يملك الجنين نفسه من أمره شــيئا ، بل هي الإرادة الإلهية وحدها تصنع ما تشاء وتتسع كلمة القدر إلى معاني عدّة نجملها في إثنين :

الأول : المقدار والحدّ ، فيكون المعنى أنّ الجنين من الناحية النفسية والعضـوية وهكـذا الزمنية محـدّد بمقـادير ومقاييس إلهية حكيمة يعلمها عزّ وجلّ.

الثـاني : القـدر والمصـير ، فقد جعل المـاء في قـرار مكين لكي ينتهي إلى قدر إلهيّ

---

(1) نهج البلاغة / خ 163.
(2) الكشاف / ج 4 ص 679.
(3) تفسير القمّي / ج 2 ص 400.

يعلمه تعالى ، فقد يكون قدره أن يصبح ذكرا أو أنثى أو بينهما ، أو يخرج تامّا أو معيبا ، أو حيّا أو ميتا ، ثم إذا خرج إلى الحياة الدنيا فإنّه يتحرّك وفق أقدار يعلمها الله ، وإلى مصير محدّد ، ربما يكون السعادة والجنة ، وربما يكون الشقاء والنار ، أو يكون الفقر والصحة ، أو الغنى والمرض ، أو .. أو .. ، ولا تعني الآية أنّ كلّ إنسان يأتي إلى الحياة الدنيا ليعيش ضمن أقدار محدّدة يجبر عليها ، بل هي تكشف عن علم الله المطلق بما يؤول إليه من خير أو شر. وقوله : «معلوم» يفيد التحديد من جهة ، والإطلاق من جهة ثانية ، فأمّا التحديد فإنّ مسيرة الإنسان في وضعها الطبيعي والنسبي محكومة بمعطيات وأقدار محدّدة يمكن لنا معرفتها عبر العلم والتجربة ، كميعاد الولادة وما أشبه .. ، وأمّا الإطلاق فإنّ العلم اليقين بكلّ شيء وبالذات بعض الأمور فهو لله وحده يقدّره ويعلمه ، بحيث لا يستطيع بشر تحديده ومعرفته.

(**فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ**)

قال ابن جرير : فملكنا فنعم المالكون ، وعن الضحّاك قال : فخلقنا فنعم المالكون [1] ، وفي التبيان : معناه فقدرنا من القدرة فنعم القادرون على تدبيره [2] ، وفي مجمع البيان : أي قدرنا خلقه كيف يكون قصيرا أو طويلا ، ذكرا أم أنثى ، فنعم المقدّرون نحن ، ويجوز أن يكون المعنى إذا خفّف (لأنّ المفسرين قرءوها بالتخفيف والتثقيل) من القدرة ، أي قدرنا على جميع ذلك فنعم القادرون على تدبير ذلك ، وعلى ما لا يقدر عليه أحد إلّا نحن ، فحذف المخصوص بالمدح [3] ، وهذا ما احتمله العلّامة الطباطبائي في الميزان وقال : من القدرة مقابل العجز ، والمراد فقدرنا على جميع ذلك [4].

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 306.
(2) التبيان / ج 10 ص 228.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 417.
(4) الميزان / ج 20 ص 153.

(**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً* أَحْياءً وَأَمْواتاً**)

والكفـات السـكن والوعـاء ، ففي الخـبر نظر أمـير المؤمنين (ع) في رجوعه من صـفّين إلى المقـابر فقـال : «هذه كفات الأمـوات» أي مسـاكنهم ، ثم نظر إلى بيـوت الكوفة

والذي أختاره أنّ الكلمتين : «فقدرنا» و «القـادرون» مشربتين اثنين من المعاني في آن واحد : أحدهما التقدير بالحكمة والعلم ، والآخر القـــدرة بـــالقوة والمشـــيئة ، ولعمـري إنّ المتفكّر في خلقة البشر يجد اسـمي الحكيم والقادر متجلّـيين فيها بما لا يقبل ذرّة من الشك ، لو لا أنّ الإنسـان يجعل بينه وبين الحقيقة حجـاب التكـذيب بـالحق للهروب من المسؤولية ، فله الويل من الله إذا فعل ذلك.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

وفي الآية ملاحظة لطيفة عند قوله «يومئــــذ» فتلك ينبغي أن تكـون إشـارة إلى يـوم الفصل الـذي أشـار إليه السـياق في السـورة ، وهو كـذلك ، بالإضـافة إلى إيحـاء الكلمة بمعنى آخر ، هو أنّ تلك الآيات الإلهية المتجلّية في الخلقة تهدينا إلى أنّ الويل للمكذّبين ، فـأيّ جريمة كـبري هي التكـــــــذيب بحقيقة عظمي كحقيقة الغيب وقدرته وحكمته! والإشـارة إلى ذلك ب «يومئـذ» هو تـرتيب على تلك النتيجة الحاصـــلة ، إذ لا يعقل أنّ الخـــالق الحكيم لا يقدّر آخرة بعد الدنيا وذلك من مسلّمات الحكمة الأوّليّة.

[25 ـ 37] من التفكّر في آفـاق النفس الـذي يقـود الإنسـان إلى التسـليم لله والإيمـان بيـوم الفصل تنطلق الآيات موجّهة أبصـارنا إلى آفـاق الطبيعة من حولنا ، فهي الأخرى تعكس أسماء الله وآياته الهادية الى الحقائق.

فقال : «هذه كفات الأحيـاء» ثم تلا قوله : «الآيـتين» [1] ، وفي مجمع البيـــان : كفت الشـــيء يكفته كفتا وكفاتا إذا ضمّه ، ومنه الحديث : «اكفتوا صبيانكم» أي ضمّوهم إلى أنفسكم ، ويقال للوعاء : كفت وكفيت ، وقـال أبو عبيـده كفاتا : أي أوعية [2] ، وعن قتادة ومجاهد والشـعبي : أي تحوزهم وتضمّهم [3] ، والأرض وعاء وسكن للخلائق تضمّ النـاس الأحيـاء والأمـوات ، سـواء بـالمعنى الظـاهر أو بـــالمعنى المجـــازي للكلمة حيث المؤمـــنين والكفّـــار ، والعلماء والجهلة.

(**وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ**)

قال القمي : جبال مرتفعة [4] ، ولعلّ الآية تبيّن حقيقة جيولوجية وهي أنّ للجبال قمّتين : قمّة راسية في أعمـاق الأرض كقاعـدة البنـاء ، وقمّة صـاعدة شـامخة في آفـاق السماء.

(**وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً**)

وهنـاك علاقة بين الحـديث عن الجبـال وبين الحـديث عن الماء الفرات ، فإنّ أفضل المياه وأعـذبها ما تتفجّر به ينابيع الجبال ، وما ينحدر منها إلى جوف الأرض وسفوحها وأنهارها.

قال الإمام علي ـ عليه السلام ـ يصف الأرض : «فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها ، وحمل شواهق الجبـال الشـمّخ البـذّخ (الطاغية في الارتفـاع) على أكتافها ، فجّر ينابيع العيـون من عـرانين أنوفها (العـرنين : ما صـلب من عظم

(1) تفسير القمي / ج 2 ص 400.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 416.
(3) المصدر / ص 417.
(4) تفسير القمي / ج 2 ص 132.

الأنف ، والمراد أعالي الجبال) ، وفرّقها في سهوب بيـدها (جمع بيـداء وهي الصـحاري) وأخاديـدها ، وعـدّل حركاتها (يعني الأرض) بالرّاسيات من جلاميدها وذوات الشـناخيب (القمم) الشّـمّ من صـياخيدها ، فسـكنت من الميـدان لرسـوب الجبـال في قطع أديمها ، وتغلغلها متسـربّة في جوبـات خياشـيمها (الجـواب : الحفر ، والخياشـيم : منفذ التنفّس) ، وركوبها أعنـاق سـهول الأرضـين وجراثيمها (المنحـدرات) ، وفسح بين الجـوّ وبينها ، ثم لم يـدع جـرز الأرض الـتي تقصر ميـاه العيـون عن روابيها ، ولا تجد جـداول الأنهـار ذريعة إلى بلوغها ، حـتى أنشأ لها ناشـئة سحاب تحيي مواتها ، وتستخرج نباتها ..» [1] ، وقال الإمام الصادق (ع) : «انظر يا مفضّل إلى هذه الجبـال المركومة من الطين والحجـارة ، الـتي يحسـبها الغـافلون فاضلا لا حاجة إليها ، والمنـافع فيها كثـيرة ، فمن ذلك أن يسـقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج إليه ، ويـذوب ما ذاب منه فتجـري منه العيـون الغزيـرة الـتي تجتمع منها الأنهار العظام ..» [2].

وجعل الله الأرض كفاتا ، وجعله فيها الجبال الراسـية الشامخة ، وسقينا بها المـاء الفـرات من ينـابيع مخازنها ، وذو بـان ما تقلّه من الثلـوج ، كلّها نعم إلهية تسـتوجب الشكر والحمد له ، ومن شكره اتباع رسله ورسـالاته ، إلّا أنّ الإنسان غالبا ما لا يفعل ذلك ، بل تراه كفـورا مكـذّبا ، ويل له يـوم القيامة من شـديد العـذاب على قلّة حمـده ، ومقابلته إحسان ربه بالتكذيب.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

من غضب الله وعذابه ، فـإنّ غضـبه عليهم وتكـذيبهم لرسله وكتبه يستحيلان في الآخرة ألوانا من العذاب الذي لا يطاق ، ينطلقون إليه بزجر خزنة جهنم ومقامع من

---

(1) نهج البلاغة / خ 91 ص 132.

(2) موسوعة بحار الأنوار / ج 3 ص 126.

نار تلظى ، ولسان الحال قولا وفعلا ما حكى ربّ العزّة :
(**انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**)
قال العلّامة الطبرسي : يعني من العقاب على الكفر ، ودخول النار جزاء على المعاصي [1] ، وعلّق الرازي بالقول : والظاهر أنّ القائلين هم خزنة النار [2] ، والذين يكذّبون به هو الجزاء والنار ، والتكذيب بذلك يعني إنكاره ، وإنكار الحقائق الأخرى بسبب هذا التكذيب.
(**انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ**)
ولعلّ الظلّ بسبب الدخان الذي يحجب النور ، أو هو الظلام الحالك ، وقد اختلف المفسرون في معنى «ثلاث شعب» ، فقيل معناه : يتشعّب من النار ثلاث شعب : شعبة فوقه ، وشعبة عن يمينه ، وشعبة عن شماله فتحيط بالكافر [3] ، وقيل : يخرج من النار لسان فيحيط بالكافر كالسرادق ، فينشعب ثلاث شعب فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب [4] ، وفي اللغة : الشعبة جمعها شعب وشعاب : الفرقة والطائفة من الشيء ، يقال : أشعب لي شعبة من المال أي أعطني قطعة من مالك ، ويسمّى الغصن من الشجرة شعبة [5] ، ونفهم من ذلك أنّ الظل ينشعب إلى ثلاثة أقسام ، ولعل المكذّب يلقى في كلّ شعبة ألوانا من العذاب تختلف عمّا في الشعبتين الأخريين شدة ونوعا.

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 230.
(2) التفسير الكبير / ج 30 ص 274.
(3) التبيان / ج 10 ص 230.
(4) مجمع البيان / ج 10 ص 418.
(5) المنجد / مادة شعب بتصرف.

ويختلف ذلك الظل عن ظلّ الدنيا بصـورة تامة ، فإنّنا نـــأوي إلى الضـــلال فيها طلبا للراحة ، وهربا من حـــرّ الشمس ولفحها ، أمّا الظل المقصود في الآية فإنّه قطعة من عذاب جهنم.

(**لا ظَلِيلٍ**)

معناه : غير مانع من الأذى يســتر عنه .. فالظليل من الظلّة وهي السترة [1] ، وسمّي الظلال بذلك لأنّه يحجب الشمس ويسترها ويمنع الحر. وليس الظلال المشــار إليه في الآية يسبّب الراحة لأهله.

(**وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ**)

واللهب ما يعلو من ألســنة النــار وحــرّ لفحها ، وليس ذلك الظل يدفع عنهم حرّ لهب جهنم.

(**إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**)

قيل : مثل القصور والجبـال [2] ، وفي حـديث طويل عن النبي (ص) في شأن النـار : قـال : «تزفر النـار بمثل الجبال شررا» [3] ، وقيل : مثل أصول الأشجار المتشعّبة الجذور ، قال ابن عبّاس : كجـذور الشـجرة ، وعن مجاهد قال : حزم الشجر ، وعن الضـحّاك قـال : أصـول الشـجر العظام [4]. والعرب تشـبّه الإبل بالقصـور [5] ، والمهم أنّ التشبيه بالقصر كناية عن الضخامة والتشعّب معا وهما

---

(1) التبيان / ج 10 ص 230.
(2) في القمي والتبيان ومجمع البيان والكشاف والتبيان والدر المنثـور والتفسير الكبير.
(3) نور الثقلين / ج 5 ص 490.
(4) الدر المنثور / ج 6 ص 304.
(5) مجمع البيان / ج 10 ص 418.

مجتمعتين في مثل القصور.

(**كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ**)

وقد ذهب أغلب المفسرين إلى القول بأنّها الجمـال ، وقيل : هي قطع النحــاس ، وهو مــرويّ عن الإمــام علي (ع) [1] ، والنحاس يسمّى صفرا عند العـرب ، وبنـاء على هــذا القــول ينبغي حمل الجمالة على أنّها جمع جمل وهو الحبل والسلك العظيم ، لقوله تعالى : «**حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ**» [2].

وهـــذه الألـــوان من العـــذاب هي بعض ما يلقـــاه المكذّبون من الويل في الآخرة ، والذي يشير إليه القـرآن بتكرار الآية الكريمة :

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

ومن ويلاتهم يـوم الفصل أنّهم تسـلب حرّيـاتهم الـتي طالما أسـاؤوا اسـتخدامها وفهمها في الـدنيا ، إلى حـدّ لا يستطيعون النطق ، ولا يؤذن لهم من قبل الله عـزّ وجـلّ. ولعـلّ ذلك جــزاء إطلاقهم العنـان لأنفسـهم في الأهـواء والشهوات ، وعدم التزامهم بحدود الله وشرائعه.

(**هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ**)

وفي الأحاديث : أنّ أهل جهنم يلجمون بلجم من نار ، وتحبس ألسنتهم التي سخّروها لحرب رسالة الله وحزبه ، بل لا يستطيعون النطق للحجج الإلهية البالغة التي لا تـدع لهم مجـالا للتـبرير ولا قـدرة على الكلام في محضر ربّ العزة.

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 276.

(2) الأعراف / 40.

إنّ النفس اللوّامة تـوخز ضـمير الكـاذب المنحـرف ، وإنّ عقله يهديه إلى الإعتبـــار بمصـــير الغـــابرين ، ولكنّ نفسه الأمّارة بالسـوء تلحّ عليه باتبـاع الشـهوات وامتطـاء مـركب الغـرور والجحـود ، وهنا يقـدم الشـيطان بالحـلّ الوسط ، هو التسـويل والـتزيين ، فيـؤوّل آيـات الـذكر ، ويعتذر للـدعاة إليها ، ويـبرّر للناصـحين ، ويخـادع نفسه .. وهكـذا تجد أكـثر المكـذّبين والمجـرمين يعـدّون تـبريرات وأعـذار لأنفسـهم كما للآخـرين بما يزعمـون أنّها سـبب انحرافهم وفسادهم ، ولكن في يـوم القيامة ليس لا تقبل منهم تلك المعاذير الباطلة بل ولا يسمح لهم بسردها لأنّها محكومة سلفا بالسفاهة والدجل ، ممّا يـدعونا إلى إعـادة النظر وبصـورة جدّيّة فيما نعتـذر به للآخـرين أو نخـدع به أنفسـنا انطلاقا من الثقة بأنّها لا تغـني عنّا شـيئا في يـوم القيامة.

(**وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**)

لأنّ الاعتذار النافع هو اعتذار الإنسـان لربه في الـدنيا عن الخطيئـات بالتوبة الخالصة ، أمّا الآخـرة فهي للفصل والجـزاء فقط ، من هنا لا يـؤذن لهم للاعتـذار ، والإمـام الصـادق (ع) يهـدينا إلى فكـرة دقيقة في الآية فيقـول : «الله أجـلّ وأعـدل وأعظم من أن يكـون لعبـده عـذر ولا يدعه يعتـذر به ، ولكنه فلج فلم يكن له عـذر» [1] ، بلى. إنّهم لا يريدون الجدال عن حقّهم بالمنطق السليم ، وإنّما يريـدون التوسّـل بالأعـذار الواهية ، ولـذلك لا يـؤذن لهم. وهـذا من حكمة الله عـزّ وجـلّ إذ لو كـان يـترك الإنسـان يفعل ما يشاء في الحيـاة الـدنيا ، ثم يفتح له يـوم الفصل بـاب التـبرير لفسـدت حكمة الخلق ، كلّا .. بل لهم الويل بعد الويل.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

ومن هذه الآية نكتشف أنّ الأعذار الواهية هي بدورها كذب ولصاحبها

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 490.

الويل.

[38 ـ 44] وبعد أن عـرض القـرآن مشـاهد من يـوم الفصل يضع النفـوس المكذّبة في موقف الشـاهد لـذلك المسـتقبل بزمانه ، ولكنّه حاضر بحقائقه وشـواهده ومواقفه ولحظاته الحرجة ، لعلّها ترجع عن غيّها وضلالها.

(**هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ**)

وللجمع هنا معنيان :

الأول : هو البعث بجمع الأوصال والعظـام وجمعها مع الروح ليكون بشرا سـويّا بعد المـوت ، وقد أشـار القـرآن إلى هـذا المعـنى في آيـات عديـدة منها قوله في سـورة القيامة : «**أَيَحْسَـبُ الْإِنْسـانُ أَلَّنْ نَجْمَـعَ عِظامَـهُ**» [1]. وإنّما ذكر الأوّلين لأنّ المشركين عادة ما كانوا يسـتبعدون البعث ، وبالـذات بعث أولئك الأوّلين الـذين اضـمحلّت أبدانهم وتبدّدت أوصالهم.

الثـاني : أن يكـون الجمع بـالمعنى الظـاهر للكلمة ، فـإنّ النـاس (أوّلين وآخـرين) يجمعـون في عرصة القيامة للفصل بينهم وفي مصائرهم. وإنّما ذكر الأوّلين والآخـرين من المكذّبين تمهيدا لتحـدّيهم في الآية اللّاحقة ، إذ لا يريد الله أن يتحدّى بعض المكذّبين وحسب بل كلهم مجموعين إلى بعضهم عددا وعدّة.

(**فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ**)

تدّعون الغلبة به وتعتمدون عليه.

---

(1) القيامة / 3.

(**فَكِيدُونِ**)

وهـذا ردّ على ما أجمعـوا عليه وتوارثـوه من الخـبرة في الكيد ضد الحق (قيما وقيادة وحزبا) في الحياة الدنيا. وما عسى أن يبلغ كيد هذا الإنسان الضعيف والجاهل حتى يبـارز ربّه عـزّ وجـلّ؟! ولكنّه يتكبّر ويأخـذه الغـرور فيلقي بنفسه في مهلكة المكايدة مع الله ، فالويل للمكذّبين ممّا يصيرون إليه نتيجة حربهم لله الملك الجبّار المتكبّر.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

وهل ثمّة ويل أعظم من كيد الله العظيم بأحـــد؟! كلّا .. فهو حــقّ بكــلّ ما تتّسع له الكلمة من معــنى. وهكــذا يسـفّه السـياق القـرآني الظنّ الـذي يبعثهم نحو التكـذيب وهو أنّهم قادرون على مقاومة جزاء أعمالهم بكيـدهم وما يستخدمونه من خطط وأساليب. أمّا المتقون الذين آمنـوا بالله ، وصـــدّقوا رســـالاته ، واتبعـــوا رســـله وأوليـــاءه ، فمصيرهم إلى رضوانه وجزائه الحسن.

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ**)

وليس الظلال كالظل «**ذِي ثَلاثِ شُـعَبٍ* لا ظَلِيـلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ**» بل هو ظلال رضـــوان الله الـــذي يلقى فيه المتقون غاية الأمن والسعادة ، حيث اللذة بــبرد لطف الله ورحمته ، وحيث التمتّع بنعيم الجنة كالمنـــاظر البديعة للعيون التي تستريح العين لرؤية مائها المتفجّر.

(**وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ**)

بكل ما تنطوي عليه كلمة الاشـتهاء من معـنى ، ففي الجنة يطلق الله بفضله

ومشيئته عنان الشهوة لأولئك الذين عقلوها بعقال أحكـام الله وحــدوده ، فــالمتقون هنــاك يجــدون ما يحبّونه من الفواكه في كلّ مكان وزمان ، إذ تسـقط معادلة الفصـول والمواسم ، كما يبلغون شـهوتهم كيفما يريـدون ، إذ تـأتي الفواكه بــالحجم واللــون والطعم والشــكل الــذي يتخيّله واحدهم وأحسن منه.

والعلاقة واضـحة بين هـذه النعم الثلاث ، فـإنّ الظل والعيـون والفواكه المتنوّعة هي أبـرز معـالم الجنة ، وإنّما ذكرها الله كناية عن الجنة ، وتفصـيلا في المعــنى للمزيد من التشويق والترغيب للمتقين في نعيمها.

ومن سمات المنهج الإسـلامي أنّه يوصل بين السـعي والجــزاء ، وذلك لكي لا يتحــوّل الشــوق إلى جنّـات الله ورضـوانه إلى مجـرّد أمـاني وظنـون ، وإنّما تكـون الرغبة لبلوغها نهج عمل وســعيا حــثيث من أجل الوصــول إليها وتحقيقها في الواقــع. هــذا على صـعيد الــدنيا ، أمّا على صعيد الآخرة فإنّ بيان الله للمتقين علاقة عملهم بجزائهم نــوع من الإكــرام لهم ، وإلّا فــإنّ ما يلقــاه المتقــون في جنّـات الله من الناحية المادية والموضـوعية أعظم من أن يبلغه بشر بســعيه ، إنّما هو فضل من الله ورحمــة. ومن هذا المنطلق يخاطب المتقون في الآخرة :

(**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً**)

خاليا من كــلّ أسـباب النكد والنغص يمكن أن يكــون في طعام أو شراب.

(**بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)

الذين يحسنون الصنع (الالـتزام بـالقيم ، والتعامل مع الآخرين ، والاســتفادة من نعم الله عليهم) ، وقد ذكر الله صفة الإحسان في المتقين كسـبب لاسـتحقاقهم الفضـيلة والرضوان عنده تأكيدا على أنّها أرفع درجة يبلغها أحد في القرب من الله ،

والعــروج في آفــاق الإيمــان والعمل الصــالح ، وذلك لما يشتمل عليه الإحسان :

الأول : أنّه من أعظم صفات الله وأخلاقه.

الثــاني : أنّه مرتبة رفيعة في الكمــال البشــري ، إذ يعـني خـروج الإنسـان من شـحّ النفس إلى حبّ الآخـرين وإيثارهم.

[45 ـ 50] وفي ختــام الســورة الــتي تهـدف علاج موقف التكـذيب عند الإنسـان من خلال توجيهه إلى آيـات الله ، وتخويفه من عذابه ، يؤكّد القـرآن عاقبة الويل لكـلّ مكذّب ، مبيّنا لهم بـأنّ متعتهم لن تمتـدّ إلّا قليلا ثم يعقبها مصــير ســيء نتيجة إجــرامهم وعــدم اســتجابتهم لداعية الحق.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

وكفى بتكــرار هــذه الآية عشر مــرّات في الســورة تأكيــــــدا للحقيقة الهادية إليها (أنّ الويل للمكـــــــذّبين). والمكذّبون يختلفون عن المتقين في المصير يــوم الفصل ، فبينما يصير هؤلاء في ظلّ وعيـون وفواكه ممّا يشـتهون ، يصير أولئك إلى الويل والثبور

«ظــــلّ ذي ثلاث شـــعب (**لا ظَلِيـــلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ**)»

، كما يتهنّأ المتقون بأكلهم وشربهم حيث لا يساورهم خـــــوف انقطاعه أو انقطـــــاعهم عنه ، أمّا المكــــذّبون المجرمون فلا تطول بهم المتعة الّا قليلا ثم تنتهي راحتهم إلى عذاب مقيم.

(**كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ**)

وإذا كـان المكـذّبون مـترفين ، وفي أيـديهم نعم الله وألوان المتع ، فإنّه لا يعني حظوتهم برضــوان الله ، لأنّهم مجرمــون ، فلا جريمة أكـبر من تكـذيب الإنسـان بـالحق وممارسته الباطل في الحياة ، ســواء فعل ذلك الفقـير أو صاحب الثروة والأتباع.

والآية تهـــدينا من جهة أخـــرى إلى أنّ لهث البشر وراء حطـــام الـــدنيا ومتعها هو العامل الرئيسي في ضـــلاله واقتحامه كـــلّ جريمة .. وليس لهـــذا الأمر من علاج في نفس المكذّب المجرم إلّا بالتفكير في العاقبة يوم الفصل ، لأنّ ذلك مـدعاة للعاقل أن يـترك المتع القليلة في ذاتها ومـدّتها والموجبة للويل المقيم يومـذاك ، وهـذا ما يفسّـر علاقة الآية (46) بقول الله بعدها :

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

وحينما يستحضر الإنسـان في وعيه وتصـوّره حقـائق ذلك اليوم فسوف يجد نفسه مدفوعا لترك الجريمة وكـلّ أكله ومتاعه لا ترضي الله ، ومن ثم تـــرك التكـــذيب إلى الإحســـان ، والطمع في نعيم الآخـــرة ، والتســـليم لله ولرسله ورسالاته ، لأنّ جاذبية شـهوات الـدنيا لا تقـاوم إلّا بمثل جاذبية الجنة وخشية مصـير المكـذبين والمجـرمين ، ووعي العذاب الشديد الذي ينتظر المكذبين.

ويبين القرآن صفة أخرى للمكذّبين إضـافة إلى لهثهم وراء حطام الدنيا ومتعها ، وإضافة إلى كـونهم مجـرمين ، ألا وهي عدم تسليمهم لأوامر الله وعدم خضوعهم لها.

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ**)

قال مقاتل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسـول الله (ص) بالصـــلاة فقـــالوا : لا ننحـــني ، وأضـــاف العلّامة الطبرسي : والرواية لا ننحني فإنّ ذلك سبّة علينا ، فقـال رسول الله : «لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود» [1] ، ذكر ذلك أغلب المفسـرين. وقد ذكر الركـوع بالـذات لأمرين رئيسين :

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 419.

الأول : أنّه ذكر كناية عن الصلاة ، لأنّ الركوع أبرز ما فيها ، ولذلك تسمّى وحدات الصلاة بالركعات ، والصلاة تمثّل عمود الدين ، وذكر مخالفتهم وعصيانهم لله في أبلغ أوامره وشرائعه أوضح دلالة على عصيانهم وتكذيبهم.

الثاني : لأنّ الصلاة هي مظهر العبودية لله ، والركوع منها رمز الخضوع والتسليم ومظهره العملي ، وبيان تكذيب المكذّبين وتمرّدهم عن التسليم لله وللقيادة الرسالية يكون أجلى عند التمثيل له بالركوع والسجود من التمثيل له بأيّ شيء آخر ، وعلى هذا الأساس نستطيع حمل الركوع هنا على أنّه رمز للتسليم بكلّ مفرداته لا كونه محصورا في ركوع الصلاة فقط ، ولذلك فإنّ رفض التسليم ـ بجميع معانيه ـ يستلزم الويل للمكذّبين.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

الذين يكذّبون بالحقائق ، ومن أبرزها وأهمّها :

أولا : الآخرة ، فإنّ الإيمان بها أساس إيمان الإنسان بسائر القيم والحقائق الإلهية ، وأساس التزامه بكلّ مفردات الدّين في الحياة.

ثانيا : القرآن الكريم وهو حديث الله للناس ، والذي لا يصلحه حديث ربه ، ولا تداوي أدواءه آياته ، فلن تجد له علاجا أبدا ، وهكذا فإنّ من لا يؤمن به ويسلّم له على ظهور حججه ودلائله فبما ذا يؤمن بعده؟!

(**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**)

لأنّ الأحاديث غيره كلّها لا تصل إلى مستواه في الصدع بالحق ، واشتمالها عليه ، ولا في بيانها وهدايتها له ، وكيف يرتفع حديث مخلوق إلى صحة حديث

الخالق وبلاغته؟!

ومن الآية نهتدي إلى أنّ من لا يؤمن بحديث القرآن ، ومنه بالذات حـديث الآخـرة ، فإنّه يبقى في شك من كـلّ شيء وحـديث ، بل يبقى في التبـاس من وجـوده ووجـود أوضح الموجودات كالشمس الساطعة في الآفاق!

أمّا عن رأي المفسـرين في الآية الكريمة فقد اتفقـوا على أنّ الحديث هو القرآن ، ويمكن حمله على أنّه حديث الآخرة ، وبتعبـير أصح نقـول : هو القـرآن الـذي من أبـرز أحاديثه بعد تعريف الإنسان بربه حديثه عن الآخـرة ، الـتي يحتل موضوعها أهمية كبيرة في القــرآن كمّا وكيفا ، وفي الثقافة الإسلامية بصورة عامة.

سورة النّبأ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

روي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ أنّه قـال : «**من قــرأ هــذه الســورة وحفظها لم يكن حســابه يـوم القيامة إلّا بمقـدار سـورة مكتوبة حـتى يـدخل الجنة**»

البرهان في تفسير القرآن / ج 4 ص 419

الإطار العام

الحقــائق الكــبرى تحيط بلبّ البشر إحاطة الســوار بالمعصم ، كلّما أراد منها هروبا وجدها أمامه ، ولا ريب أنّ النشور للحساب ، والولاية من تلك الحقائق ، فبالرغم من محاولات الفرار منها تراهم يتساءلون عنها ، لأنّها من النبأ العظيم ، والنبأ العظيم يجــده الإنســان أمامه أنّى اتجه ، ولأهميته يختلفون فيه ، في تفاصـيله مـرّة وفي محـاولات التهرب منه أحيانا.

كلّا .. إنّه يفـــرض نفسه عليهم حـــتى يعلمـــوه علم اليقين ، ثم كلّا سيعلمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به.

بعد هــذه الفاتحة الصــاعقة تمضي الســورة تــذكّرنا بآيـات الله في الخليقة والـتي تهـدينا إلى أنّه عليم حكيم ، وأنّه لم يخلق العباد ســدى ، وإنّما بحكمة بالغة تتجلّى في المســؤولية. لقد خلق ما في الأرض للإنســان فلأي شـيء خلق الإنســان نفســه؟ ألم يجعل الأرض مهـادا ، والجبـال أوتادا ، بل وجعل في ذات الإنسان ما يدل على بديع

الصنع ، وبالغ الحكمة؟ لقد خلقنا أزواجا ، وجعل لنا النــوم استراحة عن العمل ، وجعل الليل لنا سترا والنهـار معاشا للنشاط والحركة ، أمّا السـماء فقد جعلها سـقفا محفوظا بســبع طبقــات شــداد ، وعلّق فيها لأهل الأرض ســراجا وهّاجا ، ثم أنزل منها مـاء متواصلا منـدفعا ، ثم جعل هـذا النظــــام مترابطا ببعضه فــــأنبت من الأرض حبّا ونباتا ، وجنّات ألفافا ، كلّ ذلك من أجل الإنسـان ، والإنسـان من أجل المســؤولية ، ولكي يقــدّم للمحاكمة غــدا في يــوم الفصل الذي كـان ميقاتا للحسـاب ، يـوم ينفخ في الصـور فيتوافد الخلائق أفواجا أفواجـا. أمّا السـماء فإنّها تتحــول إلى أبواب لتنزل الملائكة بالعـذاب أو الثـواب. أمّا الجبـال التي أكنّت البشر فتكون سرابا.

هنالك الحســاب ، فبينما يســاق الطغــاة إلى جهنم ليبقوا فيها أحقابا بلا برد ولا شراب تجد المتقين في مفـاز ، حيث يــدخلون الجنة ليتمتعــوا بنعيمها وأمنها وخلودها ، وهذا وذاك يكون تجسيدا لمسؤوليتهم في الـدنيا ، وجـزاء وفاقا لأعمالهم.

وتختم الســورة بتصــوير مشــهد من مشــاهد القيامة حيث يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون ، ويـذكّرنا ربنا بأنّ فرصة الإختيار السليم لا تزال قائمة فقد أنـذرنا عـذابا قريبا ، يوم يرى المرء أعماله التي قدّمها متجسدة أمامه. أمّا المؤمن فيفرح بها ، وأمّا الكافر فيقول : يا ليتني كنت ترابا ولم أقــــدّم مثل هــــذه الأعمــــال أو أتحمل تلك المسؤوليات.

سورة النّبأ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**عَمَّ يَتَسـاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَـإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيـهِ مُخْتَلِفُـونَ (3) كَلاَّ سَـيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَالْجِبالَ أَوْتـاداً (7) وَخَلَقْنـاكُمْ أَزْواجـاً (8) وَجَعَلْنا نَـوْمَكُمْ سُباتاً**

---

1 [عمّ] : أصلها : عن ما ، مركّبة من عن الجـارّة وما الاسـتفهامية ، ثمّ أدغمت النون في الميم لقرب مخرجها ، وحـذفت الألف من ما على ما هي عليه القاعدة من حذفها مطلقا إذا دخل على ما حرف الجر.
6 [مهـادا] : وطـاء وقـرارا مهيّئا للتصـرّف ، كالمهد الـذي يتصـرّف فيه الطفل من غير أذيّة.
7 [أوتـادا] : جمع وتد وهو المسـمار إلّا أنّه أغلظ منه ، فالجبـال هي مسـامير للأرض تحفظها من التشـقّق والتبعـثر في الهـواء من جـرّاء الحركة والجاذبيات.

(9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10) وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11) وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (12) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (16) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (18) وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (20)

---

9 [سباتا] : قاطعا للعمل لأجل الاستراحة ، ومنه سبت أنفه إذا قطعه.

13 [وهّاجا] : الوهّاج الوقّاد المشتعل بالنور العظيم ، من وهج بمعنى أنار وأضاء.

14 [المعصرات] : السحائب تعتصر بالمطر كأنّ السحاب يحمل الماء ثمّ تعصره الرياح وترسله كإرسال الماء بعصر الثوب ، وعصر القوم : مطروا .. وقال البعض : إنّها أودع فيها من الطاقات العاصرة حتى تمطر.

[ثجّاجا] : الثجّاج الدفّاع في انصبابه كثجّ دماء البدن ، من ثجّ بمعنى انصبّ بكثرة.

16 [ألفافا] : الألفاف الأخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض ، وهكذا الجنّات فأشجارها يلتفّ بعضها على بعض.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً

هدى من الآيات :

أتراهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، عن يوم الجزاء (عن مسئولية الولاية) ويختلفون فيه (ثم لا يبحثون بجدّ عن الإجابة الصحيحة)؟ كلّا .. (دعهم في غيّهم) فسوف يعلمون ، ثم كلّا .. (ليس الأمر بهذه البساطة) فسيعلمون.

أفلا يبصرون شواهد التدبير والحكمة : في الأرض التي مهّدت لهم ووتّدت بالراسيات ، في خلقهم أزواجا تتكامل أبعاد وجودهم ببعضهم ، في حياتهم كيف نظّمت فجعل الليل لهم سكنا وجعل النهار لمعاشهم مبصرا ، وفي السموات التي تحفظهم عن الطوارق ، وكيف جعل الله فيها سراجا وهّاجا ، وفي تدبير رزقهم بالغيث الذي ينزل عليهم ماء ثجّاجا فيخرج الله به حبّا ونباتا وجنّات ألفافا؟!

بلى. لو أنّهم أبصروا شواهد الخلقة وآيات الحكمة لعلموا أنّ يوم الفصل آت وأنّهم لمجموعون إليه عند ما ينفخ في الصور فيتوافدون على ربّهم أفواجا .. ويومئذ

تفتح أبـواب السـماء فتـنزل الملائكة بـالجزاء. أمّا الجبـال فتسيّر ثم تتلاشى كما السراب!

بينات من الآيات :

[1] يعــرض البشر عــادة عن التفكــير الجــدي في الحقائق الكبرى التي ترسم الخطوط العريضة في حياته ، لما ذا؟ هل لأنّها غامضـــة؟ كلّا .. بل لأنّ في نفسه نزوعا عنها ، أوليست معرفتها تحمّله مسـئوليات كبـيرة. إذا لما ذا يكلّف نفسه عناء ذلك؟ دعه يمرّ على آياتها غافلا عساه يتهــرب من مســئولياتها. ولكن هل الإعــراض عنها يغنيه شيئا؟ كلّا .. إنّه بالغها فمواقعها شاء أم أبى ، آمن أم عاند وكفر.

من تلك الحقــائق يــوم الفصل وميقاته ، وما فيه من أهـوال عظيمة تـدع الولـدان شـيبا ، وما يفرضه علينا من مسـئولية التسـليم للحق ولقيادته ، فهل يمكن الإعـراض عن كـلّ ذلـك؟ كلّا .. لأنّ آياته ملأت آفـاق حياتنا ، وإنّنا لا زلنا نتسـاءل عنها ونختلف فيها ولكن ليس بصـورة جدّية ، وغدا حين نواجهه نعلم مدى الخسارة في هـذا التسـاهل ، ولا يسعفنا الندم يومئذ شيئا.

(**عَمَّ يَتَساءَلُونَ**)

[2] وإذا كان الإنسان يعرض عن النبأ العظيم فلما ذا يتسـاءل عنـه؟ ربما لأنّ شـواهده تفـرض عليه التسـاؤل ، فهو من جهة يتهـرب من التسـليم له لأنّه يحمّله مسـئولية التسليم للحق ولقيادته ، ومن جهة ثانية لا يستطيع الفـرار من آياته التي تحيط به ، فيظل يتساءل عنه : كيف ومـتى وأين ولما ذا!؟ ومــراده من كــلّ ذلك الفــرار منه ، وفي الذكر الحكيم بيان لتساؤلاتهم عن يــوم الفصل : أنّى هو ، ومتى هو ، وكيف يحيي الله فيه الأموات ، وما أشبه.

(**عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ**)

فما هو ذا النبأ العظيم؟ هل هو مجمل الحقائق العظيمة كالتوحيد والرسالات والبعث والجزاء ، أم أنّه يوم الفصل الذي يذكره السياق لا حقا ، أم أنّه ولاية الإمام علي ـ عليه السلام ـ حسبما ذكر في رواية مأثورة عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ؟

كلّ ذلك محتمل ، لا سيما ونحن نعرف أنّ الحديث عن موضوعات الرسالة متواصل بعضها مع بعض ، فمن تساءل عن يوم الفصل فإنّما يتساءل عنه ليعرف هل عليه أن يسلّم للنذير به وهو الرسول ولمن يأمره الرسول باتباعه.

وإذا كان الفرار من المسؤولية هو الباعث نحو جحد يوم الفصل فإنّ أعظم المسؤوليات التسليم للقيادة الشرعية والتي تمثّلت في ولاية أئمة الهدى وفي طليعتهم الإمام علي عليه السلام.

وهكذا روي عن الحافظ أبي بكر محمد بن المؤمن الشيرازي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في تفسير هذه الآية أنّه قال : «**المراد ولاية علي الذي يسأل عنها في القبر**» [1].

وروي عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنّه قال : «**النبأ العظيم الولاية**» [2]

وقال الإمام علي بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ : «**قال أمير المؤمنين**

---

(1) عن رسالة الإعتقاد للحافظ أبو بكر محمد بن المؤمن الشيرازي في تفسير نمونه ج 26 ص 10.
(2) المصدر / ص 11.

ـ عليه السـلام ــ : **ما لله نبأ أعظم منّي ، وما لله آية أكبر منّي**» [1].

وروي عن الإمام الحسين بن علي ـ عليه السلام ـ أنّه قال : «**قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لعليّ ـ عليه السلام ـ : يا علي! أنت حجّة الله ، وأنت بـاب الله ، وأنت الطريق إلى الله ، وأنت النبأ العظيم ، وأنت الصراط المستقيم ، وأنت المثل الأعلى**» [2].

[3] واختلافهم في النبأ العظيم دليل على أنّهم لا يملكـون حجة دامغة لنفيه فـإذا بهم يـترددون في أمـره ، تــدعوهم آياته للإيمــان به بينما تــدعوهم أهــواؤهم إلى الجحود.

(**الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ**)

ولعل اختلافهم يكــون أيضا في تفســير دلائله وكيف يتهربون منها. ألا تجد كيف ضربوا للرسول الأمثال فضـلوا فلا يستطيعون سبيلا فقـالوا إنّه مجنـون بل هو شـاعر بل افتراه ، وهكـذا يكـون الاختلاف دليل عجـزهم عن تفسـير آيات الحقيقة التي ينكرونها.

[4] وهل إنكــــارهم للحقيقة يلغيها أو اختلافهم فيها يخفّف عنهم ووطأتها حين تنزل بهم!؟

(**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**)

يوم يساقون إلى الجزاء فلا يجدون عنه محيصا.

[5] بل إنّهم سيجدون الجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 491.

(2) المصدر.

(**ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**)

وقال بعضهم : إنّ هذه الآية تشير إلى أنّهم سيعلمون الحق في الآخرة بينما الآية السابقة تشـير إلى ما يعلمونه في الدنيا. ويحتمل أن يكون الإتيان بمفهوم واحد للتأكيد.

[6] أو لا يبصـــرون آيـــات الله في الخلق فيعرفـــون حكمته وأنّه لم يخلقهم عبثا ولن يتركهم سدى؟

(**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً**)

أولا تراها كيف ذلّلت لمعاشك تذليلا؟ انبسـطت عليها طبقة من التراب تسـتخدمه للسـكنى والزراعة ، وتسـوّيه لحركتك ، ويحتضن أجسادنا بعد الموت ، ويستوعب سـائر أنشطتنا في الحياة.

وإذا أمعنا النظر رأينا أنّ ســـــائر ما في الأرض هيّء لحيــاة الإنســان ، ولا نعــرف مــدى أهمية الأنظمة الــتي أجراها الــربّ في الأرض إلّا بعد قياســها بســائر الكــرات القريبة الــتي لم نعهد في أيّ منها أثــرا للحيــاة ولا فرصة للعيش. أوليس في كلّ ذلك دليل على التـدبير والحكمـة؟ أولا نهتدي بها إلى أنّ الله لم يخلقنا عبثا؟

[7] ولكي تستقر الأرض وما فيها ، ولا تتعرض لأمواج الأعاصــير الــتي تحيط بها ، ولا لتنــاوب المــدّ والجــزر الناشـــــئين من جاذبية القمر كما البحر ، ولكي تتحصن قشرة الأرض من أخطـار الـزلازل والـبراكين والانهيـارات بسبب الغازات التي تتفاعل في نواتها الداخلية ، لكلّ ذلك ولأسباب أخرى عديـدة نعـرف بعضـها ونجهل الكثـير جعل الله للأرض أوتادا هي الجبال.

(**وَالْجِبالَ أَوْتاداً**)

هـذه القمم السـامقة ، وتلك السـفوح المنبسـطة ، وهذه الشـبكة من الصـخور الـتي تتصل ببعضـها من فـوق الأرض ومن تحتها. إنّها تحصّن الأرض كما الدروع السابغة. أفلا نبصر آثار القـدرة ولمسـات الحكمة على الطبيعة من حولنا؟ فسبحان الله وتعالى عن العبث واللغو.

[8] وإذا عدنا إلى الأنظمة الـتي تسـود حياتنا أبصـرنا المزيد من آثار القدرة والحكمة فيها ، فهذه سـنّة الزوجية التي تكشف من جهة مدى حاجتنا إلى بعضنا ، كما تعكس من جهة ثانية حسن تدبير الخالق ، ودقّة تنظيمه.

(**وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً**)

لو كنا قد خلقنا أنفسنا لكنا جعلناها أكمل وأقـوى منها الآن ، مثلا ربما لم نوجد فيها حاجة إلى الجنس الآخر أو إلى الطعـام والشـراب والراحة والسـكن وما أشـبه. ولو أوجـدتنا الصـدفة لم نجد فيها هـذا التكامل مما نجـده مثلا بين الــزوجين ، تكــاملا في الــروح والجسد ، في الغرائز والشهوات والحاجات حتى اغتدى كل جنس سـكنا للجنس الآخر يجد فيه ما يفتقر إليه ، قال سـبحانه : «**وَمِنْ آياتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْواجــاً لِتَسْـكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**» [1].

[9] وبمناسبة الحديث عن الزوجة وعن السكن الـذي توفّره يذكّرنا الرب بنعمة النوم الذي هو نوع من السكن ، يهيمن على ذرأت وجودنا ويقطعها عن التفاعل المجهد مع المحيط ، ويبسط على أرجاء الجسد غلالة من الهـدوء والراحة.

(**وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً**)

ويبــدو أنّ معــنى السـبات هو الفــراغ المــوقّت أو التعطيل وقطع تيّار النشاط.

---

(1) الروم / 21.

ما هو النـوم ، وكيف يحـدث ، وما أسـراره؟ إنّ العلم الحديث لا يزال يتوغّل في رحاب هذه الظاهرة العامة من حياة الإنسان ويكشف المزيد من أسـراره ، إلّا أنّ الثـابت أهمية دور النـــوم في تهدئة أعصـــاب البشر ، ومســاعدة مخه على تنظيم المعلومـــات وتخزينها ، وعـــودة الجسم إلى أنظمته الذاتية بعد تعرّضه للمـــــــؤثرات الخارجية ، وبسط قــدر من الهـدوء إلى مختلف الأعضـاء ، وبكلمة : النوم استراحة الجسم بعد جهد متواصل.

[10] ويتمّ النوم عادة في الليل حيث يسـدل أسـتاره على الطبيعة ، ويضفي عليها جوّ الهدوء والسكينة.

(**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً**)

أرأيت لو كـــانت الأرض بمن فيها وما فيها تتعـــرض لأشـعة الشـمس باسـتمرار أفلم تكن تـؤثّر الأشـعة فيها وتجهدها؟ هكذا نظّم الله الأرض بحيث يتنـاوب عليها الليل والنهار لضمان استمرار الحياة فيها.

والتعبير ب (لبـاس) بـالغ في الروعة والدقـة. أوليس اللبـاس يسـتر الشـيء عما يشـينه ويضـره ، كـذلك ظلام الليل يســتر الطبيعة والأحيــاء عن اســتمرار تعرضـــهما للأشعة.

[11] وبعد أن تسترخي الطبيعة فوق فراش الظلام ، يستنهضها النهار لمسيرة متجـددة ، فها هي خيـوط أشـعة الشــمس توقظ الــروابي والســهول ، وتبعث في النبــات والأحيـــاء النشـــاط والحيوية لتجديد نفســـها ، وتواصل حركتها.

(**وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً**)

أي ميعادا للعيش ، ووقتا مناسبا للاسـترزاق ، وهكـذا جعل الله في كلّ حيّ حاجة إلى النمو والاستمرار ، وأودع فيه إحساسا بهـــذه الحاجة لكي يســـعى إليها ، ووفّر له فـرص تحقيقهـا. أفلا يهـدينا ذلك إلى أنّه المـدبّر العليم ، وأنّه قادر على نشرهم إلى يوم الفصل ومحاسبتهم؟

[12] وهكذا جعل الله الأرض دارا مهيّأة لحياتنا وبـنى فوقها سـقفا محفوظا ، لكي لا تتسـاقط علينا النيـازك والأحجار السابحة في الفضاء ولا ينزل علينا ما يضـرنا من أشعة النجوم الضارة ومن حرارة الشمس المهلكة.

(**وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً**)

ما هي هـذه السـبع الشـداد؟ هل هي المجـرات المحيطة بمجرّتنا أو المنظومـات الشمسـية القريبة منا ، أم هي السـموات الـتي زيّنت واحـدة منها بـالنجوم وهي التي نعرف عنها شيئا قليلا أمّا الست الباقيات فعلمها عند الله ... أم ما ذا؟

لعـلّ أقـرب المعـاني هو ذلك الغلاف الجـوي المحيط بـالأرض ذو الطبقـات المختلفة الـتي تمتد في عمق مائة كيلومـتر ، وتشـكّل سـقفا متينا للأرض ، يحفظها من الأجرام التائهة في رحب الفضاء ومن الأشعة الضارة.

[13] من أين تسـتقي الأرض قـدراتها؟ إنّها أمّنا فمن هي أمّها الـتي تغـدق عليها بالطاقـة؟ إنّها الشـمس الـتي ترضعها عبر مسافة مائة وخمسين مليون كيلومـترا تقريبا بـالنور والحـرارة ، ومن خلال أشـعة الشـمس تتغـذى النباتات والأحياء وتتكون في الأرض المعادن المختلفة.

(**وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً**)

ويبدو أنّ المراد من الوهج هو الأشعة حسب الـراغب في مفرداته.

أفلا نهتدي إلى أسماء ربنا الحسنى من خلال آياته التي ذكّرنا بها القرآن ، فإذا لم نتعرف على قدرة ربنا وحكمته وعلمه وتدبيره من خلال آية الشمس فبما ذا نهتدي؟ لقد سخّر الله الشمس لحياة البشر ، وأشعل هذه الكرة الملتهبة في الفضاء.

إنّ درجة حرارة الشمس تناهز ستة آلاف درجة فهرنهايت. هذا عن سطحها ، أمّا العمق فإنّ درجة حرارتها تبلغ الملايين ، وهكذا تنفث هذه الكرة اللاهبة أشعة قد تمتد أكثر من مائة ألف كيلومتر وذلك بسبب التفاعلات الذرية التي تلتهم من جرمها في كلّ ثانية زهاء أربعة ملايين طن. [1]

وقد جعل الله بين الشمس والأرض هذه المسافة المحدودة لكي تستفيد منها الأرض دون أن تضربها ، ولو كانت المسافة أبعد لتجمدت أو أقرب لاحترقت.

[14] وإذا كانت الأرض تتغذى بأشعة الشمس ككل فإنّ حياة البشر تعتمد عليها أيضا ، وأقرب مثل لذلك دورة الماء. أوليست أشعة الشمس التي تشرق على المحيطات هي التي تسبب في تصاعد الغيوم عنها ، ثم إنّها تكوّن الرياح التي تحملها ، ثم تتمخّض السحب عن الغيث الذي يرزقنا الله به كلّ خير؟

(**وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً**)

لما ذا سمّيت السحب معصرات؟ هل لأنّها تتراكم على بعضها فتسبب الأمطار ، أم لأنّ نظاما طبيعيّا يسودها حين هطول المطر بسبب اعتصارها (كما قالوا) أم أنّ ذلك إشارة إلى حالة نزول الغيث الشبيهة بعصر الثياب؟ كلّ ذلك محتمل.

أمّا الثجّاج فقد قالوا أنّه المتتالي في السقوط.

---

(1) تفسير نمونه / ج 26 ص 186 نقلا عن طائفة من الكتب العلمية.

[15 ـ 16] هكذا يرفع الله مياه البحر بعد تحليتها إلى عنـان السـماء ، ويبسـطها في صـورة السـحب المتراكمة فوق مساحات شاسـعة ، ثم يسـوقها إلى حيث يشـاء من الأرض فيسـقيها ، لكي لا يبقى سـهل أو جبل إلّا وتشـمله بركاتها .. ثم إنّها تصـــفّي الجو من الأدران والغبـــار ، وتساعد في قتل الجـراثيم. أمّا على الأرض فينبت الله بها ألوانا من المواد الغذائية كالحبوب التي تشكّل أهم مصدر للغذاء عند البشر فالخضروات ثم الثمار.

(**لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً**)

أرأيت البســاتين والغابـــات كيف تلتف أشـــجارها ببعضها؟ إنّها من بركات الغيث.

إنّ هذا النظام الذي لا نجد فيه ثغـرة أو فراغا ، ويمتد من أعماق الفضاء حيث تشع الشـمس بوهجها ، إلى كـفّ المحيطــات حيث تتبخّر بفعل الحــرارة ، وإلى الصــحاري المترامية حيث تنبت الأرض زرعا وشـــجرا. أليس يهــدينا هذا النظام إلى وحدة التدبير وحكمة المـدبّر؟! أفلا نـؤمن بقدرته على أن يعيـدنا للحسـاب؟ وهل من المعقـول أن يترك ربنا الحكيم خلقه سدى؟

[17] لا نجد في أيّ بقعة من أطراف الخليقة ثغرة أو تفاوتا إلّا فيما يتصل بهذا الإنسـان الـذي سـلّطه الله على الطبيعة ، وأكرمه بالعقل والحرية ، فقد أخذ يعيث في الأرض فسادا ، فهل يعقل أن يكـون ذلك من عجـز؟ وهل يعجز ربّ السـموات والأرض شـيء؟ أم سـوء تـدبير؟ ولا نجد في تدبيره شينا أو نقصـا. أم ما ذا؟ يهـدينا التفكر في كلّ ذلك إلى أنّ هذا الإنسان الذي هو محـور حكمة الخلق وهدف سـائر ما في العـالم لم يكن ليخلق بلا حكمة ، فما هي حكمة خلقه؟ فـإذ لا نجد ذلك في الـدنيا نهتـدي (بنـور العقل) إلى أنّها تتحقق في يوم الفصل.

(**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً**)

عند ما يلتقي الإنسـان بجزائه ، ويجتمع الأولـون بـالآخرين ، وتنصب مـوازين القسط ، ويحـاكم الظلمة والمجرمون ، ويقوم الأشـهاد بـالحق ، عندئذ تتجلّى حكمة خلقه.

في ذلك اليـوم يتزيّل المؤمنـون عن المجـرمين ، وتتميّز الأعمـال الخالصة لله عن أفعـال الريـاء والنفـاق ، وتنفصم عرى الأرحام ووشائج الصـداقات والـولاءات ، ولا تنفع شفاعة الأحبّة والأولياء.

[18] ويتقـاطر النـاس على صـحراء المحشر زمـرا ، كل وفد يقودهم إمامهم الذي اتبعوه في الدنيا.

(**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ**)

تلك النفخة الثانية التي يحيي بها الله العباد جميعا.

(**فَتَأْتُونَ أَفْواجاً**)

كل فوج يأتون تحت راية إمامهم.

وفي الحديث عن البرّاء بن عازب قال : كان معاذ بن جبل جالسا قريبا من رسـول الله في مـنزل أبي أيّـوب الأنصـاري فقـال معـاذ : يا رسـول الله أرأيت قـول الله تعـالى : «**يَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ فَتَـأْتُونَ أَفْواجـاً** ... الآيـات» فقـال : «يا معـاذ سـألت عن عظيم من الأمر ، ثم أرسل عينيه ، ثم قال : يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميّزهم الله تعالى من المسلمين وبدّل صـورهم : بعضـهم على صـورة القـردة ، وبعضـهم على صـورة الخنـازير ، وبعضهم منكّسون ، أرجلهم من فوق ، ووجوههم

من تحت ، ثم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي يترددون ، وبعضهم صم وبكم لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشدّ نتنا من الجيف ، وبعضهم يلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فأمّا الذين بصورة القردة فالقتات من الناس (أي النمّامون) وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، وأما المنكّسون على رؤوسهم فآكلة الربا ، والعمي الجائرون في الحكم ، والصمّ البكم المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون بألسنتهم العلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم ، والمقطّعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران ، والمصلّبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، والذين أشدّ نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ، ويمنعون حق الله تعالى في أموالهم ، والذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء» [1].

[19] ولأنّ الإنسان محور خلق عالمنا فإنّ سائر ما في الخليقة يتصل به ويتغيّر معه ، فترى الأرض والسماء المحيطة بها تخضع لتطورات هائلة.

(**وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً**)

فتلك السماء التي جعلها الله سقفا محفوظا غدت منفطرة منشقة ، ولعلّ تلك الأبواب تكون مهبطا ظاهرا للملائكة ، ومعراجا للمؤمنين إلى الجنة ، ومخرجا للكفّار إلى النار.

[20] أمّا الجبال التي كانت تحافظ على توازن الأرض فإنّها تفقد وزنها ، وتسيّر ، وتنبثّ كما الهباء في الفضاء الأرحب ، ثم تتلاشى وتصبح سرابا.

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 423.

(**وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً**)

وهكذا ينهار نظـام عالمنا ، ذلك أنّه إذا كـانت الخليقة قد نظّمت لمصــلحة الإنســان وسـخّرت لحياته وفرضت عليها السنن إكراما له فها هو يسحب إلى قاعة المحاكمة للحساب والجزاء ، فلم يعد هنالك سبب لاستمرار النظـام السائد في الطبيعة.

إِنَّ جَهَنَّمَ كـانَتْ مِرْصـاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآبـاً (22) لابِثِينَ فِيها أَحْقابـاً (23) لا يَـذُوقُونَ فِيها بَـرْداً وَلا شَراباً (24) إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25) جَـزاءً وِفاقـاً (26) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَـيْناهُ كِتابـاً (29) فَـذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (30)

---

20 [سرابا] : السراب هو خيال الماء في الصحراء وقت الظهيرة.
21 [مرصادا] : هو مكان على صراط جهنّم ترصد فيه الملائكة الناس ، فعن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : (المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد).
23 [أحقابا] : جمع حقب والمراد الزمان الطويل والدهور المتتالية.
25 [غسّاقا] : هو صديد أهل النار وقيحهم.
26 [وفاقا] : الوفاق الجاري على مقدار الأعمال في الاستحقاق.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفــــازاً (31) حَـــدائِقَ وَأَعْنابــــاً (32) وَكَواعِبَ أَتْراباً (33) وَكَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْـمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً (35) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36) رَبِّ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الـرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَـةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَـواباً (38) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآبـاً (39) إِنَّا أَنْـذَرْناكُمْ عَـذاباً قَرِيبـاً يَـوْمَ يَنْظُـرُ الْمَـرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (40))

---

33 [وكواعب] : جمع الكاعب ، وهي الجارية التي نهد ثـدياها واسـتدارا لكونها في أول زمان رشدها.

[أترابا] : جمع ترب ، وهنّ المسـتويات في السن ، وقيل : على مقـدار أزواجهنّ في الحسن والصورة والسن.

34 [دهاقـا] : الـدهاق الكـأس الممتلئة الـتي لا مجـال فيها للمـاء أو الشراب وأصل الدهق شدّة الضغط ، وأدهقت الكأس ملأتها.

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً

هدى من الآيات :

هل وراء ذلك اليــوم الــرهيب أمر آخــر؟ بلى. ما هو أخطر منه النار أو الجنة. أوليست جهنم مرصاد الطاغين ، والجنة مفازة كريمة للمؤمنين؟ ولكن لما ذا يلبث الطغـاة في جهنم أحقابا متمادية قد تصل إلى درجة الخلــود؟ لأنّها سـنّة إلهية كما هي سـنّة أنّ النـار تحـرق والمـاء يتبخّر ، وحيث أنّهم لم يعوا هذه السنّة ، بل وكذّبوا بها وبآيات الله الـتي حـذّرتهم منها ، فـإنّهم انتهـوا إليها ، بينما المتقـون (الذين وعوا هذه السنة فاتقوا النار وتجنّبـوا ما يـؤدّي بهم إليهـا) فـإنّهم فـازوا بالجنة الـتي اسـتقبلتهم بحـدائقها وفواكهها وكواعبها وأمنها وسـلامها. إنّها أيضا الجـزاء المناسب الذي أعدّه الله لهم.

ويمضي السياق في تحذير الإنسان من يوم النشـور ، ويصـوّر بعض مواقفه بعد أن يـذكّرنا بالله سـبحانه ربّ السـموات والأرض وما بينهما ، ففي ذلك اليـوم تخشع أصوات العباد وأصوات الروح والملائكة الذين يقفون صفّا لا يتكلّمون إلّا من أذن له

الرحمن.

في ذلك اليـوم يتسـاقط زيف الباطل ، ويتجلّى الحق بكـلّ أبعـاده ، ولا تـزال فرصة الإختيـار للإنسـان في هـذه الــدنيا قائمة ، فمن شــاء عــاد إلى ربه تائبا خشــية ذلك اليوم. أمّا من يكفر فإنّ الله ينذره بعذاب قـريب (بـالرغم من أنّ الشــيطان يبعــده عن ذهن البشــر) يقع في ذلك اليوم الرهيب الذي يرى الإنسان ما قـدّمت يـداه من خـير وشر (متجسدين في جزاء حسن أو عذاب شـديد) ، وحين يرى الكـافر حقـائق أعماله يتمنّى لو بقي ترابا ولم يحشر لمثل ذلك الجزاء.

بينات من الآيات :

[21] يتعامل الإنســـــان مع ســـــنن الله العاجلة في الطبيعة من حوله ، فــتراه يتجنّب النــار أن يحــترق بها ، والحيّات أن تلدغه ، والجـراثيم أن تغـزوا جسـده فتهلكه ، فلما ذا يا تــرى لا يتجنّب تلك السـنن الآجلة ، وما الفــرق بين نار تحرقه اليوم وأخرى تحرقه غدا ، أو حية تلدغه من جحر في الصـحراء وأخـرى يصـنعها بعمله لتلدغه غـدا في الآخــرة ، ومن ميكــروب يتكــاثر في جســمه اليــوم وآخر يزرعه في حياته الدنيا ليحصده في تلك الدار الحق؟!

إنّ سـنن الله في الـدنيا تـذكر بما يماثلها في الآخـرة ولكنّ الإنسان يؤمن بواحدة ويترك أخرى. لما ذا؟

يبدو من آيات القرآن عموما ، وهذا السـياق بالـذات ، أنّ الجــزاء يــوم النشــور نوعــان : الأول : هو ذات العمل الــذي يرتكبه اليــوم ويتجسد له جــزاء وفاقا في الآخــرة ، كمثل نــار يوقــدها الإنســان في بيته فتحرقه ، أو ثمــرة يغرسها في أرضه فيتمتع بثمراتها. النـوع الثـاني : الجـزاء الذي يقدّره الربّ للصالحين في الجنة من فضله

ويحسب الحسـنة بعشـرة. والآية التالية تشـير إلى النـوع الأول :

(**إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً**)

فهذه كانت مركز رصد ومرتع الجزاء في الآخـرة. إنّها سنّة إلهية ونظام مقدّر لن يفلت منها من يكذّب بها ، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه وآله السلام ـ :

«**ولئن أمهل (اللـه) الظـالم فلن يفـوت أخـذه ، وهو له بالمرصـــاد على مجـــاز طريقه ، وبموضع الشجا من مساغ ريقه**» [1]

[22] والطغاة الذين يتجـاوزون حـدّهم ، ولا يتجنّبـون ما يقـرّبهم إلى النـار ، سـوف يعـودون إلى النـار الـتي صنعوها بأفعالهم.

(**لِلطَّاغِينَ مَآباً**)

ولعلّ كلمة مآب توحي بأنّهم سـبب إيقـاد النـار الـتي عادوا إليها ، لأنّها منزلهم الذي بنوه ووطنهم الذي اختاروه لأنفسهم.

[23] كم يبقون في هذه النار؟

(**لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً**)

جـاء في روايـات أهل الـبيت أنّ الآية تخصّ المـذنبين الذين يقضون في النـار فـترة من الـوقت بقـدر ذنـوبهم ، وعلى هـذا فمعـنى الأحقـاب الـدهور المتتالية أو السـنين المتلاحقة.

---

(1) نهج البلاغة / خ 97.

وقال بعض المفسرين : معنى الآية أنّهم يلبثون في النار أحقابا متتالية لا تنقطع ، فكلّما مضى حقب أدركهم حقب آخر. قالوا : وإنّما استعاضت الآية بالأحقاب عن السنين لأنّها أهول في القلوب وأدلّ على الخلود ، وإنّما كان الحقب أبعد شيء عندهم ، وقالوا : الحقب ثمانون سنة. وإذا كانت السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وكان اليوم في الآخرة كألف سنة مما نعدّه من سنيّ الدنيا فلك أن تتصوّر أيّام الطغاة في جهنم!

وجاء في الحديث عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال : «**لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا ، والحقب بضع وستون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كلّ يوم ألف سنة ممّا تعدّون ، فلا يتّكلنّ أحد على أن يخرج من النار**» [1]

[24] خلال هذه الأحقاب المتتالية والدهور المتطاولة لا يجد الطغاة هنالك سوى العذاب الذي لا يفتر عنهم أبدا.

(**لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً**)

فلا يجدون طعم البرد وبرد الشراب ، ولا لحظة واحدة ولا بقدر بسيط.

قالوا : البرد هنا بمعنى النوم ، واستشهدوا بما تقوله العرب : منع البرد البرد ، أي منع النوم البرد ، وقال بعضهم : بل هو عام يشمل برد ريح أو ظل أو نوم ، وأنشدوا :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء أوقات العشي تذوق [2]

[25] إنّما يتواصل لهم شراب يغلي وماء نتن.

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 424.

(2) راجع القرطبي / ج 19 ص 180.

(**إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً**)

الحميم : الماء الحار. أمّا الغسّاق فهو ماء نتن ، وقيل : صديد أهل النار وقيحهم.

[26] أتـرى هل ظلمهم ربّهم حين أوقعهم في النـار؟ كلّا .. لقد ظلمـوا أنفسـهم. أوليس قد واتر عليهم رسـله؟ إنّ هذا جزاء أعمالهم ، ونهاية مسيرتهم.

(**جَزاءً وِفاقاً**)

أي جزاء موافقا لأعمالهم بلا زيادة أو تغيير.

[27] لما ذا انتهى بهم المطـــاف إلى هـــذه العاقبة الســـوئى؟ لأنّهم لم يتوقّعـــوا الحســـاب فـــأفرطوا في السيئات ، كما المجرم حين لا يفكّر في العدالة يتوغّل في اقتراف الموبقات.

(**إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً**)

[28] وإذا أنـــذرهم الرسل والـــدعاة بالحســـاب وإذا جاءتهم آيات النشور تترى ، كذّبوا به وبآياته.

(**وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً**)

[29] بلى. كـان الحســاب قائما ، وكـانت أعمــالهم وأنفاسـهم ولحظـات حيـاتهم وهـواجس نيّـاتهم كـلّ أولئك كانت محسوبة عليهم.

(**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً**)

فلم يغادر كتاب ربنا صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

[30] واليوم جاء يوم الجزاء بعد الإحصاء الشامل.

(**فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً**)

إنّها النهاية المريعة ، ومعرفة الإنسان في الدنيا بهـذه الحقيقة : أنّ عــذاب جهنم يــزداد كما أنّ نعيم الجنة في اضطراد ، هذه المعرفة تجعل هذه الزيـادة حكيمة وعادلة لأنّ الإنسان باختياره الحر بلغ هذه العاقبة.

حقّا : إنّ تصـوّر هـذه الحقيقة يجعلنا أكـثر حـذرا من جهنم وأشدّ شوقا إلى الجنة ، وقد روي عن النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**هذه الآية أشد ما في القـرآن على أهل النار**» [1].

[31] بإزاء ذلك نجد المتقين الـذين تحـذّروا موجبـات النـار في الـدنيا ، وتجنّبـوا السـيئات الـتي تـدخلهم جهنم ، نجدهم بعيدين عنها بعدهم عنها في الدنيا.

(**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً**)

وأعظم فوز لهم نجاتهم من نار جهنم. أولا تـرى قـول الله سـبحانه : «**فَمَنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ**»؟

[32] وبالإضافة إلى النجـاة من النـار فـإنّهم يحظـون بنعيم الأبد.

(**حَدائِقَ وَأَعْناباً**)

ولعل ذكر العنب بين سـائر الثمـار لأنّه طعـام وفاكهة وفيه من الفوائد ما ليس في غيره ، حتى جاء في الحديث : «**خير فواكهكم العنب**» [2].

---

(1) عن تفسير الكشاف / ج 4 ص 690.

(2) تفسير نمونه / ج 26 ص 48.

[33] الزوجة الموافقة تكمل الســـــعادة ، ليس لأنّها فقط للتمتع الجنسي ، وإنّما أيضا لحاجة الروح إلى تفاعل مع روح أخـــرى ، تكـــون لها كـــالمرآة تنظر فيها نفســـها والعكس ، وقد وفّر الله لعباده الصالحين الحور العين في الجنة ، بأفضل ما يتصـــــــوره البشر ، بل وأفضل مما قد يتصوره جمال قمة في الروعة والجمال الظـاهري ، ومثل أعلى لجمال الروح ، والخلق الفاضل والأدب الرفيع حـتى يصلحن للمؤمنين ومستواهم السامي.

(**وَكَواعِبَ أَتْراباً**)

الكـاعب : البنت عند اسـتدارة صـدرها ، وتفتّح أنوثتها مما تكـــون ألذ للرجل وأشـــهى ، فهنّ كـــواعب ، ثم هنّ أتراب موافقات لروح الرجل خلقا وعقلا وشهوات. ويملك المؤمن أكثر من واحدة منهنّ حسب أعماله الصـالحة ممّا يستحيل مثل ذلك في الحياة الدنيا.

[34] جلسات الأنس لا تصفوا بدون شراب منشّــط ، وقد وفّره الله للصالحين بأحسن ما يشتهون.

(**وَكَأْساً دِهاقاً**)

قــالوا : الـدهاق ما امتلأت من الشــراب ، وقيل : ما تواصلت ، وقيل : ما صفت.

وكلّها تصدق في شراب الجنة.

[35] ولا تكتمل نعم الحياة بسـوى الأمن ، والجنة دار السلام فلا اعتداء ولا ظلم ولا مرض ولا سـبات ولا خشـية فناء النعم وزوالها .. وحـتى الكلمـات الجارحة الـتي تبعث الرعب والقلق والألم في النفس لا وجود لها.

(**لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً**)

وإنّما يتبـــادلون العلم والمحبّة وذكريـــات الماضي ويحمـــدون ربهم على النعم. ولما ذا قـــول اللغو من غيبة وتهمة وفحش ما دامت نفوسهم طيبة والخيرات متـوافرة لهم؟ ولما ذا الكـذب وهو لا يكـون إلّا لخبث أو خـوف أو طمع وأهل الجنة مبرّأون من كلّ ذلك؟

[36] كل هـذه النعم تـترى عليهم بفضل الله لأنّهم اختاروا الصراط المستقيم والعمل الصالح.

(**جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً**)

يبـدو أنّ معنـاه أنّ هـذا العطـاء العظيم يكـون حسب أعمـالهم حيث أنّ درجـات المؤمـنين تختلف هنـاك حسب درجاتهم هنا.

وقيل : «حسابا» بمعنى الجـزاء الـوافي بحيث يقـول المجـزي : حسـبي ، يقـال : أحسـبت فلانا أي كثّـرت له العطاء حتى قال حسبي.

وقيل : «حسابا» لما عملـوا ، فالحسـاب بمعـنى العد أي بقـدر ما وجب له في وعد الـرب ، فإنّه وعد للحسـنة عشـرا ، ووعد لقـوم بسـبعمائة ضـعف ، وقد وعد لقـوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار ، كما قال تعالى : «**إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ**».

وتعـود الأقـوال جميعا إلى حقيقة واحـدة هي العطـاء الجزيل.

[37] ولكي لا يسـتكثر الإنسـان هـذه النعم بيّن الله أنّها من عند الـربّ العظيم ، الـذي له ملك السـموات والأرض وهو الرحمن.

(**رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ**)

وما ظنّك بالرحمن الذي وسعت رحمته كلّ شـيء إذا شاء أن يجزل العطاء؟

(**لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً**)

إنّه عظيم إلى درجة تعاليه عن تخـاطب خلقه ، لو لا رحمانيته الـتي يـنزل بها وحيه على عبـاده عـبر رسـول أو من وراء حجاب.

ولو لا أنّ الله سبحانه أذن لعبـاده بدعائه ، وألقى في قلوب مريديه أنوار محبته ومناجاته ، لما استطاع الإنسـان ـ أيّ إنسـان ـ أن يسـمو إلى درجة مخاطبتـه. أليس الخطاب بحاجة إلى توافق طرفين ، أو فرض طـرف على آخـر؟ والله ليس بمسـتوى خلقه حـتى يتوافق معه ، ولن يفرض عليه شيء. وهكذا تشير الآية إلى أنّ البشر وسائر الخلق ليسـوا بمسـتواه ، وأنّهم لا يملكـون منه شـيئا فلا يفرضـون عليه شـيئا ، وهو يملكهم ، وبرحمته يتفضّـل عليهم بمخـاطبتهم ، وقد يـأذن لبعضـهم إذنا تكوينيّا وتشـريعيّا بمخاطبته ، وذلك حين يعـرّفهم نفسه ويلهمهم مناجاته.

وقد اختلفـوا فيمن لا يملك الخطـاب ، هل المؤمنـون الذين ذكـروا آنفا ، أم الكفّـار باعتبـارهم المطـرودون عن باب رحمته ، أم كلا الفريقين؟ يبـدو أنّ الضـمير ليس يعم المؤمنين والكفّار فحسب بل ويشمل سائر الخلائق (الجن والملك والروح) بشـهادة الآية التالية الـتي جـاءت تفصـيلا لهذه الآية ، ومثلا ظاهرا .. بالرغم من أنّ هذه الآية ـ فيما يبدو لي ـ لا تخص يـوم القيامة ، بلى. يـوم القيامة تتجلّى هذه الحقيقة بوضوح أكبر.

[38] تتجلّى عظمة ربنا لعباده يوم البعث الأكـبر حين يقوم الروح بكلّ عظمته وجلاله بين يديه ، والملائكة صـفّا لا يتكلّمون ، وقد خشعت أصوات الخلائق

لعظمة الـرب. ثم يـأذن الله برحمانيته لبعضـهم بـالكلام شريطة ألّا يتكلّم إلّا صوابا.

(**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ**)

وما الروح؟ اختلفوا في ذلك ، فقال البعض : إنّه خلق أكبر من سائر الخلق حتى من الملائكة المقـرّبين جبرائيل وميكائيل ، جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : «**ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل**» [1].

وعلى هذا فـإنّ الـروح هو روح القـدس الـذي يؤيّد به الله أنبياءه ، قال سبحانه : «**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ**» [2] ، وهو حسب تفسيرنا المراد بقوله سـبحانه : «**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**» [3] ، وقوله سبحانه : «**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**» [4].

وقال البعض : إنّه جند من جنود الرحمن كما الملائكة ، وروي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال :

«الروح جند من جنود الله ليسـوا بملائكة لهم رؤوس وأيـــــــــــــــــدي وأرجل ، ثم قـــــــــــــــــرأ : «**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا**» ، قـال : هـؤلاء جند وهؤلاء جند.» [5]

وقــال بعضــهم : إنّه جبرئيل أليس يقــول ربنا عنه : «**نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**» [6]

---

(1) عن تفسـير مجمع البيـان / ج 10 ص 427 راجع تفسـير نمونه / ج 26 ص 58.
(2) النحل / 102.
(3) الإسراء /
(4) القدر / 4.
(5) عن الــدر المنثــور / ج 6 ص 309 تفســير نمونه / ج 26 ص 58 ومثله القرطبي / ج 19 ص 187.
(6) الشعراء / 193.

وقال بعضهم : المراد أرواح الخلائق ، وقال آخــرون : المـراد القـرآن ، وقـالوا : أشـراف الملائكة ، وقـالوا : بنو آدم والمعنى ذووا الروح [1].

ويبدو لي أنّ الروح في الأصل خلق نوراني أعظم من الملائكة وله جنود وامتدادات ، فمنه تسـتمد أرواح النـاس قوتهم وحياتهم ، وبه يؤيد الله أنبياءه وأولياءه ، وهو الـذي يتنزّل في ليلة القدر ، وهو الذي يقـوم بين يـدي الله يـوم القيامة مع صفوف الملائكة.

(**وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ**)

لأنّ هيبة الله تقفل ألســـنتهم ، ولأنّهم محكومـــون مربوبـون ، فمن السـفه أن يتّخذ أحد منهم إلها لأنّ كل ما لديهم من الله سبحانه ، وحتى الشـفاعة لا يقـدرون عليها إلّا بعد أن يـــأذن الله لهم بها ، والله لا يـــأذن بها إلّا لمن يشاء وبحكمة أي بحساب دقيق.

(**إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً**)

وهـذه الآية تـذكّرنا بقوله سـبحانه : «**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَـعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَـهُ الـرَّحْمنُ وَرَضِـيَ لَـهُ قَـوْلاً**» والـتي قلنا فيها : إنّ للشـفاعة شـرطين : إذن الله ، وأن تكون مرضية أي عبر مقيـاس الثـواب والعقـاب وليس بلا أيّ ميزان ومقياس ، ويبدو أنّ قوله سـبحانه هنا : «وقـال صوابا» يشير إلى ذلك.

[39] كما تتجلّى عظمة الله في ذلك اليـــوم ، يتجلّى كـذلك الحق ، فلا شـفاعة بالباطل ولا كـذب ولا دجل ولا أحكام جائرة.

---

(1) تفصيل هذه الأقوال مذكور في تفسير القرطبي / ج 19 ص 186 ـ 187 فراجع.

(**ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُ**)

فهو حق لا ريب فيه ، ولأنّه رهيب بأحداثه الـتي تنـوء بها السـموات والأرض فكيف بهـذا الإنسـان المسـكين؟! لذلك فإنّه يستحق أن يسمّى بالحق.

وفيه لا ينفع إلا الحق ، وهو ابتغاء مرضاة الرب.

(**فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً**)

أي طريقا للعودة إليه. أولسنا قد فطرنا على الايمـان ثم انحرفت بنا الدنيا وشـهواتها؟ تعـالوا نعـود إلى الطريق الأول ، إلى سبيل الله ، إلى الرب الودود.

[40] وقبل يوم القيامة عذاب قريب يقع قبل المـوت وبعد المـوت ، فـإذا مـات ابن آدم قـامت قيامته الصـغرى فيرى عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

(**إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً**)

قـال بعضـهم : المـراد الحسـاب بعد المـوت ، وقـال البعض : إنّه يوم القيامة ذاته باعتباره حقّا لا ريب فيه وأنّه يـأتي وأنّ كـلّ آت قـريب ، أو باعتبـار الإنسـان إذا مـات انعـدم إحساسه حـتى يبعث للحسـاب ففي حسـابه يتصل يوم موته بيوم بعثه ، إلّا إذا محض الإيمان أو محض الكفر فإنّه يحس بالثواب أو بالعقاب.

وسواء بعد الموت أو بعد النشور فإنّ أعمال الإنسـان تتجسد ثوابا أو عقابا ينظر إليها.

(**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ**)

من خير أو شر ، والمـراد من اليد مجمل ما يقـوم به الإنسان. وحين يرى المؤمن

عمله يفرح كثيرا ، ولكن حين يرى الكــافر عمله يتمنّى لو كان ترابا ولم يرتكب ذلك العمل السيء.

(**وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً**)

ما أشد هـذا الإنسـان نـدما أن يصل إلى هـذه الدرجة فيتمنّى لو كان ترابا ولم يقترف تلك الجرائم!

هـذا الإنسـان الـذي خلقه الله سـبحانه ليكـون ضـيفا عنــده في جنــات الخلد بلغ به الحــال أن يكــون أرذل من الــتراب. فكيف والــتراب ينتفع به وهو لا ينتفع بـــه؟! بل يستحق المزيد من الهوان والأذى.

سورة النّازعات

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «من قرأ والنازعـات لم يمت إلّا ريّانا ، ولم يبعثه الله إلّا ريّانا»

نور الثقلين / ج 5 ص 497

الإطار العام

يبدو أنّ سورة النازعات تـنزع من نفس المهتـدين بها طغيانها ، ولكن كيف؟

أولا : بتلاحق كلمـــــات القسم الصـــــاعقة ، وبما هو مجهول عنـدنا ، من ملائكة لمـوت أو حالة المـوت أو خيل الغزاة.

ثانيا : تنــذر بيــوم الراجفة ويــوم الرادفة حيث تكــون القلــوب واجفة ، أبصــارها خاشــعة. من هم أولئــك؟ إنّهم الذين يقولـون في الـدنيا : أإنا لمـردودون إلى الحيـاة كما نحن الآن حتى ولو كنّا عظاما نخرة؟! فيقـول لهم القـران : بلى وبزجــــرة واحــــدة تخــــرجكم الأرض إلى ظهرها المستوي ، لا يرون فيها أمتا ولا عوجا.

ثالثا : تقص علينا حـديث موسى وفرعـون ، وكيف أنّ فرعـــون طغى ولم يســتمع إلى إنـــذار رســول الله إليه فأخذه الله نكال الآخرة والدنيا.

رابعا : ترينا آيـــــات الله في الســـــموات والأرض ، وحكمته البالغة التي تتجلّى في

نظـام الخلقـة. كيف مسك السـماء وسـوّاها كيف أغطش ليلها وأخـــرج ضـــحاها ، وكيف دحى الأرض وأخـــرج منها ماءها ومرعاها ، وكيف أرسى جنباتهـــا. كل ذلك لحيـــاة الإنسان والبهائم التي تساعد الإنسان.

خامسا : بعد ذلك يذكّرنا بالطامة الكبرى حيث يتــذكّر الإنســـان ما ســـعى ، ويـــبيّن أنّ حكمة الخلق تتجلّى في الجزاء النهائي ، عند ما يلقى في الجحيم من طغى ، بينما تكون الجنة مأوى الخائفين مقام ربهم.

وفي خاتمة السورة يذكّرنا السياق بتـبرير يتشـبث به الجاحـــدون عبثا حيث يتســـاءلون عن الســـاعة : أيّـــان مرســـاها؟ ولكن أين أنت والســـاعة؟ إنّ علمها عند الله وإليه منتهاهـــا. إنّما أنت منـــذر. دعنا نخشـــاها ، ففي ذلك اليـوم تعمّ الحسـرة كـلّ أبعـاد وجودنا لأنّنا نحتسب عمرنا في الدنيا عشية أو ضحاها.

وهكـذا تحقّق آيـات السـورة هـدفها لمن يشـاء ، وهو معالجة طغيان النفس وغرورها

سورة النّازعات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالنَّازِعـاتِ غَرْقـاً (1) وَالنَّاشِـطاتِ نَشْـطاً (2) وَالسَّـــابِحاتِ سَــبْحاً (3) فَالسَّـــابِقاتِ سَــبْقاً (4) فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**

1 [والنازعـات غرقـا] : قيل : هم الملائكة يـنزعون أرواح الكفّـار عن أبـدانهم بالشـدة كما يغـرق النـازع في القـوس فيبلغ بها غاية المـدى ، وقيل : هي النجـــوم تـــنزع من أفق إلى أفق أي تطلع وتغيب ، قـــال البعض : تـنزع من مطالعها وتغـرق في مغاربها .. وهنـاك معـان أخـرى للآية.

6 [الراجفـة] : قيل هي النفخة الأولى الـتي يمـوت فيها جميع الخلائق ، والراجفة صيحة عظيمة فيها تردّد واضطراب كالرعد إذا تمخض.

(6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَــةُ (7) قُلُــوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَــةٌ (8) أَبْصــارُها خاشِـعَةٌ (9) يَقُولُــونَ أَإِنَّا لَمَـرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10) أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِـرَةً (11) قـالُوا تِلْـكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ

---

7 [الرادفــة] : قيل هي النفخة الثانية تعقب النفخة الأولى وهي الــتي يبعث معها الخلق.

8 [واجفة] : شـديدة الاضـطراب ، والوجيف : سـرعة السـير ، وأوجف في السير : أسرع وأزعج الركاب فيه.

10 [الحـافرة] : الطريق الـتي مـرّ فيها الإنسـان ، تسـمّى بـذلك لأنّه حفرها بتـأثير أقدامه فيها ، فالكـافرون يتسـاءلون : هل نحن نعـود إلى الحياة بعد الموت كالسابق؟

11 [نخرة] : بالية ، وفي مفـردات الـراغب : نخـرت الشـجرة أي بليت فهبّت بها نخـرة الـريح أي هبوبها ، والنخـير : صـوت من الأنـف. وهـذا يوافق ما قيل من أنّ الناخرة من العظم ما فـرغت وخـرج منها صـوت بسبب هبوب الرياح.

13 [زجـرة] : هي صـيحة الصـور ، وسـمّيت بـذلك لأنّها تزجر وتـردع المخاطب عن سيره الأوّل إلى نحو السير الثاني.

وَاحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اِذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (19) فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (20) فَكَذَّبَ وَعَصى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (22) فَحَشَرَ فَنادى (23) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (24) فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى (25) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (26)

---

14 [بالساهرة] : هي وجه الأرض ، والعرب تسمّي وجه الأرض من الفلاة ساهرة أي ذات سهر لأنّ من يريد النوم عليها يسهر خوفا ممّا فيها من العدو والحيوانات الوحشية. وهنا إشارة : أنّ المحشر يكون في أرض مستوية كالفلات لا اعوجاج فيها ولا بناء ولا شجر ولا كهوفا ولا مغارات يفلتون إليها من يد العدالة ، يقول ربّنا : «يوم هم بارزون».

16 [طوى] : اسم للوادي الذي كلّم الله فيه موسى.

وقيل : طوي بالتقديس مرّتين.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ

هدى من الآيات :

لكي لا تغمر النفس الغفلة عن ذكر الله يذكّرنا السياق بما ينتظرنا من حالات النزع والنشط والسبح والسبق ، ثم بيوم القيامة حيث الصيحة التي تفنى بها الخلائق ، والصيحة التي تحيى بها. في ذلك اليوم تتسارع نبضات القلوب ، وتخشع الأبصار ، لما ذا؟ لأنّهم كانوا لا يرجونه ، وكانوا يقولون : هل نعود كما نحن اليوم ، أو بعد أن نصبح عظاما نخرة؟! ثم قالوا : (**تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ**). بلى. إنّهم يعودون وبصيحة واحدة تنقلهم من رحم قبورهم إلى ظاهر الأرض المستوية.

ثم ينقلنا السياق إلى حديث موسى الذي ناداه ربه وأمره بإنذار فرعون الطاغية لعلّه يتذكر أو يخشى ، ولكنّه أبى وتحدّى حين حشر الناس ونادى فيهم : أنا ربكم الأعلى ، فأهلكه الله في الدنيا بعذاب وألحقه بعذاب الآخرة. كل ذلك ليبقى عبرة لمن يخشى.

وهكذا تواصلت رسالات الله لإنذار البشر بذلك اليـوم الرهيب الذي ينتظر الجميع.

بينات من الآيات :

[1] في حياة المـرء لحظـات حاسـمة لو وعاها ونظّم مسيرته وفقها تجاوز خطرها ، ومن أبرزها عند نزع الروح ، عند ما يـودّع حيـاة طالما عمل لها ، ويـدخل في حيـاة مجهولة تماما لديه ، وعند ما يقسم القـــرآن بمثل هـــذه اللحظـــات فلكي نعيد النظر في تصـوّراتنا عن أنفســنا ، ونكبح منها جماح الغرور والطيش.

(**وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً**)

قسما بتلك القوى التي تنزع الأرواح من أبـداننا بقـوّة كما ينزع القوس فيغرق فيه حتى يبلغ غاية مداه.

ويبـدو أنّ المـراد منها الملائكة الـذين يقومـون بهـذا الدور.

[2] ثمّ قســما بــالقوى الــتي تنشط في هــذا الأمر نشطا.

(**وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً**)

قـالوا : النشط هو الجـذب بسـهولة ويسر ، فـالمعنى هنا أنّ الملائكة تنشط أرواح المؤمنين ، كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلّ عنها. من هنا يعتقد أنّ القسمين هما بملك الموت وأعوانه في حـالتين : عند نـزع أرواح الكفّـار غرقا أي بقـوة وشـدة ، وعند نـزع أرواح المؤمـنين بنشط ورفق.

وقد روي عن الإمام علي ـ عليه السـلام ـ معـنى معا كسا في هذه الآية حيث

قـــال أنّها : «**الملائكة تنشط أرواح الكفّــار بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافهم بالكرب والغم**»[1].

[3] ثم تحمل الملائكة أرواح المؤمــنين إلى الســماء فتسبح فيها سبحا .. كما تسبح النجوم في أفلاكها.

(**وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً**)

[4] ثم تتسابق بسرعة لتبلغ غاية الروح النار أو الجنة .. فقسما بأولئك الكرام.

(**فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً**)

[5] وقسما بأولئك الملائكة الذين يدبّرون أمر الأرواح وغيرها من أمور عالمنا بإذن ربّهم.

(**فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً**)

قسـما بهم جميعا : إنّ يـوم الفصل آت ، وإنّ الجـزاء واقع لا ريب فيه.

كان هذا أحد التفاسير في معنى هذه الآيات ، وهنــاك تفسيرات أخرى :

1 / أنّ المــراد بالنازعــات فإنّها تــنزع من أفق لآخر ، وتنشط في سـيرها ، وتسـبح في الفضـاء ، وتسـاءلوا عن معنى تدبيرها الأمر فقالوا معناه أنّ الله يدبّر الأمر بها.

2 / أنّ النازعات هي الأرواح التي تنزع كما يقال لابن وتامر لمن يملك اللبن والتمر ، وهي أيضا الــتي تنشط أي تخـرج ثم تسـبح في الفضـاء ، وتسـاءلوا مـرّة أخـرى عن تفسير المدبّرات أمرا فقالوا : إنّ أرواح بني آدم تدبّر عبر الأحلام لبعض الأمور بعد

(1) تفسير مجمع البيان ج 10 ص 429.

فراقها من الدنيا ، وهذا تفسير غريب.

3 / وقـال بعضـهم : أنّها صـفة خيل الغـزاة أو الغـزاة أنفســـهم ، لأنّها تـــنزع في أعنّتها نزعا تغــرق فيه الأعنّة لطول أعناقها لأنّها عراب ، وهي ناشطات لأنّها تخـرج من دار الأمان إلى جبهات الحرب ، وهي سابحات لأنّ العـرب تشبّه الخيل الأصيل بالسفينة التي تجـري بيسر وسـرعة ، وقالوا : إنّها تدبّر أمر الغلبة والنصر.

وإنّ هذا التفسير يبدو مقبولا إذا لاحظنا أنّ ربنا أقسم بخيل الغـــــزاة أو عموما بالخيل في قوله ســـــبحانه : «**وَالْعادِياتِ ضَـبْحاً ، فَالْمُورِيـاتِ قَـدْحاً**» [1] ، وكـانت للعـــرب علاقة حميمة مع الخيل ، كما أنّه كـــان رمـــزا للشجاعة والفروسية.

إلّا أنّ تفسير «المدبّرات أمرا» بها يبقى غريبا ، لذلك قال بعضهم : إنّه لا خلاف في تفسـير هـذه الآية بالملائكة أنّى فسّروا سائر الآيات ، بينما يبدو أنّ المـراد بكـلّ هـذه الكلمات نوعا واحدا من الخلائق ، والله العالم.

[6] وأنّى كـان تفسـير هـذه الكلمـات الصـاعقة فإنّها تهـزّ الضـمير ، بل ويـزداد المـرء هلعا حين لا يعلم المـراد منها بالضبط ، وهنا يقول الرب :

(**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**)

حين تزلـزل الأرض زلزالها ، حين تعم الصـيحة أرجـاء الكـون ، حين تهـتز كـلّ الثـوابت فلا يبقى ما يعتمد عليه الإنسان سوى الحق. وسواء كانت الرجفة بمعـنى الحركة كقوله سـبحانه : «**يَـوْمَ تَرْجُـفُ الْأَرْضُ وَالْجِبـالُ**» ، أم بمعنى الصيحة كما قال سبحانه : «**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ**» ، فإنّها تخلع القلوب هلعا ، وتبعثنا نحو التفكـير الجـدي فيما يفعل بنا غدا.

---

(1) التفسير الكبير ج 32 ص 63.

[7] وبعد الرجفة هناك صاعقة أخـرى يـدعها السـياق مجهولة.

(**تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**)

الرادفة الشيء يقع بعد شيء آخر ، فهل هي الصيحة الثانية التي يحـيى بها الله النـاس بعد أن يميتهم بـالأولى ، أم أن عند الأولى يمـــوت أهل الأرض بينما يمـــوت عند الثانية أهل السـموات؟! أنّى كـانت فإنّها صـاعقة فظيعة تبعث الهيبة في أنفسنا.

[8 ـ 9] تتسـارع نبضـات قلـوب الفجّـار فـأنّى لهم الفرار من أهوال السـاعة وقد ضـيّعوا فرصـهم في الـدنيا فلم يدّخروا لأنفسهم ما ينجيهم منها؟

(**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ أَبْصارُها خاشِعَةٌ**)

أمّا المؤمنون فإنّهم آمنـون من فـزع يومئذ ، لأنّهم قد وفّروا لأنفسهم من صـالح الأعمـال ما يبعث في أنفسـهم السكينة.

[10] طالما كفروا بالنشور ، وبنوا كل مـواقفهم على أساس هذا الكفر ، فإذا بهم يكتشفون خطأهم.

(**يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ**)

قـــالوا : رجع فلان في حافرته أي في طريقته الـــتي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه. وهكذا يبعّدون البعث لأنفسهم حتى لا يتحملوا مسئولياته.

[11] ويحـــاولون تـــبرير اســتبعادهم للبعث بأنّه كيف يمكن إعادة هذه الأعظم البالية التي تنخر فيها الريـاح لما فيها من ثقوب كثيرة.

(**أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً**)

حكي عن كتــاب الخليل : نخــرت الخشــبة إذا بليت فاسترخت حتى تفتت إذا مسّت ، وكذلك العظم الناخر [1] وقيل : النـاخرة من العظم ما فـرغت وخـرج منها صـوت بسبب هبوب الرياح.

[12] ثم عــادوا إلى الواقع وقيّمــوا مــوقفهم الجاحد فقالوا إذا كانت القيامة حقّا فإنّهم الخاسرون لكفرهم بها.

(**قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ**)

ولعل هـذا القـول كـان اعترافا منهم يـدانون به يـوم القيامة ، أو جحودا بعد اليقين وعنادا بعد الإذعــان. وقيل : إنّما هو استهزاء وسخرية.

[13] دعهم يقولـوا ما يشـاءون فـإنّ القيامة واقعة ، وبزجرة واحدة تراهم قياما في الساهرة.

(**فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ**)

زجر البعــير إذا صــاح عليه ، ويبــدو أنّ المــراد منها النفخة الثانية التي يحيي بها الله من في القبور.

[14] (**فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ**)

الساهرة الأرض المستوية سميّت بذلك لأنّ سالكها لا ينـام فيها خوفا منهـا. ويبـدو أنّ السـاهرة هي وجه الأرض في مقابل باطنها حيث أنّهم كــــانوا في بــــاطن الأرض فتحوّلوا إلى ظاهرها.

---

(1) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج 19 ص 198.

[15] حقيقة كيـــوم القيامة ، عند ما تـــدق ســـاعة الحساب الرهيب ، جديرة بـأن نتـذكرها ، بل نجعلها نصب أعيننا أبدا حتى نكيّف على أساسها كلّ أبعاد سلوكنا وكـلّ جـــوانب تفكيرنا ، ومن أجل هـــذا بعث الله الرسل لكي ينـذروا الطغـاة لعلهم يخشـون من تلك العاقبة ، ولكنّهم تمـادوا في غيّهم حـتى أهلكهم الله وعجّل بهم إلى النـار ، فهل لنا أن نعتبر بتاريخهم المأساوي؟

(**هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى**)

بلى. ولكن هل اعتـبرت بهـذا الحـديث؟ فـإن لم تكن اعتبرت به فكأنّك لم تسمعه أبدا.

[16] لقد بـدأت قصـته بـدعاء ربه ، عند ما صـار في الواد المقدس طوى.

(**إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً**)

لقد تقدست تلك الأرض بـالوحي. ولعل اسـمها كـان طــوى أو أنّ هــذه صــفة الأرض من الطي كأنّها طــويت بالقداسة أو طـــويت بموسى حيث قرّبته إلى الرســـالة. ولعل طوى صفة لكل أرض مباركة حيث أنّ سالكها يتمتع بالسير فيها حتى وكأنّها تطوى له.

[17] ثم أمـره الـرب بـأن يـذهب إلى رأس الطغيـان والفساد فرعون.

(**اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى**)

وبالرغم من طغيانه لم يدعه الله بلا نــذر ، ولم يهلكه قبل أن يبعث إليه رسولا ، ليتم الحجة عليه.

[18] وتلخّصت رســـالة الـــوحي إليه في دعوته إلى التزكية وإصـــلاح نفسه ، وعـــدم هلاكها بالاســـتمرار في الطغيـان. سبحانك يا رب ما أرحمك بعبـادك ، وكيف تريد لهم الفلاح ويأبون إلّا التمادي في الفساد.

(**فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى**)

[19] فـإذا تـزكّى المـرء ، وتطهّر من العنـاد والغـرور والكـبر ، كـانت نفسه مهيّـأة لاسـتقبال نـور الإيمـان عـبر رسول الله ، فإذا هـداه الله إليه بالرسـول خشـعت نفسه وتخلّص جذريّا من حالة الطغيان.

(**وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى**)

[20] وطالب فرعون موسى بالآية ، لعله يتهـرّب عن الهداية عند ما لا يأتيه بها لحكمة بالغة ، ولكنّ الله أظهر له الآية على يد نبيه إتماما لحجته.

(**فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى**)

متمثلة في العصا واليد البيضاء.

[21] وإذا نـزلت الآية الواضـحة ثم كفر المـرء فـإنّ العقوبة تعجّل له ، لأنّ الكفر آنئذ يكـــون تحـــدّيا صـــارخا لسـلطان الـرب ، ولعله يكـون أيضا سـببا لضـلالة سـائر الناس ، وهكذا تتابعت حلقات النهاية.

(**فَكَذَّبَ وَعَصى**)

كذّب بالآية ، وعصى الـرب تعـالى حين عصى موسى نبيه عليه السلام.

[22] وتمادى في التكذيب والعصيان حين راح يسعى في الأرض فسادا.

(**ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى**)

[23] وأخذ يضلل الناس ، ويجنّد الضالين ضد رسالة الله.

(**فَحَشَرَ فَنادى**)

أي جمع الناس ونادى فيهم بضلالاته.

[24] وأعظم تلك الضلالات دعوته بأنّه الرب الأعلى ، واستكباره في الأرض ، وفرض قانونه الوضعي على الناس في مقابل شريعة الله سبحانه.

روي عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنّه قال : «قال جبرئيل ـ عليه السلام ـ : نازلت ربّي في فرعون منازلة شديدة فقلت : يا ربّ تدعه وقد قال : أنا ربكم الأعلى؟! فقال : إنّما يقول هذا عبد مثلك» [1] ، وفي رواية أخرى قال ربّنا : «**إنّما يقول هذا مثلك من يخاف الفوت**» [2].

(**فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى**)

جاء عن ابن عبّاس أنّ جبرئيل قال لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : يا محمد لو رأيتني وفرعون يدعو بكلمة الإخلاص : «**آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» وأنا أرسه في الماء والطين لشدّة غضبي عليه مخافة أن يتوب فيتوب الله عزّ وجل عليه! قال رسول الله : ما كان شدّة غضبك عليه يا جبرئيل؟ قال : لقوله «**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى**» ، وهي كلمته الأخرى منهما قالها حين انتهى إلى البحر وكلمته الأولى : «**ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي**»

---

(1) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 500.

(2) المصدر.

فكـان بين الأولى والآخـرة أربعـون سـنة ، وإنّما قـال ذلك لقومه «**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى**» حين انتهى إلى البحر فرآه قد يبست فيه الطريق فقـــال لقومه : تـــرون البحر قد يبس من فـــرقي ، فصـــدّقوه لما رأوا ، وذلك قوله عـــزّ وجل : «**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى**» [1].

[25] وجـــاءت النهاية المريعة حيث أخـــذه الله أخـــذا وبيلا ، وألزمه عذاب الدنيا فالآخرة.

(**فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى**)

قـــالوا : النكـــال من النكل وأصـــله الامتنـــاع ، ومنه النكـول عن اليمين ، والنكل : القيد ، ومعنـاه هنا : العاقبة السـيئة للعمل والـتي تبقى عـبرة لمن بعـده ، لأنّ النكـال اسم لما جعل نكالا للغير أي عقوبة له حـتى يعتـبر بـه. ثم قالوا : إنّه بمعنى أخذه الله أخذا وبيلا فجعل النكـــال محل «أخذ وبيلا» ، وهـــذا كثـــير في العربية حيث يوضع مصـــدر آخر قـــريب من مصـــدر الكلمة محل مصـــدرها ، وقـــال بعضهم : إنّه بمعنى : أخذه بنكـال الآخـرة والأولى. ويبقى السؤال : ما هو معـنى نكـال الآخـرة؟ يبـدو لي أنّ معنـاه نكالا (أي عقوبة على عمل سيء) يوجد في الحياة الآخرة ، وعقوبة وجدت في الحياة الدنيا.

[26] وهذا النكـال ـ عاقبة العمل السـيء وجـزاؤه ـ بقي عبرة لكلّ معتـبر ، فمن هو المعتـبر؟ الـذي يخشى ، ولا يخشى إلّا من اهتدى ، ولا يهتدي إلّا من تزكّى.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى**)

---

(1) المصدر.

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها (31) وَالْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33) فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغى (37) وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ

---

28 [سمكها] : سقفها ، والسمك هو الارتفاع ، وهو مقابل العمق لأنّه ذهاب الجسم بالتأليف إلى جهة العلو وبالعكس العمق ، والمسموكات السماوات لارتفاعها.

29 [أغطش] : أظلم ، والغطش الظلمة ، والأغطش الذي في عينيه شبه العمش ، وفلاة غطشاء لا يهتدى فيها.

30 [دحاها] : بسطها ، من الدحو وهو البسط.

34 [الطّامة] : العالية الغالبة ، يقال هذا أطمّ من هذا أي أعلى منه ، وطمّ الطائر الشجرة : علاها ، وتسمّى الداهية التي لا يستطاع دفعها طامّة.

هِيَ الْمَــأْوى (39) وَأَمَّا مَنْ خــافَ مَقــامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (41) يَسْـئَلُونَكَ عَنِ السَّــاعَةِ أَيَّانَ مُرْســاها (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (44) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45) كَأَنَّهُمْ يَــوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُــوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46))

---

42 [أيّان مرسـاها] : أي مـتى يكـون قيامها ، من الإرسـاء وهو الثبـوت والاستقرار.

43 [فيم أنت من ذكراهــا] : أي فيما ذا أنت يا رســول الله من تــذكّر الســاعة فإنّك لا تعلم وقت قيامها ، كــأنّ الإنســان إذا كــان داخلا في شيء علم مزاياه ، أمّا إذا كان خارجا لا يعلم خصوصياته. و «فيم أنت» للإنكار أي لست من ذكراها في شيء حتى تعلمها. وقيل : معنــاه ليس هذا ممّا يتصل بما بعثت لأجله ، وقيل : أنّها من حكاية قـولهم والمعـنى أنّك قد أكثرت من ذكراها متى تكون.

إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها

هدى من الآيات :

لكي نتقي طغيـــان النفس ننظر مــــرة إلى تــــاريخ الغــابرين ، ونتســاءل : ما الــذي أرداهم؟ أليس طغيــان فرعــــون على موسى أوجب له تلك العاقبة الســـوئى؟ وننظر مـرة أخـرى إلى الخليقة فـنرى السـماء كيف بناها ربنا المقتدر الحكيم ، وكيف رفع سـمكها فسـوّاها ، وكيف ألزمها قوانينها من اختلاف الليل والنهــــــار ، والغطش والضحى ، ثم ننظر إلى الأرض كيف سوّاها ، وأجـرى فيها روافد الماء العذب ، وأودعها مواد الزراعة ، ووتّد ميــدانها بالجبال الراسـيات ، لتتهيّأ لحيـاة البشر والأنعـام ، أفليس الله بقــادر على أن يعيــدنا؟ بلى. وهو حكيم لم يخلق كل هذا سـدى ، فلا بد إذا من يـوم الحسـاب ، في ذلك اليـوم الرهيب يتذكر الإنسان سعيه ، ويرى كــلّ ذي عين الجحيم تلتهب ، وتـدعو الطغـاة الـذين آثـروا الحيـاة الـدنيا ، بينما الخائفون مقام ربهم يـؤويهم ربهم في الجنة لأنّهم خـالفوا أهواءهم.

وفي نهاية السورة يعالج القرآن الكريم التشـكيك في وقت الساعة ، بأنّ وقتها عند

الله ، وأنّ المهم تذكّرها ، وليس معرفة وقتها.

بينات من الآيات :

[27] لما ذا يطغى الإنسان؟ أوليس لأنّه لم يستوعب أو يعترف بالنشور والحساب؟ ولكن كيف يؤمن بذلك ووساوس الشيطان تبعده عنه وتطرح في روحه التساؤلات المتلاحقة : كيف ومتى وأنّى؟

من أجل أن يتجاوز الإنسان هذه الوساوس ولا يقع في شرك الشيطان يذكّره الرب سبحانه بما يحيط به من خلق السموات والأرض ، وذلك لأمرين :

أولا : لكي نؤمن بعظيم قدرة الله التي تتجلى في هذا الخلق مما يهدينا إلى أنّه لا يعجزه شيء.

ثانيا : لكي نزداد وعيا بحكمة الخلق ، وأنّ له هدفا محددا ، وأنّ الإنسان لن يشذ عن هذه السنّة العامة.

وإذا وعى الإنسان هاتين البصيرتين فإنّه يستطيع مقاومة وساوس الشيطان.

(**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها**)

فقدرة الرب التي بنت هذه الأجرام التي لا يبلغ حتى خيال أعظم العلماء مداها لا تعجزه إعادة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ، وقال الله سبحانه : «**لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**» [1].

[28] وإذا كان خلق السموات شاهدا على قدرة الرب فإنّ نظامها الدقيق شاهد

(1) غافر / 57.

على حكمتـــــه. أنظر إلى الســـــماء كيف ارتفعت بلا عمد نراها ، وكيف استوت ضمن سلسـلة لا تحصى من السـنن والأنظمة الحكيمة.

(**رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها**)

قـالوا : إذا نظـرت من فـوق الجبل إلى الـوادي قلت عمق الــوادي ، وإذا نظــرت من الــوادي إلى قمّة الجبل قلت سمك السماء ، هكـذا رفع الله السـماء وجعلها عالية ، وألزم أجرامها وغازاتها وأشعتها قـوانين لا تحيد عنها قيد شعرة ، ولعل هذا معنى التسوية.

[29] وتهيئة نظام الطبيعة للحيـاة بـدوره شـاهد على مدى القدرة والحكمة في الخلق ، فاختلاف الليل والنهار ، وبالتالي الظلام والنور والسبات والحركة يهدينا إلى مــدى عمق الحكمة التي وراء الخلق.

(**وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها**)

قالوا : الغطش : الظلام. والضحى : وقت انتشار نور الشـمس ، هكـذا دبّر القـدير الحكيم أمر الأرض والسـماء لتتـوفر فرصة الحيـاة على الأرض بما لا نجد مـثيلا لها في الكرات القريبة منا. أو كان كل ذلك بلا هدف؟

[30] وبعد خلق الســــــماء والأرض تمّ دحو الأرض وتمهيدها وتسويتها ..

(**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها**)

قــالوا : إنّ ذلك إشــارة إلى العوامل الطبيعية الــتي تتــابعت على الأرض حــتى تهيّــأت للعيش ، ثم تعرضــها للأمطـار الغزيـرة والسـيول العظيمة ، ثم انحسـار الميـاه عن بعض المناطق دون غيرها.

[31] ثم أعـــدّ الله الأرض بما أودع فيها من مـــواد تسـاعد على زراعتها ، وبما جعل في باطنها وظاهرها من مخازن ومجاري للمياه لسقيها طوال العام.

(**أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها**)

ولـذلك فـإنّ المنـاطق القاحلة لا تصـلح للزراعة ، إمّا بسبب فقر التربة أو قلّة الماء.

[32] ولأنّ الــــزلازل والـــــبراكين وجاذبية القمر والعواصف الهوج التي قد تعترض الأرض كانت تهدد حيـاة الإنسان فوق البسيطة خلق الله الجبال وأرسى بها دعائم الأرض.

(**وَالْجِبالَ أَرْساها**)

أي أثبتها بقدرته ، وجعلها درعا حصينة للأرض ، يقـول الأمام علي ـ عليه السلام ـ «بعد أن تحدّث عن السماوات والأرض وكيف أنّهما دليل على اقتـدار جـبروت ربّنا وبـديع لطف صـنعته» : «وجبل جلاميـدها «أي الأرض» ونشـوز متونها وأطوادها فأرسـاها في مراسـيها ، وألزمها قراراتها ، فمضت رؤوسها في الهواء ، ورست أصولها في المـاء ، فأنهد جبالها عن سـهولها ، وأسـاخ قواعـدها في متـون أقطارها ومواضع أنصـــابها ، فأشــــهق قلالها ، وأطـــال أنشـــازها ، وجعلها للأرض عمـــادا ، وأرزها فيها أوتـــادا ، فسـكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسـيخ بحملها أو تزول عن مواضعها» [1].

[33] كل ذلك لكي تتــوفر فــرص الحيــاة للإنســان والبهـائم الـتي تخـدم الإنسـان بصـورة مباشـرة أو غـير مباشرة.

---

(1) نهج البلاغة / خطبة 211.

(**مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ**)

أوليس كل ذلك دليلا عي أنّ لوجودنا حكمة بالغة ، فلما ذا ننكر المسؤولية؟

[34] إنّ للكفر بيوم المعـاد سـببا نفسـيا هو التمـادي في الغفلة ، والقـرآن يخـرق بآياته الصـاعقة حجب الغفلة لمن تدبر فيها.

(**فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى**)

فأيّ شـيء ينقـذنا من تلك الطامـة؟ هل الغفلة تـبرّر عدم الإعداد لها؟ والطامة من الطم بمعنى ردم الفجـوة ، وتســـــمّى المآسي المروّعة بها لأنّها تملأ النفس رعبا أو لأنّها قد بلغت منتهى المأســـاة. والقـــرآن يضـــيف كلمة «الكـــبرى» لعلنا نتصـــور تلك الســـاعة الـــتي ثقلت في السموات والأرض ونحن عنها غافلون.

[35] في ذلك اليوم يمرّ شـريط أعمـال المـرء أمـام عينيه. أوليس يرى جزاء كلّ صـغيرة وكبـيرة من أعمالـه؟ أولا يقرؤها في طـــائره الـــذي علّق في رقبته ، فلا أحد يستطيع التكذيب أو الفرار من مغبّة أعماله؟

(**يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى**)

وفي يـوم القيامة تتسـاقط الحجب من عين الإنسـان وعقله فإذا هو يتذكر وباستمرار كل مساعيه.

[36] كما أنّ الجحيم الـــــتي هي معتقل الطغـــــاة والمجـرمين تـبرز أمـام الجميع بما فيها من نـيران تكـاد تتميّز من الغيظ ، ومن عقارب وحيّات تتربص بالقادمين ، ومن شياطين وعفاريت ينتظرون الفتك بقرنائهم.

(**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى**)

فكل ذي عين بصيرة يرى الجحيم بلا حجاب ، فيكـون المذنبون في حسرة عظمي وخوف لا يوصف.

[37] هنالك الجـزاء الأوفى للطغـاة ، الـذين كفـروا بالنشور ، وأغرقوا في شهوات الدنيا ، ولم يخافوا ربهم.

(**فَأَمَّا مَنْ طَغى**)

وأعظم الطغيان مخالفة القيادة الشـرعية ، فقد جـاء في الحديث المأثور عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ :

«**ومن طغى ضل على عمل بلا حجة**» [1].

وإنما تطغى النفس باتبـاع الهـوى لأنّه يصد الإنسـان عن الحق ، قال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

«**إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطـول الأمل ، فأمّا اتبـاع الهـوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة**» [2].

[38] (**وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا**)

فقدّمها على الآخرة.

[39] (**فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى**)

إنّها النهاية الـتي اختارها بنفسه ، ويبـدو أنّ هـذه الجملة هي جواب إذا الشرطية

(1) تفسير نمونه / ج 26 ـ ص 107 عن نور الثقلين / ج 5 ـ ص 506.
(2) نهج البلاغة / الخطبة 42.

في قوله : «فـإذا جـاءت» كما هي جـواب لقوله : «**فَأَمَّا مَنْ طَغى**» فيكـــون الأمر مركّبا على شـــرطين ، كما لو قال أحدهم : إذا كان رمضان وكنت حاضرا صمت.

[40] كيف نتقي طغيـــان النفس وغرورهـــا؟ بمخافة الله ، ويبدو أنّ السـورة تعـالج هـذه الحالة المتجـذرة في نفس البشر. ولكن من ذا الذي يخشى ربه؟ الـذي يعـرف مقامـه. أولم يقل ربنا : «**إِنَّما يَخْشَـى اللـهَ مِنْ عِبـادِهِ الْعُلَماءُ**»

إنّ معرفة أسـماء الله ، وأنّه أحـاط بنا علما وقـدرة ، وأنّه مليك السموات والأرض ، وأنّه الجبّـار المقتـدر .. إنّها تجعل أقسى القلـــوب خاشـــعة ، ومن هنا تزيغ وســـاوس الشيطان بنا عن معرفة ربنا سبحانه.

(**وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ**)

ليتقي طغيان نفسه.

(**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى**)

لكي لا يـؤثر على الآخـرة شـهوات الـدنيا الزائلة ، ولا يـذهب طيباته في الحيـاة الأولى ، ولكي ينظر لما قـدّمت يداه لغده ولدار إقامته التي هي الحيوان حقّا.

[41] (**فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى**)

يعود إليها ، لأنّه أصبح في الدنيا من أهلها ، وكل امرء يعود إلى مـأواه الأصـيل ووطنه الـدائم. فـالميزان إذا ثمّة ليس الانتماءات الظاهرة في الدنيا ، وليس التســجيل في حفيظة التقوى إنّما مخالفة الهـوى ، واتبـاع الحق ، أرأيت كيف أصبح مصـعب بن عمـير ـ الـذي قيل أنّ الآية نـزلت فيه ـ من صـفوة أهل الجنة ، بينما كـان أخـوه عـامر بن عمير في الدرك الأسفل من النار؟ بما ذا؟ أليس لأنّ

عـامر طغى وخـالف الحق واتبع هـواه ، بينما اتبع مصـعب رسول الله ، وجاهد بين يديه ، وقيل أنّه قتل أخاه في أحد ، ووقى الرسول بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه؟

[42] وحين يقـرّر الإنسـان الكفر بشـيء يـبرّر ذلك لنفسه بالتشكيك فيه وبأنّه لا يعرف كيف يقع وبأيّة صـورة ومـتى .. وهكـذا طفق الكفّـار يرتـابون في الآخـرة ، ويتساءلون : كيف يبعث الله العظام البالية ، ومـتى ، ولما ذا تأجلت هذه المـدة الطويلـة؟ لما ذا لم يبعث حـتى الآن الذين ماتوا في أوّل الزمان؟ وهكذا ..

ولكنّ كل هـذه التسـاؤلات لا تنفي حقيقة السـاعة ، وأنّها واقعة لا ريب فيها.

(**يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها**)

مـتى تسـتقر كما تسـتقر السـفينة في النهاية على شاطئها؟

[43] ولكنّ الله أخفى علمها عن العـالمين ، بل لم يحـدّد لها وقتا إنّما يقرّرها مـتى ما شـاء ، وحسب حـديث مروي عن رسول الله (ص) أنّه قال : «**لا تقوم السـاعة إلّا بغضبة يغضبها ربّك**» [1].

ولكنّ معرفة ميعـاد السـاعة أو الجهل بها لا يغيّر من واقعها شيئا. إنّها عظيمة إلى درجة تشـفق السـموات من وقعها! أفلا نتذكّرها ونعدّ لها عدّة؟

(**فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها**)

يبـدو لي أنّ معـنى هـذه الآية : أين أنت من قصـتها وحـديثها ، ولما ذا لا تتـذكرها ، وليس معناها كما قـالوا : ليس لك السـؤال عنها ، أو فيم أنت من ذلك حـتى يسألونك

(1) القرطبي / ج 19 ـ ص 209.

بيانه ، ولست ممّن يعلم.

وقال بعضهم : يحتمل أن يكون الوقف عند «فيم» وكأنّه قيل فيم تسأل وأنت من ذكراها أي أنّ رسول الله ، من أشراط الساعة [1].

بيد أنّ تفسيرنا أقرب إلى السياق الذي يهدف التذكرة بالساعة وأهوالها.

[44] الله سبحانه الذي يأمر بها متى شاء وكيف شاء. إنّها ممّا لم يطلع عليه الرب أحدا من خلقه.

(**إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها**)

فإليه المرجع في أمرها ، كما قال سبحانه : «**إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ**» ، وقال : «**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**».

[45] بلى. حري بنا أن نترك السؤال عن الساعة إلى العمل من أجلها ، وإلى تذكّرها لحظة بلحظة لأنّها آتية لا ريب فيها ، وقد توفّرت أشراطها ، ومن أشراطها النذير المبين رسول الله.

(**إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها**)

فبدل أن نعاود السؤال عن وقت الساعة تعالوا نخشاها بعد أن جاءنا النذير.

[46] وما ذا ينفع المجرمين لو تأخّرت الساعة عنهم ، هل يخفّف عنهم شيئا من عذاب ربهم؟ كلّا ..

(**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها**)

---

(1) أنظر القرطبي / ج 19 ـ ص 209 والرازي / ج 31 ـ ص 52.

ما قيمة سـبعين عاما من العمر جلّها سـبات النـوم وغفلة الجهل والانشغال بالـدنيا وضـروراتها ، ما قيمتها إذا قيست بخمسـين ألف عـام مـدة اليـوم الأول من أيّـام الآخرة؟! هنـاك يتـذكّر الإنسـان أنّ عمـره في الـدنيا كـان يوما أو بعض يوم ، وأنّه قصّـر فيه تقصـيرا كبـيرا حيث لم يستعد ليوم الأهوال.

ولعلّ معنى «عشية أو ضـحاها» : النهـار الـذي يتصل بالعشية أو ينصرم بالضحى ، وذلك على عادة العـرب في قولهم : آتيك العشية أو غـداتها .. فأهل القيامة قـالوا في البدء : كأنّنا عشنا في الدنيا نهارا كاملا ، ثم أكـثروا النهـار فقـالوا : بل نصف نهـار ، كما قـال ربنا سـبحانه : «**إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْـراً**» وقوله : «**يَقُـولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَـةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً**» وقال : «**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَـدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ**».

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممّن وعى رسالة النـذير ، واستعد للرحيل ولم ينس الساعة وأهوالها.

سورة عبس

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قـال : «**من قـرأ «عبس وتـولّى» و «إذا الشمس كـوّرت» كـان تحت جنـاح الله من الجنـان ، وفي ظـــــلّ الله وكرامته ، وفي جنانه ، ولا يعظم ذلك على الله**».

نور الثقلين / ج 5 ص 508.

الإطار العام

لكي تصلح نظرة الإنسـان إلى نفسه جـاءت رسـالات الله ، قبل أن يكـون الإنسـان غنيّا أو فقـيرا ، شـريفا في النسب أو وضــــيعا ، عربيّا في اللغة والعنصر أو أعجميّا ، أبيضا أو أحمــرا أو أســودا .. قبل كل ذلك فهو إنســان ، ومن نظر إليه من خلال ملابســــاته المادية فقد كفر بلبّه وجوهرته السامية.

وهنا تتميّز الجاهلية عن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل المســتنير ، فالجاهلية تقيّم النــاس على أســاس الملابسات المادية ، بينما الدين الحق يقيّمهم على أساس درجــات إيمــانهم ممّا يتصل بكــلّ واحد منهم كإنســان ، أوليس أصل الإنسان عقله؟

وحامل رســالات الله لا يجــوز أن يتنــازل عن هــذه الميزة الهامة فإذا به يميّز النــاس على أسس مادية ، فما قيمة الرســالة إذا ، وكيف يمكنه إصــلاحهم يومئذ وتغيــير مفاهيمهم الخاطئة وهو الذي يخضع لها؟!

ويبدو أنّ هذه السورة الكريمة تبصّــرنا بهـذه الحقيقة فــإذا بفاتحتها عتــاب شــديد ، لمن عبس وبسر في وجه الأعمى وتولّى بينما تصدى لمن استغنى. ثم يبيّن الســياق سموّ قيمة الإيمـان ، وقيمة القـرآن ، ويهـدينا إلى صـفات حملته بحق ، وهم الكرام البررة الـذين ينبغي أن يصـبحوا محور التجمع الإيماني (لا أصحاب الغنى والجـاه والشـرف الزائف).

ثم ينعطف السياق نحو التـذكرة بالإيمـان عـبر تعـداد نعم الله على الإنسـان وتقلباته منذ أن كـان نطفة إلى أن أصـبح بشـرا سـويّا وتيسّـر لسـبل الخـير والسـلام وحـتى يموت فيـدفن ، ويـذكّرنا بواحـدة من أعظم نعم الله علينا وهي نعمة الطعـــام ، ويـــدعونا إلى النظر فيها ، وكيف يوفّرها الله لنا بـــالغيث؟ كل ذلك لأنّ الإيمـــان بالله ونبذ الكفر بكــلّ ألوانه هو الســبيل لبنــاء مجتمع القيم الــذي يسمو عن الخضوع لأصحاب المال والجاه.

وفي الختام ينذرنا الربّ بيـوم الصّـاخّة ، ويـذكّرنا بأنّه في ذلك اليوم لا تنفع هذه العلاقات المادية فحتى الأرحام تنقطع ، إنّما القيمة الحق يومئذ هي العمل الصــــالح. ألا نجعله أيضا قيمة تجمعنا اليوم؟

سورة عبس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**عَبَسَ وَتَـــوَلَّى (1) أَنْ جــــاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَـذَّكَّرُ فَتَنْفَعَـهُ الـذِّكْرى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5) فَأَنْتَ لَـهُ تَصَـدَّى (6) وَما عَلَيْـكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُـوَ يَخْشى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلاَّ إِنَّها تَـذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شـاءَ ذَكَـرَهُ (12) فِي صُـحُفٍ مُكَرَّمَـةٍ (13) مَرْفُوعَـةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرامٍ بَرَرَةٍ (16)**

---

1 [سـفرة] : الكتبة لأسـفار الحكمة ، والواحد منها سـافر ، والاسـفار الصـحف المقدسة ، وأصـلها الكشف من قـولهم : سـفرت المـرأة إذا كشفت عن وجهها.

عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى

بينات من الآيات :

[1] أثـارت الآيـات الأولى في هـذه السـورة المباركة التساؤل فيمن نزلت؟ علما بأن مثل القرآن مثل الشمس ، وأنه لا ينبغي البحث عن أسـباب نـزول آية آية منه ، فلم يكن القرآن كتاب حقبة خاصّة من الزمن حتى نفتش فيها عن تطبيقاته ، بل لعل تأويل آية كريمة لا يتــــأتى إلّا بعد قرون وقـرون ، بلى. كـانت آيـات كثـيرة تجد تطبيقها في حياة الرسول (ص) وقد اعتقد أهل التفسير أنها نزلت في تلك المـوارد بينما الحقيقة أنها تـأولت فيها فقط ولم تكن سوى مصداق من مصاديق القـرآن ، ولعل التعبـير التـالي عند المفسرين الأوائل «نـزلت في فلان مثلا» كـان يعـني أنها طبقت عليه واولت فيه وليس نزولها لهـــذه الحادثة ، والدليل على ذلك أننا نجد آيات كثيرة ذكر لها المفســرون مــوارد متــأخرة عن نزولها أو متقدمة ، مثلا : نجد آيــات مكّيّة يــذكر المفســرون من الجيل الأول انها نــزلت في اشــخاص لم يكونــوا في مكة (ولعل الآيــات الاولى من سورة عبس منها) أو بالعكس أو حتى أنهم يؤولونها فيمن لم يكن في

عهد الرسول (ص). [1].
بلى. عند الأجيال التالية من المفسرين أصبح التعبير «نزلت في كذا» يوحي بان الاية نزلت بتلك المناسبة.
وفيما يتصل بالآيات في هذه السورة فقد قال القرطبي : روى أهل التفسير أجمع : أنّ قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي ـ صلّى الله عليه وسلم ـ وقد طمع في إسلامهم فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم ، فكره رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ أن يقطع عبد الله عليه كلامه ، فأعرض عنه ، ففيه نزلت الاية [2].
وقال الشيخ المكارم في تفسيره «نمونه» ما يلي : المشهور بين المفسرين (السنة والشيعة) ذلك ، ولكنه روى حديثا عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ يقول : «أنها نزلت في شخص من بني أميّة» وأضاف : انه ليس من شأن الرسول ان يعبس في وجه أحد من الناس ، كيف وهو الذي قال عنه ربنا سبحانه : «**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**» [3]
ويبدو لي أن الآية لم تنزل في شأن النبي ، وأن المفسرين ذهبوا إلى ذلك بسبب ما توهموه من دلالة الآية ، ومن بعض الروايات المتشابهة المختلفة ، فمثلا : نجد في بعضها : أن النبي كان مع الوليد بن المغيرة ، وفي بعضها أنه كان مع أمية بن خلف ، وقال مجاهد : كانوا ثلاثة : عتبة وشيبة ـ ابنا ربيعة ـ وأبيّ بن خلف ، وقال سفيان الثوري : كان النبي مع عمه العباس.

---

(1) والى مثل هذا الرأي ذهب الدهلوي في كتابه الفوز الكبير في أصول التفسير ص 107 / 108 الطبعة الثانية دار البشائر الإسلامية.
(2) القرطبي ج 19 / ص 211.
(3) تفسير نمونه.

وعلى افتراض ان القصة كانت صحيحة ، فمن يقول أن المراد ان النبي قد عبس ، فلعل واحدا من المسلمين كان حاضرا وهو الذي فعل ذلك ، والشاهد انه لم يقل ربنا : عبست وتوليت ، ومن ثم يكون السياق بلغة الخطاب ، ولكن أليس من الممكن ان يكون ذلك من باب تحويل الكلام الى الخطاب بعد ذكر الغائب ، وكأنه قد أصبح بذكره حاضرا كما نجد في سورة الحمد ، حيث يقول تحول الخطاب الى الحضور بعد ذكر الله سبحانه وقال : «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**».

ثم ان السورة مكية بالاتفاق وكان ابن أم مكتوم في المدينة حسبما يقول ابن العربي على حسب ما نقل القرطبي. دعنا نستمع الى نصه : اما قول علماؤنا انه الوليد بن المغيرة ، فقد قال آخرون أنه أميّة بن خلف ، والعباس وهذا كله باطل ، وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا من الدين ، ذلك أن أميّة بن خلف والوليد كانا بمكة ، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ، ما حضر معهما ولا حضرا معه ، وكان موتهما كافرين ، أحدهما قبل الهجرة ، والاخر ببدر ، ولم يقصد قطّ أميّة المدينة ، ولا حضر عنده منفردا ولا مع أحد. [1]

وينبغي ان نتساءل : إذا كان ابن أم مكتوم في المدينة فكيف نزلت السورة بمكة تروي قصته؟!

وأيّا كان سبب نزول الآية ، فإن علينا التدبر في كلماتها المشعة ، والتعرض لأمواج نورها المتدفق.

(**عَبَسَ وَتَوَلَّى**)

لقد بسر بوجهه ، فانعكست حالته النفسية تجاه الرجل على ملامح وجهه التي

---

(1) القرطبي / ج 19 ـ ص 212.

تفضح تقلبات فـؤاده اتّى حـاول إخفاءها ، ثم تـولى بركنه عنه عمليّا ، وهكذا تكاملت ملامح الموقف السلبي.

[2] (**أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى**)

اي بسبب زيارة الأعمى له ، وهـذا يتنـافى مع ما ذكر في بعض النصوص : أن الرسول (ص) انه انما انزعج عند ما سأله ابن أم مكتوم وليس من زيارته.

[3] لقد جاءه الأعمى زائرا وربما ساعيا نحو الهداية ، وإذا عوّض الأعمى أو اي معـوق آخر نقص جوارحه بتزكية نفسه فانه يسمو فوق كل بصير وسليم.

(**وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**)

وهكــذا تكــون تزكية النفس أهم غاية يســعى نحوها الإنسان.

[4] وقد لا يســـــمو الفـــــرد الى التزكية ولكنه يبلغ مســتوى التــذكرة الــتي تنفعه في إصــلاح بعض جــوانب ســلوكه وهكــذا الأعمى الفقــير الــذي تقــدم الى ذلك المجلس.

(**أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى**)

[5] الغنى مطلوب ولكن الاستغناء مرفوض ، فـالغني المتواضع الـذي يمتلك الـثروة دون ان تمتلكه قـريب من الله ، قـريب من النـاس ، ولكن الـذي تقـوده ثروته ، بل يـــذوب في ثروته الى درجة العبـــادة فانه بعيد عن الله ، بعيد عن الناس ، قـريب من النـار. ولا بد ان تتخذ القيـادة الإلهية موقفا حازما منه.

(**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى**)

ومعروف ان الاستغناء يؤدي الى الطغيـان ، أولم يقل ربنا الحكيم : «**كَلَّا إِنَ**

الْإِنْسانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» [1].

[6] مثل هذا الإنسان ينبغي طرده لكي لا يتسلل الى قيادة المجتمع عبر ثروته.

ان مثله مثل قارون الذي خرج على الناس بزينته ، فانبهر الناس بها ؛ فاذا خضع رجال الدعوة لهم أو مالؤوهم فمن ينقذ الناس من شرورهم واستطالتهم على الفقراء والمحرومين ، ومن يأخذ حق المستضعفين والبؤساء منهم؟ لذلك يعيب السياق على صاحب الدعوة ترك الفقير الأعمى والتوجه تلقاء المستغنين.

(**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**)

قالوا : التصدي : الإصغاء ، ويبدو ان معناه : الإقبال عليه ، والاهتمام به.

[7] وقد يزعم حملة الدعوة وأمناء الرسالة أنهم مسئولون عن الأغنياء ، وان عليهم ان يجتذبوهم بأية وسيلة ممكنة ، فيقدمون لهم التنازلات ، بينما يحرمون الفقراء من عطفهم وحنانهم ، بينما مسئولية الداعية تنتهي عند إبلاغ الرسالة.

(**وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى**)

فهو ولست أنت المسؤول عن تزكيته.

[8 ـ 10] من الذي يتصدى له صاحب الدعوة؟ هل الذي يتولى بركنه ، وكلا .. حتى ولو كان شريفا في قومه ، غنيّا قويا. لما ذا؟ لأن الرسالة الإلهية جاءت لإصلاح نظرة الإنسان الى نفسه من خلال مركزه أو ماله أو لغته أو ما أشبه ، فاذا تأثرت الرسالة بهذه القيم المادية فانها لا تستطيع إصلاحه ، لذلك جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) قال : «**إذا رأيتم العالم محبّا للدنيا فاتهموه**

---

(1) العلق / 6 ـ 7.

على دينكم ، فان كل محبّ يحوط ما أحب» [1].

والرسالة تنظر إلى الإنسان كإنسان بعيـدا عن سـائر الاعتبارات الماديّة ، فمن سعى الى الرسول بلا تردد ..

(**وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى**)

نحو الهداية أو تعلّم الدين.

(**وَهُوَ يَخْشى**)

والخشية هي التي تساعده على قبول الدين.

(**فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى**)

تنشغل عنه وكأنه لا يهمك.

[11 ـ 12] قيم الـوحي ، وجاهلية المـادة في صـراع قــديم ، ولا يجــوز المهادنة مع الباطل لكسب المزيد من الأتباع ؛ لأن حكمة الوحي ضبط المادة ، فـاذا خضع لها لم يبق للرســالة مــبرر ، ومن هنا لا ينظر الرســول إلى الأشخاص إلّا من زاوية رسالته.

(**كَلَّا**)

فإن للغنى اعتبار زائف.

(**إِنَّها تَذْكِرَةٌ**)

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 2 / 107.

آيات الله تـذكرة لكل النـاس ، ولا يختلف النـاس الا بقـدر استجابتهم للوحي.

(فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ)

العقل أصل الإنســان ، أوليس به يتمــيز عن ســائر الأحيـاء ، أولم يكرمه الله به على كثـير ممن خلـق؟! ان العقل يغطّ في سبات الغفلة فلا ينتفع به صـاحبه ، وتـأتي آيــات القــرآن توقضه من ســباته. أذلك خــير أم بعض الـدراهم والـدنانير ، كلا .. انّى كـانت الـثروة كبـيرة فـإن العقل أســمى ؛ لان الــثروة لا تحصل إلّا بالعقل ، وإذا لم يكتمل العقل فان الثروة تضر صاحبها قبل ان تنفعه ، وقد تكـون الـثروة وسـيلة لتكـريس التخلف ، والفقر ، وبسط الفساد ، ونشر الرذيلة ، بيد ان العقل يجعل الإنسان على طريق ثــروة نافعة كما يــوفر له ســائر عوامل الســعادة كالخلق الرفيع ، والحرية ، والسلام.

ولا تعني التـذكرة ان النـاس يهتـدون بها حـتى ولو لم يشــاءوا ذلك كلّا .. ان التــذكرة لا تتم بــدون ان يشــاء الإنسان نفسه ، وهكـذا جعل الله حرية الإنسـان أصلا ثابتا في شــريعته وفي ســننه الحاكمة على الخليقة ، وحــتى الايمــان به جعله منوطا بــإرادة الإنســان ولم يجعله كرها عليه.

[13 ـ 14] وبعد أن ينسف الســياق القيم الجاهلية يرسي دعــائم قيم الــوحي الــتي ينبغي ترســيخها في المجتمع ، فيشــرع في بيـان عظمة القــرآن حـتى يكـون القرآن هو محور المجتمع ، وميزان التفاضل بين النـاس ، ثم يبين كرامة السفرة الذين يحملونه ، وبذلك يوحي بــأن عليكم ان تعظمــوا القــرآن والــدعاة اليه وليس المــال والجاه وأصحابهما.

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ)

قـالوا : ان كتـاب الله مكتوبا في ألـواح تكـرّمت به ، وتسامت مجدا ، وقال البعض : بل المـراد أنه كـان مكتوبا في اللوح المحفـوظ قبل أن يتـنزل على قلب الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأنّى كانت الصحف فـإن الآية تـدل على أن القــرآن محفــوظ في صــحف لا تنالها أيــدي التحريف والـتزوير ولا يسـمو إليها الكـذب والـدجل ، كما تدل على أن الله أكرم هـذه الصحف بأنها تكشف الحق ، وأكرمها بـإعلاء درجة من يتّبعها في الـدنيا والآخـرة ، ذلك أن كرامة كل شـيء بحسـبه ، وكرامة الصحيفة صـدقها ، وسـمو مجـدها ، وتعاليها عمن يريد بها عبثا ، ولـذلك قـال ربنا بعدئذ :

(**مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ**)

وهـذا في الواقع تفسـير لكرامة الصحيفة ، فـإن الله يرفع بها من يعمل بها ويحمل رســـــالتها أولم يقل ربنا : «**فِي بُيُـوتٍ أَذِنَ اللـهُ أَنْ تُرْفَـعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَا اسْـمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْــعٌ عَنْ ذِكْــرِ اللــهِ** ..» [1] وقـــال ســـبحانه : «**يَرْفَـعِ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**» [2].

ثم انها مطهــــرة من الباطل والكــــذب ، ومن دسّ الدجالين والمنـافقين وقد قـال سـبحانه : «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحـافِظُونَ**» [3] وقـال : «**لا يَمَسُّـهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**» [4].

وهي مطهرة عن نيل أصحاب الهوى والبدع ، والريـاء والشرك وحملة الدعوات

---

(1) النور / 36.
(2) المجادلة / 11.
(3) الحجر / 9.
(4) الواقعة / 79.

الضـالة ، والثقافـات الجاهليـة. إن هـؤلاء جميعا لا يبلغـون فقه الكتاب ولا يحصلون على علمه ومعارفه.

[15 ـ 16] وهكــذا يكــون حملة القــرآن هم فقط الســفراء الصــادقون ، المكرمــون من الهــوى والنفــاق ، واتباع المصالح ، وعبادة الطغاة.

(**بِأَيْدِي سَفَرَةٍ**)

السفرة هم حملة الكتاب ، والداعون اليه.

(**كِرامٍ بَرَرَةٍ**)

كــرام لأنهم أكرمــوا أنفســهم عن الإثم والفحشــاء ، واتباع اولي الثروة والقوة ، والسـعي وراء شـهوات الـدنيا الزائلة. وهم بررة يبرّون بالناس ويـؤثرون المؤمـنين على أنفسهم ، ويسارعون الى الخيرات.

وهــذه الآيــات توضح لنا الفئة الــتي يجب ان نرفعها ونتبع هديها ، وهم حملة القرآن الصـادقين ، الزاهـدين في درجـات الـدنيا ، والمكـرمين من أوسـاخها ، ومن الأهـواء والبدع والثقافـات الدخيلة ، ولا يجـوز اتبـاع كل من يـدعو بلسـانه الى كتـاب الله بينما تـراه قد ولغ في الشـبهات ، وســعى نحو الجــاه والشــهرة وتقــرب إلى الســلاطين ، وقرب إليه المترفين والمستكبرين.

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28)

---

17 [قتل الإنسان] : أي عذّب ولعن ، وهو شبيه قوله : «**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**» أي دعاء عليهم ، وكذلك قوله : «**قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**» وقيل : معناه قتلهم ، والصحيح أن من يتصدى لمحاربة الله ويكفر به فهو مقتول ، ومن غالبة فهو مغلوب.

28 [قضبا] قيل : هو العلف للدواب يقضب مرة بعد اخرى ، وفي المفردات : أي رطبة ، والقضيب يستعمل من فروع الشجر ، والقضب يستعمل في البقل ، والقضب قطع القضب ، وروي أن النبي (ص) إذا رأى في ثوب تصليبا قضبه

، وسيف قاضب وقضيب أي قاطع ، ويقال لكل ما يهذّب مقتضب ومنه الكلام المقتضب أي المهذّب.

وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدائِقَ غُلْبـاً (30) وَفاكِهَـةً وَأَبًّا (31) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32) فَإِذا جاءَتِ الصَّـاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيـهِ (35) وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيـهِ (36) لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَـأْنٌ يُغْنِيـــهِ (37) وُجُـــوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْـــفِرَةٌ (38) ضـــاحِكَةٌ مُسْتَبْشِـــرَةٌ (39) وَوُجُـــوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَـــرَةٌ (40) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42))

---

30 [غلبا] : إضافة على السـياق نقـول : الأصل في الغلب في الوصف الرقبة ، فاستعير الغلب للشجر الغلاظ الضخام.

41 [ترهقها قترة] يعلوها سواد وكسـوف عند معاينة النـار ، وقيل : ان «الغـبرة» ما انحطت من السـماء ، والقـترة ما ارتفعت من الأرض ، وقيل : القتر دخان الشواء.

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ

بينات من الآيات :

[17] نعم الله تــترى على الإنســان ، ولكنه لا يــزال يطمع لما في أيــدي الآخــرين ، بــدل أن يســلّم وجهه لله الـذي أسـبغ عليه نعمه ظـاهرة وباطنة ، تـراه يـروح يعبد الطغاة ، أو يخضع للمترفين لما يعطونه من فتات الرزق.

لما ذا لا يطــرق بــاب رحمة الله الــتي وســعت كل شيء؟! أوغيّر عليه الرب عادات امتنانه وتفضله؟! أوليس الله بقادر على أن يغنيه عما في أيدي العباد؟!

إنّه أعظم نعم الله الكتاب الذي يذكّره سبيل سـعادته ، ويغنيه ليس في اموال الدنيا فحسب ، بل في كل شيء من الــدنيا الى الآخــرة ، ولكنه لا يــزال يكفر ، قتله الله بكفره!

(**قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ**)

وكلمة «قتل» لعنة عليه ، وتعبير عن منتهى الغضب ، وفي نفس الـوقت فيها ايحـاء بـأن الكفر يقتل الإنسـان ، يقتل مواهبه وفضائله وفرص سعادته ، وحـتى ينتهي بقتله تماما! أليس القتل درجات ، والكفر بأية نعمة الهية يـؤدي الى قتل فرصة من فرص الحيـاة عند الإنسـان ، وبالتـالي فهو يعتـبر درجة من القتل ومسـتوى منـه؟! أرأيت الـذي يملك رصيدا عظيما في البنك ولكنه لا يؤمن بذلك ، وكلما قيل له عنه كذّب وأبى! أليس يعدم موهبة إلهيـة؟! كـذلك الذي يملك رصيدا عظيما في القـرآن يسـتطيع ان يتخّـذه لنفسه سعادة وفلاحا ثم يكفر به.

والتعبير ب «ما أكفره» يوحي بمـدى كفـره ؛ انه كفر واسع المـدى ، متعـدد الأبعـاد ، ومن هنا قـال بعضـهم : الكفر هنا جاء بمعناه اللغوي الذي يعني السـتر ، ويشـمل الكفر بالله أو بنعمه أو حـتى الكفر بنعمة واحـدة ، ولـذلك فـــان كلمة «الإنســـان» هنا تسع كل النـــاس لأنه ما من إنسان إلا ويكفر بقدر ما بنعمة الله.

[18 ـ 19] ثم يعـدد السـياق نعم الله على الإنسـان والتي يقابلها بـالكفر وأولها نعمة خلقه من النطفة ويقـول :

(**مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ* مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**)

هذه القطرة من الماء الـتي تخـرج من الصـلب وتلك القطرة التي تتدفق من الترائب ، تلتقيان فيخلق الله بهما الإنسان في ظلمات الأرحام ، حيث لا يعرف حتى أبواه ما ذا يجـري هنالك ، فلا تـزال عين الله ترعـاه ، ويـده تقلّبه من طور الى طور ، حتى يخرج إنسـانا سـويّا ، كيف قـدر الله مــواد جســمه من أنــواع العناصر ، وبعض من هــذه العناصر اسـتقدمه الـرب من نجـوم تبعد عنا آلاف البلايين من الأميال ، ثم قـدر حجم كل عنصر ومقـداره في بنيته ، ويصوره بأحسن تصوير ، وقـدر جوارحه بأنظمة معقّـدة لا نــزال لا نعــرف الا جانبا منها هو الــذي نجــده في الغــدد المنظمة لنمو الأعضاء ،

وقـدر مجمل وزنه ، فلا يصـبح اطنانا ولا يبقى عند الـوزن الـــذي أخـــرج من بطن أمه انما يـــتراوح بين الســـتين والتسعين غالبا ، كما يحدد طوله فلا نجد من ارتفع امتـارا متطاولة ، كما لا نجد الاقزام إلّا قليلا.

كما يقـدر رغبـات نفسه ، وشـهوات جسـده ، ويكيّفها وفق ظروفه ، كل ذلك لا يهديه الى ربه ولا يجعله يســـلم وجهه اليه! بلى ما أكفره ما أكفره!!

[20] وهداه الى ما ينفعه وما يضره ، والى ما يسعده ويشـــقيه ، والى رزقه من اين يأتيه وكيف يصـــرفه. ان الإنســـان مـــزود بفطرته وعقله ، بمنظومة من الغرائز والأفكار تهديه الى سبل العيش.

(**ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ**)

بلى. ألهمه فجوره وتقـواه ، وأرسل الأنبيـاء ليـذكروه بتقواه ، وينـذروه من الفجـور ، وزودهم بشـرائع تفصـيلية تبين له سبل السلام.

[21] وبعد ان انقضت دورته قهـره بـالموت ليكـون عبرة لمن بعـده ، وينقله الى حيـاة أخـرى ، ويسـعده فيها ان عمل صالحا ، ولم يدع جسمه عرضة لنهش الحشرات والجوارح والسباع ، وانما هيّأ له قبرا يوارى فيه كرامة له.

(**ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ**)

[22] وان الله الذي قلب الإنسان بين يدي قدرته في مختلف الأطوار قادر على أن يعيده متى شاء.

(**ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ**)

[23] ولكن الإنسان الذي أسبغ عليه الرب كل هذه النعم لا يزال متحديا قدرته وسلطانه ، ولا يزال يتمرد على أوامره ولا يقضيها.

(**كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ**)

ما ذا تعني «كلّا»؟ يبدو أن معناها هنا وفي سائر مواقع استخدامها الإيذان بوقوع ما لا ينبغي ، ولا يتوقع العقل بعد سرد تلك النعم إلّا ان يكون الإنسان في منتهى التسليم لربه وفاء لبعض دينه ، ولكن العكس تماما هو الذي يقع.

اما كلمة «لمّا» فتعني النفي مع التوقع ، أو نفي ما كان متوقّعا ، وكلاهما صحيح في هذا السياق ، إذ يرجى تطبيق الإنسان لأوامر الرب ، كما أن عدم التطبيق خلاف ما كان منتظرا.

[24] ويعود السياق الى جملة نعم الله على الإنسان التي تهديه الى قدرته وحكمته ورحمته ، فهذا الماء تحمله سحب الخير الى عنان السماء ثم تصبه على الأرض بسهلها وحزنها ليسقيها ، ثم تنشق الأرض عما يطعم الإنسان من ألوان الحبوب والثمار.

(**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ**)

ليس فقط يعرف كيف وفره الله له ، وانما أيضا ليتعلم من مدرسة الخليقة كيف يستفيد منه. أليس كل هذه الطبيعة مسخرة لإطعامك ، ألا ترى في ذلك حكمة بالغة ، وقدرة قاهرة ، أولا يعني أن وراء هذه الطبيعة تقديرا وتدبيرا وحكمة ، وأن مراد ربك ان يسعدك ثم يهديك ثم يعدك لجنته؟! بلى. وصدق الامام الحسين عليه السلام حينما خاطب ربه قائلا :

«**عميت عين لا تراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له في حبّك**

قسما» [1].

فإذا نظرت الى الطعام بهـذه الرؤية فانك تسـمو من درجة التهام الطعام بشهية حيوانية الى مسـتوى التمتع به براحة نفسية ، وبشكر وامتنان ، وآنئذ لا يتغذّى به جسدك فقط ، وإنما روحك ونفسك أيضـا. أليس الشـكر والرضا غذاء النفس؟ وقد سن الإسلام آداب الطعام لهذا السـبب ، فانك من قبل الطعـام تقـول : «الحمد لله الـذي يطعم ولا يطعم ، ويجير ولا يجـار عليه ، ويسـتغني ويفتقر اليه ، اللهم لك الحمد على ما رزقتـني من طعـام وإدام ، في يسر وعافية من غير كد منّي ولا مشقة» وبعد الانتهاء من الطعام تقول : «**الحمد لله الذي أطعمني فاشـبعني ، وسـقاني فـأرواني ، وصـانني وحمـاني ، الحمد لله الذي عرفني البركة ، واليمن بما أصـبته وتركته منه ، اللهم اجعله هنيئا مريئا ، لا وبيا ولا دويّا ، وأبقـني بعده سويّا ، قائما بشـكرك ، محافظا على طاعتك ، وارزقني رزقا دارّا واعشني عيشا قـارّا ، واجعلـني ناسـكا بـارّا ، واجعل ما يتلقـاني في المعـاد مبهجا سارّا ، برحمتك يا أرحم الراحمين**» [2]

وحين ينظر الإنسان الى الطعـام نظـرا عميقا يعـرف أن ليس كل الطعام صالحا لكل وقت ، فلا بد أن يميّز بين الضار منه والنافع ، الجيد والردي ، والحلال والحـرام ، فلا يأكل إلّا ما ينفعه وما يحل له ، ويقدر انتفـاع جسـده منه ، لـذلك قـال رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «**لا تموّتـوا القلـوب بكـثرة الطعـام والشـراب ، فـان القلوب تموت كالزرع إذا كثر عليه الماء**» [3]

وفي الحديث عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ : «**من أكل الطعـام على النقـاء ، وأجـاد تمضّـغا ، وتـرك الطعام وهو يشـتهيه ، ولم يحبس الغائط إذا أتى لم يمرض إلّا**

---

(1) مفاتيح الجنان ـ دعاء عرفة.
(2) مكارم الأخلاق ص 142 ، ونقله مستدرك وسائل الشيعة ج 3 / ص 93.
(3) مكارم الأخلاق ص 150.

مرض الموت» [1].

وروي عن الإمام الصادق ــ عليه السـلام ــ انه قـال : **«كـان رسـول الله (ص) إذا أتي بفاكهة حديثة قبّلها ووضـعها على عينه ويقـول : اللهم أريتنا أولها في عافية ، فأرنا آخرها في عافية»** [2].

وروي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ انه قال : **«النفخ في الطعام يذهب بالبركة»** [3].

وهناك عشرات الآداب الأخرى للطعـام يبيّنها الإسـلام وغيرها في الكتب الفقهية ، وإذا كـان الطعـام وهو غـذاء البدن أولاه الدين هذا الاهتمـام فكيف بـالعلم ، أوليس هو غذاء الفكر ، فهل يجدر ان يأخذه من اي مصدر؟! كلا .. لا بد أن ننظر ممن نتعلم ، وما هي مصادر المعلومات الـتي توجهنا فإن كثيرا منها خاطئة ووراءها الجنـاة الـذين لا همّ لهم سوى تضليل الإنسان عن الصـراط السـوي. إن هـذه المعلومات أشد ضررا على الإنسان من السمّ الزعاف.

كذلك جاء في الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة : **«علمه الذي يأخذه عمن يأخذه»** [4]

[25] كيف وفر الله لك الطعام؟

(**أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا**)

---

(1) المصدر ص 146.
(2) المصدر.
(3) المصدر.
(4) تفسير البرهان ج 4 ص 429.

فجاء الماء أمل الحيـاة من فـوق وبانصـباب ووفـرة ، حتى يكفينا النظر الى نظام الغيث إيمانا بربّنا العزيز.

[26] والأرض كيف جعلها الله صـالحة للزراعـة! بـأن لم يجعلها صـــلبة قاســـية ، ولا رخـــوة مائعة (كالرمل المتحرك) وأودع فيها مواد الزراعة.

(**ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا**)

ما أروع انفلاق الأرض عن النّبتة الـــتي تشق طريقها الى الظهور ، ربما عبر الصخور الصلدة ، وقـال بعضـهم : الآية تشـــير إلى العصـــور الأولى من عمر الأرض ، حيث كانت قشرتها صماء لا تصـلح للزراعة فـذللها الـرب بفعل السيول المستمرة والله العالم.

عن أبي جعفر ــ عليهما السـلام ــ في حـديث طويل يقول فيه : «**فـإن قـول الله عـزّ وجل : «كانَتا رَتْقـاً» يقول : كانت السـماء رتقا لا تـنزل المطر ، وكـانت الأرض رتقا لا تنبت الحبّ ، فلما خلق الله تبـــــارك وتعالى الخلق ، وبث فيهما من كل دابة فتق السماء بالمطر ، والأرض بنبات الحبّ**» [1]

[27] ثم أعد ربنا الأرض للزراعة ، وأودع فيها ألوفا من أنواع النبات التي يقوم كل نـوع منها بـدور عظيم في تكاملية الخلقة.

(**فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا**)

قال بعضهم انها الحنطة والشعير ، وقال آخرون : بل سائر أنواع الحبوب كالذرة والفاصـوليا والعـدس والحمص ، ومعروف أن الحب لا يزال يشكل المصدر الأول

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 504.

للطعام في العالم وهو الطعام الطبيعي المناسب ، الـذي لا ينافسه غذاء آخر لما فيه من السلامة والتكاثر والفائـدة ، وبـالرغم من تضـاعف سـكان الأرض عـدة مـرات خلال القــرون الأخــيرة فــإن الأرض لا تــزال تفي بواجبها في إطعام المزيد من الأفواه الفـاغرة ، وإذا رأينا مجاعة هنا ، ونقصا في المــواد الغذائية هنــاك فانما بســبب كــوارث الطبيعة أو ســوء في التوزيع ، أو ســوء في الادارة ، والّا فــــإن ما في الأرض من القمح يكفي لأهلها ويزيد حسب الإحصاءات الدقيقة.

[28] (**وَعِنَباً وَقَضْباً**)

يشير القرآن الى نوعين آخرين من الطعام ميسورين وأساسـيين للغـذاء يتـدرجان معا من فصـيلة الخضـروات والنباتات الأرضــية ، وهما العنب والقضب ، والقضب : هو النبتة الـتي تجـزر وتقطع كـأنواع الخضـروات والبقليـات كالباذنجان والطمـاطم واليقطين واللفت وما أشـبه ، مما تحمل إلينا أعظم الفوائد ولعل هــذا الــترتيب يــدل على التدرج في الفائدة ، وقد كشف العلم عما في الخضروات من منافع عظيمة.

[29] ومن نعم الله الزيتــون الغــني بمــواد غذائية ، وبالدهن والذي يكـون عـادة صـبغا للاكلين ، وهكـذا النخل الـــتي يســـتفاد من جذعه وســـعفه وليفه في مختلف الصناعات ، أمّا ثمرته ففيه غذاء كامل لا يدانيه طعام.

(**وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً**)

[30] والأشــجار الــتي تلتف الى بعضــها وتتغــالب للوصـول الى أشـعة الشـمس وتغلظ سـيقانها ، وتتحـدى الأعاصـير والآفـات. انها نعمة إلهية أخــرى يســبغها علينا الرب بالغيث.

(**وَحَدائِقَ غُلْباً**)

قـــــال البعض الأغلب ذا الرقبة الغليظة ، وقيل : انه من التغالب والالتفاف الى بعضهما ، كما قال ربنا سبحانه وتعالى : «**وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً**» [1].

ان هـذه الحـدائق تضـيف إلى أرضـنا بهجة وصـفاء ، وتلطّف الجو ، وتصـــلح البيئة ، وتســـتمطر الســـماء ، وتســـاهم في تكـــوّن أحـــواض طبيعيّة في الأرض لحفظ الميـــاه ، وتعطي الثمـــرات المختلفة ، وتـــتربى الطيـــور الجميلة في أحضانها ، وتؤوي الحيوانات الاليفة إليها ، فقد جعلت ضرورة لبقاء الإنسان وسعادته [2].

[31] ومن ثمـار هـذه الحـدائق يتمتع الإنسـان بفواكه كثـــيرة تختلف ألوانها واحجامها ومتعتها وفائـــدتها ، وهي جميعا تنـتزع من حديقة واحــدة يسـقى بمـاء واحد ، هل لاحظت الفـرق بين الفسـتق واللـوز والجـوز وبين الطلح (الموز) والآناناس وجوز الهند ، ان جوزة واحــدة من الهند تكــون بحجم مئــات الحبــات من الفســتق ، على أن كلّا منهما لذيذ ومفيد ورائع الجمـال سـبحان الله ، وبالاضـافة الى الفاكهة خلق الله علف الحيوانات الآهلة.

(**وَفاكِهَةً وَأَبًّا**)

قالوا : الأب علف الحيوانات سمي بذلك لان الحيـوان يعود اليه.

وقيل : بل الأب هي الفواكه اليابسة وقال ابن عبـاس : الأب ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والانعام.

---

(1) النبأ / 16.

(2) اكتب هذه الكلمـات في يـوم ربيعي متمـيز وفي ظل أشـجار بالغة الجمـال ، ومنظر خلاب لشـتيلات الازهـار المنظمة ، وفي حديقة زاهية تمتد على مسافة 240 هكتارا الى جنب بحـيرة رائعة في مدينة بنكلـور الهندية وارى واحـدا من تجليـات الجمـال الالهي على الأرض وأقـول : ســـبحانك ما أعظمك ، ســـبحانك ما أرحمك ، غفرانك اللهم وإليك المصير.

ورد : ان أبا بكر سـئل عن قوله تعـالى : «**وَفاكِهَـةً وَأَبًّا**» فلم يعـرف معـنى الأبّ من القـرآن ، فقـال : أي سماء تظلّني ، أم أي أرض تقلّني ، أم كيف أصنع إن قلت في كتــــاب الله بما لا أعلم ، أما الفاكهة فنعرفها ، وأما الأب فالله أعلم به ، فبلغ أمير المؤمـنين (ع) مقاله فقـال : يا سـبحان اللـه! أما علم أن الأبّ هو الكلأ والمـرعى ، وأن قوله تعالى : «**وَفاكِهَةً وَأَبًّا**» اعتـداد من الله تعـالى بإنعامه على خلقه بما غـذاهم به ، وخلقهم لهم ولأنعـامهم مما تحيي أنفسهم ، وتقوم به أجسادهم [1].

وفي الـدر المنثـور : عن انس : أن عمر قـرأ على المنـبر : «**فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا* وَعِنَبـاً وَقَضْـباً* وَزَيْتُونـاً وَنَخْلاً* وَحَـدائِقَ غُلْبـاً* وَفاكِهَـةً وَأَبًّا**» قـال : كل هـذا عرفناه فما الأبّ؟ ثم رفض عصا كانت في يـده ، فقـال : هـذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لا تـدري ما الأبّ ، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتـاب فـاعملوا به ، وما لم تعرفوا فكلوه الى ربّه [2].

[32] والـذي خلق الفاكهة خلق في الإنسـان الحاجة إليها ، والتلـذذ بها والاسـتفادة منها ، والـذي خلق الأب (على ان يكون معناه علف الحيوانات) خلق في الانعام ما ينسجم معه ، أو تدري مثلا : ان جسد الانعـام قـادرة على اسـتخراج بـروتين الحشـائش ، بينما لا يسـتطيعه جسم الإنسان ، ولذلك ترى الحيوانات تحول ما لا ينتفع الإنسـان به من قشور الفاكهة وبقايا النبات الى بروتين ولحم ليعود بالتالي طعاما للإنسان؟

(**مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ**)

[33] كل هـذه النعم المتواصـلة الـتي أسـبغها الـرب على الإنسان بين سائر

(1) الإرشاد للمفيد / ص 107.
(2) الدر المنثور ج 6 / 317.

الأحياء والنبـات تحمّله مسـئولية إضـافية ، فهو المسـؤول الوحيد بين سائر الأحياء ، وهكذا يبعث بعد موته للحسـاب والجزاء في يوم الصيحة الكبرى.

(**فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ**)

قالوا : الصاخة : الصـيحة ، وإنها النفخة الثانية ، تصخ الأسـماع اي تصـمها ، وقيل : بل تصخ لها الأسـماع ، وهي بالتـالي مـأخوذة من صـخّه بـالحجر أي صـكه ، ومن هـذا الباب قالت العرب : صختهم الصاخة وبـاءتهم البائنة وهي الداهية.

[34] يومئذ تكـاد تصم الصـيحة آذان الخلائق بقوتها ، ولكن الآذان يومئذ غيرها في الـدنيا فـإن الله جعلها بحيث تستوعب المزيد من الإثـارة ، كما أنّ الأجسـام تسـتوعب الآلام وأسباب الموت دون ان تعدم.

يومئذ تنقطع الأرحـــام ، وتنفصم عـــرى العلاقـــات ، وتتلاشى الأحساب والأنساب الـتي كـانت وسـيلة للتفـاخر في الدنيا ، ولا يبقى أثر لهذه القيم البتة.

(**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ**)

والأخ هو أقرب معين للإنسان وقد قال الشاعر :

أخـاك أخـاك فمن لا أخ له ... كسـاع الى الهيجـاء بغـير ســــــــــلاح

ولكن الإنســان يهــرب منــه. لما ذا؟ لأنه يخشى ان يلحق به عذابه ، أو يطالبه بحقّ له في الدنيا ، أو يسـتعين به على العذاب فلا يستطيعه.

بل انه يفر منه لأن مجـــرد رؤيته تشـــكّل له حرجا فكيف بالتعـــاون معه ، وهـــذه لا تكـــون إلا عند أعظم الشـــدائد حيث يركز فكر الإنســـان في نفسه دون أحد سواه.

وقد جاء في الروايات : إن الذي يفر من أخيه : قابيل من هابيل ، وقيل : بل هابيل يفر من قابيل لكي لا يطلب منه الشفاعة ، ولعلهما جميعا يفرّان من بعضهما.

[35] وبعد العلاقة الأخوية تــأتي علاقة الولد بوالديه والــتي تنفصم يومئذ الى درجة تــرى المــرء يهــرب من والديه فكيف يستطيع الوالدان الاعتماد عليه يومئذ.

(**وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ**)

أفلا ينبغي ألّا نـــترك ديننا لرضا آبائنا الـــذين قد لا ينفعوننا في الـدنيا فكيف بـالآخرة وكم منا من تنـازل عن قيمه ولم يمـــيز الحلال والحـــرام من أجل أبويه فهل ينفعونه غدا شيئا؟!

[36] اما صلة الإنسـان بزوجته أو ابنائه فهي الاخـرى لا تغنيه يومئذ عن عـذاب الله فلا يهلك نفسه اليـوم لهـذه الصلة الزائلة.

(**وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**)

قالوا : الذي يفر من صاحبته لوط ، ومن ابنه نوح.

عن الرضا (ع) من قصة الشـامي مع أمـير المؤمـنين (ع) في مسجد الكوفة قال : وقام رجل يسـأله ، فقـال يا أمير المؤمنين! أخبرنا عن قـول الله تعـالى : «**يَوْمَ يَفِـرُّ الْمَـرْءُ مِنْ أَخِيـهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيـهِ* وَصـاحِبَتِهِ وَبَنِيـهِ**» من هم؟ قـال : قابيل وهابيل ، والــذي يفر من أمّه موسى ، والذي يفر من أبيه إبراهيم ـ يعني الأب المربي لا الوالد ـ والـذي يفر من صـاحبته لـوط ، والـذي يفر من ابنه نـوح وابنه كنعان [1].

(1) راجع نور الثقلين ج 5 / 511.

[37] لما ذا يفرون من بعضهم؟ انما لهـول الحسـاب وخشية العذاب ، لذلك فإن كلّ لهثهم في إنقاذ أنفسهم.

(**لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**)

وانما يصرف الإنسان المزيد من جهده للآخـرين ، اما في الآخرة فلا يبقى لفكره وجهده ووقته فضل حتى يـوفر لغيره حتى ولو كانوا الأقربين.

[38 ـ 39] وهكـذا الإنسـان أكـرم في الـدنيا بهـذه الكرامة العظيمة ليحاسب غـدا بـذلك الحسـاب العظيم ، وتكـون عاقبته ـ لو تحمل مسـئوليته كاملة هنا ـ النعيم ، تنعكس على روحهم بالبشـــارة ، وعلى ملامح وجـــوههم بالبشر والبشاشة.

(**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ**)

قـالوا يعـني : مضـيئة متهللة ، من أسـفر الصـبح إذا أضاء ، ويبدو لي أن معنـاه : منشـرحة منبسـطة ، وقيل : كل ذلك من صــلاة الليل ، بل وأيضا من سـائر أعمـالهم الصالحة.

(**ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**)

وانبساط وجوه المؤمنين انعكـاس لانعـدام الهمّ ، اما ضحكهم فدليل انبهارهم بالنعم ، بينما استبشـارهم يعكس رجاءهم في نعيم ربهم أو بشاشـتهم برضـوان ربهم ، وهو أغلى منى يبحث عنه المؤمنون.

[40] اما الذين لم يتحملوا مسئولياتهم فإنهم يصابون بإحبـاط شـديد ، تعلو وجـوههم سـيئاتهم في صـورة غبـار الذل والهوان.

(**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ**)

[41] والى جـانب الغبـار تـرى الـدخان الأسـود على وجوههم جزاء تقصيرهم في تطهـير أنفسـهم وتزكيتها في الدنيا.

(**تَرْهَقُها قَتَرَةٌ**)

قـالوا : «ترهقهـا» تـدركها عن قـرب كقولك : رهقت الجمل إذا لحقته بســرعة ، اما القتــار فقــالوا : ســواد كالدخان.

[42] بلى. غبـار الكفر يعلو وجـوههم بما سـتروا من الحق ، وقتار الفجور يلحقهم بما عملوه من الفواحش.

(**أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**)

فلا ينفعهم المال والسلطان ، ولا تشفع لهم العلاقات الحميمة.

أعاذنا الله من هذه العاقبة السوئى.

سورة التّكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : من أحبّ ان ينظر إليّ يوم القيامة ، فليقرأ : «**إذا الشمس كورت**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 513

وفي مجمع البيان : روي ان أبا بكر سأل الرسول فقال : يا رسول الله! أسرع إليك الشيب؟ فقال : «**شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت**»

المصدر

الإطار العام

عند ما تغـور النفـوس في لجّة عميقة من السـبات ، وعند ما تتحجّر القلوب فتمسي أشدّ قسوة من الجلاميد ، وحينما ينسـاب الإنسـان بلا وعي ولا إرادة مع التقاليد الباطلة لا يرضى تطـويرا ولا تحـويلا .. هنالك تشـتد حاجة الإنسـان إلى صـعقات النـذر ، كما الرعـود الهـادرة توقظ القلب من سـباته ، وتسـتثير العقل من تحت ركـام الخرافات.

وجاء الوحي يصدع به النبي النـذير ـ صـلّى الله عليه وآله ـ إضاءات متواصـلة في محيط من الظلام الـدامس ، وصـعقات بالغة الشـدة في بيئة السـكوت والجمـود ، وبراكين حارقة للمقدسات المزيفة ، والخرافـات الجاهلية المتوارثة.

وسورة التكوير واحدة من تلك الصعقات ، فـإذا انفتح عليها القلب كـاد يتصـدّع هـولا ، لأنّها تفتح نافـذة واسـعة على جيشـان الحقيقة ، وطوفـان التطـورات فيها ، إنّها مفتاح التطوير والإبداع في القلب والعقل والسلوك.

وتحـدثنا آياتها الفاتحة عن الشـمس إذ كـورت .. بلى. الشمس التي هي محور منظومتنا هي الأخـرى تتكـور في يـــوم رهيب. فلما ذا الاسترســـال مع الســـكون القاتل ، والنجـوم كـذلك تنكـدر ، والعشـار تتعطل ، وتمضي آياتها الصــاعقة ترسم صــورة رهيبة لــذلك اليــوم لعــلّ قلوبنا تتساءل : ما ذا عنا في ذلك اليوم؟ فيأتي الجواب مهـولا : «علمت نفس ما أحرضــــت» عظيم حقا أن نعـــود إلى أعمالنا التي تتجسد أمامنا ونعلم بها إنّها المســؤولية بكـلّ ثقلها ، وتنقلنا الصــــورة فـــورا إلى النجــــوم إذ تخنس ، والكـــواكب إذ تكنس ، والليل إذ يعســـعس ، والصـــبح إذ يتنفس. أوليست تلك آيـات الله الأكـثر إثـارة لنفوســنا ، والتي تهدينا الى حكمة الربّ وقدرتـه؟ بلى. فـإنّ القـرآن قول رسـول كـريم ، لأنّه وبشـهادة العقل والضـمير تعبـير عن تلك الآيـــات ؛ إنّه كتـــاب ينطق عن ربّ الكائنـــات ، وتنطق الكائنات بحقّانيته.

وفي الختام يصور القـرآن لنا تـنزّل الـوحي عـبر أفق مبين ، ويتساءل : فأين تذهبون عن هذا الوحي الحق؟ إنّه ذكر من الله للعالمين ، لمن شاء أن يستقيم.

إنّها ثلاث صـور عظيمة : صـورة رهيبة عن السـاعة ، وصـورة جذّابة عن الطبيعة ، وصـورة رائعة عن الـوحي .. سبحان الله الذي أنزل هذه السورة سبحانه سبحانه!!

سورة التّكوير

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ**

---

2 [انكدرت] زيادة على ما في المتن ، الانكدار : انقلاب الشيء حتى يصير أعلاه أسفله بما لو كان ماء لتكدّر ، وأصله الانصباب ، وفي المفردات : والانكدار : تغيّر من انتشار الشيء ، وانكدر القوم على كذا إذا قصدوا متناثرين عليه ، وفي المنجد : انكدر في السير : أسرع ، وانكدر عليه القوم : انصبوا ، وانكدرت النجوم : تناثرت ، والكدراء : السيل الشديد.

أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (14) فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29))

---

15 ـ 16 [الخنّس ـ الكنّس] جمع كانس ، وأصلها الستر ، والشيطان خنّاس لأنه يخنس إذا ذكر الله تعالى : أي يذهب ويستتر ، وكنّاس الطير والوحش : بيت يتّخذه ويختفي فيه ، والكواكب تكنس في بروجها كالظباء تدخل في كناسها.

وقيل : «الخنس» هي زحل والمشتري والمريخ لأنها تخنس في مجراها : أي ترجع وتستتر.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

بينات من الآيات :

[1] عند الساعة تحدث تغييرات رهيبة وهائلة في الطبيعة. أليست الطبيعة قد سخّرت للإنسان؟ فها هو الإنسان يجرّ للحساب الدقيق ، فلا كرامة إذا للشمس ، ولا مبرّر لوجودها ، فما ذا يصنع بها؟ إنّها تفقد ضياءها ، وتلفّ على بعضها (كما العمامة إذ تكوّر) ويرمى بها في نار جهنم مع من كان يعبدها من البشر.

(**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**)

قالوا : أصل التكوير من الجمع ، يقال كار العمامة على رأسه يكوّرها : أي لاثها وجمعها. ما ذا يصنع بهذه الكرة العملاقة التي هي أكبر من أرضنا زهاء مليون مرة؟ هل إنها تفقد عمرها الطبيعي الذي هي في منتصفه حسب ما يقول العلماء الذين يقولون : انها اليوم في عمر الكهولة ، فنحن البشر إذا في منتصف المسافة بين أصل تكوّنها ويوم تكورها ، أم أنّها تصاب بآفة كونية فيمحى ضوؤها ، كما الشمعة

إذا غمست في ماء المحيط أو تعرضت لإعصار شديد؟ فلا يبقى لها إلّا أن تنطــوي على نفســها ، وتلملم امتــدادات ضـوئها ، وزفـرات شـعلتها ، وانسـيابات أشـعتها ، من هنا جـاء في لسـان العـرب : كـوّرت الشـمس جمع ضـوؤها ، ولفّت كما تلف العمامة. أيّا كان الأمر فإنّها ساعة رهيبة.

[2] هل القيامة ســـــاعة المنظومة الشمســـــية أم المجــرّة أم العــالم كلــه؟ لا أدري ، ولكنّ الآية تؤكّد أنّ النجوم تنكـدر وتؤكد آية أخـرى انها تنتـثر فهل هي تنصـبّ وتتساقط في اتجاهات متباعـدة ، أم أنّها تعـود كما كـانت أول الخلق كتلة واحدة متراصّة ، أم ما ذا؟ أم لا يكون كل ذلك ، وإنّما بســبب اختلال نظــام منظومتنا فإنّنا نــرى النجوم بهذه الصورة؟ الله العالم.

(**وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ**)

قالوا : يعني تهافتت وتناثرت ، وقـال بعضـهم انصـبّت كما ينصب العقـــاب ، وحكي عن الخليل قوله : انكــــدر عليهم القوم : إذا جاؤوا إرسالا فانصبّوا عليهم.

[3] وأما الجبال الراسيات الـتي اعتمد عليها الإنسـان فإنّها تسير ثم تتبدد ثم تتلاشى فتكون سرابا.

(**وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ**)

[4] أمّا الإنســان فيلهو عمّا حوله ، وحــتى عن أنفس ما يملك.

(**وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ**)

قالوا : العشـار جمع عشـراء كالنفـاس جمع نفسـاء ، وهي الإبل الــتي أتى على حملها عشـــرة أشـــهر ثم هو اسـمها إلى أن تضع لتمـام السـنة ، وهي أنفس ما يكـون عند

أهلها وأعزّها عليهم.

أمّا تعطيلها فبمعـــــنى الالتهـــــاء عنها وتركها ؛ لأنّ للإنسان يومئذ شأنا آخر يغنيه عمّا حوله. إنّه يريد التخلص من أهوال الساعة المتلاحقة عليه.

وقال بعضـهم : العشـار هي السـحب تعطّل ، وقيل : إنّها الأراضي المزروعة تترك.

[5] في ذلك اليـوم تتجمع الوحـوش من كـلّ ناحية ، كأنّها تحس بالوحشة من شـــدة الهـــول فتلـــوذ ببعضـــها ، وتقترب من بني آدم دون أن تنفر منهم أو ينفر بعضها من بعض. ما أعظم ذلك اليوم على قلب الكائنات!

(**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**)

والحشر ـ حسب هذا التفسير ـ بمعـنى الجمع ، وقيل : إنّ الحشر بمعـنى إعادتها إلى الحيـاة حـتى يتم إجـراء العدالة عليها حسب مسـتواها الشـعوري ، فـإذا كـانت القرنـاء طعنت الجمّـاء أعيـدتا حـتى يقتص للجمّـاء من القرناء ثم تموتا معا. والله العالم.

عن أمـير المؤمـنين ـ عليه السـلام ـ قـال : «**وأما الذنب الذي لا يغفر فمظـالم العبـاد بعضـهم لبعض. إن الله تبـارك وتعـالى إذا بـرز لخلقه أقسم قسـما على نفسه فقال : وعزّتي وجلالي لا يجـوزني ظلم ظـالم ولو كـفّ بكـفّ ، ومسـحة بكـفّ ، أو نطحة ما بين القرناء إلى الجمّاء ، فيقتص للعباد بعضـهم من بعض ، حـــتى لا يبقى لأحد على أحد مظلمة ، ثم يبعثهم للحساب**» [1].

[6] وما ذا عن البحار وهذه المحيطات العظيمة؟ هل يمكن أن يلوذ بها الناس

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 515.

خشية النيران؟ كلّا .. إنّها بدورها تسجّر كما يسـجر التنـور ، وتشتعل نارا لا هبة.

(**وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ**)

وكان المفسرون سابقا يبحثون عن تفسير لهـذه الآية حتى قال بعضهم : تكون جهنم في قعر البحار فيـأذن الله لها أن تحرق البحار بنيرانها ، وقال آخـرون : إنّ الله يلقي بالشمس والقمر وسـائر الأجـرام في البحـار فتسـجّر ، أو أنّه يخلق فيها نيرانا عظيمة فيحرقها ، وقـال الـرازي بعد نقل هذه الأقوال وغيرها : هـذه الوجـوه متكلّفة ، لا حاجة إلى شـيء منها ، لأنّ القـادر على تخـريب الـدنيا وإقامة القيامة لا بد أن يكون قادرا على أن يفعل بالبحار ما شـاء ، من تسـخين ومن قلب مياهها نيرانا ، من غـير حاجة منه إلى أن يلقي فيها الشـمس والقمر أو أن يكـون تحتها نـار جهنّم. [1]

بلى. وقد أثبت العلم أنّ في المـــاء مـــادتين (أوكسجين+ هيدروجين) وهما شديدان الاشتعال لو انفصلا ، وقد اخترعوا سـيّارات تعمل على المـاء بعد تجزئته ، فهل تعجز قـدرة الـربّ عن فصـلهما يـوم القيامة بفعل ضـغط جويّ هائل أو ما أشبه حتى تتسجّر؟!

إنّ عدم معرفة البشر بكيفيّة وقوع الشيء قد يدعوه إلى الكفر بوقوعه رأسا ، وهذا من أعظم تبريرات الكفّـار بيـوم القيامة ، ولكن هل أحـاط البشر بكـلّ شـيء علما ، حـتى ينكر أيّ شـيء لا يعلم تفصـيل وقوعـه؟! أليس في هذا جهل مركّب؟!

ولعـلّ الكفّـار بيـوم البعث كـانوا يسـخرون من كيفية تحـوّل البحـار نيرانا ، ويقولـون : إنّ المـاء يطفئ النـار فكيف يشعلها؟! ولكن ثبت علميّا أنّ المـاء أساسا مـركّب من نارين. أولا يهدينا ذلك إلى أنّ جهلنا بكثير من الحقائق لا يبرّر كفرنا

---

(1) تفسير الرازي ج 31 ص 68.

بها رأسا؟!

[7] في ذلك اليــوم لا تــترك النفــوس وشــأنها ، بل وتقــارن بأعمالها ، ثم تحلق ــ حسب مقيــاس العمل ــ بأقرانها ، فأصحاب الميمنة مع أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة مع أصحاب المشأمة ، والسابقون مع السابقين.

(**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**)

وقيل : تقــرن نفــوس المؤمــنين بأزواجها من الحــور العين ، بينما تقــرن نفــوس الكفّــار بالشــياطين والجن ، والله العالم.

[8] وحيث ينصب المــيزان العــدل يرفع المظلــوم ظلامته أمـام الملأ ، ويسـمح الحـاكم العـدل بـأن تتحـدث الموؤدة عن نفسها حين يسألها : بأيّ ذنب قتلت؟!

(**وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ**)

أليس قد جعل الله للمظلوم سلطانا على الظالم في محكمة العــدل ، وهو أول من يســتنطق فينطق ، فلــذلك هي الــتي تســأل حــتى تشــرح ظلامتها ، وقــرأ بعضــهم (سـألت) ويحتمل أن يكـون ذلك نوعا من التفسـير ، وقد روى ابن عباس عن النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ــ : «**إنّ المرأة الـتي تقتل ولـدها تـأتي يـوم القيامة متعلقا ولدها بثـديها ملطّخا بدمائه ، فيقـول : يا ربّ! هـذه أمّي وهذه قتلتني**» [1].

ويبـدو من هـذا الحـديث ومن نصـوص وآيـات عديـدة ووثائق تاريخية أنّ عادة الوأد كانت منتشـرة في العـرب ، وقد حاربتها الرسالة الإلهية بقوة حتى أقلعوا عنها ، ولعـلّ الحديث الثـاني يكشف جانبا من تلك العـادة الخبيثة ، فقد روي : أنّه جاء

(1) القرطبي ج 19 ص 234.

قيس بن عاصم إلى النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقـال : يا رسول الله! إنّي وأدت ثمان بنات كنّ لي في الجاهلية ، قال : «فأعتق عن كلّ واحدة منهنّ رقبة» قال : يا رسول اللـه! إنّي صـاحب إبل ، قـال : «**فاهد عن كـلّ واحـدة منهنّ بدنة إن شئت**» [1].

(**بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**)

وهذا التساؤل العـريض يجعل الجاهلية كلّها في أزمة حادّة ، فهب أنّها بـرّرت كفرها بالرسالة ، أو سكوتها عن ظلم الأغنيـاء للفقــراء ، أو حروبها الداخلية ، فهل لقتل البنات وبهذه الصـورة البشـعة أي تـبرير؟! إنّ هـذا العمل القبيح يكشف زيف الفلسـفة الـتي وراءه ، وبالتـالي زيف كـلّ القيم الجاهلية ، وذلك لأنّ فطـرة الإنسـان قد تحجب عن معرفة بعض الحقــائق الخفية ، ولكنها لا يمكنها أن تتغافل عن مثل هــذه الحقيقة الواضــحة أنّه لا يجــوز المخــاطرة بحيــاة الطفلة الــتي وهبها الله لوالــديها ، وجعلهما حمـاة لها ، وأودع في أنفسـهما الحنـان والعطف نحوها ، بل جعلها حاجة نفسـية ملحّة لهما ، فكيف يجـوز لهما دسّـها في الـتراب ، بل كيف مسـخت شخصـية هـذا الأب أو تلك الأم اللــذين يقومــان بوأدها ، وكيف يســمح المجتمع لهما بارتكاب هذه الجريمة ، وأين ضمير المجتمع عنهما ، أين دعاة الخير والصلاح ، أين أهل الدين والتقـوى ، أين الرحمة والحب والحنان ، أين أهل الثقافة والفكر؟!

ان وقوع هذه الجريمة النكـراء في المجتمع الجـاهلي كـان شـاهدا على أنه قد هبط الى أسـفل درك ، وهكـذا نطقت الموؤدة حين سئلت بإدانة كل المجتمع الجـاهلي ، وكل قيمه الزائفة.

وقصة وأد البنــات من أشد قصص الجاهلية بشــاعة وآلما معا ، وهي كما قلنا :

---

(1) تفسير الدر المنثور ج 6 / ص 320.

تكشف عن جوانب عديدة من الضعف في الفكر الجاهلي ، فقد حكي عن ابن عباس .. كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة ، وتمخضت على رأسها ، فان ولدت جارية رمت بها في الحفرة ، ووارتها التراب ، وان ولدت غلاما حبسته ، وكان بعضهم يفتخر بذلك فيقول قائلهم :

سميتها إذ ولدت تموت   والقبر صهر ضامن ازميت [1]

وقد كان في الجاهلية من يمنع الوأد ، ويسعى لنجاة الموؤدات ، مثل صعصعة جد الفرزدق حيث يقال أنّه كان يشتري البنات من آبائهن ، وجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة ، حتى افتخر حفيده الشاعر المعروف بذلك فقال :

ومنّا الذي منع الوائدات   فأحيا الوئيد فلم يوأد

وجاء في الدر المنثور : عن صعصعة بن ناجية المجاشي وهو جدّ الفرزدق ، قال : قلت : يا رسول الله! إني عملت أعمالا في الجاهلية فهل لي من أجر قال : «وما عملت؟» قال : أحييت ثلثمائة وستين موءودة ، أشتري كل واحدة منهنّ بناقتين عشراوين وجمل ، فهل لي في ذلك من أجر ، فقال النبي ـ صلّى الله عليه وسلم ـ : «**لك أجره إذ منّ الله عليك بالإسلام**» [2].

حقا ان تردي البشر الى هاوية الفساد والجريمة رهيب ولو لا ان تداركه رحمة الله فانه يبلغ مستوى من الرذالة أن يدفن أبناءه أحياء ، ولعل الاشارة الى البنات في هذه الآية ليست للحصر بل لأنهن الحلقة الأضعف والأكثر إثارة للشفقة ، إذ تدل آيات أخرى على أن الأولاد أيضا كانوا يقتلون حيث يقول ربنا : «**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**» [3].

---

(1) اي سماها تموت بإزاء ما يسمى الأولاد ب (يحيى) والزميت بمعنى : الوقور والمتزمت.
(2) تفسير الدر المنثور / ج 6 ص 320.
(3) الإسراء / 31.

وإذا كنا نرى اليوم القــوانين الرادعة لقتل الأولاد ، بل العواطف الرقيقة الـتي تحـوط الأولاد بسـياج من الرعاية الفائقة فإنما هو بفضل تعـاليم الرسـالات الإلهية ، ولولاها لعــادت البشــرية الى ســابق جاهليتها ، إذ ليست عاقبة الفلسـفات المادية الـتي تقيّم كـلّ شـيء بمنطق الفائـدة والخسارة إلّا مثل هذه الجرائم.

ولا زال بعض الناس متورطين في مثل هـذه الجـرائم وأضرب لكم ثلاثة أمثلة.

أ/ ما يجـري في العـالم وبشـكل واسع من المتـاجرة بــالأولاد ، لاســتعبادهم أو اســتخدامهم في تصــدير أفلام جنسية بالغة الفحش والخلاعة ، أو حتى قتلهم واسـتخدام أجسادهم لصناعة مواد معينة.

وبـالرغم من التسـتر الواسع على مثل هـذه الجـرائم فـان العـالم يطلع بين الفينة والاخـرى على بعض الأرقـام المذهلة.

وإليك طائفة مما تناقلته بعض الصــــحف ووكــــالات الأنباء :

نشرت كيهان العربي (الجريـدة الإيرانية الصـادرة في طهران) في عددها 1691 :

كشف منــدوبون في مــؤتمر عن اســتعباد الأطفــال أمس الاول النقــاب عن ان أكـثر من سـبعة ملايين طفل يعملون كعبيد في دول جنوب آسيا وان بعضـهم اختطفـوا وتم وسمهم ليبقوا عبيدا ويعيشـوا حيـاة أسـوأ من «حيـاة البهائم».

وقــال سـوامي اجـنيفيش رئيس جبهة تحرير العمـال الأرقــاء امــام المــؤتمر : «يختطف الأطفــال بين سن السادسة والثانية عشـرة وينقلـون الى مصـانع السـجاد. انهم يحملون علامات على أجسادهم بعد وسمهم بقضبان الحديد الملتهب».

وقد رأست جبهة تحرير العمال الأرقاء المؤتمر الـذي انعقد في نيـودلهي وحضـره منـدوبون من الهند وبنغلادش وباكستان ونيبال وسريلانكا.

ووصف ب. ن. باغواتي كبير القضاة السابق في الهند هؤلاء الأطفال بأنهم لا يعيشون كـآدميين بل يحيـون حيـاة أسوأ من حياة البهـائم ، فالبهـائم حـرة على الأقل في ان تسوم كيف شاءت أو تسرق طعامها متى شعرت بالجوع.

وحضر المؤتمر أيضا الأطفال الـذين تم تحريـرهم من العبودية.

وقـال اجـنيفيش ان منظمـات دولية للاغاثة تعتقد انه يوجد حـــوالي 75 مليـــون طفل على الأقل تحت سن الرابعة عشر يعملـون في جنـوب آسـيا وان عشـرة في المائة عبيد.

وقد ألغت الهند نظام العمل العبودي في عام 1976.

ويعمل أكــثر من 000 ، 100 طفل من العبيد في صــناعة الســجاد وحــدها وهي مصــدر رئيسي للهند في الحصول على العملات الصعبة.

يوجد في ســـيريلانكا 146 منظمة تتـــاجر في بيع وشـراء الأطفـال الأجـانب وقد بـاعت عـام 1985 وحـده 5343 طفلا. نقلا عن وكالة الأنباء الفرنسية 25.

ونشرت جريدة الوطن الكويتية عــدد 4138 : أنه يتم المتــاجرة بما لا يقل عن مليـون طفلا بعضـهم في الثالثة والرابعة من أعمـارهم ، يبـاعون في سـوق الفن الإبـاحي الدولية ، ويقتل بعضـــهم بـــالمرض أو الانتحـــار أو تمثيل الأفلام.

ونشــرت جريـدة السـفير في عـددها 4782 : نـائب وزير الداخلية الباكستاني اتهم

بعض الآباء الباكستانيين بـبيع أبنـائهم إلى دول الخليج من أجل اسـتخدامهم في سـباقات الهجن (الجمـال) ، ويقـول مربــوا الهجن : ان الســبب في اســتخدام الأطفــال المربوطين على ظهـور الجمـال يعـود الى كـون صـرخات الأطفال مهيّجة للجمال مما يجعلها تعدو بسرعة.

ونشـرت الـوطن في عـددها 3137 ما مضـمونه : ان امــرأة ســيريلانكية تعمل عند أحد أمــراء دولة الإمــارات عرضت طفلها للبيع بمبلغ 1122 دولارا.

ب / ســوء التغذية الــذي يــؤدي الى وفــاة الأطفــال بأعداد غفـيرة ، دون أن يسـعى أحد لإنقـاذهم بـالرغم من سهولة ذلك لعالمنا المتقدم تقنيا وماديا.

كشف رئيس وزراء السـودان (الســابق) النقــاب عن ان 20 الف طفل قضوا جوعا في إقليم «كردفان» وسط البلاد. حيث يعاني 250 الف شخص من سوء التغذية.

وذكــرت الأمم المتحــدة ان نصف ســكان الســودان البالغ عددهم مليون نسمة ربما يتعرضـون لخطر المجاعة بسبب الجفاف.

ويقــول مســئولوا اغاثة غربيــون ان (100) شــخص معظمهم من الأطفــال يموتــون كل أســبوع في معســكر يضم 50 ألفا من ضحايا الجفاف في إقليم (دارفور).

ويقول خبراء الأمم المتحدة ان 15 مليون سـوداني ــ ثلثا العـدد من الأطفــال ــ يطــالهم الجـوع ، وان الأطفـال أصبحوا هياكل عظمية في الجزء الغربي من السودان ، إذ فقدوا 80 خ من أوزان أجسامهم الطبيعية.

يموت 50 خ من الأطفال في (هاييتي) قبل ان يصلوا الى سن الرابعة ، والذين

عـــبروا مرحلة الخطر يصـــابون بـــالهزال ، حيث تصـــبح اوزانهم أقل من الحد الطبيعي بنسبة 10 الى 20 خ.

أوضح تقرير صـــادر من افريقيا بـــان 10 آلاف طفلا يموتون يوميا عام 1985 م.

ذكـــــــــرت منظمة اليونيسف ان اربعة ملايين طفل يموتون كل عام في الدول النامية.

بلغت جبال الأطعمة الفائضة لدى السـوق المشـتركة حوالي 5 ، 8 مليار دولار امـريكي ، منها 17 مليـون طن من القمح ، و 2 ، 1 مليون طن من الزبد ، 000 طن من لحم البقر ، و 487 طن من مسحوق الحليب.

وفي الوقت الذي يتعاظم الفائض الغـذائي في أوروبا ، وامريكا الشمالية ، في الـوقت ذاته يخشى ان يلقى 34 مليـون شخصا حتفهم ، أكـثرهم من الأطفـال من جـرّاء سوء التغذية في افريقيا. هـذا وقد تنبأ مـدير مسـئول في هيـأة الأمم المتحـدة ويـدعى (مـورث) بـأن 20 مليـون شـخص معظمهم من الأطفـال مهـدّدون بـالموت في إفريقيا بسبب المجاعة.

بلغ معدل موت الأطفـال في الصـومال بسـبب سـوء التغذية 200 في الألف ، أي خمس المواليد ، وفي الغابون 140 طفل في الألف.

ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية هذه الاحصائيات الغربية :

* 000 طفل في العالم يذعنون لحتمية الموت لسوء التغذية بصورة منتظمة.

* 20 مليون طفل ما بين 6 ـ 12 سـنة يحرمـون من حق التعليم لسبب أو لآخر

وأهمها الفقر المدقع.

* 75 مليـون طفل ما بين 8 ــ 15 سـنة في العـالم الثالث يعملون لتوطئة الظروف المعيشية القاسية.

* نسـبة وفيّـات الأطفـال في العـالم النـامي تـزداد عشرة أضعاف عما هو عليه العالم الصناعي.

أعلى المعــدلات لوفيــات الأطفــال في العــالم في افريقيا ، فقد هلك نحو خمسة ملايين من الأطفــال عــام 1984 م ، وأصـيب مثلهم بعاهـات مختلفة نتيجة المـرض وسوء التغذية ، وهذا يتوافق مع رقم نشـرته وكالة الأنبـاء الفرنسية بأن عدد الموتى من الأطفال ما بين عـام 83 ــ 85 يبلغ 10 ملايين طفل.

قـال تقرير منظمة الصـحة العالمية : ان 15 مليــون طفلا يموتـــون ســـنويّا بســـبب ســـوء التغذية وهم دون الخامسة ، وهنـاك الكثـير من الأطفـال يصـابون بـأمراض مرتبطة بسوء التغذية كالحصبة والسل والإسـهال والعمى ، وأضافت مجلة (اطلاعات الاسبوعية في عــددها 2225) يوجد في الهند 9 مليـــون مكفـــوف ، وفي بنغلادش يفقد 200 الف طفل بصــرهم كل عــام بســبب ســوء التغذية وفيتامين (أ).

وعن بنغلادش أضـافت كيهـان في عـددها 12435 : يموت 400 الف طفل بسبب الإسهال والسعال والـدفتريا والكـــزاز وهي مرتبطة بســـوء التغذية ، وان 50 خ من أطفال بنغلادش يعانون من سوء التغذية.

وفي جريدة كيهان عدد 12322 قالت :

* في كل دقيقة و 42 ثانية يمـوت طفل في البرازيل بسبب الجوع.

* أعلنت وزارة الصـــــحة في البرازيل ان 300 الف طفل ممن هم أقل من السـنة وبسـبب سـوء التغذية لهم أو لأمهــاتهم ، ولســوء الحالة الصــحية فــإنهم يواجهــون الموت بحلول الشهر الأول من السنة القادمة.

* وحسب أقــوال اليونيسف ان 80 مليــون من أصل 120 مليون من سكان البرازيل يعانون من سوء التغذية.

ج / ما نســمعه من فضــائح تهز الضــمير منها ما نقل لي من مأســاة شــابة هندية أحــرقت مع زوجها بنــاء على عادات جاهلية ، وقد أثار حرقها ضجة كبيرة في هذا البلد [1].

ولعل قــرى كثــيرة لا تــزال تــدفن الأرملة مع زوجها الميت رضيت أم أبت.

وعن وأد البنات في الهند إليك بعض الحقائق :

يقتل في الهند كل عــــام 65 الف طفلة جديــــدة في منطقة (مادوراي) في (تاميل نادو) جنوب الهند.

ويقوم الأهالي بإعطاء السم المأخوذ من ثمرة الدّفل للمواليد الإنــــاث بعد ولادتهم مباشــــرة ، وهــــذه الطريقة ليست محصـــــورة في مجتمع (كــــالار) الهنــــدوكي ، بل وتمـارس عند مجموعـات هندوكية أخـرى مثل (ثيغـارس) في (مـدراس) و (جـاتس) في (راجبـوتس) و (ليغاكـاتبي باتبدراس) في (جوجارات).

ومن الطــرق الشــائعة في وأد البنــات ان تقــوم الأم بوضع السم على حلمة ثـــــديها ، وتسد أنف طفلتها ، وفي (راجبـوتس) تلف الأم طفلتها بقماشة سـميكة ، أو تغرقها في

(1) المؤلف كان يومه في الهند.

النهر أو البحر.

ومن أسهل الطـرق لـوأد البنـات التخلص من الطفلة برميها في أوعية الزبالة أو رميها في الصحراء.

والـوأد هي الطريقة الـتي يتبعها فقـراء الهند للتخلص من مهر البنت ، إذ أن أقل مهر هو خمســون الف روبية ، أي ما يعادل أربعمائة وخمسة عشر دولارا ، بالاضـافة إلى المجوهرات حال الزواج ، وفي حال كون الـزوج متعلما أو موظفا حكوميّا يزداد المهر على أب البنت.

وحين يعتبر الهنـود الـذكور موجـودات ممكنة الوجـود يعتـبرون البنـات مسـئولية ، ولأن الـذكور يحصـلون على المهر بعد الــزواج ، وهــذا المفهــوم مقبــول حــتى عند المتعلمين.

الآبـــاء يفرقـــون بين الـــذكور والإنـــاث في المأكل والملبس والعناية والتعليم ، إذ يرسل 84 خ من الــــذكور الى المدارس في مقابل 45 خ من الإناث.

المــــرأة الــــتي تلد طفلة أو أكــــثر تظل عرضة للملاحظـات خاصة إذا لم تنجب ذكـرا ، والمـرأة الـتي تلد طفلـتين أو ثلاث يجهض حملها إذا كـانت حـاملا ، أو تعقم إذا كانت غير حامل.

ويســتعين الآبـــاء الفقـــراء الطب في وأد البنـــات بالإجهاض ، وان اختيارات تحديد النسل مستخدمة بشـكل واسع في معظم مدن الهند.

وهنـــاك إعلانـــات في كل مكـــان : في القطـــارات والجـدران والسـيارات تقـول : «نحن نعقم ...» أو «لكي تتخلصي ادفعي 500 روبية بـــدل أن تـــدفعي 50 ألف روبيـــة» و «تخلصي من هم البنت» أو «اعــــرفي حنس طفلك».

وبسـبب الإجهـاض تمـوت ما بين 400 ــ 500 امـرأة في المائة الف ، وهي ثاني نسبة في العالم.

وبسبب الوأد والإجهاض يموت ربع عدد مواليد الإنـاث سنويّا البالغ 12 مليونا ، وعلى حسب ما جـاء على لسـان المجلس الهندي للأبحـاث الطبية فـإن عـدد مواليد الإنـاث أقل من الإناث ففي عام ـ 81 ــ كـان لكل الف ذكر 993 أنثى وفي عام ـ 86 ـ وصل الى 935 لكل الف ذكر.

[10] لكل واحد منا صــــحيفة منشــــورة يكتب فيها ملائكة الله ما نقدم أو نؤخر من عمل ، وإذا مـات ابن آدم طويت صـحيفته ليـوم الحشر حيث تنشر من جديد ، فـإذا بها لا تغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، فتعلق في عنقه ، ويقال له : «**اقْرَأْ كِتابَـكَ كَفى بِنَفْسِـكَ الْيَـوْمَ عَلَيْـكَ حَسِيباً**» [3].

(**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**)

في ذلك اليــــوم تبلو الخفايا والجنايا ، ولا أحد قــــادر على إنكار ما فعله ، فيلزم كل بما في طائره ، ويخـرج له كتابه منشـورا حسـبما روي عن رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ عن أم سـلمة أنه قـال : «يحشر النـاس يـوم القيامة حفاة عراة» قالت : فقلت : يا رسول الله! فكيف بالنساء؟ قال : «**شغل النـاس يا أمّ سـلمة**» قلت : وما شـغلهم؟ قـال : «**نشر الصـحف ، فيها مثاقيل الـذّر ومثاقيل الخردل**» [4].

[11] وكما تنكشف سـريرة البشر ، وتسـقط الحجب التي وضـعت عليها ؛ فـإن غلاف السـماء يكشط عنها كما يكشط جلد البعير عن جسده.

(**وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ**)

---

(3) الإسراء / 14.

(4) القرطبي ج 19 ص 234.

قالوا : قلع عن شدة التزاق ، وكشطت البعير كشـطا نزعت جلده.

ما ذا يحـدث ذلك اليـوم؟ هل يطـوى الغلاف المحيط بـالأرض لتتعـرض لكل واردة وشـاردة ، كما قـال ربنا سبحانه : «**يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**» [1] وعلى هـذا فالسـماء هي السـقف المباشر الـذي يحفظ الأرض ، أم أن الحجـاب الـذي لا يـدعنا نـرى الملائكة أو عرش الله يسقط ، فإذا بأبصار الناس ترى العـالم الأعلى كما ترى العالم المحيط؟

لعل التفسـير الاول هو الاولى ، واختـار بعضـهم التفسير الثاني ، وقال بعضـهم : ان معنـاه أن كـلّ أجـرام السماء تطـوى ، ولكن التعبـير بالكشط في هـذا الحـال لا يبدو مناسبا ، وأنى كان فإن الأمن الكـوني يفقد نهائيّا في ذلك اليوم الرهيب.

[12] إذا كشطت السماء وطويت تبينت الجنة والنـار ، أما النـار فقد أعـدّت لأهلها إعـدادا تامّا إذ أوقـدت حـتى اسودت وزمجرت وكادت تميّز غيظا.

(**وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ**)

روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**أوقد على النـار ألف سـنة حـتى احمـرت ، ثم أوقد عليها ألف سـنة حـتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سـنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة**» [2].

والسؤال هل هذه من سني الدنيا أم من سني الآخرة التي يعادل كل يوم منها ألف سنة؟ الله اعلم.

[13] أما الجنة فقد زيّنت لأهلها كما العـروس حين تزف إلى زوجها ، تلألأت

---

(1) الأنبياء / 104.

(2) تفسير القرطبي ج 19 / ص 235.

أنوارها ، وتهيأت الحور لأزواجهن ، واستعد الغلمان والجواري للخدمة ، وأعدت الموائد الطيبة التي هي الأشهى والألذ.

(**وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ**)

اي اقتربت ودنت للمتقين ، فهل تتقرب الجنة الى أرضنا كما لو كانت كرة أخرى ، أم أنّ أهل الجنة يقتربون منها؟ لا ندري.

[14] ذلك يوم الجزاء الأكبر ، حيث المحكمة العادلة ، وحيث السجن الكبير يتمثل ـ في جهنم ـ والجائزة العظمى في الجنة يمثلانه أمام كل ناظر ، فيرى الإنسان أعماله ماثلة أمامه ، لا يستطيع من أعماله السيئة فرارا أو إنكارا ، انها حقّا لمسؤولية وعين المسؤولية.

(**عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ**)

قالوا : هذه الجملة جواب الآيات المتواصلة : «**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**» وما بعدها ، وهي اثنا عشر آية صنعت الإطار العام لصورة مسئولية الإنسان عن كل أعماله ، والتعبير ب «علمت» للتأكيد على أن القضية يقين وليس مجرد تخمين ، أما قوله «نفس» فلأن النفس مركز الشعور والإحساس ، فهو أبلغ مما لو قال : علم الإنسان ، أما لو أننا قلنا : رأت العين كان أبلغ مما لو قلنا رأى الإنسان.

وقوله «ما أحضرت» ذروة البلاغة. أولسنا نعمل ونكدح حتى نحضّر شيئا لذلك اليوم الموعود ، كما يدرس التلميذ ليوم الامتحان ، ويتدرب الرياضي ليوم المباراة ، ويستعد الجيش ليوم الحرب ، وهكذا البشر يكدحون ليوم لقاء الله ، حيث يقول ربنا : «**يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**» [1].

(1) الانشقاق / 6.

[15] قسـما بـالنجوم الـتي تختفي وتظهر ، وبالليل حيث يخيم ظلامه ، وبالصبح حين يبسط نـوره على الأفق .. إن القرآن وحي الله الـذي أنزله جبرئيل على الرسـول الكريم.

هـذه الحقـائق تتواصل في جو تلك الصـورة المـؤثرة لتكون أبلغ أثرا ، وأعظم وقعا.

(**فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ**)

يبـدو أن اللام هنا زائـدة لتأكيد معـنى القسـم. أليس معنـاه التهويـل؟ فـإذا نفي القسم دل على عظمة ذلك الشيء الذي يتحـرز المتحـدث عن القسم به ، وهـذا أشد وقعا في النفس ، فما هو الخنّس؟ قـالوا : خنس بالضم خنوسا : تأخّر ، وأخنسه ، غيره : إذا خلفه ومضى عنه.

[16] (**الْجَوارِ الْكُنَّسِ**)

والجـوار جمع جارية ، بينما الكنس جمع الكنـاس اي الغيّب.

وروي عن الامـام علي ـ عليه السـلام ـ : «**هي النجـوم تخنس بالنهـار وتظهر الليل ، وتكنس في وقت غروبها**» وروي عنه ـ عليه السـلام ـ : «**هي الكـواكب الخمسة الـدراري : زحل والمشـتري وعطارد والمريخ والزهرة**»

وقيل : المـراد من «الخنس» البقر الـوحش ، و «الكنس» الظباء.

وكما ذكر في اللغة : أن كلمة «الخنس» تشابه معنى «الكنس» وربما يفترقان في المعنى قليلا ، وأورد الـرازي الفرق بين الخنس والكنس فقـال : روي عن علي ـ عليه السلام ـ وعطاء ومقاتل وقتادة : أنها هي جميع الكواكب ، وخنوسـها عبـارة عن غيبوبتها عن البصر في النهـار ، وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل ، أي

تظهر في أماكنها كالوحش في كنسها [1].

ويبـدو لي أن الفـرق : أن هنـاك نجوما وكـواكب ثابتة على مـدار السـنة ، وهنـاك نجوما وكـواكب فصـلية ربما تبقى ليلة أو حتى جزء من ليلة أو فصل كامل.

ولكن من ظاهر الآيتين : أن قوله : «الجـوار الكنس» تفسير للخنس ، فعلى هذا التفسـير نسـتطيع أن نفهم لما ذا كلمة «الخنس» تشابه كلمة «الكنس».

[17] ألا تــرى كيف تهجم جحافل الظلام جند النــور فتهزمه دون أن يكــون لنا سـلطان به نمنع ورود الليل أو نحافظ على بقية ضــياء من نهــار ، أفلا نتــذكر آنئذ أننا مربوبون ، وأن لهذا العـالم ربّا حكيما يـدبّر أمـره وأمرنا ، وأنه لا بد أن قد خلقنا لأمر عظيم ، وأنه باعث إلينا رسولا من عنده ينبئنا بذلك الأمر؟!

(**وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ**)

قالوا «عسـعس» : أدبر بظلامه ، وقـال بعضـهم : إذا أقبل ، واللفظ من الأضـداد ، والسـبب أن العسـعس هو الظلام الخفيف الصادق في أول الليل وفي آخره.

[18] فــإذا اســترخت الطبيعة فــوق ســرير الليل ، وأخــذت نصــيبا كافيا من الراحة ، وتجمعت قواها للوثبة الجديــدة تنفس عليها الصــبح بضــيائها ، كما وانبلج الفجر من رحم الأفق كما تنبلج الرسالة الإلهية في أفق الوحي.

(**وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ**)

قالوا : امتد حتى يصير نهارا واضـحا ، وكـذلك المـوج إذا نضح الماء ، ومعنى

---

(1) التفسير الكبير / ج 31 ص 71.

التنفس : خروج النسيم من الجوف.

[19] حين ينفتح القلب على بصـــــــائر الحقيقة في الخلق يهتـدي إلى واقع الرسـالة بغـير حجـاب : إن الـرب الذي جعل الليل والنهار ، وسخر بقدرته النجوم والكواكب لن يـترك عبـاده سـادرين في غيّ الجاهلية ، يلفهم ظلام الجهل ، ويسوقهم سـيف البغي ، ويغـرقهم الفسـاد موجة بعد موجة. كلا .. إنه يبعث إليهم رسولا هاديا. يهـديهم إلى ما انطوت عليه ضمائر قلوبهم ، ودلهم اليه نـور عقـولهم. بربك أليست رسالة القرآن كذلك؟!

(**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**)

انه قـــول واضح الحـــدود ، واضح الكلمـــات ، وليس مجرد تموجات في الفكر ، وأحاسيس في القلب ، والـذي جاء به رسول كريم ، تعالى عن الكذب وقول الزور.

[20] وهل يكذب الإنسان إلّا من احساس بالضـعف ، والرسـول الـذي ينـبئ عن الله قـوي بقـوة الله ، لأن الله سبحانه لا يبعث سفيرا إلّا إذا كان مقرّبا منه.

(**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**)

وقد تجلت قـوة الملك المقـرب جبرائيل عند ما حمل مدائن قوم لوط بقوادم جناحه ، وحينما ضرب بجـانب من ريشه إبليس فرمـــاه من بيت المقـــدس الى جزيــــرة سرنديب.

وهو مكين عند الله ذي العــرش ســبحانه ، وأقــرب منزلة ، وهو حاكم على كثير من ملائكة الله.

[21] (**مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**)

وقد أوكله الله بإدارة الملأ الأعلى ، فهو مطـاع هنالك ، كما أنّه أمين فلو لا أمانته لم يوكل إليه هـــــــذا الأمر العظيم ، وكـان من أمانته ــ عليه السـلام ــ أنه لم يعص الله في شــيء ، كيف وهو ممن قـال عنهم الــرب : «**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**» [1].

ولعل في هذا التأكيد ردّا على من يزعم بـأن الملائكة هم بنات الله ، وبالتـالي ليسـوا بمسـؤولين عن أفعـالهم ، كما كان يعتقد الجاهليون العرب قبل الإسلام ، ويزعمــون أنهم شـــفعاؤهم عند الله ، وكـــان ذلك منشأ عبـــادتهم للأصنام التي كان بعضها يرمز إلى الملائكة.

[22] وإذا كانت الرسالة من الله وعبر رسـول كـريم تتجلى كرامته في قوته وأمانته ، فـــان من يتلقاها يكـــون في ذروة الحكمة والمعرفة ، وهــــذا تفســـــير ما يقوله الرســـــول مما لا يحتمله النــــاس من حقـــائق مغيّبة ، فيزعمون أنه مجنون كلا .. إنه رسول عظيم ، رفيع المجد ، سنيّ المقام ، والذين كفروا به لا يفقهون.

(**وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ**)

وفرق كبير بين الرسول والمجنون ، فـالمجنون يـترك عـــادات مجتمعة الى الفوضى ، والرســـول يتركها لما هو أحسن منها ، والمجنــون يتحــدى ســلطات مجتمعة لغــير هدف ، والرسول يتحداها لصنع مجتمع أفضل ، والمجنـون لا يتبع مصالحه بغير هـدى ، بينما الرسـول يتركها للصـالح العام.

ثم أليس الرسـول صـاحبهم الـذي عرفـوه منذ نعومة أظفاره حكيما راشـدا صـادقا أمينا ، أفلم يعلمـوا انه ليس بمجنون؟! بلى. ولكن الأمم جميعا اتهمت رسلها بالجنون

---

(1) الأنبياء / 27.

حسبما يبين القرآن الكريم ويقول : «**كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**» [1].

[23] ولم تكن العلاقة بين الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وجبرئيل ـ عليه السلام ـ غامضة أو مشوّشة. كلا .. إنه رآه وبوضوح كاف عبر الأفق المبين.

(**وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**)

وما زاغ عن البصر وما طغى ، وما كانت وسوسات القلب ، أو أحلام اليقظة أو ما أشبه ، لقد كان النبي في قمة وعيه ، وكامل عقله حين تلقى الوحي من عند الله.

قالوا : الأفق المبين بمطلع الشمس قبل المغرب ، ويبدو أن المراد الجهة الصافية التي لا حجاب فيها ولا غبار.

وقال البعض : ان النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ رأى جبرئيل في صورته الأصلية ، قد سدّ بين المشرق والمغرب ، رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، فلم يحتمل رؤيته ، فقال له جبرئيل : «فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وأن العرش على كاهله ، وأنه ليضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير مثل الوصع ـ يعني العصفور ـ حتى ما يحمل عرش ربك الا عظمته» [2].

[24] ومن علائم الرسل انهم واضحون مع الأمم يفصحون لهم عن علومهم ومعارفهم ، دون أن يطالبوهم بأجر وليسوا كما السحرة والكهنة ممن يبخلون عن الناس بما يعلمون حتى يتفضلوا عليهم ، وليسوا كما سائر العلماء الذين يطالبون على

---

(1) الذاريات / 52.

(2) انظر القرطبي / ج 19 ـ ص 241.

عملهم أجرا.

(**وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ**)

قـالوا : ضـننت بالشـيء أضـنّ : أي بخلت ، وقـرأ بعضهم بالظاء ، وقالوا معناه : بمتهم.

[25] يختلف قول الشيطان عن وحي الرحمن اختلافا كبيرا في الأهداف والوسائل ، فبينما يدعونا الشيطان الى الفحشـاء والمنكر والبغي وينهانا عن التـوادّ والتعـاون ، وعلى الـبرّ والتقـوى ، ويثـير الضـغائن والأحقـاد ، ويـدفعنا نحو الشـهوات العاجلة و.. و.. نجد وحي الـرحمن المنبعث حينا من داخل الضمير وحينا من فم الرسول يأمر بالعـدل والإحسـان ، وأداء الامانة ، وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغي ، ويحبذ التوبة والقصد ، ويدعونا الى التعـاون على البر والتقـوى ، وهكـذا يهتـدي القلب الى صـدق الرسـول برسـالته الـتي يحملها والـتي لا يجد العاقل صـعوبة في فرزها عن الدعوات الضالة.

(**وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ**)

[26] وحين يـترك الإنسـان نـداء الـرحمن لا بد ان يتخطفه الشيطان بغروره وأمانيه ، فهل نذهب اليه؟!

(**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**)

قد يـرفض الإنسـان دعـوة الخـير دون ان يفكر في البديل أو حتى في العاقبة ، بل لمجـرد غفلته عن عـواقب كفـره بها ، وعما يضـطر إليه من الباطل حينما يـرفض الحق ، ويبـدو أنّ هـذه الكلمة إشـارة إلى ذلك ، كما هي صعقة عنيفة للنفوس السّادرة في

الغفلة والجهل لعلها تعود إلى ذاتها وتفكر في أمرها.

[27] وفي القرآن صفتان تشهدان على صدقه :

الاولى : أنه يتوافق مع نـور العقل لأنه يقـوم بإيقاظه من سباته ، فـإذا بالعقل يكتشف الحقيقة بنفسه ، ويكـون مثله مثل من كان يعرف شـيئا فنسـيه ، فـإذا ذكّر به عـاد يعرفه ، فمعرفته آنئذ تكـــون بذاته ، وإنّما دور المـــذكر تنبيهه وتبصـيره ، وإذا لا يحتـاج الى حجة لكي يعـرف أن الذي ذكّره كان ناصحا له ومحقا.

ومثل آخر إذا كنت تبحث عن الهلال فلا تجـده فأشـار صاحبك اليه ، فلما نظرت إليه رأيته فهل تحتـاج إلى دليل يهديك الى صدق صـاحبك؟ كلا .. إن أكـبر برهـان على أنه حـــقّ هو أنّه هـــداك إلى الحق فعرفته بنفسك ، كـــذلك القرآن ذكر ، ومعـنى الـذكر : أنه ينبه العقل الى مكنوناته فإذا به يكتشفها بنفسه ، فيعرف أنه حق.

الصفة الثانية : عالمية القرآن التي تهـدينا إلى أنه من ربّ العـالمين ، ذلك أنّ الشـيطان يفـرق النـاس بـألوانهم ولغـاتهم وقوميّـاتهم ؛ لأنه يـدعو الى المصـالح المادية ـ وهي مختلفة ومتضاربة ـ بينما الـوحي الإلهي يسـاوي بين عبـاد الله ، أوليسـوا جميعا خلقه ، وهو يـدعو إلى الحق ، وهو غير مختلف من أرض لأرض أو قوم لآخر؟! هكذا قال ربنا :

(**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ**)

[28] ومن صفات الوحي تأكيـده على حرية الإنسـان في اختيـاره. أولم يقل ربنا : «**لا إِكْـراهَ فِي الـدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ**» [1]؟!

---

(1) البقرة / 256.

والحرية تبدأ من حرية العقيدة ، وانه سـبحانه أبى أن يفـرض الحق على البشر فرضا ، وأبى لعبـاده أن يكرهـوا بعضهم عليه ، أولم يقل سبحانه : «**وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ**» [1] ، وانما يكـرم الإنسـان ويسـتحق الجـزاء الأوفى إذا آمن بحريته أما إذا أكـره على الإيمـان فلا جزاء له ولا كرامة.

(**لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**)

على الطريقة ، اسـتقامة تتحـدى ميـول النفس ، وضـغوط المجتمع ، وتضـليل الشـيطان وأبواقه ، وإرهـاب السلطات وإغرائها.

[29] والمشـيئة أنفس جـوهرة عند الإنسـان ، وهي موهبة إلهية ، ولو لا أنّ الله وهبه هــذه الموهبة لم يكن البشر إلّا واحدا من هذه الأحيـاء المتواجـدة على الأرض ، وهكـذا فلا أحد يسـتطيع أن يفتخر بهـذه الموهبة ، ويـزعم أنه مقتدر من دون الله ، ومن جهة ثانية : إن الإيمان نــور إلهي يقذف في القلب بعد أن يشـاء الفـرد ذلك ، ويـزكي قلبه لاستقبال نور الإيمان.

(**وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ**)

وهكذا تذكّرنا هذه الآية بأن لا جـبر ولا تفـويض ، وإنّما أمر بين الأمـرين ، فالإنسـان حر مختـار بما وهب الله له من قوة المشيئة ، ولكنّه لا يختار الحق بالتـالي إلّا بتوفيق الله سبحانه.

---

(1) يونس / 99.

سورة الإنفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن الإمام الصـادق ـ عليه السـلام ـ قـال : من قـرأ هاتين السـورتين وجعلهما نصب عينيه في صـلاة الفريضة والنافلة : «**إذا السـماء انفطـرت**» و «**إذا السـماء انشقت**» لم يحجبه من الله حاجب ، ولم يحجزه من الله حـاجز ، ولم يـزل ينظر الله إليه حـتى يفـرغ من حسـاب الناس

تفسير نور الثقلين ج 5 ص 520

الإطار العام

لكي تنمو شجرة التقوى في النفس فتــؤتي أكلها من الصالحات تذكّرنا آيات هذه السورة بالساعة وأشــراطها ، ثم بتضاءل البشر امام قدرة الخالق الـذي خلقه فسـوّاه ، ثم تــبيّن أنّ ســبب عــذر الإنســان تكذيبه بــالجزاء ، بينما الجــزاء واقع ، وأعمــال الإنســان مســجّلة عليه بدقّة ثم يـوفّى أجـوره عليها ، باستضـافة الأبـرار في النعيم الخالد وسـوق الفجـار إلى الجحيم .. وينـذر القـرآن في الختـام بيـوم الـدين حيث لا تملك نفس لنفس شـيئا ، وإنّما يومئذ لله الحكم العدل الذي لا بد أن نتقيه اليوم حقّ تقاته.

سورة الانفطار

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي**

---

1 [انفطرت] : انشقت ، وجاء في مفردات الراغب في معنى هذه الكلمة : أصل الفطرة الشقّ طولا ، وقيل للكمأة فطر من حيث انّها تفطر الأرض فتخرج منها.

2 [انتثرت] : الانتثار تساقط الشيء في مختلف الجهات ، وقال الراغب في مفرداته : نثر الشيء نشره وتفريقه ، ونثرت الشاة : طرحت من أنفها الأذى ، وطعنة فأنثره : ألقاه على أنفه.

4 [بعثرت] : قلب ترابها لخروج الأموات منها ، وبعثرت الحوض وبعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه.

خَلَقَـكَ فَسَـوَّاكَ فَعَـدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُـورَةٍ ما شـاءَ رَكَّبَـكَ (8) كَلاَّ بَـلْ تُكَـذِّبُونَ بِالـدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحـافِظِينَ (10) كِرامـاً كـاتِبِينَ (11) يَعْلَمُـونَ ما تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَها يَـوْمَ الـدِّينِ (15) وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الـدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَـوْمُ الـدِّينِ (18) يَـوْمَ لا تَمْلِـكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)))

14 [جحيم] : الجحمة شدّة تـأجّج النـار ، جحم وجهه من شـدّة الغضب استعارة من جحمة النار ، وجحمت الأسد عيناه لتوقّدهما.

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ

بينات من الآيات :

[1] كما سـورة التكـوير تنسـاب فاتحة السـورة في بيـان أشـراط السـاعة حيث تنهـار أنظمة الخليقة ، فـإذا بالسماء تنفطر ، والكواكب تنتثر ، والبحار تتفجر ، والقبور تتبعثر .. ويكفي القلب الواعي ذلك واعظا ويتسـاءل : لما ذا كل ذلـك؟ لكي يحاسب الإنسـان ويجـازى ، وأوّل من يحاكم الإنسان يومئذ نفسه حيث تعلم ما قـدّمت وأخّـرت من خير أو شر.

(**إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ**)

قالوا : أي تشـقّقت بـأمر الله وتـنزّلت الملائكة ، كما قال ربنا العزيز : «**يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمـامِ وَنُـزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً**» [1].

(1) الفرقان / 25.

ويبدو أنّ الأمر أعظم من ذلك ، فالسماء الـتي جعلها الله سـقفا محفوظا لم تعد بنـاء متقنـا. أوليس انتهى يـوم الامتحان وجـاء يـوم الحسـاب؟ أوليس امتحـان البشر هو حكمة الخلق والآن ذهبت الحكمة فليذهب ما يتصل بنا.

وإذا انفطرت السماء تقاطرت الصخور العملاقة التي جـــــاءت من تفتّت النجـــــوم على الأرض ، فويل لمن لا يحتمي اليوم بظـلّ التقـوى حـتى يكـون ذلك اليـوم محميّا بظلّ العرش!

[2] حــوادث عظيمة في تــاريخ العــالم ، كالانفجــار الهائل الــذي تــرى بعض النظريــات العلمية أنّه وقع قبل حــوالي (15) مليــار ســنة ، والــذي تلتقط بعض الأجهــزة العلمية الحساسة صداه في أطراف الكـون .. ولا ريب أنّ هــذه الحــوادث تتكــرر لأنّ عواملها قائمة ، ولكن مــتى وكيــف؟ لم يبلغ علمنا حــتى اليــوم معرفة ذلك ، بيد أن الوحي ينبّؤنا بأنّ نظام وجود المنظومة التي نعيشها ينهـار ، فهل ينهـار أيضا نظـام سـائر المنظومـات والمجـرّات؟ يستوحي بعض المفسرين ذلك من هذه الآية التي تقول :

(**وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ**)

قالوا : الكواكب كل النجوم ، ومعنى انتثارها تبـدّدها ، لأنّ انتـثرت بمعـنى الانتثـار والتسـاقط. ولكن يحتمل أن يكـون الأمر خاصّـا بهـذه المنظومة وكواكبها لأنّ الحـديث يتعلّق بما فيها ، والله العالم.

[3] وما هي علاقة انتثار الكـواكب بانفطـار السـماء؟ هل أنّ ضغطا هائلا تتعـرّض له منظومتنا تسـبّب في تبـدّد السـماء وانتثـار النجـوم ، أم أنّ انعـدام الجاذبية يسـبّب فقدان التوازن الدقيق الذي تعيش عليه الأرض ، أم شيء آخـر؟ لا نعلم ، إنّما الـذي يبـدو لنا من خلال النصـوص أنّ هزّة عنيفة تصيب صميم الخليقة ، حيث

أنّ البحار تنفجر بعد أن تسجّر نارا.

(**وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ**)

وقال بعضـهم : إنّ معـنى فجّـرت تـداخل بعضـها في بعض حـــتى يكـــون بحـــرا واحـــدا ، كما فسّـــروا كلمة «ســـجّرت» في الســـورة الســـابقة بـــالامتلاء ، بيد أنّ المناسب لانفطار السماء وانتثار النجوم فيها تفجّر البحـار ، والله العالم.

[4] وتتماوج البسيطة كما مياه البحر ، وتخرج الأرض أثقالها التي في بطنها ، ومنها أجساد بني آدم التي تقـذف منها بعد أن يحييها الله سبحانه.

(**وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ**)

قالوا : بمعنى قلبت وأخرج ما فيها من أهلها.

[5] في مثل هـــذا الجو يجد الإنســـان أعماله ماثلة أمامه ، حيث لا سـماء تظلّه ، ولا جبـال تكنّه ، ولا بحر ولا برّ يمكنه الفرار فيه .. الله أكبر ما أصعب موقف الإنسـان ذلك اليوم!

(**عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**)

قالوا : ما قـدّمت في حياته ، وما بقيت منه بعد وفاته كالسـنّة الحسـنة الباقية أو البدعة المسـتمرة من بعـده ، وقال بعضهم : ما تقـدّم أوّل عمـره ، وما تـأخّر في سـنّي حياته الأخيرة .. ويبدو هذا التفسير أقرب. وأنّى كـان فـإنّ هذه هي المسـؤولية الـتي تتجسد ذلك اليـوم ، فقد يقـدّم الإنسان بين يدي أفعاله السيئة بعض الأعـذار ، وقد يلقيها على غيره أو ينساها أو يتناسـاها ويخفيها في الـدنيا ولكنّه في الآخـرة يجـدها أمامه بلا نقصـان ، ولا يسـتطيع منها فرارا «**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ**

مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُـوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَـهُ أَمَداً بَعِيداً» أفليس من العقل أن يـراقب الإنسـان نفسه لكي لا يصـــدر منه عمل ســـيء ، وأن يلغي الأعـــذار والتــبريرات فلا يتشــبث بها في الــدنيا ما دامت لا تنفعه شيئا في تلك الدار ، وأن يتخذ من التقوى حجابا بينه وبين أهوال ذلك اليوم الرهيب؟

[6] وتنتفض النفس من أعماقها حينما يناديها الـــربّ بكلّ حنان وعطف وكبرياء :

(**يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**)

لما ذا تتمـرّد عليـه؟ هل لأنّك اسـتغنيت عنه فطغيت؟ أولم يخلقك من مـــاء مهين؟ أولم يســـوّي خلقك حـــتى أصــبحت متكــاملا متعــادل الوجــود؟ أم أنّك تنكر هيمنته عليك؟ أوليس هو الذي اختار صورتك الــتي أنت عليها من قصر وطول وقوّة وضعف وبياض أو سواد أو سمرة و. و؟ أم أنّك اغـتررت بكرمه الـذي واتر عليك به نعمه ظـاهرة وباطنــة؟ أفلم يهــدك قلبك أن تتقي غضــبة الحليم؟ أولم تبعثك مروءتك أن تجازي إحسانه بالإحسان أم ما ذا؟ يبدو أنّ الإجابة عن هــذا الســؤال متفاوتة من شــخص لآخر ، ولكن ليس هنالك أيّ تبرير مقبول ، ذلك لأنّ الغـرور حالة مرفوضة أساسا بأيّ سبب كان.

وقد جاء في حديث مأثور عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قـال : «**غـرّه جهله**» بلى. غـرّهم بـربّهم تــواتر نعمه ، وتتــابع آلائه ، قــال الإمــام السـجاد ـ عليه السلام ـ : «**أذهلني عن شكرك تواتر نعمك**»

بيد أنّ ذلك ليس من مصـلحة الإنسـان ، إنّما عليه أن يحـارب الغـرور بيقظة الضـمير ، وسـلاح التقـوى. كـذلك أوصانا إمامنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب

ـ عليه السـلام ـ حيث قـال بعد تلاوته للآية : «**يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**» :

«أدحض مسـئول حجّة ، وأقطع مغـترّ معـذرة ، لقد أبرح جهالة بنفسه

يا أيّها الإنسان ، ما جرّأك على ذنبك ، وما غرّك بربّك ، وما أنّسك بهلكة نفسـك؟ أما من دائك بلـول ، أم ليس من نومتك يقظــة؟ أما تــرحم من نفسك ما تــرحم من غيرك؟ فلربّما ترى الضّاحي من حـرّ الشّـمس فتظلّه ، أو تـرى المبتلى بـألم يمضّ جسـده فتبكي رحمة لـه! فما صـبّرك على دائك ، وجلّـدك على مصـابك ، وعـزّاك عن البكـاء على نفسك وهي أعـزّ الأنفس عليـك! وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة ، وقد تـورّطت بمعاصـيه مـدارج سـطواته! فتـداو من داء الفـترة في قلبك بعزيمة ، ومن كرى الغفلة في نظرك بيقظة ، وكن لله مطيعا ، وبـذكره آنسـا. وتمثّل في حـال تولّيك عنه إقباله عليك ، يـدعوك إلى عفوه ، ويتغمّدك بفضله ، وأنت متولّ عنه إلى غـيره. فتعـالى من قـويّ ما أكرمـه! وتواضـعت من ضـعيف ما أجـرأك على معصـيته! وأنت في كنف سـتره مقيم ، وفي سـعة فضـله متقلّب. فلم يمنعك فضـله ، ولم يهتك عنك سـتره ، بل لم تخل من لطفه مطـرف عين في نعمة يحدثها لك ، أو سيّئة يسترها عليك ، أو بليّة يصرفها عنـك. فما ظنّك به لو أطعته! وأيم الله لو هذه الصّفة كـانت في متّفقين في القـوّة ، متـوازيين في القـدرة ، لكنت أوّل حـاكم على نفسك بـذميم الأخلاق ، ومسـاوئ الأعمـال ، وحقّا أقـول! ما الـدّنيا غرّتك ، ولكن بها اغـتررت. ولقد كاشـفتك العظـات ، وآذنتك على سـواء. ولهي بما تعـدك من نـزول البلاء بجسـمك ، والنّقص في قوّتك ، أصـدق وأوفى من أن تكـذبك ، أو تغـرّك. ولـربّ ناصح لها عنـدك متّهم ، وصادق من خبرها مكذّب. ولئن تعرّفتها في الـدّيار الخاوية ، والرّبـوع الخالية ، لتجـدنّها من حسن تـذكيرك ، وبلاغ موعظتك ، بمحلّة الشّـفيق عليك ، والشّـحيح بـك! ولنعم دار من لم يرض بها

دارا ، ومحـلّ من يوطّنها محلّا! وإنّ السّـعداء بالـدّنيا غـدا هم الهاربون منها اليوم.

إذا رجفت الرّاجفة ، وحقّت بجلائلها القيامة ، ولحق بكلّ منسك أهله ، وبكلّ معبـود عبدته ، وبكـلّ مطـاع أهل طاعته ، فلم يجز في عدله وقسطه يومئذ خـرق بصر في الهـواء ، ولا همس قـدم في الأرض إلّا بحقّه ، فكم حجّة يوم ذاك داحضة ، وعلائق عذر منقطعة!

فتحرّ من أمرك ما يقوم به عذرك ، وتثبت به حجّتك ، وخذ ما يبقى لك ممّا لا تبقى له ؛ وتيسّـر لسـفرك ؛ وشم برق النّجاة ؛ وارحل مطايا التّشمير» [1].

وقد نظم بعضهم بعض هذه البصائر شعرا فقال :

يا كاتم الذنب أما تسـتحي	والله في الخلـــــوة ثانيكا
غـــــرّك من ربّك إمهاله	وســتره طــول مســاويكا

وقال آخر :

يا من علا في العجب والتيه	وغـــــرّه طـــــول تماديه
أملى لك الله فبارزته	ولم تخف غبّ معاصـــــيه

وللمحقّق الحلّي ـ رحمته الله ـ شعرا بديعا يقـول فيه :

يا راقدا والمنايا غير راقـدة	وغافلا وسهام الليل ترميه

(1) نهج البلاغة / خطبة 223.

بم اغترارك والأيام مرصدة	والـــدهر قد ملأ الأســـماع داعيه
أما أرتك الليالي قبح دخلتها	وغدرها بالذي كانت تصافيه
رفقا بنفسك يا مغـــرور إنّ لها	يوما تشـــيب النواصي من دواهيه

[7] حينما يعي الإنسان نفسه ، ويعرف بدايته ، وكيف تقلّب في يد القدرة طورا فطـورا ، وتـذكّر أنّه كـان نطفة مهينة ، يقذفها مبـال في مبـال ، ويسـتقذرها صـاحبها أيّما اســتقذار ، ثم جعل الله تلك النطفة الــتي خلقها بعظمته رجلا ســويّا ذا أعضــاء يكمل بعضــها بعضا ، وفي نظــام عظيم لم يسع العلم الإحاطة به ، بالرغم من الموسوعات الكبـيرة الـتي كتبت حوله .. هـذا التكامل الـذي يبـدأ من تكامل اليد والرجل والأذن وسـائر الجـوارح ومـدى تناسق أدوارها ، وينتهي بتكامل كــلّ خليّة في الجسم مع ســائر الخلايا ، ضمن قيادة حازمة من أعصاب المخ وخلاياه ومن الغدد المنتشرة في أطرافه.

ثم مضـافا إلى الخلق يجد الإنسـان ذلك التناسق بينه وبين الخليقة من حوله ، كيف يتكيّف جســـمه مع الحـــرّ والـــبرد ، والخشـــونة والليونة ، ومع مختلف الطعـــام والشــراب ، وكيف يتعامل مع ســائر الأحيــاء ابتــداء من الوحـوش الضـارية وانتهـاء بـالجراثيم الفتّاكة .. وقد جعل الله للإنســان القــدرة على التكيّف والتفــوّق ثم تســخير الطبيعة.

أقــول : حينما نعي كــلّ ذلك أوليس نــرى كــرم ربّنا وحكمته؟ فلما ذا الغرور والتمادي في معصيته؟!

(**الَّذِي خَلَقَكَ**)

أفلم نكن عدما فأنشأنا لا من شيء كان ، بلا تعب ولا لغوب ، ولا مثل سابق يحتذي ، وخريطة تنفّذ؟

(**فَسَوَّاكَ**)

فلم يجعل تقــدير خلقك ناقصا ، بل زوّدك بما تحتاجه بأفضل ما تحتاجه. ألم يجعل لك عينين ولسـانا وشـفتين؟ وإذا أنعمنا النظر رأينا هذه التسـوية في الخلق نافـذة في كـلّ أعضـاء الجسد ، حـتى قـال ربّنا عن البنـان : «**بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَـهُ**» ، ويـأتي العلم الحـديث ويقول : إنّ لكلّ إنسان بصـمات مختلفة عن أيّ بشر آخر في العالم ، ويعتقد أنّ صـورة بصـمات بنانه منسـجمة مع مجمل كيانه ، حـتى أنّهم بـدأوا يكتشـفون بعض الأمـراض من صــفحة كـفّ الإنســان أوليس ذلك دليل الحكمة في الخلق؟

وقــال بعضـهم في معـنى التسـوية : إنّه سـوّى بين طــرفي جسد الإنســان في كــلّ شــيء (بما يتناسب ووجوده).

وقال البعض : إنّه سـبحانه جعل كـلّ عضو يتعامل مع سائر الأعضاء.

وقال آخر : إنّه سبحانه سخّر له المكوّنات ، وما جعله مسخّرا لشيء ، ثم أنطق لسـانه بالـذكر ، وقلبه بالعقل ، وروحه بالمعرفة ، وسرّه بالإيمان ، وشرّفه بـالأمر والنهي ، وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلا.

وإنّ كلّ ذلك لمن بعض تجلّيات الإستواء في الخلق.

وقد بلغت درجة الإســـتواء منتهاها في خلقة البشر فكانت عدلا لا نجد فيه ثغرة أو زيغا.

(**فَعَدَلَكَ**)

ويبـــدو لي أنّ الصــفات الثلاث (الخلق والتســوية والتعديل) درجات في حالة واحدة ، فالخلق بمعناه اللغوي هو الترتيب ، والإستواء تكامل الترتيب ، والعدل تناسق

التكامل مع حاجــات الشــيء ، والحكمة منه فقد ســوّي الإنسان بحيث يستطيع أن يقوم بالدور المحدّد له تماما.

وقد قال بعضهم : المراد من التعــديل : أنّ الله جعله معتدلا سـويّ الخلق ، وقـال آخر : إنّ معنـاه أنّ الله أماله وحرفه في أيّ صورة شاء ، ويبدو أنّ المعنى الأول أنسب والسياق. فيكون معنى الخلق الترتيب ، ومعـنى الإسـتواء التناسب بين أعضـــائه ، ومعـــنى العـــدل التناسب مع المحيط.

[8] وبعد أن تكـاملت خلقته واســتوت على أســاس الحكمة والعدل اختار الـربّ لها الصـورة حسب مشـيئته ، وحسب حكمة بالغة يصعب معرفة كنهها.

(**فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ**)

لكـــلّ واحد منّا صـــورة ظـــاهرة جميلة أو ذميمة أو مقبولة اختارها الله لنا حسب تقســيم الأرزاق الــذي يتبع حكمته عليها ، قد لا يرضى ببعض مفرداتها هذا أو ذاك لما في البشر من الحـــرص والطمع والاســـتئثار ، ولكنّها من حيث المجمـوع مقبولة حسب شـهادة فطـرة كـلّ إنسـان وعقله.

وكما الصور الظاهرة هنـاك صـورة داخلية ركّبت على الإنسـان. أولا تـرى كيف فضّـل الله كـلّ إنسـان بمـيزة ، وأودع في ضـميره رغبة تختلف عن الآخــرين ، ممّا يجعل كلّ شخص يختار طريقا مختلفا في الحياة ، يلتقي بالتالي في إيجــاد حالة من التكامل في المجتمع ، فــترى البعض يختــار الطب ويصــلح له ، والثــاني يــرغب في الهندسة وتتناسب شخصيته معها ، والثالث يطمح للقيادة أو الإدارة وهو لها أهل ، بينما لا يـــرغب البعض إلّا في الأعمــــال اليدويّة .. وهكـذا قـال ربّنا سـبحانه : «**لِيَتَّخِـذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا**».

وهذا لا يعني أنّ هذه الرغبـات حتميّة ، فـإنّ الإنسـان يسـتطيع تحويلها ، ولكنّ أغلب النـاس يرضـون بها ممّا يحقّق الحكمة الإلهية من توزيعها على البشر.

[9] ما ذا ينبغي أن تكـون علاقتك بربّـك؟ هل التمـرّد والطغيـان أم التسـليم؟ حقّا : إنّ أغلب النـاس ينحرفـون نحو الطغيان الذي يبدأ من التكـذيب بـالجزاء ، وهو أعظم أسباب الغرور ، فمن آمن بالجزاء اتقى غضب الرب.

(**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**)

وإنّ هـذا التكـذيب لا يتناسب أبـدا وتلك النعم الإلهية التي تهدينا إلى قدرة الرب وحكمته.

[10] وهل يتخلّص الإنسـان بالتكـذيب من أهـوال الساعة أو مسئولية أفعاله؟ بتعبير آخر : هل أنّي لو كذّبت بالموت لا أموت ، أو كذّبت بوجـود المـرض أعـافى منـه؟ بالعكس التكذيب بذاته جريمة كبري قدّر لها عقاب عظيم ، وهو مفتاح لأبواب الشر ، لأنّه يخدع الإنسـان فيسترسل في سلسـلة من المعاصي دون رادع من ضـمير أو ناصح من عقل .. وكلّها تسـجّل عليه فيحاسب عليها حسـابا عسيرا.

(**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ**)

يحفظون كلّ عمل يرتكبه الإنسـان أو قـول يتفـوّه به أو هاجسة بقلبه ، قال ربّنا سبحانه : «**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**».

هكذا قال أكثر المفسرين ، ويحتمل أن يكـون المـراد من الحـافظين الـذين يحفظـون البشر من المهالك حـتى يأتي أمر الله ، كما قال الله : «**إِنْ كُـلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِـظٌ**» ، وقـال تعـالى : «**وَيُرْسِـلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَـةً**» ، وقال : «**لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ**

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ».

[11] وهـؤلاء الحفظة كـرام عند ربّهم ، تسـاموا عن الكـــذب أو الغفلة أو الســـهو ، وهم بالإضـــافة إلى ذلك يكتبون ما يصدر من الإنسان.

(**كِراماً كاتِبِينَ**)

[12] ولا يمكن للإنســـان أن يخفي عنهم شـــيئا من أعماله لأنّهم حضور شهود.

(**يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ**)

قال أمير المؤمنين علي ـ عليه السـلام ــ : «**اعلمـوا عباد الله أنّ عليكم رصـدا من أنفسـكم ، وعيونا من جوارحكم ، وحفّاظ صدق يحفظـون أعمـالكم وعـدد أنفاســـكم ، لا تســـتركم منهم ظلمة ليل داج ، ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج**» [1]

وروي عنه ــ عليه السـلام ــ أنّه مر برجل وهو يتكلّم بفضول الكلام ، ويخوض في أحـاديث لا نفع فيها ولا طائل وراءها ، فقــال : «**يا هذا! إنّك تملي على كاتبيك كتابا إلى ربّك فتكلّم بما يعنيك ، ودع ما لا يعنيك**» [2].

وجاء في كتاب سعد السعود لابن طاووس :

دخل عثمـان على رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله وسلم ـ فقال : أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال : ملك على يمينك على حســـناتك ، وواحد على الشـــمال ، فـاذا عملت حسـنة كتب عشـرا ، وإذا عملت سـيّئة قـال الذي على الشـمال للّـذي على اليمين أكتب؟ قـال : لعلّه يستغفر ويتوب فإذا قال ثلاثا قال :

---

(1) بحار الأنوار / ج 5 ص 322.

(2) المصدر / ص 327.

نعم أكتب ، أراحنا الله منه فـــــبئس القـــــرين ، ما أقل مراقبته لله عز وجل! وما أقل استحياؤه منه! يقول الله : «**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**» وملكـان بين يديك ومن خلفك ، يقول الله سبحانه : «**لَهُ مُعَقِّبـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**» وملك قـابض على ناصـيتك ، فـإذا تواضـــعت لله رفعك ، وإذا تجبّـــرت على الله وضـــعك وفضحك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظـان إلّا الصـلاة على محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، وملك قائم على فيك لا يـدع أن تـدخل الحيّة في فيك ، وملكـان على عينيك ، فهذه عشـرة أملاك على كـلّ آدمي ، وملائكة الليل سـوى ملائكة النهار ، فهؤلاء عشرون ملكا على كلّ آدمي [1].

وإنّ وعي الإنسان حضور هـذا الحشد من ملائكة الله عنده أفضل وسيلة لتعميق روح المسؤولية.

وتساءل البعض عن الحكمة في توكيل هؤلاء الحفظة بالإنسان ، فقال : ما علّة الملائكة الموكّلين بعباده يكتبون عليهم ولهم والله عالم السرّ وما أخفى؟ ، فأجـاب الإمـام الصادق ــ عليهم السـلام ــ «**استعبدهم بـذلك وجعلهم شهودا على خلقه ، ليكـون العبـاد لملازمتهم إيّـاهم أشـــدّ على طاعته مواظبة ، ومن معصـــيته أشـــدّ انقباضا ، وكم من عبد يهمّ بمعصـــية فـــذكر مكانها فارعوى وكفّ ، فيقول : ربي يراني وحفظتي عليّ بذلك تشـهد ، وإنّ الله برأفته ولطفه وكلّهم بعبـاده يـــدبّون عنهم مـــردة الشـــياطين ، وهـــوامّ الأرض ، وآفـات كثـيرة من حيث لا يـرون بـإذن الله إلى أن يجيء أمر الله عزّ وجلّ**» [2].

[13] وتتجلّى المسؤولية عند ما يسـتقبل ربّ الرحمة عباده الصالحين في النعيم الخالد.

---

(1) المصدر / ص 324.
(2) المصدر ص 323.

(**إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ**)

[14 ـ 15] أمّا الذين خرقوا ستر الفضيلة ، وأوغلوا في الفضائح فإنّهم يدخلون النار.

(**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**)

هل هم اليوم في الجحيم أم غدا؟ عند ما يموتون أم عند ما تقوم الساعة؟ بلى. إنّهم اليوم في الجحيم. أولم يقل ربّنا سبحانه : «**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ**»؟ ولكنّهم اليوم محجوبون عنها ، وغدا عند ما يموتون وبعد الحشر يجدون أنفسهم في وسطها يصلونها مباشرة ، لأنّ الذي سترهم عنها اليوم طبيعة الدنيا التي هي دار امتحان ، فإذا نقلوا إلى دار الجزاء فما الذي يستر أجسامهم الناعمة عن النار اللّاهبة؟

(**يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ**)

لأنّ ذلك اليوم فعلا يوم الجزاء الأكبر ، فالجحيم تحرقهم وتلهب جلودهم نارا.

وقال بعضهم : إنّ معنى الآية أنّ الفجّار يدخلون الجحيم يوم الدّين ، وإنّما ذكر ذلك بصورة قاطعة وكأنّه واقع اليوم لأنّ الوعيد يأتي من السلطان المقتدر والذي لا يعجزه شيء ولا يحجزه عمّا يريده أحد.

[16] ولا يقدر أحد منهم أن ينتقل من الجحيم أو حتى يغيب عنها ساعة.

(**وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ**)

قال بعضهم : الآية تدلّ على خلودهم في جهنم فإذا معنى الفجّار المعاندون.

بينما الآية ليست صريحة في هذا المعنى بل في أنّهم عند دخـولهم الجحيم ومـدة مكثهم فيه لا يغيبـون عنها ، والله العالم.

ونقل الـرازي عن الإمـام جعفر بن محمد الصـادق ـ عليه السلام ـ ما يلي : «**النعيم المعرفة والمشـاهدة ، والجحيم ظلمـات الشـهوات**» [1] وهـذا ينطبق على التفسير الأول.

[17] ليست قـدراتنا العلمية في مسـتوى الإحاطة علما بأحـداث ذلك اليـوم الـرهيب ، لأنّه يـوم يختلف كـلّ شيء فيه تقريبا عن هذا اليوم.

(**وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ**)

إنّه يـوم رهيب ، لا بـدّ أن نسـعى جاهـدين لنتصـوّره عسانا نتقي اليوم أهواله ، وحينئذ نعـرف أنّ الفـائزين هم الـذين انخلعت قلـوبهم عن شـهوات الـدنيا وأحـداثها ، وعاشوا ذلك اليوم ، وعملوا له ليل نهار.

[18] قد يغيب علم شـيء عنّا بسـبب قلّة ظهـوره أو عدم الالتفات إليه ، بينما غيـاب الإنسـان عن علم الآخـرة بسبب آخر ، هو : تسـامي مسـتواه عن مسـتوى إدراكنا ، ولعلّ هذا هو المراد بقوله سبحانه :

(**ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ**)

ما بالك بيوم تهابه السـموات ، وتشـفق منه الجبـال ، وتضجّ من هوله الأرض ، ويخشاه حـتى الملائكة المقـرّبين ، ويحذره الأنبياء والصّدّيقون! أولا ينبغي أن نتقيه؟

[19] في ذلك اليوم يقف الإنسـان منفـردا أمـام ربّ السموات والأرض ، ولا

---

(1) التفسير الكبير / ج 31 ـ ص 85.

أحد بقادر على الدفاع عنه ، أو الشفاعة له إلّا بأنه.

(**يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً**)

بل الإنسان مسئول عن عمله.

(**وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**)

فهناك لا يخوّل الله أحدا شيئا كما خـوّلهم اليـوم ، ولا يملّك أحـــدا من عبـــاده أمـــرا ، بل الأمر كلّه له ظـــاهرا وباطنا.

وفي ذلك اليوم يظهر التوحيد الإلهي لكلّ إنسان ، فلا أحد يســتطيع أن يفكّر في أنّ غــير الله يملك من أمــره شيئا كما هو يزعم ذلك في الدنيا.

روي عن أبي جعفر (البــاقر) عليه الســلام أنّه قــال لجـــابر بن يزيد الجعفي : «**إنّ الأمر يومئذ لله ، والأمر كلّه لله. يا جابر! إذا كان يـوم القيامة بـادت الحكّـام فلم يبق حاكم إلّا الله**» [1].

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 527.

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق ــ عليه السـلام ــ أنه قـال : «**من قرأ في فرائضه «ويل للمطففين» أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النّـار ، ولم تـره ، ولم يرها ، ولم يمـــــرّ على جسر جهنم ، ولا يحاسب يــــــوم القيامة**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 527

الإطار العام

حينما تتماثل صــور القيامة وأهوالها ، وميزانها الحق ، وحسـابها الـدقيق ، وجزاؤها العـادل والعظيم ، تتماثل كل تلك الصور والمشاهد في القلب ، يتحسس الإنسان حينئذ بالمسـؤولية الـتي تحيط بحياته إحاطة السـوار بالمعصم ، ويتجلّى ذلك الإحساس عنده في إنصاف الناس من نفسه ، ويكون الحـقّ المـيزان المسـتقيم بينهم وبينه ، لا الأثـرة والشح ، والتطفيف.

ويبــدو أن ذلك هو اطــار هــذه الســورة الــتي جبهت المطففين بنذير الويل في يوم البعث ـ الذي لا يتصــورونه ـ ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين ، ولو انهم ظنوا ذلك وعرفوا أن حسابات أعمـالهم مسـجلة في كتاب مرقوم لارتدعوا ولكن لا يرتدعون.

سورة المطفّفين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَيْــــلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتــــالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْـــتَوْفُونَ (2) وَإِذا كـــالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـــوهُمْ يُخْسِـــرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُـــونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6) كَلاَّ إِنَّ كِتــابَ الفُجَّارِ لَفِي سِــجِّينٍ (7) وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (8) كِتابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَــذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلاَّ بَــلْ رانَ عَلى قُلُــوبِهِمْ ما كــانُوا يَكْسِــبُونَ (14) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُـونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصــالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقــالُ هــذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

بينات من الآيات :

[1] هل أنا مؤمن؟ بلى. أولست أصلي وأصوم وأنفق من أموالي في سبيل اللـه؟ كلّا .. هـذه وحـدها لا تكفي ، فلنحذر من خداع الذات ، أوليس كـلّ النـاس حـتى أعـتى الطغاة والمجرمين يبرّءون ساحة أنفسهم؟! فما المـيزان إذا؟ إنّه القرآن ، هكذا قال الإمام أبو جعفر (البـاقر) عليه السلام لجـابر بن يزيد الجعفي : «واعلم بأنّك لا تكـون لنا وليّا حـتى لو اجتمع عليك أهل مصـرك وقـالوا : إنّك رجل ســوء لم يحزنك ذلك ، ولو قـالوا : إنّك رجل صــالح لم يسرك ذلك ، ولكن أعـرض نفسك على كتـاب الله ، فـإن كنت سالكا سبيله ، زاهدا في تزهيـده ، راغبا في ترغيبه ، خائفا من تخويفه ، فــاثبت وأبشر فإنّه لا يضـــرك ما قيل فيك ، وإن كنت مبائنا للقـــرآن فما ذا الـــذي يغـــرّك من نفسك» [1]. وها هو القـرآن يصف لنا واحـدا من المـوازين الحق التي نستطيع أن نعرف بها أنفسنا : إنّه الإنصاف.

---

(1) تحف العقول ص 206.

كيف ذلــك؟ هنــاك من يــرى في نفسه أنه الحق فيعامل الناس على هذا الأساس ، فلذلك يغش ويسرق ويسـتولي على حقوق الآخرين ، وعلامة هذا الفريق من النـاس أنّهم إذا أرادوا اسـتيفاء حق من حقــوقهم من النـاس أخــذوه وافيا ، وإذا طلب منهم أداء حق للنــــاس انتقصـــوا منه ، ويجري هذا في كافة شؤون حياتهم. إن لهؤلاء الويل لأنهم ليسوا منصفين.

(**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ**)

قــالوا : الويل بمعــنى : الشر والحــزن والعــذاب أو الهلاك ، وهو بمعــنى اللعنة ، اما المطفف فانه من الطّف أي جانب الشيء ، والتطفيف تنقيص الشيء من جوانبه.

وقال بعضهم : الويل واد في جهنم يجــري فيه صــديد أهل النار.

[2] من هم هـؤلاء المطففـون؟ هنـاك مثل بـارز لهم في أولئك الذين ينقصون المكيال لغيرهم ، أمّا إذا اكتــالوا لأنفسهم أخذوا حقّهم وافيا.

(**الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ**)

قـالوا : «على» هنا بمعـنى اللام ، ويبـدو لي أن على تعطي هنا أيضا ظلالها العام الـذي يـوحي بالضـرر ، إذ أنّ الإستيفاء يتم على الناس أي في ضررهم.

وقال بعضهم : انه بمعنى إذا كالوا ما على الناس.

[3] ولكنهم إذا اكتـالوا لغـيرهم تـراهم يعطـونهم أقل من حقهم.

(**وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**)

قالوا : معناه كالوا لهم أو وزنـوا لهم ، ثم حـذف اللام ، واستشهدوا بقول

الشاعر :

ولقد جنيتك أكمأ وعساقلا   ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

حيث كان في الأصل جنيت لك ، ويبدو لي أن حذف اللام هنا من بديع بلاغة القرآن ، حيث أن اللام توحي بالفائدة والنفع ، بينما لا منفعة لمن يكال لهم لأنهم يخسرونهم.

والتطفيف في المكيال والميزان كان شائعا ـ حسب التواريخ ـ في يثرب قبل هجرة النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ وكانت هذه السورة أول سورة نزلت على قلب النبي (ص) في المدينة ، وأثّرت فيهم أثرا بالغا فاقتلعوا عن هذه العادة وأصبحوا من أحسن الناس مكيالا ، هكذا روي عن ابن عباس ، حيث أضاف : فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم أوفى الناس كيلا الى يومهم هذا.

وقد حاربت رسالات الله الفساد الاقتصادي في المجتمع بكلّ ألوانه ، والتطفيف واحد من أسوء أنواع هذا الفساد.

وقد حكى ربنا عن شعيب ـ عليه السلام ـ قوله : «**أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**» [1].

ولكن هل الفساد الاقتصادي خاص بالتطفيف في الوزن والمكيال أم أنهما مجرد مثلين لما هو أعم واشمل؟ فالغش والاحتكار واستغلال طاقات الضعفاء ، واستثمار ثروات البلاد المتخلفة ، والابتزاز وسائر أساليب الكسب اللّامشروع كل

---

(1) الشعراء / 182.

تلك من ألوان الفساد الاقتصادي.

ثم انّ التطفيف في الميزان لا يخص الجانب الاقتصادي ، بل يتسع للجوانب السياسية والاجتماعية أيضا ، فلا يجوز ان تطالب الناس بكامل حقّك ، ثم إذا طالبوك بحقوقهم بخستهم جاء في الحديث عن الصادق ـ عليه السلام ـ : «ليس من الإنصاف مطالبة الاخوان بالانصاف» [1] لا بد أن نتعامل مع الناس بمثل ما نحبّ ان يتعاملوا معنا. إنّ أفضل ميزان للعدل هو أن تضع نفسك دائما في موضع الآخرين وتساءل : ما ذا كنت أنتظر منهم لو كنت في موقعهم ، هكذا هم ينتظرون وعليّ أن أفي بحقهم.

هكذا توالت نصوص الدين ألا فلنستمع الى بعضها :

1 / عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ : «**أحبّوا للناس ما تحبّون لأنفسكم**»

2 / عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : أعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه ، وكره لهم ما يكره لنفسه**»

3 / عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فيما كتبه لمحمد بن أبي بكر : «**أحبّ لعامة رعيّتك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك ، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك ، فإن ذلك أوجب للحجّة ، وأصلح للرعية**»

4 / عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**ما ناصح الله عبد في نفسه فأعطى الحق منها ، وأخذ الحق لها إلّا أعطي خصلتين : رزق من الله يسعه ،**

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 75 ص 27.

ورضى عن الله ينجيه»

5 / وجاء في نهج البلاغة في وصـية أمـير المؤمـنين لابنه الحسن ـ عليهما السلام ـ : «**يا بـني! اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غــيرك ، فــاحبب لغــيرك ما تحبّ لنفسك ، واكره له ما تكـره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم ، وقل ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحب أن يقـــال لك**» [1]

ونختم حـديثنا برواية مـأثورة عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ انه قـال : «**خمس بخمس : ما نقض قـوم العهد إلّا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا حكموا بغــير ما أنـــزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهـــرت الفاحشة فيهم إلّا ظهر الطـــاعون ، وما طففـــوا الكيل الا منعوا النبات وأخـذوا بالسـنين ، ولا منعـوا الزكاة إلّا حبس الله عنهم المطر**» [2]

[4] من الذي يطفـف؟ انه الـذي لا يعـترف بالقيامة ، حيث يقف أمام رب العـالمين للحسـاب ، فلو كـان الواحد يظن مجــرد ظن بــذلك لما تجــاوز حقه ، واعتــدى على حقوق الناس.

(**أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ**)

قال بعضهم : ان الظن هنا بمعناه المعـروف وهو ضد اليقين ، ذلك أن مجرد الظن بـالبعث يكفي العاقل تحـرزا واتقاء منه ، ألا ترى أنك لا تســلك طريقا تظن الهلاك به ، ولا تشـرب ما تخشى ان يكـون سـمّا ، وتحتـاط من عمل تخاف منه الهلاك؟

---

(1) المصدر / من ص 24 ـ 59.
(2) القرطبي / ج 19 ص 253 ، وسائر التفاسير المعروفة.

وقال آخرون : بل الظن هنا بمعـنى اليقين ، لأن أصل معــنى الظن ما يحــدث في ذهن الإنســان من الشــواهد الخارجية ، فإن كانت تامّة أحدثت يقينا وإلّا أثـارت الظن ، من هنا يعبّر عن اليقين أيضا بالظن.

وقد استشــهدوا بالحــديث المــأثور عن الامــام أمــير المؤمنين ـ عليه السلام ـ الذي قال في تفسير هذه الآية : «**أي أليس يوقنون أنّهم مبعوثون**» [1].

وكـذلك بـالنص المـروي عنه أيضا حيث يقـول ــ عليه السـلام ــ : «**الظنّ ظنّـان : ظنّ شـكّ ، وظنّ يقين ، فما كـان من أمر المعـاد من الظنّ فهو ظنّ يقين ، وما كان من أمر الدنيا فهو على الشكّ**» [2].

ولعل الإمــام يشــير الى حقيقة بينها الامــام الرضا ــ عليه السلام ـ بصـيغة اخـرى ، حين قـال : «**ما خلق الله يقينا لا شك فيه أشــــبه بشـــــكّ لا يقين فيه من الموت**» [3].

ذلك ان كل الحقائق تشهد بأن الإنسـان ميّت ولكنه لا يتصوره ، لما ذا؟ لأن مثل هذا التصور يفـرض عليه الحـذر والاتقاء ، وهو لا يريد ذلك فيبقى حائرا بين شــواهد علمية تكشف له حقيقة الموت ، وأهواء نفسية تحجب عنه هــذه الحقيقة ، تماما كمن مني بهزيمة في المعركة يظل لفترة مــتردّدا بين قبولها وفقا للمعلومــات الصــادقة أو رفضــها استرسالا مع هواه وغروره.

ويبـدو أن الإيمـان بـالآخرة هو الآخر يصـطدم بـأهواء النفس وشهواتها ، فتتحول إلى ظنّ لا لقلة الشواهد عليها بل لصعوبة التصديق بها .. والله العالم.

---

(1) تفسير نمونه عن تفسير البرهان / ج 4 ص 438.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 528.
(3) الفرقان / نقلا عن الخصال للصدوق (ره).

وقد سبق أن قلنا وبتكرار ان معنى الظن ـ فيما يبدو ـ هو : التصور ، وفسرنا الآية التالية بذلك حيث قال ربنا : «**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**» [1] وقوله : «**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ**» [2].

حيث ان تصور البعث وما يعقبه من القيام للحساب أمام رب العالمين يكفي الإنسان رادعا عن كلّ سيئة ، وربما يوحي الى ذلك قول الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في تفسير الإيمان حيث سئل عنه فقال : «**الإيمان على أربع دعائم : ... فمن اشتاق الى الجنّة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات**» [3].

[5] ثلاث حقائق متصلة ببعضها لو تمثلت أمام عين العاصي ارتدع واتّقى : البعث والساعة ، والقيامة. إنّ حياة الإنسان سجلّ ، يطوى اليوم ويكتب فيه بقلم الطبيعة ما يفعله ، فإذا نشر نشر معه سجله بالكامل ، فيا للفضيحة الكبرى يومئذ!

ثم الساعة وأشراطها يوم تبدّل الأرض غير الأرض ، وتطوى السموات كطي السجل للكتب ، فاذا لم يعمل اليوم لبلوغ الأمان من أهوالها فيا للخسارة العظمى!

اما قيام الناس أمام رب العالمين فإنه رهيب عظيم ، لا يسع الفكر تصور تلك اللحظة التي يتمثل هذا المخلوق المتناهي في الضعف والمسكنة أمام جبار السموات والأرض ، أولم تقرأ أنّ إسرافيل أعظم ملائكة الله يتضاءل امام هيبة الرب حتى يصبح كالوصع ـ كما ذكر في سورة التكوير آية 23 ـ ، فمن أنا غير هذا العبد المسكين المستكين الضعيف الحقير امام رب العزة والعظمة؟!

---

(1) البقرة / 249.
(2) البقرة / 46.
(3) نهج البلاغة / خ 31.

هكذا يذكرنا القرآن بهـذه الحقـائق ، فبعد أن يقـول : «**أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ**» يذكرنا بالساعة فيقول :

(**لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**)

عظمت آثـاره في السـموات والأرض حـتى أشـفقت منه ، فلو لا اتقــاء أهواله بالعمل الصــالح أنّى نحصل فيه على أمـان ، والسـموات تنفطر والجبـال تكـون سـرابا ، والأرض تزلزل زلزالها؟!

[6] وأعظم من كل تلك الأهـوال قيـام النـاس أمـام ربّ العالمين ..

(**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

يكاد القلب البشري يتصدع حينما يحمّله الله شيئا من نور عطفه وحنانه ، فكيف يصمد هـذا القلب أمـام عقـاب الله وزجره؟!

جاء في الحديث المأثور عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ : «(**فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَـنَةٍ**) ، فمنهم من يبلغ العــــرق كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من يبلغ حقويه ، ومنهم من يبلغ صـــدره ، ومنهم من يبلغ أذنيه حتى أن أحـدهم يغيب في رشـحه كما يغيب الضفدع» [1].

بيد ان المؤمنين في أمـان من أهـوال القيامة ، هكـذا ورد في حديث مـأثور عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ «**انّه ليخفّف عن المؤمن حـتى يكـون أخف عليه من صلاة المكتوبة ، يصلّيها في الدنيا**» [2].

---

(1) القرطبي / ج 19 ص 255.

(2) المصدر.

وكلمة اخيرة : إن المؤمن ليقـوم في الـدنيا لله قياما يسـاعده في قيامه في الآخـرة ، أولم يـأمره ربنا سـبحانه بذلك حين قال : «**وَقُومُوا لِلَّهِ قـانِتِينَ** ..» وقـال : «**أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ**».

[7] ولكن هؤلاء المجرمين لا يظنون ذلك حتى يـأتيهم بغتة ، ولـذلك فـإن كتـابهم محفـوظ في سـجين ، حيث لا يمكن تغييره ، وهو كتاب واضح لا لبس فيه ولا تزوير.

(**كَلَّا**)

يبدو أن معـنى «كلا» في الأصل النفي المؤكد ، كـأن تقول : أبدا له ، ولكن تعطي في مثل هـذا السـياق معـنى الردع والزجر ، كما توحي بتأكيد الحقائق التي ذكـرت آنفا ، وكأنه نفي للتكـــذيب بها ، ومن هنا قـــال بعضـــهم : ان معـنى كلا هنا حقا ، ونقل عن ابن عبـاس : ان معنـاه ألا تصدقون.

(**إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**)

ما هو ســجين؟ يبــدو أنه مبالغة في الســجن ، أي المحل الــذي لا تناله أيــدي الســرقة أو الــتزوير. فما هو الكتــاب؟ بــالرغم من أن هنــاك كتبا كثــيرة تسـجل فيها أعمال العباد ، الأرض تكتب ، والسموات تصـور ، وأشـياء الطبيعة تحفظ آثار العمل ، وحتى أعضـاء الجسد تشـهد ، إلّا أن الظـاهر من الكتـاب هو ما يسـجل على الفـرد من أقواله وأفعاله ، وحــتى نياته مما ذكــره الله بقوله : «**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**» [1].

ثم يطوى هذا الكتاب ، ويحفظ في خزانة محكمة هي سجين ، فأين تقع هذه

---

(1) ق / 18.

الحرّانة؟ لقد حدد هذا النص التالي محلّها :

روي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنه قال : «**ان الملك يرفع العمل للعبد يــــــــرى أن في يديه منه سرورا ، حتى ينتهي إلى الميقات الـذي وصـفه الله له ، فيضع العمل فيه فيناديه الجبار من فوقه : إرم بما معك في ســجين ، وســجين الأرض الســابعة ، فيقـــــول الملك ما رفعت إليك إلّا حقّا ، فيقـــــول : صدقت ، إرم بما معك في سجين**» [1] وروي عن الامام البــاقر ــ عليه الســلام ــ انه قــال : «**الســجين الأرض السابعة ، وعلّيون السماء الرابعة**» [2]

وقال بعضهم : سجين : صـخرة في الأرض السـابعة ، وروى أبو هريــرة عن النــبي ــ صــلّى الله عليه وآله ــ «**سجين جب في جهنم ، وهو مفتوح**» وقال عكرمة : سجين خسار وضلال ، كقولهم لمن ســقط قــدره قد زلق بالحضيض.

ويبـدو لي أن أصـلها السـجن كما ذكرنا ، وانما سـائر التفاسير تحديد لموقع السجن أو ملابساته ، لذلك قال أبو عبيدة وغيره في تفسير الآية : لفي حبس وضـيق شـديد ، فعيل من السجن كما يقول فسّيق وشرّيب.

[8] وهناك افتراض آخر : ان يكون سجين اسما لتلك السجلات التي تحفظ الكتب ، وأن يكون معنى الكتاب هنا ما يكتب من أعمـال ، فيكـون المعـنى هكـذا : ان اعمـال الفجار مكتوبة في سجين وهو كتـاب مرقـوم ، ويؤيد هـذا المعنى السياق التالي :

(**وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ**)

(1) الفرقان عن الدر المنثور / ج 6 ص 325.

(2) نمونه عن نور الثقلين / ج 5 ص 530.

وهذه الكلمة تأتي للإيحاء بعظمة ذلك الكتاب ـ حسب هذا المعنى ـ بلى. الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، الكتاب الذي يسجل حتى أنفاس الخلق ووساوس أفئدتهم ، ونيات أفعالهم ، الكتاب الذي يحيط بكل أفعال الفجار أنّى كانوا ، وأنّى عملوا. إنه كتاب عظيم.

[9] (**كِتابٌ مَرْقُومٌ**)

وهكذا تكون هذه الآية تفسيرا للآية السابقة : أي سجين كتاب مرقوم ، كما قال ربنا سبحانه : «**إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**» والمرقوم بمعنى متجلّ بوضوح ، لأن أصل معنى الرقم الكتابة الغليظة ، وقيل : معناه مختوم ، وقيل : مكتوب كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى ، كل هذا التفسير قائم على أساس الافتراض بان السجين اسم للكتاب المسجل ، ويؤيده أن بعضهم قال : ان أصل سجّين سجّيل.

أما في غير هذا الافتراض فيكون تفسير هذه الآية : أن الكتاب الذي هو في سجين كتاب مرقوم ، لا تتشابه خطوطه ؛ لأنه كتاب واضح ، والله العالم.

وينبغي أن نختم حديثنا عن السجين بحديث يفيض عبرة ونصحا ، مأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ في معنى السجين والأعمال ، والأشخاص الذي يهوون اليه ، قال ـ عليه السلام ـ : «مرّ عيسى بن مريم على قرية قد مات أهلها وطيرها ودوابها ، فقال : أما إنّهم لم يموتوا إلّا بسخط ، ولو ماتوا متفرقين لتدافنوا ، فقال الحواريون : يا روح الله وكلمته! ادع الله ان يحييهم لنا ، فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنجتنبها ، فدعا عيسى ربه ، فنودي من الجو أن : نادهم ، فقام عيسى بالليل على شرف من الأرض فقال : يا أهل هذه القرية! فأجابه منهم مجيب : لبيك يا روح الله وكلمته ، فقال : ويحكم : ما كانت أعمالكم؟

قـال : عبـادة الطـاغوت ، وحب الـدنيا ، مع خـوف قليل ، وأمل بعيد ، وغفلة في لهو ولعب ، قال : كيف كـان حبكم للــدنيا؟ قــال : كحب الصــبي لأمه إذا أقبلت علينا فرحنا وســررنا ، وإذا أدبــرت بكينا وحزنّا ، قــال : كيف كــانت عبادتكم للطاغوت؟ قال : الطاعة لأهل المعاصي ، قـال : كيف كــانت عاقبة أمــركم؟ قــال : بتنا ليلة في عافية ، وأصبحنا في الهاوية ، فقال : وما الهاوية؟ فقال : سجين ، قـال : وما سـجين؟ قـال : جبـال من جمر توقد علينا الى يوم القيامة» [1].

[10] يتلقى الجاهل الموقف الصعب بتكذيبه ، ويزعم أنه لو دفن رأسه في التراب فإن الآخرين لا يرونه ، كلا .. ان الشــمس لا تتلاشى إذا أغلقت نافــذة غرفتك عنها ، كـذلك حقيقة المســؤولية لا تنمـاث إذا أنكرتها ، بل كلما جحد الجاهل المسـؤولية بنـبرة أقـوى وصـلافة أشـدّ كلما ازداد بعدا عن تحملها وقربا من العذاب ، ذلك أن التكذيب جريمة ، كما أنه علة لسائر الجرائم ، وتبلو عاقبة التكذيب عند قيام الساعة.

(**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

[11] هكذا القـرآن يغلق أمـام النفس أبـواب التـبرير لعلها تعي المسؤولية وتتحملها ، وأعظم التبرير التكذيب ، ولا سيما التكذيب بيوم الدين الذي يهدم أساس الفكر.

(**الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**)

لهؤلاء الويل واللعنة والثبـور لمجـرد تكـذيبهم ، فكيف بسائر الجرائم التي ارتكبوها؟!

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 531.

[12] ولكن لما ذا يكذبون بيوم الدين؟ هل لنقص في شواهده؟ كلا .. بل لقرار اتخذوه حاليّا ، وجـرائم ارتكبوها سـابقا ، أما قـرارهم فهو الاسـتمرار في الاعتـداء على حقوق الآخرين ، والتواصل في ارتكاب الإثم.

(**وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**)

انهم الفجـار الـذين لم يلـتزموا لا بحقـوق الآخـرين فاعتدوا عليها وأكلوا أموال النـاس بالباطل ، ولا بحق الله عليهم فأثموا وارتكبوا الفواحش.

[13] ويقـارن التكـذيب في ألسـنة هـؤلاء ــ البذيئة ــ بالاسـتهزاء ، ومحاولة حـرف الآخـرين عن آيـات الله ، فتراهم إذا تتلى عليهم آيات الله رموها بالرجعية ، وزعموا بأنها : ليست سوى الخرافات السابقة.

(**إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا**)

يبدو أن الذين يتلون عليهم هذه الآيات هم الدعاة إلى الله ، والآيـات تهـديهم الى الله ورسـالاته وشـرائعه ، ولكنهم ينكرونها رأسا دون أن يتفكـروا قليلا ، خشـية أن يتـأثروا بها ، فيفقـدوا نعيمهم الزائل ، ومـوقعهم الزائف القائم على الإثم والعدوان.

(**قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

ولعل مرادهم من هـذا الحـديث بيـان أنهم لن يتـأثروا بها مسـتقبلا ، كما انهم لم ينتفعـوا بها سـابقا ، ذلك لأنها مجرد تكرار لدعوات سابقة ، وهذه الآية نظير قـولهم كما في آية اخرى : «**وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**» [1].

(1) الفرقان / 5.

[14] لما ذا يقف بعض النــاس موقف الجاحد المعاند وبهذه الدرجة من آيات الله البينات ، أولا يحبون أنفسهم ، أولا يحكم العقل بضرورة الاستماع الى النذير فلعله يكون صادقا فيقعون في خطر عظيم؟! يجيب السـياق عن هـذا التسـاؤل : بـأن للـذنب أثـرا سـيّئا على القلب البشـري ، وكلما تراكمت الذنوب تراكمت آثارها.

(**كَلَّا**)

ليست أساطير الأولين ، بل إنها حقائق من عند الله.

(**بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

قـــالوا : ران بمعـــنى غلب ، واستشـــهدوا على ذلك باستخدام مفرداته ، مثل : رانت به الخمـرة ، وران عليهم النعـــاس ، ويقـــال : قد رين بالرجل رينا إذا وقع فيما لا يسـتطيع الخـروج منه ، ولكن ـ يبـدو لي ـ أن الأصل في الـرين الصـدأ ، وهو الغلالة الخفيفة الـتي تحيط بالحديـدة وما أشــبه وتــدل على فســادها. ولعل الفــارق بينه وبين الصدأ أن الصدأ قد يكون في جزء ، بينما الـرين يسـتخدم إذا أحاط الصدأ بالقلب تماما ، لذلك قال بعضـهم : الـرين ان يسوّد القلب من الذنوب ، ونقل عن ابن عبــاس : ران على قلوبهم أي غطى عليها.

ولكن كيف يــرين الــذنب على القلب؟ إن في قلب الإنســان قــوى تتنازعه ، وإرادة الإنســان فوقها ، فــإذا استسلم الإنسان لقوة الشـهوات ضـعفت إرادته ، وكسف نــور عقله ، فلا يــزال كــذلك حــتى يخبو عقله ، وتنمــاث إرادته فيسترسل كليا مع الشــهوات ، ومن جهة اخــرى : عند ما يـــــرتكب البشر جريمة أو ذنبا يتهـــــرب من وخز ضـميره بتبريرهما ، ولا يـزال يـبرر لنفسه ما يرتكبه حـتى يقتنع بذلك التبرير ، بل يتحـول عنـده إلى ثقافة متكاملة ، فلا يكاد يعرف الحقيقة ، ومن جهة ثالثة : الخير

عـــادة والشر عـــادة ، ومن عـــوّد نفسه على الشر كيّف سلوكه وسائر تصرفاته مع تلك العادة ، وكان كـدودة القز تنسج حول نفسها ما يقتلها .. أرأيت الذي يكتسب الحرام ، إما بالســـــرقة أو الغش أو التطفيف أو التعـــــاون مع الظالمين أو العمل كجاسوس محترف للطغاة أو الأجـانب ، أرأيته يتخلص من هـــــذه المهنة وقد كيّف نفسه معها ، واعتمد عليها في رزقه اليومي؟!

لذلك ينبغي للرشيد ان لا يتبع الشـيطان منذ الخطـوة الأولى ، ولا يرتكب حتى الـذنب الأول ، وإذا مر به طـائف من الشـــــيطان فخدعه عن دينه ، وارتكب ذنبا فعليه أن يتوب عن قريب ، ولا يتابع مسيرة الذنب ؛ فان الذنب بعد الذنب يفسد القلب ، ويبعد عن الإنسان توفيق التوبة.

هكذا روي عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ أنه قال : «ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى تغلب عليه ، فيصـير أسـفله» أعلاه ، وأعلاه أسفله قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ان المـؤمن إذا أذنب كـانت نكتة سـوداء في قلبه ، فـإن تـاب ونـزع واسـتغفر صـقل قلبه منه ، وإن ازداد زادت ، فذلك الـرين الـذي ذكـره الله تعـالى في كتابه :«**كَلَّا بَـلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**» [1].

من هنا ينبغي التوبة الى الله في كل يوم بل وفي كل ساعة حتى يمحى اثر الذنوب التي لا زلنا نمارسها قبل ان تترسخ في القلب فتفسـده ، كما ينبغي التلاقي والتواصي بـالحق والصـبر ، والتناصح حـتى تجلى الأفئـدة من رينها ، هكذا أوصانا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فيما روي عنه انه قــال : «**تــذاكروا وتلاقــوا وتحــدثوا ، فــإن الحديث جلاء للقلوب. إن القلـوب لـترين كمـا يـرين السيف**

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 531.

وجلاؤه الحديث» [1].

[15] هذه القلوب التي ترين بالذنب لا تتشرف بلقـاء ربها يوم القيامة ، ذلك أن هذه الـذنوب تصـبح حجبا كثيفة تمنع عنه أنوار الله البهية.

(**كَلَّا**)

فليرتدعوا عن الاسترسال مع الذنوب وما يسـبب لهم رين القلب ؛ لان لذلك عاقبة سوأى ، وهي :

(**إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**)

لقد حجبهم الـــذنب عن رحمة الله وعطفه ورعايته ، كما حجبهم الـــذنب عن نـــور لقائه ومشـــاهدته بحقيقة الإيمــان ، أليس أعظم نعم الله على المـؤمن رضـاه عنه ومناجاته له ، ولقاء قلبه بنوره؟ إن هـذا لهو النعيم المقيم الـذي يسـعى اليه المـؤمن ، إنه أعظم جـائزة يتوقعها من ربه ، فقد جـاء في الحـديث : «**ان أهل الجنة يـزورون العــرش كل ليلة جمعة ، فينظــرون إلى نــور ربهم فيقعون له ساجدين**»

وقد عبّر الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ عن هـذا اللقاء العاصف بالشوق والوله بين العبد والـرب بقوله في مناجاته : «**فقد انقطعت إليك همـــتي ، وانصـــرفت نحــوك رغبــتي ، فــأنت لا غــيرك مــرادي ، ولك لا لسـواك سـهري وسـهادي ، ولقـاؤك قـرة عيـني ، ووصلك مـنى نفسي ، وإليك شـوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هــواك صــبابتي ، ورضــاك بغيــتي ، ورؤيتك حـــاجتي ، وجـــوارك طلـــبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علّتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي ، وكشف كربـتي ... الى ان يقول : ولا تبعدني منك يا نعيمي وجنـتي ، ويا**

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 521.

دنياي وآخرتي. يا ارحم الراحمين» [1].

وإذا كان لقاء الله أعظم نعم المؤمنين فإن حرمان الفجار منه يعدّ أعظم عذاب لهم ، ولا يعرفون عمق هذه المأساة إلّا في يوم القيامة ، لذلك ترى الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يجأر الى ربه خشية فراقه ويقول : «**فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك ، وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر الى كرامتك**» [2].

[16] والعذاب الاخر تصلية النار ، فلا حجاب بينهم وبينها ، ولا ستر ، أو ليسوا لم يستروا أنفسهم منها في دار الدنيا ، ولم يتقوا حرها ولهيبها؟! فها هم اليوم يصلونها ويذوقون مسها مباشرة.

(**ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ**)

ما المؤمنون فقد تزودوا من الدنيا بزاد التقوى فسترهم عن النار في الآخرة كما استتروا بها عن الذنوب في الدنيا ؛ لأنهم عرفوا أن الذنوب تصحبهم من هناك إلى هناك ، حيث تتحول نيرانا لا هبة ، وحيات وعقارب وظلمات وآلاما ، فتحصنوا عنها بحصن التقوى.

[17] اما العذاب الثالث فهو الاذلال والتحقير والإهانة والتبكيت أوليسوا قد استهزءوا بالرسالات ، وقالوا : إن هي إلّا أساطير الأولين ، فاليوم يشمت بهم حتى يذوقوا العذاب الروحي الذي كانوا يذيقونه الدعاة الى الله بتكذيبهم والاستهزاء منهم.

(**ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**)

---

(1) الصحيفة السجادية / مناجاة المريدين.

(2) دعاء كميل / مفاتيح الجنان.

كَلاَّ إِنَّ كِتـابَ الْأَبْـرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُـونَ (21) إِنَّ الْأَبْـــــرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُـرُونَ (23) تَعْـرِفُ فِي وُجُـوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيـقٍ مَخْتُـومٍ (25) خِتامُـهُ مِسْـكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26) وَمِزاجُـهُ مِنْ تَسْـنِيمٍ (27) عَيْنـاً يَشْـرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُـونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كـانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا يَضْـحَكُونَ (29) وَإِذا مَـرُّوا بِهِمْ يَتَغـامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُـوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُـوا فَكِهِينَ (31) وَإِذا رَأَوْهُمْ قـالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضـالُّونَ (32) وَما أُرْسِـلُوا عَلَيْهِمْ حـافِظِينَ (33) فَـالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36))

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ

بينات من الآيات :

[18] من هم الأبـرار؟ إنهم الـذين كـان الـبر صـبغة حيـاتهم ، ويبـدو من مقابلة كلمة الأبـرار لكلمة الفجـار أن المراد من البرّ الـذي يتبع سـبيل المعـروف ولا يتجـاوزه ، وان كتـاب هـؤلاء ومجمل أعمـالهم محفـوظ عند الله في مقام عليّ ، حيث يجتمع المقربون.

(**كَلَّا**)

لا تكـذب بيـوم الـدين ، بل اجتهد حـتى تصـبح من الأبرار.

(**إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ**)

وهو ديوان أعمـالهم ، أو ذات أعمـالهم محفوظة عند الله.

(**لَفِي عِلِّيِّينَ**)

قالوا : الكلمة هذه جـاءت بصـيغة الجمع ولا واحد لها من لفظها مثل ثلاثون وعشرون ، وقـال بعضـهم : بل انها من عليّ وهو فعيّل من العلو ، ثم قـالوا معـنى جمع هـذه الكلمة العلو والارتفاع بعد الارتفاع ، كأنها أعلى الأعـالي ، وقمّة القمم ، فأين هذا المقام؟ جاء في حديث مأثور عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أنه قـال : «**عليّـون في السـماء السـابعة ، تحت العـرش**» [1] وروي عنه (ص) أيضا أنه قال : «إن أهل الجنة يرون أهل علـيين كما يـرى الكوكب الدري في أفق السماء» [2].

وقـال بعضـهم : انه عند سـدرة المنتهى ، وأنى كـان فإنه مقـام كـريم ، يتواجد فيه المقربـون ، وهم النـبيّون والصديقون والخلّص من أولياء الله.

وانما يصـعد العمل الى هـذا المقـام الكـريم إذا كـان صالحا خالصا لوجه الله حسب الحـديث التـالي : روي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ عن النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ انه قال : «**إنّ الملك ليصـعد بعمل العبد مبتهجا به ، فـإذا صـعد بحسـناته يقـول الله عز وجل : اجعلوها في سجين ، إنّه ليس إيّاي أراد فيها**» [3].

[19] أين هـذا المقـام الأسـمى ، وما ذا يجـري فيه ، وكيف يتواجد فيه المقربـون؟ وأين توضع أعمـال الأبـرار منه؟ إن معرفتنا بهذه الحقائق محدودة لأنها فوق مستوانا نحن البشر.

---

(1) القرطبي ج 19 ص 262.

(2) المصدر ص 263.

(3) نور الثقلين ج 5 ص 530.

(**وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ**)

يـرى المفسـرون في مثل هـذا الخطـاب : أنه موجّه الى شخص الرسول ــ صـلّى الله عليه وآله ــ ولكن يبـدو لي انه موجّه الى كل تال للقرآن ؛ فإن القـرآن نـزل على الرسول ولكن للناس جميعا ، وأمر النـاس بتلاوته والتـدبر في آياته ، وفيه خطابات لهم جميعا ، كقوله سبحانه : «**يا أَيُّهَا النَّاسُ**» أو للمؤمـــنين وحـــدهم ، كقوله : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا**» وقد جـاء في الحـديث : عن الصـادق (ع): «**نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة**» [1].

فهذه الآية لا تدل على أن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ــ لم يكن يعـرف ما العلّيّـون ، كيف وقد فسـره لنا ، بل أساسا هـذه الجملة لا تـدل على نفي العلم بهـذا المقـام بقدر دلالته على أنه مقام عظيم ، والله العالم.

[20] في ذلك المقام الشامخ يوجد :

(**كِتابٌ مَرْقُومٌ**)

قالوا : ان هذه الجملة بيان لكتاب الأبرار ، وإنه كتاب مرقـــوم واضح لا لبس فيه ، ويحتمل ان تكـــون الجملة تفسيرا للعليين ، باعتبار أن الكتاب هو الأعلى والأسـمى ، لما يحمل من صالح الأعمال ، والله العالم.

[21] والمقربـون عبـاد الله شـهود عند ذلك الكتـاب الكريم ، فيستبشرون به ، ويسـتغفرون للصـالحين لينـالوا المزيد من الحسنات.

(**يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**)

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 92 ص 382.

ان مجرد حضور المقربين عند الكتاب كرامة وشهادة منهم عليه ، ولذلك فإن الشهادة هنا تأتي بمعنى الحضـور والتوقيع أما المقرّبـون فهم ـ حسب الآية التالية ـ طائفة من البشر يـأكلون ويشـربون ، وهم الـذين ذكـرتهم آيـات سـورة الواقعة «**وَالسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ* أُولئِكَ الْمُقَرَّبُـونَ**» وقد بين القـرآن شـهادتهم بقوله : «**وَيَـوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ**» [1].

وقـال بعضـهم : انهم الملائكة المقربـون ، وقيل إسرافيل ـ عليه السـلام ـ خاصة ، بيد أن التفسـير الأول أقـرب الى السـياق ، وهو يـوحي بكرامة المقـربين عند ربهم ، حيث جعلهم شهودا على كتاب الصالحين.

[22] الكتـاب مظهر بـارز لمسـؤولية الإنسـان عن أفعاله ، أما المظهر الأجلى فانه النعيم المقيم للأبـرار ، والجحيم الأليم للفجار.

(**إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ**)

تحيط بهم آلاء الله ، قـالوا : لان كلمة «نعيم» جـاءت بصيغة فعيل (صـفة مشـبهة) فانها تفيد الاسـتمرار ، ولأنها جاءت نكرة فهي تفيد الكثرة والتنوع ، ويبدو أن التعبير ب «لفي نعيم» هو الآخر يدل على الكثرة والتنوع.

[23] لأن الإنسـان روح وجسد فـإنّ روحه تتطلع الى لذات خاصة بها بعد أن يتشبع الجسد بالنعم ، فما هي لذة الروح في الجنـة؟ يبـدو أنها تتمثل في مجـالس المؤانسة والمعرفة ، فالحـديث مع الأخـوة الأصـفياء يعطي النفس لذة عظيمة ، كما أن العلم غذاء شهي للروح والعقل.

(**عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ**)

---

(1) النحل 89.

جلوسـهم على الأرائك مع إخـوانهم المتقـابلين لـذة للنفس ، ونظـرهم الى خلق الله وتجليـات رحمته وقدرته لـذة للعقل ، وروي عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ :

«**ينظرون إلى أعدائهم في النار**»

قـــالوا : الأرائك جمع أريكة ، أي الســـرير ، وقيل : أصلها فارسية ، وقيل : إنها مشتقة من اسم شجر يسمى بأراكة.

[24] عند ما يصـفو عيش المـرء من الأكـدار ، وقلبه من الضـغائن والطمع والحـرص ، يتلألأ وجهه بآثـار النعم ، كما يزهر النبــات ويتنــور ، كــذلك أهل الجنة تفيض على وجوههم الجميلة آثار النعم نضارة ونورا.

(**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**)

ولعل التعبـير ب «تعـرف» يـوحي بأنك تعـرف مـدى النعيم الــذي هم مســتقرون فيه بنظــرة الى وجــوههم ، ومــدى نضــارتها ؛ فــإن النضــارة درجــات وأنــواع ، وهي تعكس ما وراءها من عوامل النعيم ودرجاتها.

[25] وجلســات الأنس لا تكتمل إلّا بشــراب يزيــدهم نشاطا وسرورا.

(**يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ**)

قـالوا : الرحيق : صـفوة الخمر ، وقـال بعضـهم : إنها الخمـرة العتيقة البيضـاء الصـافية من الغش الـنيّرة ، وأما المختــوم فإنه يــوحي بكرامة الشــارب ألّا تســبق الى الشراب يد غيره.

[26] وإذا كان ختم الشراب عادة قطعة طين لازب ، فإن ختم رحيق الجنة المسك الأذفر.

(**خِتامُهُ مِسْكٌ**)

فيزيده عطرا وجمالا ، ولنا أن نتصور آمـاد هـذه النعم فنسعى إليها بكلّ همّة ونشاط.

(**وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ**)

في ضمير الإنسان نزعة راسخة تـدعوه الى التسـابق والتقـدم على الآخـرين ، وكثـير منا يسـتثير هـذه النزعة الفطرية في التســابق على الــدنيا ونعيمها الزائل ، بينما العقل يهــدينا الى أن التنــافس ينبغي أن يكــون على المكرمـات والجنة ، والآية هـذه واحـدة من عـدّة آيـات قرآنية تستثير هـذه النزعة المباركة في الطريق القـويم ، وهو التسـارع الى الخـيرات ، والتنـافس في المكرمـات ، قـال ربنا سـبحانه : «**ســابِقُوا إِلى مَغْفِــرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـها كَعَـرْضِ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ أُعِـدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا بِاللـهِ وَرُسُـلِهِ**» [1] وقـال سـبحانه : «**فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً**» [2] وقـال تعالى : «**إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً**» [3].

وإذا كان الإنسان يتنـافس على شـيء فـإن أفضل ما يتنـافس عليه ذلك الرحيق المختـوم ، الـذي يـأتي مكملا لسلسـلة من النعم المتواصـلة ، ولعل هـذا هو السر في ذكر هذه الجملة عند بيان هذه النعمة ، لأنها مكملة لسائر النعم ، أو لبيــان عظمة هــذه النعمة وما فيها من لــذّة عظيمة لا تقاس بسائر اللذات حتى لذات الاخــرة ونعيمها ، أو لأن من آداب الشــرب عند أهله في الــدنيا تنــازع الكؤوس بينهم وتنافسهم فيها.

وأنّى كان فإن التّنافس في الرحيق المختوم في ذلك اليوم يتم اليوم في الدنيا

---

(1) الحديد / 21.
(2) البقرة / 148.
(3) الأنبياء / 90.

بالتسارع في الخيرات ، والتنافس فيها ، وقد جاء في الأثر أن ترك الخمر في الدنيا ثمن الرحيق المختوم في الآخرة ، كما أن ثواب سقاية المؤمن وإطعامه هو الرحيق المختوم.

جاء في وصية النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ لعلي ـ عليه السلام ـ أنه قال : «**يا علي! من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم ، فقال علي : لغير الله؟ قال : نعم. والله ، صيانة لنفسه فيشكره الله تعالى على ذلك**» [1].

وروي عن علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ أنه قال : «**من أطعم مؤمنا من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن وسقا مؤمنا من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم**» [2].

وروي : «**من صام لله في يوم صائف سقاه الله من الظمأ من الرحيق المختوم**» [3]

[27] قيل : بأن في الجنة عينا تجري في الهواء ثم تصب في كؤوس الأبرار ، وقالوا : إنها تجري من تحت العرش وتسمى بالتسنيم ، لأنها في أعلى الجنة ، وهي شراب المقربين خالصا ، ويضاف شيء منه إلى شراب الأبرار فيعطيه نكهة خاصة ليس فقط لأنه عظيم اللذة ، بل ربما أيضا لأن فيه أثرا من روح المقربين وريحهم ، وعبق درجاتهم المتسامية ، وقالوا : انه أشرف شراب في الجنة ، قال الله سبحانه :

(**وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ**)

قال الرازي : تسنيم علم لعين بعينها في الجنة ، سميت بالتسنيم الذي هو

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 434.

(2) المصدر.

(3) المصدر.

مصدر سـنمه إذا رفعه ، إمّا لأنها أرفع شـراب في الجنة ، أو لأنها تـــأتيهم من فـــوق على ما روي : انها تجـــري في الهواء مسـنمة فتنصب في أوانيهم ، وإما لأنها لأجل كـثرة مائها وسـرعته تعلو على كل شـيء تمر به وهو تسـنيمه ، وإما لأنها عند الجـــري يـــرى فيه ارتفـــاع وانخفـــاض فهو التسنيم أيضا ، وذلك لأن أصل هذه الكلمة العلو والارتفاع ومنه سنام البعير ، وتسنمت الحائط إذا علوته [1].

وقال بعضهم : ان كل عين تجري من الأعالي تسـمى بالتسنيم ، وبالرغم من أن هذا أقرب المعـاني إلى سـياق الآية إلا اني لم أجد مصدرا لغويا يؤيده.

[28] وللجنة درجات تتعالى حتى تتصل بعــرش الله ، فعنده جنات عدن حيث منازل المقربين من عباده الأنبيـاء والصديقين ، وقد بينت سورة الواقعة جانبا من الفرق بين درجـات المقــربين السـابقين ودرجـات أصـحاب اليمين ، وفي هذه السورة إشارة الى جـانب منه ، حيث أن مـزاج شراب الأبرار التسنيم ، بينما يرتـوي منه المقربـون ، فهو شرابهم الخالص.

(**عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**)

ولعل في شراب التسنيم آثـارا معنوية ، حيث يكسب شـاربه قربا الى الله ورضـوانا ، وهكـذا خمـرة الجنة تزيد العقل ، وتنشط الفكـــرة ، وتلهم الـــروح إيمانا وعرفانا ، فـأين هي من خمــرة الــدنيا الــتي تزيل العقل ، وتخمل الفكر ، وتبعد الروح من مقام ربها؟!

[29] تلك كانت مجالس الأنس والمصـافاة ، وشـرب الرحيق والسلسل يجـازي الـرب بها عبـاده الـذين عـانوا الآلام الروحية ، فكم ضحك منهم المجرمون وكم

(1) التفسير الكبير ج 31 ص 100.

تفـاخروا ، وكم سـرقوا منهم لقمة العيش فتفكهـوا بها وتركوهم يتضورون جوعا.

(**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُـوا كـانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا يَضْحَكُونَ**)

ذكروا في تنزيل الاية سـببين : الأول : أن المجـرمين هم أكابر قريش كانوا يضحكون من عمـار وصـهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويسـتهزءون بهم ، الثـاني : أنه جـاء علي ـ عليه السـلام ـ في نفر من المسـلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتفاخروا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الأصلع ، فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآية قبل ان يصل علي إلى رسول اللـه. [1] والظـاهر أن سبب النزول الثاني أقوى لأن السورة مدنية.

[30] أول شـهادة تسـجل ضد المجـرم هي شـهادة ضميره الذي لا يني يلومه ويؤنبه على جريمته ، لذلك تراه يسـعى جاهـدا للتخلص منه فما ذا يفعـل؟ انه ينتقم من أهل الصـلاح وينتقص منهم ويستهزئ بهم لعله يخفف من وطأة اللوم الذي يتعرض له داخليا. كلا ... إنه يزداد وخـزا وألما لأن الاسـتهزاء بـالمؤمنين جريمة أخـرى ارتكبها واسـتحق عليها لـوم ضـميره ، وهكـذا يـزداد اسـتهزاء وسخرية دون أية فائدة.

(**وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ**)

اي يشيرون إليهم بأعينهم وأيـديهم اسـتهزاء ، وقيل : الغمز بمعنى العيب.

والله يـدري كم تكـون جراحة اللسـان أليمة بالنسـبة الى المؤمن الشريف الـذي لا يـزال يجتهد من أجل تزكية نفسه.

---

(1) التفسير الكبير ج 31 ص 101.

وإذا كـان الغمز في الجاهلية بـالعين واليد فإنه أصـبح اليوم بالأقلام والأفلام وسائر وسائل التشهير التي امتلكها أعداء الإنسان ، أعداء الله والدين ، وإن صمود المجاهدين اليوم أمام هذه الدعايات المضـللة يزيـدهم عند الله أجـرا وزلفا ، لأنهم يصـــبرون على أذى عظيم ، وآلام نفســـية لا تحتمل.

[31] وبينما يعيش المؤمنون والمجاهدون أشد حالات الألم والخـوف وتنتفض أطفـالهم ونسـاؤهم في المخـابئ والمهاجر خشية مداهمة جنـود إبليس المعسعسـون تـرى المجرمين ينقلبون الى بيـوتهم في أمن ظـاهر ، يتبـادلون نخب الانتصـــارات الزائفة ، ويرتـــادون مجـــالس اللهو والعربدة.

(**وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ**)

قالوا : اي معجـبين بما هم عليه من الكفر ، متفكهين بــذكر المؤمــنين ، ولعل المــراد من الأهل هنا أصــحابهم وأهل مؤانستهم.

[32] ويحاول أعداء الرسالة إلصاق تهمة الضلالة الى المؤمنين لعلهم يعزلونهم عن المجتمع.

(**وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ**)

ويبـدو ان هـدف هـذه التهمة إثـارة حساسـية النـاس ضـدهم ، لأنهم يخـالفون الخرافـات الشـائعة الـتي ينصب المجرمون أنفسهم مدافعين عنها ، بينما يسعى المؤمنون نحو إنقاذ المجتمع من ويلاتها.

[33] وهـؤلاء المجرمـون الـذين هم عـادة أصـحاب الـثروة والقـوة والجـاه العـريض يزعمـون أنهم الموكلـون بأمر الناس فتراهم يوزعون التهم يمينا ويسـارا ، بينما هم بشر

كسائر الناس لم يجعل لهم ميزة وسلطانا على أحد.

(**وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ**)

بل كل امــــرء مســـئول عن نفسه ، وبهـــذه الكلمة الحاسـمة سـلب القـرآن الشـرعية المزيفة الـتي تـدّعيها السـلطات والمـترفون لتسـلطهم على النـاس. كلا .. السـلطة انما هي لله ولمن يخوّله الله ، أما أولئك المجرمون فإنهم غاصبون ، وان على المؤمـنين ألّا يـأبهوا بأحكامهم الجائرة عليهم ، لأنه لا شرعية لها أبدا.

[34] بسـبب تلك المعانـاة الشـديدة والآلام المبرحة التي ذاقها المؤمنون المجاهدون في سبيل الله من أيـدي المجرمين تنقلب الصورة تماما في يوم الجزاء.

(**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**)

قال بعضهم : انه يفتح للكفار في أطـراف النـار بـاب الى الجنة ، فإذا سعوا إليها ووصلوه بعد عناء عظيم أغلق دونهم فيثير ذلك ضحك المؤمـنين عليهم ، وروي مثل ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله. [1]

[35] والمؤمنـون جالسـون على الأرائك فـرحين بما آتاهم الله ، وينظرون الى ما يجري هناك في نار جهنم.

(**عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ**)

جاء في الحـديث في قوله تعـالى : «**اللـهُ يَسْـتَهْزِئُ بِهِمْ**» أي المنافقين : وأمّا اسـتهزاؤه بهم في الآخـرة فهو أنَّ الله عزّ وجلّ إذا أقرّ المنافقين المعاندين لعليّ

---

(1) انظر الدر المنثور ج 6 ص 328 / عن نمونه ج 26 ص 288.

ـ عليه السـلام ــ في دار اللّعنة والهـوان ، وعـذّبهم بتلك الألوان العجيبة من العـذاب ، وأقـرّ المؤمـنين الّـذين كـان المنافقون يسـتهزءون بهم في الـدنيا في الجنـان بحضـرة محمد صـــفيّ الملك الـــديّان ، أطلعهم على هـــؤلاء المســتهزئين بهم في الــدنيا حتّى يــروا ما هم فيه من عجائب اللّعائن وبدائع النقمات ، فيكون لذّتهم وسـرورهم بشـماتتهم بهم كما لـذّتهم وسـرورهم بنعيمهم في جنـان ربّهم ، فـالمؤمنون يعرفـون أولئك الكـافرين بأسـمائهم وصفاتهم ، وهم على أصناف :

منهم من هو بين أنيـاب أفاعيها تمضـغه ، ومنهم من هو بين مخاليب سباعها تعبث به وتفترسه ، ومنهم من هو تحت سـياط زبانيتها وأعمـدتها ومرزباتها يقع من أيـديهم عليه تشدّد في عذاب وتعظم خزيه ونكاله ، ومنهم من هو في بحار حميمها يغـرق ويسـحب فيها ، ومنهم من هو في غســلينها وغسّــاقها تزجـــره زبانيتها ، ومنهم من هو في سـائر أصـناف عـذابها ؛ والكـافرون والمنـافقون ينظـرون فــيرون هــؤلاء المؤمــنين الّــذين كــانوا بهم في الــدنيا يســخرون لما كــانوا من مــوالات محمّد وعليّ وآلهما ـــ صـلوات الله عليهم ــ يعتقـدون ، فـيرونهم : منهم من هو على فراشــها يتقلّب ، ومنهم من هو على فواكهها يرتع ، ومنهم من هو على غرفاتها أو في بســـــاتينها وتنزّهاتها يتبحبح ، والحــور العين والوصــفاء والولــدان والجــواري والغلمان قائمون بحضرتهم وطـائفون بالخدمة حـواليهم ، وملائكة الله عـــزّ وجـــلّ يـــأتونهم من عند ربّهم بالحبـــاء والكرامات وعجـائب التّحف والهـدايا والمـبرّات يقولـون : سلام عليكم بما صبرتهم فنعم عقبى الدار ، فيقول هـؤلاء المؤمنون المشروفون على هؤلاء الكافرين المنافقين : يا أبا فلان ويا فلان ـ حتّى ينادونهم بأسمائهم ـ ما بـالكم في مواقف خــزيكم مــاكثون؟ هلمّــوا إلينا نفتح لكم أبــواب الجنــان لتتخلّصــوا من عــذاب وتلحقــوا بنا في نعيمها ، فيقولون : ويلنا أنّى لنا هذا؟ يقول المؤمنون : أنظروا إلى هذه الأبـواب ، فينظـرون إلى أبـواب الجنـان مفتّحة يخيّل إليهم أنّها إلى جهنّم الّـتي فيها يعــذّبون ، ويقــدّرون أنّهم ممكّنون أن يتخلّصوا إليها ، فيأخذون في

السّباحة في بحار حميمها وعـدوا بين أيـدي زبانيتها ، وهم يلحقونهم ويضربونهم بأعمدتهم ومرزباتهم وسياطهم ، فلا يزالون هكذا يسـيرون هنـاك وهـذه الأصـناف من العـذاب تمسّهم حتّى إذا قدّروا أنّهم قد بلغوا تلك الأبواب وجـدوها مردومة عنهم وتدهدههم الزبانية بأعمـدتها فتنكسـهم إلى سـواء الجحيم ، ويسـتلقي أولئك المؤمنـون على فرشـهم في مجالسهم يضحكون منهم مستهزئين بهم ، فذلك قول الله عزّ وجلّ : «**اللهُ يَسْـتَهْزِئُ بِهِمْ**» وقوله عـزّ وجـلّ : «**فَـــالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُـــوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـــحَكُونَ عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ**» [1].

[36] ما ذا ينظــرون؟ إنهم ينظــرون إلى مجريــات جــزاء الكفــار اليومية ، وعقــابهم المتتــابع الــذي يتصل بجرائمهم المتتالية في الدنيا.

(**هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ**)

أي ينظــرون لكي يــروا هل أنهم ثوّبــوا وجــوزوا؟ وبــالطبع : إنهم يجــدون هــذا الجــزاء لحظة بلحظة ، ولا ينتهي جــــزاؤهم لأنه مســـتمر ، ذلك أن كل فعلة خاطئة قاموا بها تجازى بمئات السنين ، فيسـتمر النظر ويسـتمر الجزاء. أعاذنا الله من مثل هـذه العاقبة السـوأى ، وجعلنا من أهل جنته ورضوانه. آمين.

---

(1) بحار الأنوار ج 8 ص 298.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصـادق (ع) قـال : من قـرأ هـاتين السـورتين ، وجعلهما نصب عينيه في صـلاة الفريضة والنّافلة : «**إذا السـماء انفطـرت**» و «**إذا السـماء انشقت**» لم يحجبه من الله حاجب ، ولم يحجزه من الله حـاجز ، ولم يـزل ينظر الله إليه حـتى يفـرغ من حسـاب الناس.

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 536

الإطار العام

قبسان من نور تشع بهما سورة الانشقاق :

1 / قبس يرشه على واقع الإنسـان عسى ان يعـرف نفسه ويضـعها في المقـام الأسـمى الـذي خلق لـه. فالإنسـان كـادح الى ربه كـدحا فملاقيه .. وهو يـركب بالتأكيد طبقا عن طبق.

فهو إذا ذلك الإنسـان المسـؤول الـذي سـخرت له الأرض وأجرام السـموات العلى ، وأمامه عقبـات كـأداء لا بد أن يتحـداها حـتى يصل الى دار المقامة عند عند رب العزة ، وإلّا فيكون من أصحاب الشمال ، يؤتى كتابه وراء ظهره ، ويساق إلى جهنم ليصلى سعيرا.

2 / قبس يضـيء به الطبيعة أنّها خليقة الله ، وتسـتجيب لمشـيئته النافـذة ، فالسـماء حين تنشق ، والأرض حين تمتد تأذنـان لربهما العظيم ، وحق لهما ذلك أوليستا مخلوقتين! ويلتقي شعاع هذا القبس بذلك عند ما يستنكر السياق كفر هذا

الإنسان : فما لهم لا يؤمنـون ، وإذا قـرء عليهم القـرآن لا يسـجدون؟! أولم يخلقـوا كما خلقت السـموات والأرض. أهم أعظم خلقا أم ذاتك؟!

وكما في السـور القصـار تفتح آيـات السـورة منافذ القلب على الحقيقة .. ولكن قلب من؟ انما قلب الـــذين استجابوا لربهم ، فآمنوا به وعملوا الصالحات ، فتبشـرهم بأجر متصل غير منقطع.

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُـــــدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْســانُ إِنَّكَ كــادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَـدْحاً فَمُلاقِيــهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَــهُ بِيَمِينِــهِ (7) فَسَــوْفَ يُحاسَــبُ حِســاباً يَسِــيراً (8) وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْـرُوراً (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُـوراً (11) وَيَصْـلى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13)

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19) فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25))

---

14 [يحور] كلمته فلم يحر جوابا : أي ما رد جوابا ، وحار الماء في الغدير تردد فيه ، وحار في أمره تحيّر.

ومعنى آخر ذكره أرباب اللغة : وهو التردد ، ومنه المحور للعود الذي تجري عليه البكرة لتردده ، ومحارة الأذن لظاهره المنقعر تشبيها بمحارة الماء لتردد الهواء بالصوت فيه كتردد الماء في المحارة ، والقوم في حوار : في تردد الى نقصانه ، والمحاورة والحوار : المرادّة في الكلام وأصل الكلمة الرجوع.

إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ

بينات من الآيات :

[1] هل تستطيع ان تتصور السماء كيف تنشق ، والنجوم كيف تنتثر ، وهذه السلاسل الجبلية التي تزن ملايين الأطنان من الصخور العملاقة كيف تندك اندكاكا؟

أرأيت البحر حين يهيج فإذا بأمواجه كالجبال تتطلام فوق سطحه. هل لك أنّ تتصور لو أن بحار الأرض كلها سجرت. إنها أعظم من ألوف الملايين من القنابل الهيدروجينية حين تنفجر معا .. انني اعترف بعجز قدرة الخيال عندي من أن تتصور كل هذه الأحوال .. فكيف بنا ونحن لا بد ان نشاهدها عن كثب؟ عظيم إذا شأن هذا الإنسان الذي يستضاف لمثل هذا البرنامج بل المهرجان الكوني ، لا ان الإنسان ليس يومئذ ضيف شرف ، بل متهم يساق الى المحاكمة ، ويوقف للسؤال. حقًّا إنه ذا شأن عظيم ، وان مسئوليته التي يتحملها اليوم جدّ عظيمة. تعالى ـ يا اخي ـ

نرتفع لحظات الى مستوى تصور الساعة كما يصفها ربنـا. واني لعلى يقين ان مجرد تصورها يجعلنا ننظر إلى الأمور بطريقة مختلفة ، ونعرف آنئذ أننا لا زلنا في ضـلال بعيد لا زلنا لا نعرف قيمة أنفسنا. من نحن ، ما هي حكمة وجودنا ، والى أيّ مصير نساق؟

لمحكمة الـــرب جـــوّ رهيب. انها ليست في قاعة مفروشة بالســجاد. انها في الفضــاء الــرحب .. وأجرامها تصدع قلوب الجلاميد. السماء يومئذ تنشق. ولعل النيـازك الســماوية تتسـاقط من خلال شـقوقها فـوق الأرض ، ولا نعرف ما ذا تحـدث من دمـار وصـعقات ، أمّا الأرض فـان جبالها تنــدك ، وبحارها تتســجر ، وتمتد الى ما شــاء الله حتى تصبح كاديم مبسوط.

(**إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ**)

وإذا كــانت قاعة المحكمة في الــدنيا محاطة بجنــود محــافظين ، فــان جنــود الســموات والأرض تقف يومئذ مستعدة لتنفيذ أوامر الرب فورا.

[2] (**وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ**)

وهل تستطيع أن تتمرد السموات عن أمر ربها؟ كلا .. بل حق لها أن تــأذن لربها ، أي تقف انتظــارا لأوامــره الصارمة.

[3] (**وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ**)

فلا جبال ولا آكام ولا روابي ولا بنـاء ولا أشـجار .. انها في ذلك اليوم قاع صفصف.

[4] (**وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ**)

فلا معــادن ولا مقــابر كلها اليــوم فــوق الأرض .. فلا يستطيع أحد ان يبحث داخل الأرض عن مخبأ أو خندق.

[5] (**وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ**)

وكيف لا تنتظر أوامر الرب وهي مخلوقة مـدبّرة. أفلا يحق لها الخضوع؟! بلى.

[6] يومئذ وفي هـذه الأجـواء المرعبة يلقى الإنســان ربه ليسأله عما فعله ، وليعطيه جزاءه الأوفى ، ولكن بينه وبين ذلك اليـوم الـرهيب عقبـات وصـعوبات تكـون بمثابة إرهاصات وأشراط لما قد يلقاه الإنسان يومئذ.

(**يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً**)

الولادة ساعة كـدح لك ولأمـك. تحـديك للأمـراض منذ نعومة أظفــارك والأخطــار. وتعرضك لأعــراض الجــوع والعطش ، والحر والــبرد ، والألم والشـــدائد ، وتواصل الإحباط والحرمان عليك منذ أن ميّزت يمينك عن شـمالك ، ثم حينما نمــوت وترعــرعت واجهت ألــوان الضــغوط الجسـدية والنفسـية ، ودخلت معـترك الحيـاة الـتي كلها صراع وصعوبات. ان كل هذه ألـوان من الكـدح في حيـاة الإنســان. ولكن يا ليت كــانت هي النهايــة؟ كلا .. بعد كل ذلك يــأتي يــوم اللقــاء مع من؟ مع رب العــزة ، ولم؟ للسؤال ، وفي أي يوم؟ في يوم الطامّة.

ان كل ذلك يجعلنا ننظر الى أنفسنا باحترام بالغ. انها ليست كالشجرة التي تنبت في مزرعتنا ثم تمضي لشـأنها بعد عمر محدود دون عناء التحديات ، وليست كالأنعـام أو أي حي آخر يمضي دورته الحياتية برتابة ودون تحـديات أو كـدح. انها النفس الـتي أكرمها الله وسـخر لها الشـمس والقمر وما في الأرض جميعا ، ولهـــدف عظيم. إن ذلك الهدف هو لقاء الرب للمحاكمة فالجزاء ، وهذه الحياة بما فيها من

كدح شاهد على ذلك المصير بما فيه من جزاء.

(**فَمُلاقِيهِ**)

وإذا كانت الحياة سلسلة متواصلة من الكدح والنصب فلما ذا السـرور واللهو إذا؟ ولما ذا يـبيع الإنسـان الآخـرة بالـدنيا ما دمنا جميعا كـادحون. أهل الصـلاح والمفسـدون كل في طريقه؟ ولعل المفسد يتعـرض لكـدح أكـبر ، لأنه يفقد أمل المسـتقبل وتوكل المـؤمن على ربه ، ويبـدو أنّ الإمام زين العابـدين يشـير الى ذلك حين يقـول فيما روي عنه :

«الراحة لم تخلق في الـــدنيا ولا لأهل الـــدنيا ، إنما خلقت الراحة في الجنة ولأهل الجنة ، والتعب والنصب خلقا في الـدنيا ، ولأهل الـدنيا. وما أعطي أحد منها جفنة الا اعطي من الحـــرص مثليها ، ومن أصـاب من الـدنيا أكـثر كـان فيها أشد فقـرا ، لأنه يفتقر إلى النـــاس في حفظ أمواله ، ويفتقر إلى كلّ آلة من آلات الدنيا ، فليس في غنى الدنيا راحة. كلا ما تعب أوليـاء الله في الـدنيا للـدنيا ، بل تعبـوا في الدنيا للآخرة» [1].

[7] وشتان بين لقاء المؤمن ربه وغـيره. إن المـؤمن يلقى ربه ليستلم جائزته بيمينه.

(**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ**)

[8] يأخذه بفرح بالغ. لقد انتهى الكدح والى الأبد. انها ولادة جديدة ، ومستقبل زاهر.

(**فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً**)

---

(1) تفسير نمونه ج 26 ص 304 نقلا عن خصال الصدوق.

فالحسـاب لا بد منه لكل إنسـان إلّا عـدد محـدود من الصـديقين والصـابرين ، بيد أن حسـاب أصـحاب اليمين يسـير ، فـاذا مـروا بحسـناتهم قبلت. وإذا وجـدوا بينها هفوات غفرت ، ولكن الحساب العسير يعـني عـدم قبـول حسناتهم ، وعدم التجاوز عن سيئاتهم.

وفي الخـبر المـأثور عن رسـول الله صـلّى الله عليه وآله : «**ثلاث من كنّ فيه حاسبه الله حسـابا يسـيرا ، وأدخله الجنّة برحمتـه» قـالوا : وما هي يا رسـول الله؟ قال : «تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك**» [1].

ولعل السبب في ذلك سلامة خطهم العام مما يشـفع لهم في الانحرافات الجانبية.

[9] ويجتمع المؤمنـون تحت ظـلّ عـرش الله ، ينظرون إلى سـاحة المحكمة ، وينتظـرون رفـاقهم الـذين ينتهـون من الحسـاب ويلتحقـون بجمعهم المبـارك ، فـاذا أخذ المؤمن كتابه أسرع إليهم مسرورا.

(**وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً**)

ان هذا السـرور يلازم المـؤمن منذ خروجه من قـبره بسبب صفاته الحميدة ، ولعل أبرزها رضـاه عن ربه ، فقد جاء في الحديث عن الصادق عليه السـلام : «**ومن رضى باليسـير من المعـاش ، رضى الله منه باليسـير من العمل**» [2].

وجـاء في حـديث مـأثور عن الامـام الصـادق عليه السلام : «إذا بعث الله عز وجل المـؤمن من قـبره خـرج معه مثال يقدمه أمامه ، كلما رأى المؤمن هولا من أهوال يـوم القيامة قـال له المثـال : لا تفـزع ولا تحـزن ، وأبشر بالسرور والكرامة من الله جل وعز ، حتى يقف بين يـدي الله جل وعز فيحاسبه حسابا يسيرا ، ويأمر به الى

---

(1) موسوعة بحار الأنوار ج 69 ص 406.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 461.

الجنة والمثـال أمامه ، فيقـول له المـؤمن : رحمك اللـه. نعم الخـارج خـرجت معي من قـبري وما زلت تبشـرني بالســرور والكرامة من ربي حــتى رأيت ذلك ، من أنت؟ فيقول : أنا السرور الذي كنت أدخلته على أخيك المـؤمن في الدنيا ، خلقني الله جل وعز منه لأبشرك» [1].

[10] أما الكافر والمنافق والفاسق فانه يسـتلم كتابه من وراء ظهره اما بعد أن تخلع يسراه وتوضع الى ظهـره ، وإما لأن يديه مغلولتـان وراء عنقـه. فيوضع الكتـاب في يسراه من خلف ، وعموما فانه يصـبح معروفا عند النـاس بسوء العاقبة.

(**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ**)

وتتلاحق لعنـات الملائكة والنـاس عليه ، ويشـدد عليه في الحساب ، ولا تقبل حسـناته ، ولا تغفر سـيئاته ، وأهم من كل ذلك تسقط عنه الأستار الـتي تزمل بها في الـدنيا حتى لا يعرف على حقيقته ، ويعلن للنـاس أسـراره وخبايا نفسه الخبيثة

[11] أليس من الأفضل أن نســعى جميعا لإصــلاح أنفسـنا اليـوم ولا نسـتمر في خـداع الـذات حـتى لا نبتلى بتلك الفضيحة الكبرى؟!

ما ذا يكون موقف هذا البئيس؟!

انه يصيح : وا نفساه وا ثبوراه!! ولكن هيهات حيث لا ينفعه الندم ، ولات حين مندم.

(**فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً**)

والثبــور هو الهلاك ، ودعــاؤه به اعترافه بالجريمة واستسلامه للهلاك ، ولو عرف

(1) تفسير نور الثقلين ج 5 ض 538.

الإنسان هذه العاقبة وهو في الدنيا واتقاها بصالح الأعمال لما ابتلي بهذا المصير الأسود.

[12] ولا تنفعه دعوته للهلاك واعترافه بـــــالثبور لأنه سوف يدخل النار ويصلى حرارتها.

(**وَيَصْلى سَعِيراً**)

نارا مستعرة متقدة ذات أوار ولهب.

[13] لما ذا هذا المصير؟ لأنه كان في الدنيا مسرورا ، لاهيا عما يراد به ، مستهزء بالدعاة إلى الله.

(**إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً**)

والسـرور هو إحسـاس الإنسـان بأنه قد بلغ أهدافـه. والدنيا غاية علم الكفار ، ولذلك تراهم يفرحـون بما أوتـوا فيها ، وتغلق آفـاق طمـوحهم دون الحيـاة الآخــرة ، فلا يقدمون لها شيئا.

[14] كيف يتجـاوز المؤمنـون ظـاهر الـدنيا الى غيب الآخـرة؟ انما بايمـانهم بالنشـور ، بينما غـيرهم يظن انه لا يعود.

(**إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ**)

اي يعود الى الآخرة للحساب. قالوا : الحور : الرجوع ، وقيل : كلمة فلم يحر جوابا : أي ما أرجع قـــولا ، ولا رد كلاما ، جـاء في الـدعاء : «**نعـوذ بالله من الحـور بعد الكور**» أي من العودة إلى النقصان بعد الزيادة ، وسميت البكرة ب «**بالمحور**» لأنها

تدور حتى ترجع الى محلها.

[15] وكان ظنه بـاطلا. فانه ليس يحـور فقط ، وانما أيضا يحاسب بهذه من لدن ربّ بصير بشأنه ، محيط علما بظاهر فعله وغيب نيته.

(**بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً**)

ولأن الإنسان يبرر جرائمه وضلاله عادة ؛ فإن السبيل الوحيد لإصـلاحه هو تحسسه برقابة الله عليه ، وأنّه بصـير بخبايا قلبه أنى برّر أو نافق.

[16] هل راقبت يوما الغروب : كيف تسقط الشمس في الأفق ، وينبسط عليه الشـفق ، ويلملم الظلام شـمل الطيـــور في أوكارها ، والوحـــوش والهـــوام في بيوتها وجحورها ، والناس في مساكنهم ، وإذا بـالقمر يطلع علينا بنور هادئ. انه مثل للأطـوار الـتي يتحـول عبرها الإنسـان منذ أن كان نطفة في صلب أبيه ، وإلى أن يضمّه الـتراب في رحمـه. انه في رحلة متواصـلة ، يـركب فيها طبقا بعد طبق ، أفلا نؤمن باننا لسنا مالكي أنفسـنا ، وأن من يملك أمرنا أنشـــأنا لحكمة ، فـــأين تلك الحكمة لو لم تكن في القـرآن؟! أفلا نسـجد لربنا حين نتلـوا آياتـه؟! حقا .. إنها حكمة الخلق الـــــتي أشـــــارت إليها الآية الكريمة «**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**» [1].

(**فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ**)

لغـروب الشـمس هيبة في النفـوس ، وجلال عظيم ، وان منظر الشمس حين تغرب يثير فينا أكثر من احساس ؛ انه يرسم على الأفق لوحة متحركة ، بارعة الجمـــــال ، ذات ألوان تبهر الألباب ، ولكنه لا يلبث أن يثير فينا الحزن على ينبـوع النـور الـذي بلعه المغيب ولو بصـورة موقتّة ، مما يجعلنا نتسـاءل : ألسـنا نحن أيضا ننتظر الغـروب عند ما

(1) الذاريات / 56.

يحين أجلنا. ومتى يأتي الأجل؟ لا ندري.

وأخـــيرا يصل الإنســـان الى قناعة : لا بد من الرضا بالواقع. تعالوا نرجع الى بيوتنا.

وقال المفسرون عن الشفق : انه امتزاج ضوء النهار بظلام الليل ، وقيل : إن أصل الشفق الرقة ، وانما سمي المغيب بالشفق لأنه ينتشر في الأفق ضياء رقيقا.

وقالوا عن اللام في «فلا اقسم» : انها زائدة للتأكيد ، وقيل : بل معناها تعظيم الشــفق ان يقسم به ، أو تعظيم الحقيقة حتى لا تحتاج الى قسم ، وقد سبق منا : ان اللام هنا تفيد تأكيد القسم.

[17] وبعد أن يلملم الشــفق بقايا خيــوط الضــياء ، يسـوق ظلام الليل النـاس ليهجعـوا ، والأشـياء لتنكمش ، ذلك أن الضـــوء يبسط الطبيعة ، بينما الظلام يجمعها .. أرأيت أسراب الطيور عند الشفق كيف تعود الى أو كارها ، وقطعــان الأنعــام تــروح الى مرابضــها ، والنــاس أيضا يعودون الى دورهم ومساكنهم ؛ إنّه منظر رائع حقا.

(**وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ**)

قالوا : الوسق : الجمع ، وطعام موسوق أي مجموع.

[18] ويطلع القمر ، ويندفع الى كبد السماء ، ويتجلّى بنوره الفضّي كسفينة من فضّة تسـير في بحر من الظلام ، ويبعث من أفق الســماء بنــوره الهــادئ فــوق الآجــام والـروابي بما لا يـزاحم نـوم النـائمين ، وفي ذات الـوقت يكـون سـراجا للسـارين ليلا وأنيسا للشـعراء والـوالهين ، وآية مبصرة لمن يحيي الليل من المتهجدين.

(**وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ**)

قــالوا : اتسق : مشــتقة من الوسق ، بمعــنى تجميع أطراف الشيء مما يوحي بكماله ، وقــالوا : انه كناية عن القمر عند ما يكتمل بدرا ، ويبدو لي أنه أعّم منه والمــراد من أتساقه ارتفاعه في كبد السماء ، بعيدا عن كدر الأفق والله العالم.

[19] ان الإنسان ينتقل من حال الى حــال .. تلك هي الحقيقة الـــتي لا بد أن يعيها الإنســـان بعمق ، وإلّا فانه يخشى عليه أن يضل سبيله.

(**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ**)

ما هو المــراد من الطبــق؟ قــالوا : الطبق في اللغة بمعنى الحال ، ثم ساقوا أمثلة لذلك ، فذكروا ان الدواهي تسمى أم طبق ، وبنات طبق ، واستشهدوا بقول الشـاعر :

الصبر أحمد والـدنيا مفجّعة	من ذا الــذي لم يــذق من عيشه رنقا
إذا صـفا لك من مسـرورها طبق	أهـــدى لك الـــدهر من مكروهها طبقا

ويقول شاعر آخر :

انى امــرؤ قد جلبت الـدهر أشــــــطره	وســــاقني طبق منه الى طبق

ولعل أصل معــنى الطبق التطـــابق ، وانما ســميت التحــولات الأساسـية والمنعطفـات الحساسة من الـزمن بالطبق ، لأنهم تصور وا الزمن طبقات كما الأرض طبقات أو العمارة طوابق ، فسـموا كل مرحلة طبقا ، كما سـموا كل طبقة من الأرض أو طابق من الـبيت ، ولـذلك قـالوا : أتــاني طبق من النــاس أو طبق من الجــراد ، أي جماعة كأنهم قسم من الناس ، وطبقة منهم ، ومشـهور في أدبنا اليوم مصطلح الطبقـات الاجتماعية ، ويسـمى القـرن من الزمان أيضا طبقا ، كما قال العباس في مدح النبي صـلّى الله عليه وآله.

تنقّل من صـــلب الى رحم   إذا مضى عــالم بــدا طبق

ويقـال لضـريع الليل وطـرف النهـار طبق ، فيقولـون مضى طبق من الليل أو طبق من النهار.

وإذا فان ظاهر الآية يدل على ان الإنسـان يتـدرج في طبقات الزمان ، ومراحله ، وتحولاته طبقا بعد طبق.

بلى. انه لا يملك التحولات الكبيرة التي تجـري عليـه. بالرغم من وجود هـامش بسـيط من الاختيـار عنـده ، فهو يولد في عصر لا يختـــــاره ، وفي مصر لم ينتخبه ، ومن والدين قدّرا له دون دخل له فيهما ، وعشرات التقـديرات الحتمية تصـــوغ حياته دون ان يكـــون له فيها صـــنع ، ثم يتحـول من نطفة الى علقة الى مضـغة الى خلق سـوي ، يولد ليجتاز سبعة وثلاثين مرحلة منذ الرضاعة حتى يكـون هرما فيمــوت ، حسب الأســماء الــتي وضــعتها العــرب لمراحل حياة البشر.

وخلال هــذه الفــترة يتقلب عــبر المــرض والعافية ، والفقر والغــنى ، والخــوف والأمنة ، والجــوع والشــبع ، وترمي به حوادث الزمان من حزن الى سرور ، ومن قلق الى ســلام ، ومن شــدة الى رخــاء وهكــذا .. وقد تحمله الدواهي من أرض لأرض ، ومن قوم إلى قــوم ، ومن دين إلى دين.

ان كل هذه التحولات جزء من الكدح الـذي كتب على الإنسان في هـذه الـدنيا ، ولكنها لا تنتهي بـالموت فما بعد الموت أعظم وأدهى.

وهكذا نقرأ في رواية مـأثورة عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـــ طائفة من هـــذه المراحل الـــتي يمر بها الإنسان. فقد روي عن جابر انه قال : سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يقول :

إنّ ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله ــ عز وجل ــ إن الله لا إله غــيره إذا أراد خلقه قــال للملك : اكتب رزقه وأثــره ، وأجله ، واكتب شــقيّا أو ســعيدا ، ثم يرتفع ذلك الملك ، ويبعث الله ملكا آخر فيحفظه حــتى يــدرك ، ثم يبعث الله ملكين يكتبـان حسـناته وسـيئاته ، فـاذا جـاءه الموت ارتفع ذانك الملكان ، ثم جاءه ملك المـوت ــ عليه السلام ـ فيقبض روحه ، فاذا أدخل حضـرته ردّ الـروح في جســده ، ثم يرتفع ملك المــوت ، ثم جــاءه ملكا القــبر فامتحناه ، ثم يرتفعـان ، فـاذا قـامت السـاعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السـيئات فأنشـطا كتابا معقـودا في عنقه ، ثم حضرا معه : وأحد سائق والآخر شهيد ، ثم قال الله ـــ عز وجل ـــ : «**لَقَــدْ كُنْتَ فِي غَفْلَــةٍ مِنْ هــذا فَكَشَـفْنا عَنْـكَ غِطـاءَكَ فَبَصَـرُكَ الْيَـوْمَ حَدِيـدٌ**» قـال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : «**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقــاً عَنْ طَبَقٍ**» قال : «حالا بعد حال» ثم قـال : قـال رسـول الله ـــ صـلّى الله عليه وآله وسـلم : «إنّ قـدّامكم أمـرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم» [1].

وإذا تأملنا سياق سـورة الانشـقاق وتـدبرنا آية الكـدح فيها ، ولا حظنا هـــذه الرواية أيضا تـــبيّن لنا أن الجملة الأخـيرة في هـذه الرواية هي العـبرة الـتي ينبغي أن نعيها من السورة ، ذلك أن عدوّ الإنسـان هو حالة اللهو واللعب الـــتي تـــنزع إليها نفسه ، فتســـول له العبثية والغفلة أو الهــروب من مواجهة الحقــائق ؛ وانما ينســاق البشر الى هذه الحالات بسبب غفلته عن نفسه وعما يراد بها ، وعن الأخطاء التي تنتظره. أفلا يفكر هـذا المسـكين أن الظلام يلف الضـــياء ، ويتسق القمر في الســـماء بــدل قــرص الشـمس ، وأن التحـول سـنة يخضع لها كل شـيء ، فهل يبقى بعيدا عنها؟!

وإذا لم نعتبر بالطبيعة حولنا أفلا نعتبر بتاريخنا الحافل بالتطورات ، فهذه الأمم كيف دار بها الـزمن دورته ولعبت بها رياح التغيير طبقا عن طبق ، وحالا من بعد

---

(1) القرطبي ج 16 ص 278 / 279.

حال .. اننا أيضا سائرون في ذات الدرب ، وعلى هذا جـاء في تأويل هذه الآية حديث مأثور عن رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ انه قال : «لـتركبن سـنن من كـان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه» قالوا : يا رسول الله! اليهود والنصارى؟! قـال : فمن؟ [1].

وفي حـديث عن أبي جعفر ـ عليهما السـلام ـ رواه أبي الجارود ، في قوله : «ولا يزال الـذين كفـروا تصـيبهم قارعة» قـال : هي النقمة «**أَوْ تَحُلُّ قَرِيبـاً مِنْ دارِهِمْ**» فتحلّ بقوم غيرهم ، فيرون ذلك ، ويسـمعون به ، والـذين حلّت بهم عصـاة كفـار مثلهم ، ولا يتّعظ بعضـهم ببعض ، ولن يزالوا كذلك حتى يأتي وعد الله الـذي وعد المؤمـنين من النصر ، ويخزي الكافرين [2].

وهكـذا ينبغي للإنسـان ان يعي آيـات الطبيعة وعـبر التاريخ ، ثم ينظر الى نفسه عبرهما حتى يعـرف قـدرها ، ولا يضيع فرصتها بالغفلة واللهو والانشغال بالتوافه.

[20] دخل ابن أبي العوجـاء على الصـادق (ع) فلم يتكلم مهابة منه ، فقال له الصادق ـ عليه السـلام ـ : «يا ابن أبي العوجاء! أمصـنوع أنت أم غـير مصـنوع؟» قـال : لست بمصنوع ، فقال له الصادق ـ عليه السـلام ـ : «فلو كنت مصـنوعا كيف كنت تكـون؟» فلم يحر جوابا ، وقـام وخرج.

فعـاد إليه في اليـوم الثـاني فجلس وهو سـاكت لا ينطق ، فقال ـ عليه السـلام ـ : «**كأنك جئت تعيد بعض ما كنّا فيـه؟**» فقـال : أردت ذلك يا ابن رسـول الله ، فقال ابو عبد الله الصادق ـ عليه السـلام ـ : «**ما أعجب هذا! تنكر الله ، وتشهد أني ابن**

(1) المصدر ص 279 وذكر في مجمع البيان حديث قـريب منه ثم قـال : وروي ذلك الصـادق ـ عليه السـلام ـ راجع مجمع البيـان ج 10 ص 462.

(2) موسوعة بحار الأنوار ج 6 ص 55.

رسول الله» فقال : العادة تحملني على ذلك ، فقـال له العالم ـ عليه السلام ـ (والعالم هو الامـام الكـاظم ـ عليه السـلام ـ والى آخر الرواية يسـميه بالعـالم. الظـاهر أنه الامـام الصـادق (ع) نفسـه) : «فما يمنعك من الكلام؟» قـال : إجلالا لك ، ومهابة ، ما ينطق لسـاني بين يـديك ، فإني شاهدت العلماء ، وناظرت المتكلمين ، فما تداخلني هيبة قـطّ مثل ما تـداخلني من هيبتك ، قـال (ع) «يكـون ذلك ، ولكن افتح عليك بسـؤال» وأقبل عليه ، فقـال له : «**أمصنوع أنت أو غير مصـنوع**» فقـال عبد الكـريم أبي العوجـاء : بل أنا غـير مصـنوع ، فقـال له العـالم ـ عليه السلام ـ : «فصف لي لو كنت مصنوعا كيف كنت تكـون» فبقي عبد الكريم مليّا لا يحـير جوابا ، وولع بخشـبة كـانت بين يديه وهو يقـول : طويل ، عـريض ، عميق ، قصـير ، متحرك ، ساكن ، كل ذلك صفة خلقه ، فقال له العـالم ـ عليه السـلام ـ : «**فـإن كنت لم تعلم صـفة الصـنعة غيرها فاجعل نفسك مصـــنوعا لما تجد في نفسك مما يحـدث من هـذه الأمـور**» فقـال له عبد الكـريم : سـألتني عن مسـألة لم يسـألني عنها أحد قبلك ، ولا يسـألني أحد بعـدك عن مثلها ، ... الى أن اعـترف أخـيرا بأن له صانعا ... والحديث طويل أخذنا الشاهد منه.

وقد صـاغ المتكلمـون الحجة التالية من هـذه الحقيقة فقالوا : العالم متغيّر ، وكل متغير حادث ، فالعالم حـادث. حقّا ان تطـورات الخليقة من حولنا ، وتطـورات حياتنا ، وتقلبنا حـالا بعد حـال (طبقا عن طبـق) أفضل سـبيل لمعرفة الـرب وحكمة خلقه لنا ، ولكن ليس كل النـاس يسلكون هذا السبيل لأن بعضهم تراه يكذّب ، ويبني حياته على أسـاس التكـذيب ، فلا تنفعه الحجج ولا المواعظ والعبر.

(**فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**)

وتأتي هذه الآية في سياق بيان تلك الحقائق المفزعة لعلها تنفض من فؤاد الإنسان رواسب الغفلة والتهاون.

[21] حين يتّصل قلب الإنسان بشلّال النور لا تملك جوارحه إلّا الاستجابة لمؤثرات الوحي ، فأيّ قلب واع لا يخضع لهذا الوحي الذي كاد يصدع الجبال الراسيات ، أم أيّة جبهة لا تخر ساجدة على التراب أمام هذه الصعقات المتتالية التي تنبعث من ضمير القرآن.

(**وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ**)

قالوا : السجود هنا بمعنى التسليم والخضوع للقرآن ، وقال بعضهم : انه السجود المعهود الذي ينبأ عن التسليم النفسي ، وقد اعتبر أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ السجود عند قراءة هذه مندوبا.

[22] انى كانت الحجج الإلهية بالغة فإن الجاحد يظل يعاند ويكذب ، لأنه قد قرّر سلفا عدم التصديق بها ، لذلك فإنّ موقفه لا يعكس ضعفا في الحجة بل انحرافا في نفسه.

(**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ**)

[23] وتكذيبهم الظاهر لا يعكس واقعهم ومدى تأثرهم بالحجة ، إذ أنهم بالتالي بشر ، وتنفذ البراهين الواضحة في أعماقهم ، ولكنّهم يخدعون أنفسهم ويكذّبون بها طلبا لحطام الدنيا ، وبحثا عن لذاتها ، والله سبحانه عليم بأنفسهم ، ويحاسبهم على ما فيها ، وليس على مجرد ما يدعون من أنهم لم يقتنعوا بالحجة.

(**وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ**)

والوعي بمعنى الحفظ ، ويسـمى الإنـاء : وعـاء ، لأنه يحفظ الطعـام ، وقـال المفسـرون في معـنى الآية : الله أعلم بما يضمرون.

[24] وعلى أسـاس ما يظهـرون يحاسـبهم الله ، لأن الكافر يشهد قلبه على كذبه قبل أيّ شخص آخر.

(**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**)

صدقوا بالحساب أم كذبوا.

[25] وانما يسـتثني من هـذا التعميم الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات ، فإنهم وحدهم الذين يعطيهم الله أجرا ، دائما غير منقطع.

(**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)

قالوا في معنى الاستثناء أنه منقطع إذ أن الكفار غـير المؤمنين ، فلا معنى لاستثنائهم منهم ، وقال بعضـهم : أن معـنى «الا» هنا العطف ، ولعل الأفضل أن يقـال : بل الاستثناء متصل ، ولكن المستثنى منه محذوف بدليل ذات الاستثناء ، أي أن الإنسـان أنى كـان مبشر بعـذاب أليم إلّا المؤمنون.

(**لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**)

صـحيح أن الأجر بقـدر المشـقة ، ولكن أجر الآخـرة دائم ، فلو أتيت على آية ذكر فيها بيت الجنة فـإن هـذا الـبيت ليس كـبيوت الـدنيا ، يتهـدّم بعد حين ، بل هو بيت دائم لا يـزول ، وكـذلك سـائر أجر الآخـرة. رزقنا الله ذلك بفضله.

قالوا : معنى كلمة «ممنون» أنه بمعـنى القطع ، وقد سأل نافع بن الأزرق ابن

عباس عن قوله : «**لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُـونٍ**» فقـال : غـير مقطوع. فقـال : هل تعـرف ذلك العـرب؟ قـال : نعم. قد عرفه أخو يشكر حين يقول :

فترى خلفهن من سرعة الرجز مع منينا كأنه أهبا.

وقال المبرد : المنين : الغبار ، لأنها تقطعه وراءها [1].

---

(1) القرطبي ج 19 ص 282.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قـال : من قـرأ «**والسـماء ذات الـبروج**» في فرائضه فإنّها سورة النبيين كـان محشـره وموقفه مع النبيين والمرسلين والصالحين.

نور الثقلين / ج 5 ص 540

الإطار العام :

جبّـار سـفيه تطغيه سـلطة محـدودة في بلد متواضع فيتخذ قرارا خاطئا بإعـدام جمـاعي لطائفة وعت الحقيقة فـــآمنت بالله ، فيلقيهم في نـــار في الأخاديد ، وتشـــهد الجمــاهير سـطوته لكي يكونــوا لهم عـبرة .. وينتهي في زعمه كـلّ شـيء. كلّا .. إنّ السـموات والأرض وجنودهما وســكانهما ينتظــرون محاكمة هــذا الســفيه في اليــوم الموعـــود ، وإنّ ســـنن الله في الخليقة الـــتي تمتد من السماء ذات البروج في عمق المكان إلى اليـوم الموعـود في أفق الزمـــان وإلى الشـــاهد والمشـــهود تحيط بهـــذا الإنسان العاجز المسكين ، فأين المفر؟!

وهكذا تتواصل آيات سورة البروج التي تفتح باليمين ، وتختم بـــأنّ الله من ورائهم محيط ، وأنّ القـــرآن المجيد مصـون في اللـوح المحفـوظ ، وفيما بينهما الحـديث عن أصحاب الأخدود الـذين بـالغوا في الجريمة فأوقـدوا النـار في حفر ثم ألقـوا المؤمـنين فيها وجلسـوا يتفرّجـون على مشهد احتراقهم.

وهكـذا ابتلي المؤمنـون (وربما بصـورة مكـرّرة وفي بلاد مختلفة) بهذا البلاء

العظيم ، دون أن ينال من إيمـانهم مثقـال ذرة ، بل ازداد إيمانهم صلابة وصفاء.

أمّا أعداؤهم فما ذا كانت عاقبة جـرائمهم؟ هل بلغـوا هدفهم؟ وما ذا استهدفوا من هذا العمل الوحشي الموغل في الجاهليـــة؟ أوليس كسر مقاومة المؤمــــنين؟ فهل أفلحوا؟ كلّا .. فقد انتشر الدين بسبب مقاومة المؤمنين ، ونـزل على الجبّـارين العـذاب الأليم ، كما أنـزل الله على فرعون وثمود العذاب الأليم.

وكلمة أخيرة : إنّ هذه السـورة الكريمة تتميّز بإعـداد المؤمــنين لاجتيــاز أصــعب الامتحانــات ومقاومة أكــبر التحديات.

سورة البروج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُـرُوجِ (1) وَالْيَـوْمِ الْمَوْعُـودِ (2) وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْـدُودِ (4) النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْها

---

1 [البروج] : القصـور ، وسـمّيت بـذلك لأنّها ظـاهرة لعلوّها ، وجـاء في مفردات الراغب : ثوب مبرّج صـوّرت عليه بـروج فـاعتبر حسـنه وقيل تبرّجت المـرأة أي تشـبّهت به في إظهـار المحاسن ، وعلى ذلك تكـون بروج السماء هي الأجرام والمجرّات الضخمة الظاهرة في الآفاق.

وقـال البعض : هي منـازل الشـمس والقمر والكـواكب وهي اثنا عشر برجا ، يسير القمر في كلّ برج منها يومين وثلاث وتسـير الشـمس في كلّ برج شهرا.

4 [الأخدود] : الشقّ العظيم في الأرض ، ومنه الخدّ لمجـاري الـدموع ، وتخدّد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُـونَ بِـالْمُؤْمِنِينَ شُـهُودٌ (7) وَما نَقَمُـــوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُـــوا بِاللَّـــهِ الْعَزِيـــزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللـهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُـوا الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا فَلَهُمْ عَـذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَـــذابُ الْحَرِيـــقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّـالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ ذلِـكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْـدِئُ وَيُعِيــدُ (13) وَهُــوَ الْغَفُــورُ الْــوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِما يُرِيـدُ (16) هَـلْ أَتـاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ

---

10 [فتنـوا] : أي أحرقـوا ، والفـتين حجـارة سـود كأنّها محرقة ، وأصل الفتنة الامتحان ثمّ يستعمل في العـذاب ، وقـال الـراغب في مفرداته : أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته.

15 [المجيــد] : المجد الســعة في الكــرم والجلال ، وأصل المجد من قـولهم : مجـدت الإبل إذا حصـلت في مـرعى كثـير واسع وقد أمجـدها الراعي ، ووصف الله نفسه بذلك لسعة فيضه وكـثرة جــوده ، ولجلالته وعظم قدره.

(17) فِرْعَــوْنَ وَثَمُــودَ (18) بَــلِ الَّذِينَ كَفَــرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللــهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيـطٌ (20) بَـلْ هُـوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ

بينات من الآيات :

[1] الكائنـات والزمـان والإنسـان ثلاثة شـهود عظـام على مسئولية البشر ، فأنّى له الهروب ، وأنّى له التـبرير! وأعظم الكائنـــات حسب علمنا الســـموات بما فيها من وحدات من بناء عظيم يسمّيها القرآن البروج.

(**وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ**)

ما هي البروج؟ يبدو أنّها طبقات السـماء المتمثلة في مجـــاميع المجـــرات ، كل مجـــرة فيها أعـــداد هائلة من الشموس.

قالوا : أصل معنى البروج الظهور ، ولأنّ البناء العالي ظـاهر سـمّي القصر برجا ، كما سـمّي موقع الـدفاع عن المدينة بالبرج. ولعلّ انتخاب هذه الكلمة هنا كـان لأنّ في السماء حرسا اتخـذوا مواقع لرصد حركـات الإنس والجن والشياطين ، ممّا

ينسجم مع السياق الذي يجري فيه الحديث عن جزاء الطغاة على جرائمهم بحقّ المؤمنين ، فإذا تحصّن الطغاة ببروجهم الأرضية فإنّ للسماء بروجا لا يستطيعون مقاومة جنودها.

وقال بعضهم : البروج هي منازل الشمس والقمر والكواكب وأفلاكها التي لا تستطيع أجرام السماء على عظمتها تجاوزها قيد أنملة ، ممّا يشهد على أنّها كائنات مخلوقة مدبّرة.

[2] يوم القيامة رهيب ترتعد السموات والجبال والبحار وسائر الكائنات خشية منه وإشفاقا ، وأعظم ما فيه مواجهة الإنسان لأفعاله ، بلا حجاب من تبرير ، ولا قوة ولا ناصر .. وهكذا يحلف السياق به على ما يجري الحديث عنه من مسئولية الطغاة أمام ربّهم عن جرائمهم بحقّ المؤمنين.

(**وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ**)

إنّه يوم لا مناص منه ، لأنّه وعد الله ، ووعد الله غير مكذوب ، وليس الإنسان وحده بل الكائنات جميعا موعودة بذلك اليوم ، فأيّ يوم عظيم ذلك اليوم؟

[3] ثم يقدم الإنسان للمحاكمة ، فقد حضر الشهود. كلّ مكان عاش فيه يشهد عليه ، وكلّ زمان مرّ به يشهد عليه ، وكلّ جارحة استخدمها تشهد عليه ، وكلّ إنسان عايشه يشهد عليه ، وفي طليعة الشهود الأنبياء والأوصياء والدعاة إلى الله ، يشهدون عليه أن قد بلّغوه رسالات ربه فلم يقبلها. أيّ مسكين هذا الطاغية الذي تجتمع عليه الشهود من كلّ موقع وكلّ حدب؟! ثم تراه في الدنيا غافلا لاهيا سادرا في جرائمه وكأنّه لا حساب ولا عقاب.

(**وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**)

قال بعضهم : الشاهد يوم الجمعة بينما المشهود يـوم عرفة ، وروي ذلك عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ ، وقال البعض : بل كلّ يوم يشهد على الإنسان بما يفعل ، وروي عن الرسـول ــ صلّى الله عليه وآله ــ قوله : «**ليس من يــوم يــأتي على العبد إلّا ينــادي فيه : يا بن آدم أنا خلق جديد ، وأنا فيما تعمل عليك شـــــهيد ، فاعمل فيّ خيرا أشهد لك به غـدا ، فـإنّي لو قد مضـيت لم ترن أبدا ، ويقول الليل مثل ذلك**» [1].

[4] أرأيت الـذي خلق السـماء ذات الـبروج فلم يـدع فيها ثغــرة ولا فطــورا ، وجعل للنــاس اليــوم الموعــود ليجمعهم ويشـهدهم على أنفسـهم ، أرأيته سـبحانه يـترك الإنسـان يعبث في الـدنيا ويقتل عبـاده المؤمـنين بطريقة شنيعة ثم لا يجازيه؟ كلّا ..

(**قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ**)

الــذين شــقّوا في الأرض أخاديد كــالأنهر العريضة ، وملأوها نيرانا تستعر.

قــــال بعضــــهم : تلك لعنة أبدية تلاحق الظــــالمين ، فالقتل هنا كناية عنها.

وقال البعض : بل أنّ أولئك الظالمين قد قتلوا فعلا إذ خرجت شعلة من نيران أخدودهم وأحـرقتهم. وربما قتلـوا بعدئذ بطريقة أخرى.

المهم أنّهم لم يفلتوا من عذاب الآخـرة ، وإن أمهلـوا في الـدنيا لعـدّة أيّـام ، ذلك أنّ نظـام الخليقة قـائم على أساس العدالة ، ولن يقـدر الظـالم الانفلات من مسـئولية جرائمه.

[5] كانت نيران تلك الشقوق التي صـنعوا في الأرض مشتعلة تلتهم الضحايا بسرعة.

---

(1) القرطبي ج 19 ص 284.

(**النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ**)

وكم هي فظيعة جــرائم الطغــاة ، وكيف يتوســلون بأبشع الأساليب في سبيل بقائهم عدة أيّام آخر في سـدّة الحكم .. أفلا يستحق مثل هؤلاء نيران جهنم المتّقدة؟

[6] رهيب ومثـير منظر الإنسـان الـبريء الـوادع وهو يحترق بالنار ويجأر للمسـاعدة دون أن يسـتجيب له أحد ، وقد يكون شـيخا كبـيرا أو شـابّا يافعا أو امـرأة ضـعيفة أو حتى طفلة بعمر الورد.

ما أقسى قلوب الطغاة وأتباعهم وهم يتحلّقون حــول النار ينظرون إلى المؤمـنين يلقـون في النـار فيحـترقون! حقّا : إنّ الكفر يمسخ صــاحبه ، والطغيــان يحوّله إلى ما هو أسوء من وحش كاسر.

(**إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ**)

[7] لقد دعــوا الجمــاهير إلى حفلة إعــدام جماعية ، ليشـهدوا عـذاب المؤمـنين ، وليكـون عـذابهم عـبرة لمن بعدهم لكي لا يفكرّ أحد بمخالفة دين السلطان.

(**وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ**)

جريمة بشــــعة تقع في وضع النهــــار وبعمد وقصد وبتحدّي سفيه لملكوت الرب حيث يستشـهد على وقوعها المجــرم النــاس .. لا أظنّ أنّ جريمة تسـتكمل شــروط الاجرام كهذه .. فما ذا ينتظر المجرم غــير القتل وملاحقة اللعنة؟

من هم أصـحاب الأخـدود؟ وفي أيّ بقعة كـانوا؟ قـال مقاتل : إنّ أصحاب الأخـدود ثلاثة : واحد بنجـران ، والآخر بالشام ، والثالث بفارس ، أمّا بالشام

أنطياخوس الرومي ، وأمّا الذي بفارس فبختنصّر ، والـذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس [1].

وحسب هـذا القـول يحتمل أن تكـون جريمة الحـرق بالنار عبر الأخدود شـائعة في الجاهلية في أكـثر من بلد ، وإذا لا يهمنا من كان يفعلها ، إنّما العبرة منها.

وجـــــاء في بعض الأحـــــاديث أن القصة وقعت في الحبشة حيث بعث الله إليهم نبيّا فآمنت به طائفة فأخذوه وإيّاهم وألقوهم في النار .. [2].

إلّا أنّ النصوص استفاضت بقصة طريفة للاعتبار ، ولا يهمّنا ذكر الاختلاف في تفاصيلها :

روى مسلم في الصحيح عن هدية بن خالد عن حمّـاد بن ســلمة عن ثــابت بن عبد الــرحمن بن أبي ليلى عن صـهيب عن رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ قـال : «كــان ملك فيمن كــان قبلكم له ســاحر ، فلمّا مــرض الساحر قـال : إنّي قد حضر أجلي فـادفع إليّ غلاما أعلّمه السحر ، فدفع إليه غلاما وكان يختلف إليه ، وبين السـاحر والملك راهب ، فمرّ الغلام بـالراهب فأعجبه كلامه وأمـره ، فكان يطيل عنده القعود ، فإذا أبطأ عن الساحر ضربه ، وإذا أبطأ عن أهله ضــربوه ، فشــكا ذلك إلى الــراهب ، فقال : يا بني إذا استبطأك الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا اسـتبطأك أهلك فقل : حبســني السـاحر ، فبينما هو ذات يــوم إذا بالنــاس قد غشـيهم دابّة عظيمة ، فقــال : اليــوم أعلم أمر الســاحر أفضل أم أمر الــراهب ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كـان أمر الـراهب أحبّ إليك فاقتل هـذه الدابة ، فـرمى فقلتها ومضى النـاس ، فـأخبر بـذلك الراهب فقال : يا بني إنّك ستبتلى فإذا ابتليت

---

(1) القرطبي ج 19 ص 291.

(2) تفسير الميزان ج 20 ص 256 نقلا عن الإمام علي عليه السلام.

فلا تدل عليّ ، قـال : وجعل يـداوي النـاس فيـبرئ الأكمه والأبــرص ، فبينما هو كــذلك إذ عمي جليس للملك فأتــاه وحمل إليه مــالا كثـيرا ، فقــال : اشــفني ولك ما هاهنا ، فقـال : أنا لا أشـفي أحـدا ولكنّ الله يشـفي ، فـإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، قال : فآمن فدعا الله فشفاه ، فــذهب فجلس إلى الملك فقــال : يا فلان من شــفاك؟ فقال : ربي ، قال : أنا؟ قال : لا ، ربي وربك الله ، قـال : أو إنّ لك ربّا غـيري؟ قـال : نعم. ربي وربك الله ، فأخـذه فلم يزل به حتى دلّه على الغلام ، فبعث إلى الغلام فقـال : لقد بلغ من أمرك أن تشفي الأكمه والأبـرص ، قـال : ما أشفي أحدا ولكنّ الله يشفي ، قال : أوإنّ لك ربّا غـيري؟ قال : نعم. ربي وربك الله ، فأخذه فلم يـزل به حـتى دلّه على الـــراهب ، فوضع المنشـــار عليه فنشر جـــتى وقع شقّتين ، فقال للغلام : إرجع عن دينك فأبى ، فأرسل معه نفرا قـال : اصـعدوا به جبل كـذا وكـذا فـإن رجع عن دينه وإلّا فدهدهوه منه

قال : فعلوا به الجبل فقال : اللهمّ اكفنيهم بما شـئت ، فرجف بهم الجبل فتدهدهوا أجمعـون ، وجـاء إلى الملك فقال : ما صنع أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله ، فأرسل به مرة أخرى قال : انطلقوا به فلجّجوه في البحر ، فإن رجع وإلّا فأغرقوه ، فانطلقوا به في قرقور [1] فلمّا توسّطوا به البحر قــال : اللهم اكفــنيهم بما شــئت ، فانكفــأت بهم السفينة ، وجاء حتى قام بين يـدي الملك فقـال : ما صـنع أصــحابك؟ فقــال : كفــانيهم الله ، ثم قــال : إنّك لست بقـاتلي حـتى تفعل ما آمـرك به اجمع النـاس ثم اصـلبني على جــذع ثم خذ ســهما من كنــانتي ثم ضــعه على كبد القوس ، ثم قل : باسم ربّ الغلام فإنّك ستقتلني ، قال : فجمع الناس وصلبه ثم أخذ سهما من كنانته فوضـعه على كبد القـوس وقـال : باسم ربّ الغلام ورمى فوقع السـهم في صـدغه [2] ومـات ، فقـال النـاس : آمنّا بـربّ الغلام ، فقيل له : أرأيت ما كنت تخـــاف قد نــــزل والله بك من الناس ، فأمر بأخدود فخدّدت على

(1) القرقور ـ بالضم ـ السفينة الطويلة.
(2) الصدغ ـ بضم الصاد ـ ما بين العين والاذن.

أفواه السـكك ثم أضـرمها نـارا فقـال : من رجع عن دينه فــدعوه ، ومن أبى فــاقحموه فيها ، فجعلــوا يقتحمونها ، وجـاءت امـرأت بـابن لها فقـال لها : يا أمة اصـبري فإنّك على الحق» [1].

وروى سعيد بن جبير قال : لمّا انهزم أهل إسـفندهان قال عمر بن الخطـاب : ما هم يهـود ولا نصـارى ، ولا لهم كتاب ، وكانوا مجوسا ، فقال عليّ بن أبي طـالب : «بلى. قد كــان لهم كتــاب رفع ، وذلك أنّ ملكا لهم ســكر فوقع على ابنته ـ أو قال : على أخته ـ فلمّا أفاق قال لها : كيف المخـــرج ممّا وقعت فيـــه؟ قـــالت : تجمع أهل مملكتك وتخــبرهم أنّك تــرى نكــاح البنــات وتــأمرهم أن يحلّــوه ، فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتـابعوه فخـدّ لهم أخـدودا في الأرض وأوقد فيه النيران وعرضـهم عليها فمن أبى قبـول ذلك قذفه في النار ومن أجاب خلّى سبيله» [2].

وروي عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قال : «أرسل علي ــ عليه الســلام ــ إلى أســقف نجــران يســأله عن أصحاب الأخدود فأخبره بشيء ، فقال ــ عليه السـلام ــ : ليس كما ذكرت ولكن سـأخبرك عنهم : إنّ الله بعث رجلا حبشــيّا نبيّا وهم حبشــية ، فكــذّبوه فقــاتلهم أصــحابه ، وأسروه وأسروا أصـحابه ، ثم بنـوا له جسـرا ، ثم ملـؤوه نارا ، ثم جمعوا الناس فقـالوا : من كـان على ديننا وأمرنا فليعتزل ، ومن كان على دين هـؤلاء فلـيرم نفسه بالنـار ، فجعل أصـحابه يتهـافتون في النـار ، فجـاءت امـرأة معها صـبي لها ابن شـهر فلمّا هجمت هـابت ورقّت على ابنها ، فنادى الصبي : لا تهابي وارميني ونفسك في النـار ، فـإنّ هذا والله في الله قليل ، فرمت بنفسها في النار وصبيّها ، وكان ممّن تكلّم في المهد» [3].

وجـاء في حـديث مـأثور عن الإمـام الصـادق ــ عليه السلام ـ قال : «قد كان

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 546.
(2) المصدر / ص 547.
(3) المصدر.

قبلكم قـوم يقتلـون ، ويحرقـون ، وينشـرون بالمناشـير ، وتضـيق عليهم الأرض برحبها ، فما يـردّهم عمّا هم عليه شـيء مما هم فيه من غـير تـرة وتـروا من فعل ذلك بهم ولا أذى ، بل ما نقمـوا منهم إلّا أن يؤمنـوا بالله العزيز الحميد ، فاسـألوا ربكم درجـاتهم واصـبروا على نـوائب دهركم تدركوا سعيهم» [1].

وهكذا يفعل الإيمـان بـالقلب الإنسـاني فيجعله أقـوى من زبر الحديد ، أثبت من الراسـيات ، أسـمى من القمم السـامقة ، أشـدّ صـلابة من كـلّ ما يبتدعه الطغـاة من وسائل الأذى والتعذيب والقتل!!

وقد نتساءل : ما الذي جعل هذا الإنسان الذي لا يكاد يتحمّل أذى بقّة يقتحم النـيران المتقـدة بجسـده النضّ ليحترق أمام أعين النـاقمين والشـامتين ، دون أن يتنـازل عن إيمانه؟

أقول : أولا : إنّ وضوح الرؤية عندهم كان قد بلغ حدّا كانوا يعيشون (ببصائر قلوبهم) الجنة ونعيمها فيتسلون بها عن شـهوات الـدنيا ، ويعيشـون (بتقـوى قلـوبهم) النـار وعذابها فتهون عليهم مصائب الدنيا ومشاكلها.

وإنّنا نقرأ قصة الأم التي تردّدت قليلا باقتحام النار مع رضـيعها فقـال لها ابنها : يا أمّـاه إنّي أرى أمامك نـارا لا تطفأ (يعني نار جهنم) فقذفا جميعا أنفسهما في النار.

ثانيا : عند ما يقرّر الإنسان شيئا يسهل عليه القيام به ، وبالذات حينما يكون الأمر في سبيل الله يهوّنه الـربّ له ، ويثبّت عليه قدمه ، ويرزقه الصـبر على آلامه وتبعاته ، ويقوّى إيمانه ، ويشحذ بصيرته ليرى بها أجـره في الآخـرة .. وهكذا ترى عبـاد الله الصـالحين يقـاومون عـبر التـاريخ مختلف الضغوط ، ويتحمّلون ألوانا من

---

(1) المصدر.

الأذى بقلب راض ونفس مطمئنة ، لعلمهم أنّ سـنن الله واحدة لا تتغير ولا تتبدل ، وأنّ المؤمنين الذين احترقوا في الأخدود هم سواء مع أيّ مؤمن يعتقل اليوم في سجون الطغاة أو يعذّب أو يقتل أو يتحمّل مشاكل الهجرة والجهاد ومصائبهما ، وكما خلّد الله أمجاد أولئك الصّدّيقين فإنّه لا يضيع أجر هؤلاء التابعين لهم ، وكما أنّ الله قتل أصحاب الأخدود ونصر رسالاته فإنّه يهلك الجبّارين اليوم ويستخلفهم بقوم آخرين.

[8] عند هيجان الصراع وثورة الدعاية ضد المؤمنين. لا يعرف الناس ما ذا يفعلون ، وأيّ جريمة يرتكبون ، ولكن عند ما يرجعون إلى أنفسهم بعدئذ ويتساءلون : لما ذا قتلوا المؤمنين ، ولما ذا نقموا منهم ، يعرفون أنّهم كانوا في ضلال بعيد.

(**وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**)

فلا أفسدوا في الأرض ، ولا اعتدوا على أحد ، ولا طالبوا بغير حق ، وإنّما استعادوا حريتهم ، وآمنوا بربهم الله العزيز المنيع الذي لا يقهر والحميد الذي لا يجور ولا يبخل ، ويعطي جزاء العباد ، ويزيدهم من فضله.

[9] وأيّهما الحق التمرد على سلطان السموات والأرض ، والدخول في عبودية بشر لا يملكون دفع الضر عنهم ، أم التحرر من كلّ عبودية وقيد ، والدخول في حصن الملك المقتدر القاهر؟

(**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

وبالرغم من أن الله منح الطغاة فرصة الإختيار ضمن مهلة محدودة إلّا أنّه شاهد على ما يعملون ، ولا يغيب عنه شيء في السموات والأرض.

(**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)

[10] وشهادة الله ليست للتاريخ فقط ، وإنّما للجزاء العـادل ، فإنّه يسـوق الطغـاة إلى جهنم ذات النـار اللّاهبة والعذاب المحرق.

(**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ**)

وهذه حكمة الله في إعطاء الطغاة فرصة الامتحـان ، لأنّهم بعملهم هذا فتنوا المؤمنين واختـبروا إرادتهم ، حـتى ظهر للنـــاس قيمة الإيمـــان ومعنـــاه ، وكيف أنّه فـــوق المادّيــات ، وأنّ دعــوة الرســول وأتباعه ليست من أجل مال أو سـلطان. ثم إنّهم فتنـوا المؤمـنين فخلص إيمـانهم من رواسب الشــرك ، وخلصت نفوســهم من بقايا الجهل والغفلة ، وخلصت صــفوفهم من العناصر الضــعيفة ، كما يخلص الذهب حينما يفتن في النار من كلّ الرواسب.

تلك كـانت حكمة الـرب في إعطـاء الجبّـارين فرصة ارتكاب تلك المجازر البشعة بحقّ الـدعاة إلى اللــه. ولعل بعضـهم عـادوا إلى الله وتـابوا من فعلتهم ، ولـذلك أشـار ربّنا بقوله :

(**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُــوا فَلَهُمْ عَــذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَــذابُ الْحَرِيقِ**)

وفــرق كبــير بين عـــذاب جهنم الأشد الأبقى ، وبين عذاب الأخدود الذي يمرّ كلمح البصر ، ثم ينتهي المعذّبون إلى روح وريحان.

[11] أمّا أولئك المعذّبون فإنّ الجنّات تنتظرهم.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**)

سواء دخلوا التحـدّيات الكبـيرة كأصـحاب الأخـدود أم كـانوا من التـابعين لهم. وأيّ فـوز أعظم لهم من انتهـاء محنتهم وفتنتهم ، وبلوغ كامل أهدافهم وتطلّعاتهم؟!

[12] قسـما بالسـماء ذات الـبروج وبـاليوم الموعـود وبالشـاهد والمشـهود : إنّ أخذ الله شـديد حيث يأخذ الطغاة والظالمين.

(**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**)

قـالوا : إنّ هـذه الجملة جـواب للقسم في فاتحة السـورة. ولعـلّ قوله : «**قُتِـلَ أَصْـحابُ الْأُخْـدُودِ**» أيضا جـواب آخر للقسم ، فيكـون القسم إطـارا لكـلّ الحقـائق التي تذكر في هذه السورة.

ومن هذه الآية يظهر أنّ الله قد أخذ أصحاب الأخـدود أخذا أليما كما أخذ سائر الطغاة.

[13] وكيف لا يكـون شـديدا بطش جبّـار السـموات والأرض الذي يبدئ خلق الإنسان ويعيده بعد الفناء؟!

(**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ**)

[14] وإنّما لا يأخذ أهل الأرض بما كسـبوا عـاجلا ، ويعفو عن كثير من سيئاتهم لأنّه يستر ذنوبهم ويحبّهم.

(**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**)

[15] وودّه للمؤمـنين وغفرانه لـذنوب عبـاده إنّما هو لعزّته وقوّته.

(**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**)

وسـواء قرأنـاه بالضم ليكـون صـفة للـرب أو بالكسر ليكون صفة للعرش فإنّه واحد إذ عرشه هيمنته وسـلطانه ، وهو اسم من أسـمائه الحسـنى ، وصـفة من صـفاته الكريمة.

[16] وكيف لا يكون سلطانا عظيما من يفعل ما يريد دون ممارسة لغوب ولا علاج؟

(**فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ**)

وإرادة الله صـفة قدرته المطلقـة. وهـذه الآية تـدل على أنّه لا شـيء يحـدّ إرادته ، فليست إرادته قديمة كما زعمت فلاسفة اليونان ، وتسربّت تلك الفكرة إلى اليهـود فقـالوا : «**يَـدُ اللـهِ مَغْلُولَـةٌ**»! سـبحان الله كيف يكـون القادر أوّلا عاجزا آخرا؟! وهل يوصف الرب تعـالى بـالأول والآخر فيكون متغيّرا؟!

وانعكاس هذه الصفة علينا ــ نحن البشر ــ ألا يـدعونا اسـتمرار نعم الله وعادته الكريمة علينا إلى الغـرور به ، والتمادي في الذنوب دون خشية عقابه.

[17 ـ 18] فهـؤلاء جنـود إبليس اجتمعـوا ليبطشـوا بالمؤمنين فأين انتهى بهم المقام؟

(**هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ* فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ**)

يسوقهما القرآن سوقا واحدا بالرغم من اختلاف أكثر الظــروف ، ذلك لأنّ ســنة الله واحــدة فيهما كما في غيرهما.

[19] قد يبني البشر بنيانا متكاملا من الكذب ويحشر نفسه فيه ، فـتراه يبحث لإنكـاره لوجـود ربه أو لقدرته أو لسنّته في الجـزاء عن فلسـفة ذات أبعـاد لعلّه يقنع نفسه والآخـرين بها ، ويسـمّيها ــ جـدلا ــ فلسـفة الإلحـاد أو الفلسفة المادية ، وقد

يتجاوز كلّ الحقائق ويسـمّيها زورا بالفلسـفة العلمية ، ثم يجعل أمام كلّ حق باطلا ، ولكلّ صواب بـديلا من الخطأ ، ثم يحكم ــــ في زعمه ــــ نسج هــذه الأباطيل ببعضـــها ويســــمّيها نظرية أو مبـــــدأ ، وإن هي إلّا سلســـــلة من الأكاذيب.

ومثل هذا الإنسان لا يسهل عليه الخـروج من شـرنقة الكذب التي نسجها حول نفسه ، ولـذلك يتحصّـن ضد كـلّ العبر والمواعظ حتى ولو كانت في مستوى عبرة العـذاب الذي استأصل شأفة فرعون وثمود.

(**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ**)

لأنّهم كفــروا بــأعظم وأوضح الحقــائق (بالله العظيم ورســالاته) ودخلــوا في نفق التكــذيب فلم يخرجــوا منه للاعتبـار بمصـير فرعـون الـذي اشـتهرت قصـته بين أهل الكتاب أو بمصير ثمود الذين عرفت العرب أمرهم.

[20] وهل ينفعهم التكـذيب شـيئا؟ هل يمنعهم جـزاء أعمالهم أو يخدع من يجـازيهم فينصـرف عنهم؟ كلّا .. لما ذا؟ لأنّ الإنسان يواجه ربّه والله محيط بهم علما وقدرة.

(**وَاللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ**)

قالوا : وراء الشيء الجهات المحيطة به الخارجة عنه ، فيكـون مفهـوم الآية أنّ الله محيط بكـلّ بعد من أبعـاد حياتهم.

وهذا يتقابل مع كونهم في تكذيب.

[21] ولكن أينتظرون ما يـذكّرهم ويخـرجهم من نفق التكذيب أعظم من هذا الكتاب العظيم؟

(**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ**)

عظيم المستوى ، رفيع المجد ، لا تناله أيدي التحريف ، ولا يبلغ مستواه التافهون الحقراء الذين يعيشون في حضيض الشهوات ، ولا يمس جواهر حقائقه ولآلئ معانيه سوى المطهّرين من دنس الشرك ، ومن رجس العقد النفسية ، ومن ظلام الأفكار الباطلة.

لا بد أن ترتفع إلى قمّة المجد حتى تدرك بعض معاني الكتاب العظيم.

[22] ومن علامات مجده وعظمته أنّه محفوظ في لوح عند الله لا يستطيع أحد المساس به.

(**فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**)

جاء في الدر المنثور عن ابن عباس قال : قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله ــ : «**خلق الله لوحا من درّة بيضاء دفّتاه من زبر جدة خضراء ، كتابه من نور ، يلحظ إليه في كلّ يوم ثلاث مائة وستين لحظة يحيي ويميت ، ويخلق ويرزق ، ويعزّ ويذل ، ويفعل ويشاء**» [1].

وهذا الحديث تفسير قوله سبحانه : «**فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ**». أمّا اللوح المحفوظ المذكور في هذه الآية فلعلّه إشارة إلى الآية الكريمة : «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**» ، حيث أنّ ربنا يحفظ اللوح من أن يرسم فيه غيره.

---

(1) تفسير الميزان.

الفهرست

سورة المزمل
فضل السورة..5
الاطار العام..6
قم الليل الا قليلا..................................12
سورة المدثر
فضل السورة..51
الاطار العام..52
ولربك فاصبر.......................................59
كل نفس بما كسبت رهينة.........................98
سورة القيامة
فضل السورة..125
الاطار العام..126
بل الانسان على نفسه بصيرة....................134
سورة الانسان
فضل السورة..163
الاطار العام..164
انما نطعمكم لوجه الله............................170
سورة المرسلات
فضل السورة..201
الاطار العام..202
ويل يومئذ للمكذبين...............................210

سورة النبا

فضل السورة...243
الاطار العام...244
ان يوم الفصل كان ميقاتا..........................249
ن جهنم كانت مرصادا............................264

سورة النازعات

فضل السورة...279
الاطار العام...280
قلوب يومئذ واجفة................................286
نما انت منذر من يخشاها.........................298

سورة عبس

فضل السورة...311
الاطار العام...312
عبس وتولى ان جاءه الاعمى....................316
قتل الانسان ما اكفره.............................327

سورة التكوير

فضل السورة...343
الاطار العام...344
ان هو الا ذكر للعالمين...........................349

سورة الانفطار

فضل السورة...377
الاطار العام...378
يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم.............381

سورة المطففين

فضل السورة..399
الاطار العام...400
ويل للمطففين......................................402
هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون...................420

سورة الانشقاق

فضل السورة..435
الاطار العام...436
انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه..................441

سورة البروج

فضل السورة..461
الاطار العام...462
قتل اصحاب الاخدود..............................468